دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

العدد الثاني عشر - السنة السادسة
جمادى الاولى ١٤٠٨هـ - يناير ١٩٨٨م
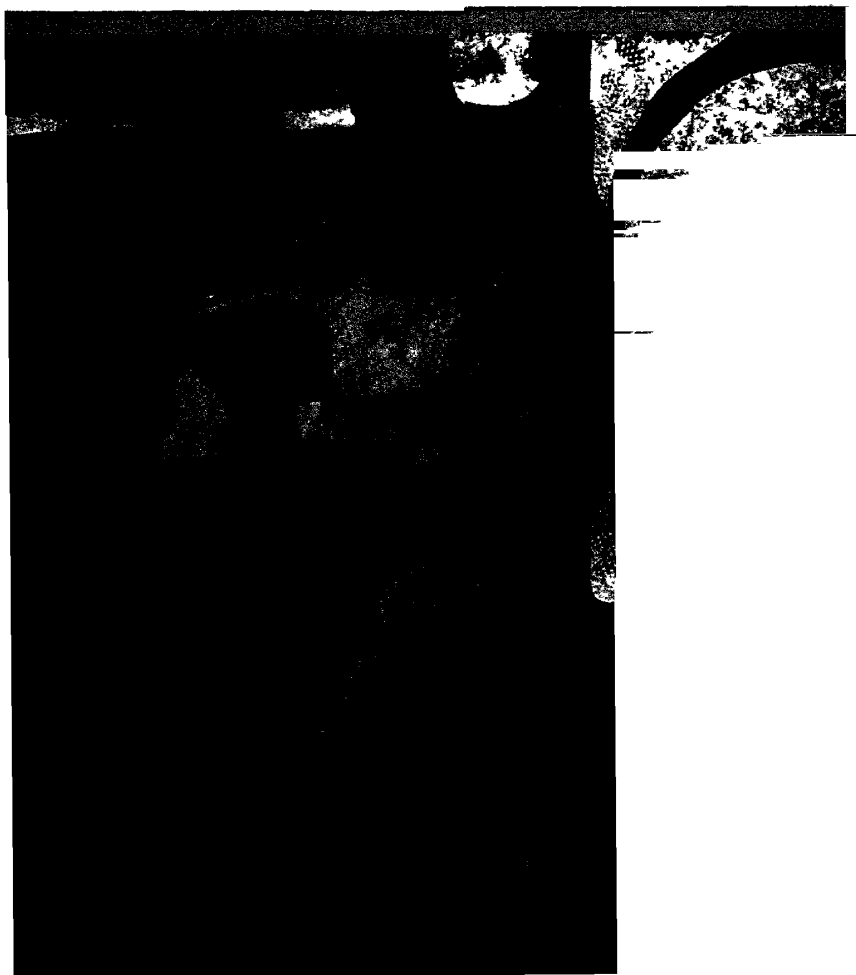
# الوثيقة

دورية نصف سنوية
تصدر عن
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

رئيس التحرير
الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

العدد الثاني عشر - السنة السادسة
جمادى الاولى ١٤٠٨هـ - يناير ١٩٨٨م

# لجنة المجلة

الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

الشيخ خالد بن محمّد آل خليفة

الشيخ عيسى بن محمّد آل خليفة

الدكتور علي أبا حسين

الإشراف الصّحفيّ

**السيد أحمد حجازي**

العنوان: مركز الوثائق التاريخية ص. ب ٥٨٨

تليفون: ٦٦٤٨٥٤

جميع المكاتبات ترسل باسم رئيس التحرير

## صورة الغلاف :

**بانوراما شعبية**
**للفنان احمد العريفي**

# الفهرس

الموضوع — صفحة

## القسم الانجليزى



جميع الابحاث المنشورة في هدا العدد تمثل وجهة نظر كاتبها

(الوثيقة)

# كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

المؤرخ محكمة وهم يطلقون عليه أحيانا محكمة التاريخ فهو القاصي وهو ممتل الاتهام وهو ممتل الدفاع وهو كاتب الجلسة ايضا من دلك تتضح اهمية الحيدة التى يجب ان يتصف بها المؤرخ، ليس فقط لان الحيدة هى أساس العدالة وانما كذلك لان المؤرخ الذي ينصب من نفسه اليوم محكمة يصدر فيها الحكم على الآخرين سوف يكون هو نفسه موضوع قضية لمحكمة اخرى بعد سنين تناقش ما كتب، وتحلل ما سجل. وتصدر حكمها له او عليه، وتصفه بالحيدة والعدالة او تدمغه بالميل هنا أو هناك

من هنا وجب أن يكون القلم في يد المؤرخ ميزانا للعدل لا سيفا للبطش. فكما يزن المؤرخ السابقين، سوف يزنه اللاحقون، وبقدر ما يعدل مع من سبق سوف يعدل معه من سوف ياتى، فالزمن يسير والاجيال تتتابع جيلا بعد جيل وكتاب التاريخ سجل مفتوح لا يغلق ابدا

واذا كانت هده هي المحاظير والمحاذير التى تحوط عمل اى مؤرخ فان ابسط اصول الحيدة ان ينقل المؤرخ نفسه بعيدا عن تاثيرات العصر الذي يعيش فيه ليضعها تحت كل تاثيرات العصر الذي يكتب عنه وان يتخلص من اي فكرة مسبقة والا كانت النتيجة حكما ظالما على الشخص او الحدث الذي يكتب عنه وقد يتحول البطل بذلك على يديه الى خائن، كما قد يتحول النصر الى هزيمة ان اى شخص او اى حدث هو عنصر متحرك وسط عناصر متحركة، ذلك ان الحركة هي ناموس الكون واذا كانت هذه هي قاعدة كونية، فان الشخص او الحدث ـ اى شخص واى حدث ـ يواجه في كل لحظة بمتغيرات قد تترك آثارها على

مواقعه او تصرفاته او قراراته من هنا ايضا يجب ان يدرك المؤرخ ان التاريخ لا يعرف او يجب الا يعرف المواقف الحادة فالتاريخ شيء والمبادىء شيء اخر المبادىء شيء يتعلق بعلم الاخلاق اما التاريخ فهو سياسة والسياسة لا تعرف الابيض والاسود فقط وانما هي تكييف للموقف حسب الظروف المحيطة او الظروف المستجدة

والحكم على الرجل يجب الا يقوم على موقف واحد وانما يجب ان يستقرىء المؤرخ جميع المواقف وان يحللها على ضوء الظروف للخروج بالاتجاه العام او بالاستراتيجية التى تشكل الهدف الرئيسي لهذا الرجل او المسئول

والمؤرخ يجب ان يكون هادئا ذلك ان الغضب موقف واذا اتخذ المؤرخ موقفا فقد الحيدة ومثل الغضب كما قلنا من قبل واخطر منه المواقف المسبقة ذلك ان المؤرخ الذي يكون فكرة سابقة عن حدث ما او عن شخصية ما ثم يبدأ بعد ذلك في تناول هذه الشخصية او الحدث بالدراسة يكون قد اصدر حكمه قبل نظر القضية ويحكم بذلك ليس على الشخصية موضوع التاريخ فقط انما على نفسه ايضا، اذ سرعان ما تصحح الاجيال المتتابعة الميزان، وتضع كلا في مكانه الصحيح فما اكثر كتب التاريخ التى تمتلىء بها المكتبات ولكن لا احد يفكر ان يفتحها او يستعين بها ذلك ان سمعتها معروفة لدى كل مهتم واصحابها مجرّحون لدى كل دارس وما اعظمها تلك الكتب التى حرص اصحابها على توفير كل عناصر الحيدة، فبقيت على الدهر مراجع تضيف الى اصحابها فخرا بعد فخر ويجعلها الباحثون والدارسون عمدة مراجعهم ومصادرهم

ومادام المؤرخ مضطرا للرجوع الى كتابات من سبقوه فعليه الا يعتمد اعتمادا تاما على احكامهم وعليه أولا ان يبحث عن المعلومة المجردة ثم يؤجل الاعتماد على الحكم حتى يكوّن بنفسه الفكرة الكاملة ويضع هو ملامح الحكم السليم ويجب عليه حتى قبل ان يلجأ الى الكتاب، أن يعرف شيئا عن الكاتب، وليس مهما أن يحفل المؤلف الجديد او البحث الجديد بعشرات المصادر والمراجع فالكم ليس مهما وانما المهم هو الكيف والاعتماد على عدد من المراجع الموثقة ولو كان قليلا.

افضل الف مرة من حشد عشرات المراجع المليئة بالثغرات او المراجع سيئة السمعة

ان القدم وحده لا يكفي مبررا لصدق ما يقال، فبعض الدارسين يتناولون الكتب القديمة بهيبة، معتقدين ان المرجع مادام قديما قد اصفرت أوراقه وتآكلت صفحاته فلابد ان يكون صادقا او اكثر صدقا وهذه مقولة مغلوطة فرغم الجهد العظيم الذي بذله السابقون في مختلف المجالات ورغم ما اضافوه الى التراث الانساني من عطاء لا ينكره احد الا اننا يجب الا نغفل تطور الزمن وما جاء به من ادوات حديثة وسعة افق وتجمع للافكار والخبرات والمعلومات وتوافرها بصورة لم تكن متاحة في الايام الخوالي مما يجعل نظرة الباحث اليوم اكثر بعدا واكثر عمقا، ويوفر له من أدوات البحث ما لم يتوافر لأحد من السابقين

هذه كلها ملامح درب يجب ان تكون امام الباحثين في التاريخ عامة وتاريخ الخليج خاصة كان لابد من الاشارة اليها ونحن نرى اتجاها مباركا من عدد كبير من الباحثين في خوض هذا المجال مجال الكتابة التاريخية

# حركة الكشوف

**عند دراسة العوامل التي أدت الى حركة (الكشوف) الجغرافية البرتغالية، نقف على عاملين رئيسين يمكن اعتبارهما أساسا للحركة وهما:**

## أولا: العامل الاقتصادي:

يعد هذا العامل من أهم العوامل التي اوجت للبرتغاليين بدل الجهود المتواصلة والمغامرات المكثفة من أجل الوصول الى الشرق، حيث كانت لديهم رغبة شديدة في الاستئثار بالتجارة الشرقية، التي أصبحت موردا كبيرا تنعم به البلاد الاسلامية والمدن الايطالية، بينما تصلهم السلع بأسعار مرتفعة لأنها تمر في احتكارات عدة ترفع من أسعارها وتجعلها تشح في بعض الأحيان في الأسواق الاوروبية [1] ومن أجل ذلك سعت البرتغال جاهدة للوصول الى طريق بحرى يربط بين أوربا والهند وغيرها من الأقاليم الشرقية للاستعاضة به عن مسالك التجارة القديمة التي تمر من أسيا وشرقي امريقيا الى أوروبا[2]

ومن خلال ذلك سعى البرتغاليون وأعوانهم الصليبيون الى تحقيق هدفين مهمين

أولهما التخلص من احتكار المصريين والبنادقة للتجارة الشرقية والقضاء على الدعامة الأساسية التي يستند عليها اقتصاد مصر وأقطار الخليج وغيرها من الأقطار الاسلامية والبندقية وتحقيق الوصول الى طريق جديد لا يمر في البلاد الاسلامية يحصلون من خلاله على المنتجات الشرقية بأقل الأثمان والهدف الثاني هو تعريض الاقتصاد في البلاد الاسلامية لحالة من الانهيار والتدهور، وفعلا نجح البرتغاليون في تنفيذ مخططهم العدواني بعد

بقلم: بشير احمود كاظم

معرفتهم لطريق راس الرجاء الصالح واصبحوا يحتكرون تجارة الشرق على اختلاف انواعها كالتوابل والجوز والعطور والعقاقير الطبية والأقمشة الحريرية، بعد أن وصلوا الى مراكز صنعها واخذوا ينقلونها الى عاصمتهم لشبونة. ثم يقوم التجار الاوربيون بتوزيعها الى اسواق اوربا التي تحتاجها ومن اجل ذلك عملوا على تقوية مراكزهم التجارية في المحيط الهندي ومنعوا سفن المسلمين من مزاولة نشاطها التجاري فيه، وقد كشفوا من خلال مواقفهم هذه اغراضهم الاقتصادية اللاانسانية من خلال اعمالهم العدوانية ضد أهالي المناطق التي وصلوا اليها وعمليات النهب والسلب التي كان التجار المسلمون يتعرضون لها على ايديهم [٣] وقد عبر البرتغالي (عمانويل الأول ١٤٩٥ ـ ١٥٢١م) الذي قامت في عهده أول حملة بحرية الى الشرق ـ في خطبته ـ عن اغراض الحملة وذلك عند سفرها حيث قال «ان الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق»[٤]

## ثانيا: العامل الديني:

يعد العامل الديني من العوامل التي تشكل أثرا فعالا في حركة الكشوفات البرتغالية حيث أن القضاء على الوجود الاسلامي في الشرق والمحيط الهندي كان غاية يطمح البرتغاليون الى تحقيقها وتباركها بابوية روما [٥] ويرجع هذا العداء الى تاريخ الصراع بين المسيحيين والمسلمين في شبه جزيرة (أيبريا) في العصور الوسطى

كانت الأهداف البرتغالية الانتقامية التعصبية موجهة نحو المسلمين حيث كان البرتغاليون يسعون للوصول الى مملكة القديس يوحنا[٦] حاكم الحبشة المسيحي، الذي كان له شخصية اسطورية وتناقلتها الشعوب المسيحية في اوربا في ذلك الوقت ومن ثم يعقدون معه تحالفا للالتفاف حول البلاد الاسلامية وكانوا يظنون انهم اذا أبحروا جنوبا بمحاذاة ساحل المغرب فانهم سوف يصلون الى نهر السنغال الذي يتصل بنهر النيل، حيث يتمكنون بعدها من الوصول بمراكبهم هذه الى المملكة الحبشية التي توفر لهم تحقيق هدفهم في الأطباق على المسلمين من الشرق [٧]

وكانت المساعي البرتغالية تحظى بتأييد وتشجيع من البابا في روما الذي كان يصف المسلمين بمرض الطاعون حيث جاءذلك في المرسوم الذي بعث به عام ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م الى الأمير هنري الملاح والذي قال فيه «ان سرورنا لعظيم ان نعلم أن ولدنا العزيز، هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه، الملك جان (Jan) بوصفه جنديا قديرا من جنود المسيح ليقضي

على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة »(٨)

وتأكيدا للروح الصليبية لرحلات البرتغاليين الجغرافية فقد أمر البابا بأن ترسم صورة الصليب على أشرعة السفن وعلى ملابس البحارة والمشتركين في هذه الرحلات كما كان يعلق في مقدمة السفينة علم رسم عليه صليب ضخم (٩)

وكان رفع الشعار الديني واستعمال القوة الضاربة ضد التجار المسلمين هو الذي دفع بعض الكتاب والمؤرخين العرب الى وصف الرحلات البرتغالية في الشرق بأنها حروب صليبية جديدة وانها رد فعل لوصول المسلمين الى شبه جزيرة ايبريا وللحروب الصليبية في العصور الوسطى، وليس كما قالت بعض المراجع الاوربية بأن حركة البرتغاليين هذه الحركة علمية بحتة ذات مضامين انسانية( ١٠)

وزيادة على هذين العاملين المذكورين اعلاه، فان هناك عاملا آخر يأتي بعدهما من حيث الأهمية وهو الهدف السياسي الذي يتضمن رغبة البرتغال بتأسيس امبراطورية توسعية في افريقيا وآسيا وكان هذا الهدف واضحا من خلال مساعي البرتغال الحربية في احتلال المراكز المهمة في اعقاب وصولهم الى الهند، وانشاء منصب نائب الملك فيها عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م حيث كان هذا بداية لاقامة حكومة برتغالية في الشرق، لاسيما وان هذا الطموح صار يراود حكومة البرتغال لزيادة دائرة نفوذها التجاري الاستعماري

## التقدم البرتغالي نحو الشرق:

في بداية القرن الخامس عشر الميلادي كانت المعلومات عن وسط آسيا وشرقها مجهولة أو غامضة بالنسبة الى الاوروبيين، ومنذ ذلك الوقت أجهد الاوربيون أنفسهم في سبيل الوصول الى المنطقة المذكورة، وكان الأمير هنري الملاح(١١) (١٣٩٤م - ١٤٦٠م) أول من شجع على القيام بالأعمال الجغرافية والرحلات، حيث أرسل في سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م بعوثه الى سواحل افريقيه الغربية حيث اهتدى من خلالها الى بلاد (غانه) وانتزع تجارتها من أيدي العرب

وقد استفاد البرتغاليون في رحلاتهم الجغرافية من خبرة الجنويين الذين كان لهم السبق في الطواف حول ساحل افريقيه منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي حيث كان هدفهم من ذلك يتجلى بالانفراد بتجارة الشرق ومنافسة البندقية التي استأثرت بتجارة البحر المتوسط ومصر والشرق الادنى بسبب علاقاتها الوثيقة مع حكومة المماليك، وعندما واصل الجنويون جهودهم فانهم وصلوا الى بعض أجزاء الساحل الغربي لأفريقيه في مواجهة جزر

كاري[١٢] وبعد ذلك تولت البرتغال اكمال الجهود الاستكشافية مستعينة بالعلوم والمعارف العربية كالمرشدات الملاحية والخرائط البحرية والبوصلة والاصطرلاب التي ورثوها بعد استيلائهم على مدينة (سبته) سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م[١٣]. فضلا عن كتابات الجغرافيين العرب مثل الادريسي وابن بطوطة، وغيرهما التي تتضمن وصف المدن والبحار الشرقية ويذكر بعض المؤرخين ان أول رواد المحيط الاطلسي العربيين كانوا من الجنويين وان اول من حاول الوصول الى الهند بالدوران حول افريقيه العربية من الاوروبيين هو من مدينة جنوه، كما ان الاسطول البرتغالي الذي اكتشف امريكا أثناء محاولته الوصول الى الهند بالابحار غربا من السواحل الاوربية العربية هو من الجنويين[١٤]

اما الدكتور أنور عبدالعليم فقد اشار الى ان العرب استطاعوا معرفة السواحل الافريقية الجنوبية والوصول الى الهند قبل أن يبدأ هنري جهوده الكشفية بزمن طويل، وأوضح بأن وثيقة عربية لجغرافي عربي من غرناطة هو ابن سعيد (ت ١٥٠٠م) الذي الف كتابا بعنوان «جغرافية الأقاليم السبعة» ورد فيه ان ملاحا عربيا يدعى ابن فاطمة، دار حول افريقيه من الغرب الى الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر[١٥]

وقد اعتمدت البرتغال في محاولاتها للوصول الى الشرق على الجواسيس في الحصول على المعلومات الكافية عن وسط آسيا وشرقها واستخدموا في ذلك العمل البحارة، واليهود الذين يتكلمون اللغة العربية حيث ارسلتهم البرتغال الى الاقطار الشرقية لجمع المعلومات عن موانئها وحركة التجارة فيها والطرق البحرية في بحارها وامكانية الوصول اليها بطريق مباشر للوصول الى مملكة القديس يوحنا، في شرق افريقيه ومعرفة ما اذا كانت بلاده تتصل بالبحر وأين تقع مواطن الفلفل والقرفة وغيرهما من التوابل والبهارات التي يؤتى بها الى مدينة البندقية من بلاد العرب وتبعا لذلك فقد طور البرتغاليون من صناعتهم للسفن الحربية والأسلحة البارودية[١٦]، وتبنوا مهمة ارسال الجواسيس الى الشرق نيابة عن الاوروبيين حيث ارسلت البرتغال سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م الجاسوسين (الفونسودي بيفا Alfonsodepava) و(بيدرو كوفلهام Pedrode Govilham) وقد أبحر هذان الجاسوسان من البرتغال بعد ان تزودا بالمعلومات والخرائط المتوفرة لدى الملك البرتغالي لتسهيل مهمتهما، ووصلا الى رودس ثم الى الاسكندرية فالقاهرة، وتوجها بعدها الى عدن وفي طريقهما حصلا على معلومات عن تجارة قاليقوط ثم ابحرا الى سواكن فعدن حيث افترقا، فذهب كوفلهام الى الهند وبافيا الى الحبشة.[١٧] وخلال

رحلاتهما الجاسوسية هذه ارسلا تقاريرهما الى ملك البرتغال التي تتضمن معلومات كافية عن تجارة الهند والمسالك البحرية والخرائط والمعلومات التجارية عن الرياح الموسمية (١٨)

واصل الملك البرتغالي (يوحنا الثاني) العمل الجغرافي والمغامرات الاستكشافية التي بدأها هنري الملاح من قبله لغرض الوصول الى الهند، ففي نهاية شهر اب ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م ارسل بعثته برئاسة الملاح البرتغالي الشهير (بارتولوميو دياز Bartholomeo Diat) لمواصلة الابحار في اتجاه الجنوب والدوران حول افريقيه لتحقيق أهدافهم التي سبق ذكرها وقد نجح هذا الملاح في التوغل بحذاء الساحل الافريقي رغم الصعوبات التي تعرضت لها بعثته ووصل بعدها الى منطقة تسمى خليج الجوا (Algoa)(١٩) في جو عاصف حيث سماها برأس الزوابع (رأس العواصف) ويذكر انه وصل الى أقصى جنوب القارة دون أن يعرف ذلك ثم استمر بالدوران حول رأس العواصف الذي سماه الملك البرتغالي فيما بعد (برأس الرجاء الصالح) لأنه بعث الأمل في نفوس البرتغاليين من أجل الوصول الى الهند، ولكن بعثة دياز عادت في عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م الى لشبونه بسبب تمرد البحارة وعصيانهم وسوء الأحوال الجوية وشدة الرياح والعواصف التي أرغمتهم على العودة بنفس الطريق الذي جاءوا منه (٢٠)

أعدت البرتغال حملة أخرى بقيادة فاسكودا جاما (Vasco da Gama) الذي أبحر في عام ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م بثلاث سفن في رحلة استطلاعية متجها الى الساحل الغربي لافريقيا لمواصلة ما عرفه (بارتو لوميو ديار)(٢١)، استطاع خلالها داجاما الوصول الى جزيرة القديس جورج القريبة من مورمبيق في الأول من آذار عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م(٢٢)، ثم وصل بعد ذلك الى موزمبيق، وكانت خطة داجاما في اول الأمر استخدام سياسة ودية مع سكان المناطق التي يمر بها، وعقد صداقات مؤقتة مع شيوخ العرب شرقي افريقيا، حتى اذا تمت أقدامه في المنطقة نفذ خطته الصليبية مع العلم ان حكومة البرتغال كانت قد اصدرت تعليمات الى الملاحين في حملاتهم الأولى الى الهند، أوصتهم فيها بحسن المعاملة مع سكان المناطق التي يصلون اليها وعدم استخدام العنف والقسوة واخفاء أسلحتهم تحت طيات - الملابس وعدم التظاهر بها وذلك لكسب مودة الاهالي وصداقتهم الى ان يثبتوا أقدامهم في المنطقة ثم ينفذوا خطتهم الصليبية المقصودة (٢٣)

وقد أكد (سونيا هاو) تلك السياسة وذكر بأن داجاما اتبع الاسلوب

السياسي المرن مع حاكم (قاليقوط) الذي باعه أنواعا رديئة من التوابل وبأسعار عالية لكي يظهر للسكان أن معاملة البرتغاليين حسنة واسلوبهم مرضي مع التجار [٢٤].

واستقبل داجاما في أول الأمر استقبالا وديا حتى ان أمير موزمبيق استضافه ورد اليه الضيافة بأن زاره في سفينته، ولكن سرعان ما تغيرت نظرة العرب اليه عندما اكتشفوا غاياته وعرفوا بأنه برتغالي صليبي

وعندما شعر داجاما بتغير الموقف أسرع الى مراكبه هاربا نحو الشمال، الا أن الأخبار كانت قد سبقته الى (كلوه) و(ممباسا)حيث لقي فيهما جفاء أيضا، الا أن (مالندي) رحبت به بسبب الحلاف الذي كان قائما بينها وبين ممباسا[٢٥]

وقد أعتبر بعض الكتاب والمؤرخين ان نهاية القرن الخامس عشر الميلادي هي نهاية للعصور الوسطى وفاتحة للعصر الحديث، حيث استطاع البرتغاليون في ختامه الدوران حول افريقيه عن طريق رأس الرجاء الصالح والوصول الى مصدر التوابل، لذلك كانت السفن البرتغالية أول سفن أوربية دخلت الى الهند، وان أغلب الكتابات التي تناولت الاستكشافات الجغرافية أكدت ان وصول الاسطول البرتغالي الى الهند، كان بمساعدة الملاح العربي أحمد بن ماجد، الا أن هذه الآراء، حتى التي أوردها المعاصرون ماتزال تثير التساؤل عن الدوافع التي دعت ابن ماجد الى القيام بارشاد البرتغاليين في الوصول الى الهند

ولذلك يمكن للباحث أن يعد تاريخ وصول البرتغاليين الى رأس الرجاء الصالح ومن ثم دخولهم المياه الهندية، نهاية للعصور الوسطى وفاتحة للعصر الحديث

وأول من أشار الى اسم الملاح الذي أرشد فاسكودي جاما بالوصول الى الهند هو المؤرخ العربي الشهير قطب الدين النهر والي في البرق اليماني حيث قال «وقع في أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر، دخول الفرتغال (البرتغال) اللعين من طائفة الفرنج الملاعين الى ديار الهند وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر، ويلجون في بحر الظلمات، ويمرون بموضع قريب من جبال القمر. ويصلون الى المشرق، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق، أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج، لا تستقر به سفائنهم ولا ينجو منهم أحد، واستمروا على ذلك مدة، وهم يهلكون في ذلك المكان، ولا يخلص من طائفتهم أحد الى بحر الهند، الى أن خلص منهم غراب الى الهند فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج - وكان يقال لـه ملندي -

وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره وقال لهم، لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند»[٢٦].

وكان النهروالي المؤرخ العربي الوحيد الذي ذكر اسم ابن ماجد دليلاً للبرتغاليين في توجيههم نحو الهند، ورغم كون النهروالي من مؤرخي القرن السادس عشر الميلادي، الا أن هناك شكا كبيرا فيما أورده عن رواية الخمر والسكر وقد تكون مدسوسة على ابن ماجد الذي اتصف بتدينه ومتانة خلقه وعفته[٢٧] ويذكر عن المسلمين في ذلك الوقت انهم لا يقبلون دعوة مسيحي لا يعرفون طعامه وشرابه[٢٨]، وفسر بعض المؤرخين والكتاب اتصال ابن ماجد بفاسكودا جاما في ميناء مالندي بتفسيرات عدة نذكر منها ما يأتي

١) يرى هؤلاء ان هذا الاتصال كان تلبية لدعوة دي جاما الذي اتبع سياسة توطيد الصداقات مع أهالي الموانيء التي يصل اليها حيث يقيم دعوة لحكام تلك الموانيء ويدعو معهم ملاحي السفن الراسية فيها [٢٩]، وهذه سياسة سار عليها البرتغاليون في تلك الفترة من أجل ادخال الطمأنينة في نفوس أهالي المناطق التي يصلون اليها واكسابهم ثقتهم وضمان عدم التعرض لمقاومتهم لتسهيل مهمتهم

٢) والرأي الثاني الذي يرى زيارة ابن ماجد لاسطول فاسكودي جاما كان مجاملة من ابن ماجد لصديقه ملك مالندي الذي رحب بالبرتغاليين خوفا أو ضعفا[٣٠] أو انه (حاكم مالندي) كان يريد توطيد علاقاته مع البرتغاليين بهدف مساعدته ضد حاكم ممباسا [٣١] حيث كان بينهما عداء سابق، ولهذا طلب ملك مالندي من دي جاما المرور بمالندي عند عودته من رحلة الهند ليبعث معه وفدا رسميا الى ملك البرتغال للتحالف معه[٣٢]، ومن أجل ذلك كان على ابن ماجد أن يجامل ملك مالندي ويستجيب له في الاتصال بالقائد البرتغالي دي جاما بعد أن طلب من ملك مالندي مرشدا يرافقه في طريقه الى الهند[٣٣]

٣) والتفسير الثالث مفاده ان مقابلة ابن ماجد كانت استجابة لرجاء ملك مالندي له بعد أن تطور الوقف في العلاقات بين ملك مالندي وبين دي جاما، حيث ان هذا الأخير طلب من ملك مالندي أن يزوده ببحار عارف بمسالك المحيط الهندي ويرشده الى الطريق الى الهند، الا أن ملك مالندي أهمل طلب دي جاما ولم يكترث به فتوترت العلاقات بينهما وعندما زار أحد خواص ملك مالندي الاسطول البرتغالي احتفظ دي جاما به رهينة عنده الى أن يلبي ملك مالندي طلبه، لذلك بادر الملك الى ارسال أحمد بن ماجد واعتذر عن تقصيره ثم عادت العلاقات الى سابق عهدها.[٣٤]

٤) وهناك تفسير آخر لدى بعض المؤرخين الاوربيين وبالأخص المستشرق الفرنسي فران (Ferrand) يعلل فيه زيارة ابن ماجد للاسطول البرتغالي ومقابلة دي جاما واعطائه معلومات عن الطريق للوصول الى الهند، بأن ذلك كان لقاء مكافأة مجزية وتعويض كبير من المال حصل عليه ابن ماجد عوضا عن الخدمات التي قدمها لهم [٣٥] واعتمد المستشرق الفرنسي فران فيما ذهب اليه حول تسمية الشخص الذي قاد اسطول دي جاما من مالندي الى موطن التوابل في كاليقوط على النص السابق الذي اورده، النهروالي [٣٦]

وكتب عن ابن ماجد بشيء من التفصيل أشهر مؤرخي البرتغال من رجال القرن السادس عشر الميلادي وهو جوا دي بروس الذي كان مصاحبا لفاسكودي جاما في رحلته حيث قال عندما كان فاسكودي جاما في (مالندي) جاء بعض التجار الوثنيين من (كنهايت) الواقعة بكجرات (الذين كانوا موجودين في ميناء مالندي في تلك الفترة) لزيارته على ظهر السفينة وكان معهم مسلم عربي يدعى (معلم كاناكا) [٣٧] وكان ذلك لقنا هنديا لاسد البحر ابن ماجد المعلم ورضى هذا الشخص بأن يصحبنا نظرا لتلك المتعة التي أحس بها في صحبته رفاقنا وبغية رضاء الملك المالندي الذي كان يبحث عن دليل سفينة للبرتغاليين يدلهم على طريق الهند ـ فلما جرى الحديث بينه وبين فاسكودي جاما، أعجب بمعلوماته واطلعه على مصور لجميع شواطىء الهند كما يعرفها المسلمون مع خطوط الطول والعرض » [٣٨] -

وأكدت المصادر التركية ان الملاح العربي أحمد بن ماجد الذى كان يسمى (معلما بحريا) هو الذي صاحب الاسطول البرتغالي الى الهند، عندما كان موجودا آنذاك في ميناء مالندي [٣٩]

وينفي بعض المؤرخين العرب قيام أحمد بن ماجد الملاح العربي المشهور بمساعدة البرتغاليين الصليبيين في وصولهم الى الهند [٤٠]

وعلى اية حال فان قيام ابن ماجد بمساعدة البرتغاليين في الوصوال الى الهند ربما كان بسبب عدم معرفة الملاح العربي لنيات البرتغاليين الحقيقية في القضاء على تجارة الشرق

(١) عبدالحميد البطريق «التاريخ الاوربي الحديث» (دار النهضة العربية بيروت - ١٩٧٧)ص ٤١

(٢) W.H Morelan: OP, Cit, P.3.

(٣) السيد مصطفى سالم «الفتح العثماني الأول لليمن» (القاهرة - ١٩٦٩) ص ٤٦

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٧

(٥) البطريق المصدر السابق، ص ٤٧

(٦) ان المقصود بمملكة القديس يوحنا هو مملكة الحبشة التي كان الاوروبيون يتسامعون عنها ويتناقلون اخبار قوة حاكمها ويسعون لمحالفتها لعلهم يتخذونها قاعدة في قلب افريقيا (المصدر نفسه، ص ٤٦)

(٧) سالم المصدر السابق، ص ٤٦

(٨) عبدالعزيز الشناوي «المراحل الاولى للوجود البرتغالي» لجنة تدوين تاريخ قطر، حـ ٢، المصدر السابق، ص ٦١٨

(٩) حسن صبحي «التاريخ الاوربي» حـ ١ «الاسكندرية - ١٩٧٥) ص ٦٨

(١٠) الشناوي المصدر السابق ص ٦١٥

(١١) هنري الملاح هو الابن الثالث لملك البرتغال «يوحنا الاول» وكان هنري شديد التعصب للمسيحية، فاهتم منذ صباه بالدراسات الجغرافية والفلكية حيث كان يجمع الخرائط الجغرافية ويدرسها دراسة دقيقة، ويدرس الاجرام السماوية وحركة الرياح، وكانت روحه الصليبية مسيطرة عليه وتقوده للمغامرة التي قام بها لنشر المسيحية في افريقيه (البطريق - المصدر السابق - ص ٤٨)

(١٢) حسن أحمد محمود «التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب» مجلة المؤرخ العربي، بغداد العدد/ ١٢، السنة ١٩٨٠، ص ٢١٨

(١٣) محمود المصدر السابق، ص ٢١٨

(١٤) علي التاجر «الربان أحمد بن ماجد» مجلة العرب، (القاهرة - ١٩٨٢) السنة الثالثة ص ٢٨٨

(١٥) عبدالعليم «ابن ماجد الملاح» سلسلة اعلام العرب، العدد ٦٣ لسنة ١٩٦٧، ص ٧٥
(١٦) حسن صالح شهاب «فن الملاحة عند العرب» دار العودة، (بيروت - ١٩٨٢) ص ٤٦
(١٧) Serjeant, R.B. The portuguese off the south Arobian Coast, (Oxford University press 1963) P.40.
(١٨) محمود الغول «الصراع بين العرب والبرتغال في شرق افريقيا» مجلة العربي، العدد ٤٤ السنة ١٦٢ ص ١٠٠
(١٩) البطريق المصدر السابق، ص ٦١٥
(٢٠) صبحي المصدر السابق، جـ ١ ، ص ٧٠
(٢١) شهاب «فن الملاحة عند العرب» ص ٤٦
(٢٢) عبد ربه المصدر السابق ص ٢٠٦
(٢٣) سونيا هاو «في طلب التوابل» ترجمة محمد عزيز رفعت، (القاهرة - ١٩٥٧) ص ١٠٢ - ١٠٣
(٢٤) المصدر نفسه والصفحة
(٢٥) الغول، المصدر السابق، ص ١٠٠
(٢٦) قطب الدين النهروالي « البرق اليماني في الفتح العثماني» أشرف على طبعة احمد الجاسر ط (القاهرة - ١٩٦٧)، ص ١٨ - ١٩
(٢٧) احمد ابن ماجد «ثلاث ازهار في معرفة البحار» تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، ترجمة محمد منير مرسي (القاهرة - ١٩٦٩) ص ١٨ - ٥٢، كذلك انور عبدالعليم «ابن ماجد الملاح» ص ٥٢
(٢٨) محمد ياسين الحموى «الملاح العربي ابن ماجد» ص ١١.
(٢٩) سونياهاو «في طلب التوابل» ص ١٩٣ - ١٩٤
(٣٠) المصدر نفسه ص ١٦٩
(٣١) الغول المصدر السابق، ص ٢٠٣
(٣٢) سونيا هاو المصدر السابق، ص ٢٠٣
(٣٣) وذكر سونيا هاو بان العلاقات كانت قد توطدت بين القائد البرتغالي وملك مالندي وتبادلا الهدايا فيما بينهما وكان من بين الهدايا التي أعدها ملك مالندي كتلة من العنبر الند، طولها أكثر من متر وعرضها كعرض خاصرة الرجل كما ان دي جاما قدم له عشرة صناديق تحتوي على الهدايا التي كان قد اعدها قبيل رحلة الطواف حول طريق رأس الرجاء الصالح
(٣٤) عبدالعليم «ابن ماجد الملاح»، ص ٥٢
(٣٥) الحموي «الملاح العربي احمد ابن ماجد» ص ١٢

(٣٦) نفس المصدر والصفحة
(٣٧) انها صيغة مستعارة من (كاناكان) اي رياضي، فلكي، كاتب، والمعلم كاناكا تعني معلم الملاحة الفلكية، وان بعض تجار مالابار في الهند كانوا يسترشدون برايه في أسفارهم فكناكا اسم مهنه، ولقب هندي لأسد البحر أحمد بن ماجد (هذا التوضيح للمستشرق الفرنسي فيران، منقول من كتاب الحموي «الملاح العربي أحمد ابن ماجد» ص ١٢
(٣٨) الحموي المصدر السابق، ص ٩.
(٣٩) محمد صفوت بك «وثائق عثمانية عن الشرق» مجلة المجمع العلمي العثماني استنبول السنة الرابعة ص ١٥٢١.
(٤٠) أنور عبدالعليم «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣، ١٩٦٩، ص ١٣٢

# ابن م
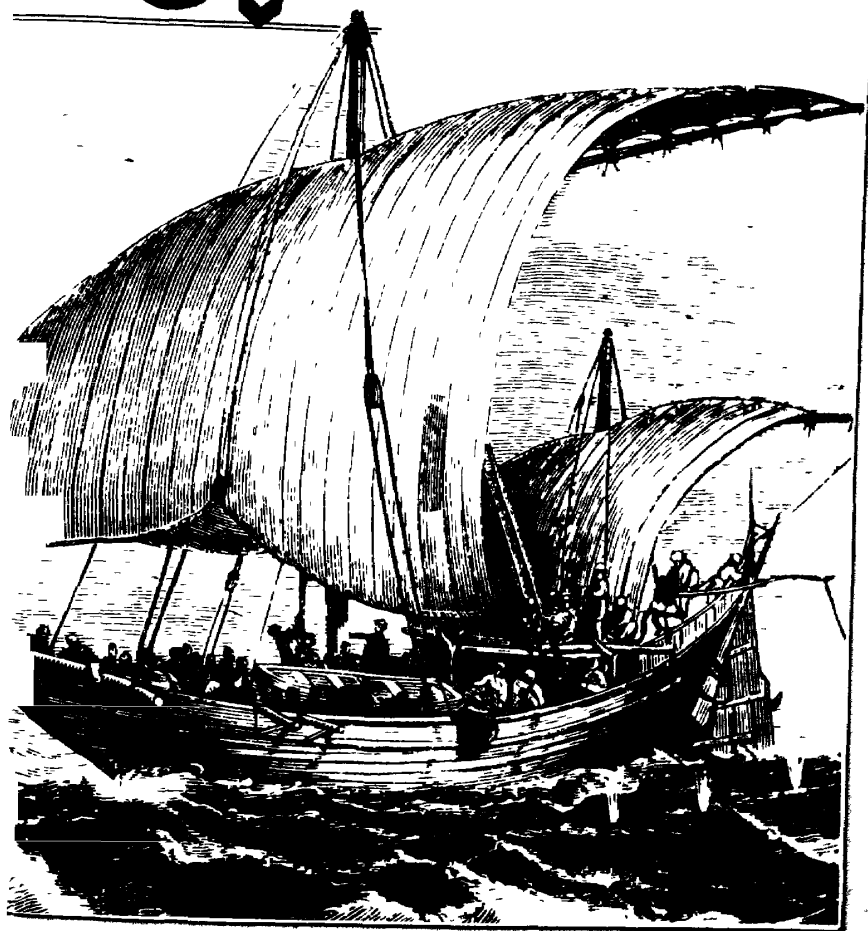
# دوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته


دكتور: حسام الخادم

بالمركز القومى لتاريخ العلوم

بجامعة بروكسل ـ بلجيكا


ان دور رجل البحار والفلكي شهاب الدين أحمد بن ماجد (ولد بجلفار ـ رأس الخيمة حوالي ٨٣٩هـ سنة ١٤٣٥م ـ وتوفى بعد ٩٠٦هـ/١٥٠١م/ في اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند البحري، والنتائج السياسية والاقتصادية التى اعقبت ذلك الاكتشاف مازال حتى الان يثير اهتمام ومناقشة الباحثين والمؤرخين

وفي نفس الوقت نظرا لاهمية اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند وما تبع ذلك من تغيير اقتصادي ودبلوماسي وعسكري فان الدراسات التى خصصت لابن ماجد غالبا ما تركزت حول حقيقة علاقته بالبرتغاليين وارشاده لفاسكو دي جاما ١٤٦٠م ـ ١٥٢٤م/الى طريق الهند البحري، واغفلت الاهمية العلمية لكتاباته خصوصا في مجالي علم الملاحة وعلم الفلك ومكانته في تاريخ العلوم عند العرب

**لذلك سيتناول هذا البحث نقطتين**

**الاولى علاقة ابن ماجد باكتشاف البرتغاليين للطريق البحري للهند وذلك تمهيدا لمناقشة دراسة جديدة عنه ظهرت في البرتغال سنة ١٩٨٣**

**الثانية بيان بعض مظاهر التفكير العلمي في كتابات ابن ماجد في علم الملاحة وعلم الفلك.**

في السابع من شهر مايو (أيار) سنة ١٤٨٧ ترك بيرو داكو فيلاوو وامنسو دي بايفا ميناء سانتا ريم بعد ان كانا قد كلفا من قبل حان الثاني (١٤٥٥م - ١٤٩٥م) ملك البرتغال بالقيام ببعثة بحرية لمحاولة اكتشاف طريق التوابل وزيارة بلاد الحبشة وكان بيرو داكوفيلاوو ملما باللغة العربية التي يرجح انه كان قد تعلمها اثناء اقامته في شمال افريقيا وبالتحديد في تلمسان وفاس حيث كان يقوم هناك بدور الممثل الرسمي لملك البرتغال

كان هذان المبعوثان يستعملان اثناء هذه الرحلة خريطة للعالم من رسم فرا مورو الراهب من مدينة البندقية وكانت الخريطة تحمل تاريخ سنة ١٤٦٠م وكانت تتميز بدقة معلوماتها فيما يتعلق ببلاد الحبشة وشرق افريقيا عموما وسبب ذلك هو ان المبشرين والرحالة خلال القرن الخامس عشر كانوا قد جمعوا قدرا لا بأس به من المعلومات على جانب كبير من الدقة فيما يختص بهذه المنطقة، بجانب ذلك كانت الخريطة تضم الكثير من المعلومات الجغرافية التي لم تكن معروفة سابقا عن هذا الجزء من افريقيا

أما بخصوص شبه جزيرة العرب فكانت متميزة عما سبقها من خرائط بعدة نقاط منها الشكل العام لشبه الجزيرة اذ كان صحيحا تقريبا برغم ان التفاصيل الداخلية قد بقيت - كما هو الحال في الخرائط السابقة - بصورة تكاد تكون غير معروفة فقط مكة والمدينة المنورة وجدتا في موقعيهما الصحيحين أما فيما يتعلق بالخليج العربي فالخريطة كانت اقل دقة بكثير فشرق الخليج مثلا كان نسخة من خريطة بطلميوس (١٠٠م - ١٧٠م)

أبحر بيرو دا كوفيلاوو وافنسو دا بايفا على ظهر سفينة برتغالية الى مصر وبعد وصولهما الى الاسكندرية اتجها الى القاهرة بصحبة مجموعة من المغاربة من فاس وتلمسان كانوا في طريقهم الى عدن، ومن القلزم (السويس) ابحر البرتغاليان مع من صحبهما من هؤلاء المغاربة الى عدن وفي عدن افترق الرحالان داكو

فيلاوو، ودا بايفا دا بايفا رحل وحده قاصدا الحبشة ولكنه مات في الطريق، بينما داكو فيلاوو ذهب من عدن الى الهند على ظهر سفينة عربية حتى وصل الى كانانور بعد رحلة دامت شهرا كاملا هذه السفينة كانت عائدة الى الهند بعد ان كانت قد حملت حجاجا مسلمين من الهند الى مكة واثناء رحلته البحرية هذه كان بيرو دا كوفيلاوو قد تعلم من البحارة العرب على ظهر السفينة مبادىء الابحار في المحيط الهندي بالاعتماد على مواسم الرياح وبعد وصوله الى الهند قام داكو فيلاوو بزيارة المدن الاتية كانانور وكاليكوت وجوا وذلك كان قبل عشر سنوات من زيارة فاسكو دي جاما بالاضافة الى ذلك رجع داكو فيلاوو من الهند مباشرة الى ساحل افريقيا الشرقي، وبالتحديد سفالة، ثم من سفالة على ظهر سفينة عربية ايضا طوال ساحل افريقيا حتى السويس ومنها الى القاهرة

وفي القاهرة كان في انتظاره خطاب من الملك جان الثاني يأمره فيه بالتوجه الى الحبشة، ولكن قبل مغادرته القاهرة في طريقه الى الحبشة ارسل داكو فيلاوو تقريرا للملك عن رحلته الى الهند حسب شهادة فرانسسكو الفاريس وقد اعطى داكو فيلاوو للملك في هذا التقرير وصفا تفصيليا للساحل الشرقي لافريقيا ذكر فيه المدن التى يمكن منها عبور المحيط بسهولة الى كاليكوت وعلى اغلب الاحتمالات فان هذا التقرير قد وصل فعلا للملك حيث اتخذ بعد ذلك اساسا لخط السير الذي التزمه فاسكو دي جاما في رحلته وبعد وصول داكو فيلاوو الى الحبشة بفترة قصيرة حدد ملك الحبشة اقامته هناك ولم يسمح له بالرجوع مرة اخرى الى البرتغال وهكذا قضى بقية حياته في الحبشة الى ان مات هناك واثناء اقامته في الحبشة كان قد التقى بفرانسيسكو الفاريس الذي كان يشغل من سنة ١٥٢٠م الى سنة ١٥٢٧م وظيفة القس الرسمي لسفارة البرتغال في الحبشة، وهو نفس الشخص الذي نقل الى البرتغال تفاصيل رحلة داكو فيلاوو، كما سمعها منه حيث أكد ان داكو فيلاوو كان قد زار جميع مراكز نشاط البرتغال في المحيط وهي

أولا الموانىء العربية على طول الساحل الشرقي لافريقيا كسفالة وموزامبيق وكلوة وممباسة وملندي وغيرها

ثانيا عدن

ثالثا هرموز

رابعا كاليكوت وكانانور وجوا، وبالاضافة الى ذلك فان فرانسسكو الفاريس حمل الى الملك جان الثاني بلشبونه التقرير الذي كان قد كتبه داكو فيلاوو

كانت رحلة فاسكو دي جاما هي اول عمل هام في فترة حكم الملك

مانويل (عمانويل) (١٤٩٥م - ١٥٢١م) الذي خلف حان الثاني على عرش البرتغال وكان فاسكو دي حاما قد اختير قائدا لهذه الرحلة ومسئولا عنها

اولا لان البرتغاليين كانوا يعلمون مقدما انه سيصل من الساحل الشرقي لافريقيا الى الهند، حيث كان مقررا ان يتبع حط سير رحلة داكو فيلاوو التى كان قد قام بها منذ عشر سنوات

ثانيا كان البرتغاليون في حاجة الى دبلوماسي ماهر ورحل مفاوضات قبل احتياجهم الى بحرى مدرب وذلك لمفاوضة الراموريم في كاليكوت

وفي الثامن من يوليو (تموز) سنة ١٤٩٧م ابحر الاسطول البرتغالي من لشبونة بقيادة فاسكو دي جاما، وفي الثاني من مارس (آذار) سنة ١٤٩٨م وصل الى مورامبيق ، وفي الخامس عشر من ابريل (نيسان) وصل الى ماليندي وفي ماليندي قام فاسكو دي جاما بتعيين المرشد البحري الذي قاده الى كاليكوت مرة واحدة ومعلوماتنا عن هذه الفترة مستمدة من مصدرين اساسيين

الأول سجل رحلة فاسكو دي جاما، والفقرة الخاصة بهذا الجزء من الرحلة مختصرة جدا ولا تعطى تفصيلات فيما يتعلق بهوية هذا المرشد البحرى ونص هذه الفقرة هو الاتى

«لقد تركنا ماليندى في الثلاثاء، الرابع والعشرين من الشهر (ابريل نيسان) قاصدين مدينة اسمها قاليكت (كاليكوت) مع المرشد الذي قد اعطاه الملك لنا» (ص ٤٦)

الثاني كتابات المؤرخين البرتغاليين في القرن السادس عشر مثل

أ - خواو دي باروس

ب - فرناو لويس دي كستانيدا.

ح - دمياؤو دي جوييس

هؤلاء المؤرخون البرتغاليون الثلاثة يعطون جميعا اسم المرشد البحري الذي قاد فاسكو دي جاما من ماليندى الى كاليكوت عند دي باروس اسم هذا المرشد هو «ماليمو كانا بينما عند كل من دي كستانيدا ودي جوييس الاسم هو كنكا»

هذا الجزء من رحلة دي جاما مذكور ايضا في مصدر عربي هو كتاب «البرق اليماني في الفتح العثماني» لقطب الدين النهراوالي (٩١٧هـ/١٥١١م - ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) وهذا هو النص كما نشره جبريل فراند

«واستمروا على ذلك وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم احد الى بحر الهند الى ان خلص منهم غراب الى الهند فلازالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى ان دلهم شخص ماهر من اهل البحر يقال له احمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج، وكان يقال له الاملندي، وعاشره في السكر فعلمه الطريق في

حال سكره، وقال لهم لا تقربوا الساحل من دلك المكان وتوغلوا في البحر تم عودوا فلا تنالكم الامواج فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كتير من مراكبهم فكتروا في بحر الهند»

أهمية هدا المصدر هى انه يعطى لاول مرة في نص، سواء عربيا او اوربيا، اسم المرشد البحري لفاسكو دي حاما، عير ان قطب الدين النهر والى في رايى قد غالط في حقيقة ما حدث للاسباب الاتية

أولا قصة دعوة فاسكو دي جاما لابن ماجد للشراب هي قصة متأخرة لم يذكرها اي مؤرخ عربي او اوربي قبل النهراوالي، اي انها ترجع على ارجح الاحتمالات الى حوالى خمسين عاما بعد وفاة ابن ماجد.

تانيا من الصعب تصديق ان فاسكو دي جاما يعرض نجاح بعتته البحرية بوضع قيادتها في يد مرشد لا يسيطر على جميع قواه العقلية بسبب حالة السكر التى هو فيها وهذا السبب يبدو لنا منطقيا عندما نعلم اجماع المؤرخين المعاصرين على خطورة الملاحة في هذه المنطقة من شاطىء افريقيا الشرقي. والنهراوالي نفسه يؤكد تلك الحقيقة في النص الذي ذكرناه عند وصفه لهذا الشاطىء وفشل محاولات البرتغاليين المتعددة في تخطيه

قال النهراوالي انه «مكان كثير الامواج لا تستقر به سفاينهم وتنكسر ولا ينجو منهم احد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في دلك المكان ولا يحلص من طايفتهم احد الى بحر الهند ص ١٨٥»

واعتقد انا نستطيع ان نرفض هذه الرواية المتواترة عن سكر ابن ماجد مع فاسكو دي جاما

تالتا كان البرتغاليون يبحتون عن طريق الهند البحري، وبعد محاولات عديدة فاشلة للاقلاع من الشاطىء الشرقي لافريقيا كان واضحا انه يجب الاستعانة بمرشد بحرى على درجة كبيرة من الكفاءة لاخراج الاسطول البرتغالي من الشاطىء الافريقي اولا تم قيادته الى الهند تانيا.

وأحمد بن ماجد كان بشهادة معاصريه اكفأ بحرى ارتاد هده المنطقة من المحيط وكان من الطبيعي ادن ان يلجأ اليه البرتغاليون للاستفادة من كفاءته خصوصا بعد ان كان فاسكو دي حاما قد شاهد بنفسه مدى سعة علمه بعلم الفلك وآلات الرصد والخرائط

وادا كان ابن ماحد قد قبل ارشاد البرتغاليين الى طريق الهند فهذا امر كان متوقعا خصوصا وان الكتير من السفن البرتغالية في القرن السادس عشر كان يقودها قباطنة عرب يضاف الى ذلك انه ما كان لابن ماجد ولا لاى من معاصريه ان يتنبأ بالعواقب الاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية التى ستنشأ من ارشاد

# كانت قيادة السفن البرتغالية

# في أيدي القباطنة العرب

# وابن ماجد كان أكفأ ملاح في عصره

البرتغاليين الى الطريق البحري للهند فاس ماجد كان معينا من قبل البرتغاليين لاداء عمل معين وقد أدى هذا العمل على اكمل وجه وبكل امانة ودقة. وبعد وفاة اس ماجد بخمسين عاما ظهرت عواقب ارشاد البرتغاليين الى الطريق البحري للهند، مما جعل قطب الدين النهراوالي يأخذ على نفسه مهمة بيان عدم مسئولية ابن ماجد وذلك باختراع قصة السكر

ونعود الان الى المصادر البرتغالية التي ذكرناها لتحليل الاراء التي تحتويها حسب راى دي كستانيدا فقد وصل فاسكو دي جاما الى مالندى في الخامس عشر من ابريل (نيسان) سنة ١٤٩٨م وفي الثاني والعشرين من ابريل وضع ملك مالندي تحت تصرفه مرشدا بحريا من جودجيرات اسمه كنكا

أما دي باروس فيعطينا رواية مختلفة قليلا وان كانت اكثر تنميقا فحسب روايته انه اثناء اقامة فاسكو دي جاما في مالندي زار سفينته، وهي السفينة الرئيسية من الاسطول بعض الاهالي ومن بينهم مسلم من جودجيرات اسمه ماليمو كانا هذا الشخص هو نفسه المرشد البحري الذي اختاره فاسكو دي جاما بعد ذلك ليقوم مع البرتغاليين بالرحلة الى الهند هذا المرشد اطلع دي جاما على خريطة لكل الشاطىء الهندي مذكور عليها خطوط الطول وخطوط العرض واظهر فاسكو دي جاما بدوره للمرشد اسطرلابا كبيرا من الخشب، وآخر من المعدن، ولكن المرشد لم يبد اي دهشة كانت لرؤيتهما وقد كتب دي باروس في هذا الخصوص يقول: ان المرشدين البحريين في البحر

الاحمر استخدموا آلات من النحاس لها شكل مثلث وارباع لاخذ ارتفاع الشمس وخصوصا النجم (في الغالب الجاه) الذي يستعينون به كثيرا في الملاحة، واضاف والبحارون بالهند جميعها يبحرون بالاستعانة ببعض النجوم المعينة سواء في النصف الشمالي او النصف الجنوبي من الكرة الارضية، ونجوم اخرى معروفة توجد عادة في وسط السماء من جهة الشرق الى جهة الغرب وهم لا يأخذون الارتفاع بآلات شبيهة بتلك ولكن بآلات اخرى. وعندئذ يجلب المرشد مباشرة آلة ليريها له. انها مكونة من ثلاثة الواح من الخشب ربما كانت نوعا من البلستي

وقد رأى فاسكو دي جاما في هذا المرشد حسب تعبيره انه «كنز عظيم»

وقد تمت الرحلة من مالندي الى كاليكوت بدون اي عقبة او صعوبة وفي عشرين يوما

ان المقارنة بين المصادر التاريخية العربية والبرتغالية تظهر لنا بوضوح المشكلة الاتية كيف يمكن ان يكون كنكا، او ماليمو كنكا، هو نفسه احمد بن ماجد ؟؟

وللتوفيق بين هذه المصادر برغم اختلافها الظاهر نقول:

كنكا - كلمة من اصل تامول، وتعني عالم بالرياضيات او فلكي او كاتب، أما ماليمو - فهي تحريف «معلم» التي تعني في مصطلحات الملاحة العربية عالم بالملاحة «ماليمو كنكا» اذن ليس اسما وانما لقب والمصادر العربية دون الاوربية تمدنا باسم هذا «المعلم كنكا» فهو شهاب الدين احمد بن ماجد الذي وصفه فاسكو دي جاما بانه «كنز عظيم»

وكما ذكرت في مطلع هذا البحث انه في سنة ١٩٨٣ ظهرت ضمن مطبوعات مركز دراسات الخرائط القديمة بكويمبرا بالبرتغال ترجمة انجليزية مع تعليق للقصيدة السفالية لابن ماجد، القصيدة من ترجمة وتعليق ابراهيم خوري وهذه حسب علمي ربما تكون احدث دراسة ظهرت عن ابن ماجد

والقضية الاساسية التي يعرضها ويدافع عنها ابراهيم خوري هي ان القصيدة السفالية تعرضت للتزوير والاضافة وذلك لان فيها حسب رأيه مائة وستة ابيات منتحلة لم تكن اصلا في القصيدة ويدعم ابراهيم خوري قضيته بالحجج الاتية

**أولا تاريخ تأليف القصيدة —**

يرى ابراهيم خوري ان ابن ماجد كان قد اشار الى «القصيدة السفالية» في القصيدة الذهبية التي ألفها سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م اي قبل اثنين وعشرين عاما من رحلة فاسكو دي جاما الى امريقيا

**ثانيا شيخوخة وموت ابن ماجد**

يذكر ابن ماجد في مؤلفاته عموما الكثير من التواريخ وآخر تاريخين كان قد ذكرهما هما سنة

٩٠٠هـ/١٤٩٥م وذلك في كتاب «تقسيم منطقة الماء»

وسنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م في الارجوزة المخمسة. ولكن ابن ماجد يذكر في سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م انه قد شاخ الى درجة انه ينتظر الموت ويستنتج ابراهيم خوري من ذلك انه اذا كان ابن ماجد قد تقدم في السن لهذه الدرجة فانه قطعا لم يكن على اتصال بالبرتغاليين ولم يعلم شيئا عن رحلتهم الى افريقيا وذلك لان اول رحلة لفاسكو دي جاما استغرقت من سنة ١٤٩٧م الى سنة ١٤٩٩م ويرى ابراهيم خوري ان جميع الابيات في القصيدة السفالية التي تذكر البرتغاليين هي ابيات منتحلة

**ثالثا/ عدد ابيات القصيدة السفالية**

ذكر ابن ماجد في القصيدة السفالية انها مكونة من سبعمائة وبيت واحد، ولكن المخطوط الوحيد لهذه القصيدة (مخطوط لسحراد) يحتوى على ثمانمائة وسبعة ابيات اذا هناك مائة وستة ابيات منحولة وذلك في رأى ابراهيم خوري

**رابعا/ عدم وحدة القصيدة السفالية**

يرى ابراهيم خوري ان عدم وحدة هذه القصيدة مرجعه ان بعض الابيات مجموعة معا مما أدى الى تفكك هذه الوحدة، وفي رأيه ان هذه الابيات منحولة كذلك

هذا ملخص لوجهة النظر التي يعرضها ابراهيم خوري في تعليقه على ترجمته الانجليزية «للقصيدة السفالية» أما الجزء الذى يتعلق بموضوع بحثنا هنا فهو العلاقة بين ابن ماجد والبرتغاليين والنتيجة التي وصل اليها ابراهيم خوري هي ان «ابن ماجد كان مسنا جدا، وانه قد انسحب داخل بلاد العرب عندما اقلع (البرتغاليون) الى المحيط الهندى ص٢٥

«ومن رأيى ان الدليل الذى يقدمه ابراهيم خوري على نفى أى علاقة بين ابن ماجد والبرتغاليين أى بين ابن ماجد وفاسكو دي جاما هو دليل ضعيف ويمكن رفضه للاسباب التالية

اولا/ لو فرضنا ان ابن ماجد في سنة ٩٠٠ هـ/١٤٩٥م ذكر تقدمه في السن او حتى لو كان قد ظن دنو أجله، كما جاء في كتابه «تقسيم منطقة الماء» فانه كان مع ذلك ما يزال حيا في سنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م، حيث قال في

القصيدة الخمسية

وبظمي لهدي الاستوايات فاعلم

على عام تسعمائة وستة مقدم

تعد من الهجرات للمتقدم

بأول النيروز وشهر محرم

والعبارة التي يذكر فيها ابن ماجد تقدمه في السن لا تبرر اطلاقا الوصول الى النتيجة التي وصل اليها ابراهيم خوري عندما كتب عن ابن ماجد - «ان احترافه للملاحة قد انتهى في

٩٠٠ هـ، ومن ذلك الوقت فصاعدا كان غير قادر او غير راغب في ممارسة أي عمل بحرى» (ص١٩)

ثانيا/ في سنة ٩٠٦ هـ/١٥٠١م لم يكن ابن ماجد حيا فقط بل وكان بالتأكيد مالكا لجميع قواه وملكاته العقلية، وكان ما يزال يحترف مهنة الملاحة ومشغولا بها على عكس ما يريدنا ابراهيم خورى أن نعتقد عند قوله ان ابن ماجد «كان غير قادر او غير راغب في ممارسة أى عمل بحري» والدليل على ذلك هو موضوع القصيدة نفسه وهو علم الفلك وتطبيقه في مجال الملاحة

ان مقارنة هذه القصيدة بكتابات ابن ماجد السابقة عليها لتدل على ان ابن ماجد ظل متمتعا بنفس الروح العلمية والنشاط العقلي، وبنفس سعة الاطلاع والخبرة بعلم الفلك والملاحة التي تميز كتاباته السابقة وليس هناك أى دليل على تدهور عقلي او حتى فتور نفسي تجاه مهنة الملاحة او علم الفلك

هكذا وصل ابن ماجد مع فاسكو دى جاما الى كاليكوت في أقل من أربعة اسابيع ودون أى عقبة واضطر فاسكو دى جاما بمجرد وصوله الى الهند ان يواجه مشكلات لم تكن في حسابه من قبل كان محتاجا في حلها لكل قدرته كدبلوماسى فقد اضطر مثلا الى بيع حمولة سفنه بخسارة. كذلك وجد صعوبة كبيرة في شراء شحنة من التوابل وذلك لمعارضة التجار المسلمين والعرب له هناك.

وأدرك فاسكو دى جاما سريعا ان الحل الوحيد لفرض سلطة البرتغال في المحيط الهندى هو تحطيم منافسة التجار المسلمين والعرب وذلك بالحصول على شروط مناسبة واكثر ملاءمة للتجارة في جميع مراكز استقرار ونشاط البرتغاليين وركز فاسكو دى جاما كل نشاطه لتحقيق هذه السياسة بل لقد نصح الملك مانويل بتبنيها ومطالبة رجال البحر البرتغاليين باستمرار تنفيذها بعد ذلك

هكذا احتكر البرتغاليون تجارة التوابل عشرين عاما فقط بعد رحلة فاسكو دى جاما الى الهند ومن الواضح اليوم ان اهمية فاسكو دى جاما في التاريخ الدبلوماسي والاقتصادي اكبر بكثير من اهميته في مجال الكشوف الجغرافية.

***

في هذا الجزء الثاني من البحث سنحاول ان نرى المعالم الرئيسية للتفكير العلمي في كتابات احمد بن ماجد وخصوصا مفهومه للمنهج العلمي وتطبيقه له وكمثال واضح على الروح العلمية عند ابن ماجد موقفه النقدى واستقلاله الفكرى امام كتابات السابقين له من الفلكيين والملاحين ولو كانوا ذوى شهرة كبيرة. وينقد ابن ماجد آراء محمد بن شدهان وسهيل بن أبان وليث بن كحلان الذين يؤكدون جميعا ان قيمة الترفا (قياس درجة الميل نحو الشمال

والجنوب اثناء الملاحة» للتريا والجوزاء هى ثلاثين زاما (وحدة لقياس الوقت اثناء الملاحة) وابن ماجد يرفض هذا الراى مؤكدا ان رايه هو مبنى على التجربة الشخصية وفى ذلك يقول ابن ماجد فى كتاب الفوائد -

«فأما الاولين فقد اخطأوا فى تصنيف الترفا خطأ عظيما باهرا اذ قالوا انها لثلاثين راما ولنا في ذلك دليل كثير يقبلها الخاص والعام عقليات وتجريبيات، وقد شرحنا بعض منها في شرح الذهبية، ونشرح ما يليق بهدا المكان

الاول ان المركب اذا جرى فى الحمارين وجرى مركب غيره في العقرب وقطعوا كل واحد منهم ترفا فيكون قطع المركبين ثلاثين زاما وبينهما زامين ومركبين وغيرهما جرى احدهما في القطب والاخر في السلبار فجميعهم جروا ثمانية وعشر راما فيكون بينهما زامين وهذه الازوام بالسوية فهذا هو الغلط.

والدليل الثاني على غلطتهم ان مركب بينه وبين آزاديو احد وعشرين زاما فيكون اقرب عنه من مليار فى مطلع السماك لانها دائرة سهيل والنعش يحكم على جري البر وتوسطه مطلع الرامح فاذا جرى في المطلع الاصلى يأخذ البر على احد وعشرين زاما، واذا جرى فى السماك وقصد القرب لم يأخذ دنداباش (الاختلاف في ارتفاع النجم القطبي) الا اذا رق عليها بأحد وعشرين وقطع على صدره ترفا بخمسة وعشرين زاما فكيف يكون البر القريب عنك خمس وعشرين راما والبر البعيد الذى هو بعيد عنك باحد وعشرين زاما (ورقة ٣٩ وجه ظهر)

مثال آخر على روح ابن ماجد العلمية هو استمرار اعادته النظر فيما كان قد كتبه سالفا وذلك لتنقيحه وتصحيحه. ويقرر ابن ماجد بالفعل في «كتاب الفوائد كيف انه اعاد تناول ما كان قد كتبه سابقا لتصحيحه من الناحية العلمية فهو قد الف كتاب «حاوية الاختصار في اصول علم البحار» فى صدر شبابه ثم بعد مضى فترة من الزمن صحح ما جاء فيه في الارجوزة السبعية التي قام بتصحيحها هي نفسها بعد ذلك في «كتاب الفوائد» فيقول ابن ماجد في كتاب الفوائد -

«وكنا اول العمر نحسب كحساب الجهلاء، فبعد كثير التجارب رجعنا لصحة العمر ودققناه وحققناه، فما للجهل عندنا مدخل وكنا قد ذكرنا اول الشباب في الحاوية، فلما تحققنا شخصيا في الحاوية والسبعية ابيات لنستدرك بها ابطالهم وقلة صحتهم، وذكرنا الناسخ والمنسوخ [.......] فقد بان لنا خلله عند المشيب (ورقة رقم ٣٦ وجه وظهر).

هذه الروح النقدية عند ابن ماجد تجد تعبيرا في مواضع متعددة من كتاباته، ففي كل من القصيدة الذهبية وكتاب الفوائد يشير ابن ماجد الى

خطأ الكثيرين من الملاحين في تحديد خطوط الطول والعرض ويبين اسباب هذا الخطأ وكيفية تجنبه حتى يكون الملاح على يقين من موقع سفينته في عرض البحر

وموضوع آخر من نفس الكتاب ينتقد ابن ماجد معرفة الملاحين عموما بفلك ومطلع النجوم فعند سؤالك وقولك [لهؤلاء الملاحين] متى يطلع سهيل فيقولون لك في أي بلد وليس هذا بجواب المراد [ ] بل قل لهم متى يطلع سهيل سواء كنت فى سيلان او في جيلان المراد بطلوعه من القطب فانه يطلع مع طلوع التير ويستقيم على القطب في مستقبل التير، والتير يطالع الهنعة ويغيب في خط الاستواء في اربعين النيروز، ومن لم يطلع في تصنيفي هذا لم يهتدي ابدا لهذه النكتة (ورقة ٣١ ظهر)

كانت دراية ابن ماجد بعلم الفلك مزدوجة نظرية وعملية في كتاب المنافع نجده يلوم على بعض الفلكيين اقتصار معرفتهم على الجانب النظرى دون مزاولة الرصد والقياس مزاولة فعلية.

حقيقة ان بعض الفلكيين نشر خلال القرون الوسطى الاسلامية جداول للنجوم ولكن دون القيام الفعلي بقياس احداثياتها الفلكية من طول وعرض بانفسهم، بل اكتفوا باضافة بعض الدرجات او الدقائق للاحداثيات التي نشرها بطلميوس في «الماجسطي» كذلك نهج نفس المنهج بعض صانعي الكرات النجومية حتى ان عبدالرحمن الصوفي (٣٩١هـ/٩٠٣م - ٣٧٦هـ/٩٨٦م) أشار الى ذلك في كتابه «صور الكواكب التابتة»

وعند ابن ماجد كملاح «فإن الجانب العملي لعلم الفلك اهم وانفع من الجانب النظرى البحت لذلك كان الملاحون في الكتير من الحالات اكثر الماما بعلم الفلك من الفلكيين النظريين. ويشير ابن ماجد الى ذلك في كتاب الفوائد بقوله

«فهذه السبعة السيارة بما يتعلق بعلم البحر واما الثوابت التي هي للهداية والدلالة فمعالمة البحر أخبر من جميع الناس ولو عرفوا اهل الفلك الطول والعرض والدرج والممر ما عرفوا الشخوص مثل المعالمة [ .] مكثير من النجوم صحت عندنا في الهداية والدلالة ولم ارى في زماننا من يعرفهن من اهل الفلك، فسميتهن وعملت عليهن ولو حضرني خمسون كتابا في علمهن » (ورقة ٤٦ وجه)

من الناحية الاخرى تشكل التجربة اساسا من اهم اسس المنهج العلمي وتكرار التجربة عددا كافيا من المرات شرط اساسى لضمان سلامة نتيجتها من اجل ان تلقى درجة عالية من القبول. وكتابات ابن ماجد تظهر بوضوح مدى وعيه ليس فقط باهمية التجربة بل ايضا بضرورة تكرارها قبل استنباط النتيجة هذه القاعدة الاساسية للمنهج العلمي واضحة في

«كتاب المنافع» حيث يقول

«وجئنا هنا بامثال من القياسات الجيدات فلو قاس هذه الانجم المجهولات احد منكم لا يتكلم بها الا بعد تجربة مكررة، وثم مكررة صافية من العلل فربما جرب احدكم قياس وفيه علة وما اطلع عليها ماذا رآه تكرر ينبغى ان ينطبق به فو الله ما صنفت هذه القياسات المنتخبات شيئا فيه من التفاوت ربعا وثمنا في الترفين والثلاث الا وقد حذرتكم منه وقلت في مصنفاتي انه ضيق او نفيس او اعادة او محتكم وقد قدمت هذه القيود في شرح الذهبية» (ورقة ٤٨ مكرر ظهر و٤٩ وجه)

والقياس في اصطلاحات الملاحة عند العرب هو العلم الذى يختص بتحديد خط العرض وذلك بواسطة اخذ ارتفاعات النجوم والغرض من ذلك هو تحديد موقع السفينة في عرض البحر

واخذ ارتفاع النجوم كان اذن من اهم عمليات الملاحة وخطوات هذه العملية يمكن تلخيصها كالاتى

يأخذ البحار ارتفاع نجم ما في وقت معين ومنه يستنبط ارتفاع نجمة القطب وبهذا يمكن تحديد موقع السفينة في عرض البحر الذي يعتمد هنا على معرفة ارتفاع نجمة القطب، لذلك تحتل الجداول الخاصة بارتفاع نجمة القطب فى الاماكن المختلفة مكانا هاما في مؤلفات علم الملاحة

ولاخذ ارتفاع النجوم استعمل الملاحون العرب في البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي احدى هاتين الآلتين

الكمال والخشبة. اما وحدة قياس ارتفاع النجوم في علم الملاحة فقد كانت الاصبع الذى كان مقسما الى ثمانية ازوام وذلك على خلاف وحدة القياس في علم الفلك التي هى الدرجة .

وفي كتاب الفوائد يعطينا ابن ماجد وصفا تفصيليا لخطوات القياس وهذا الوصف يدل على مدى استيعابه لقواعد المنهج العلمي وشروطه إذ يحلل ابن ماجد ليس فقط عملية القياس خطوة خطوة، بل يعرض ايضا بتفصيل العوامل التي قد تؤدي الى الخطأ في القياس والتى يجب الاحتياط منها حتى لا تتعرض السفينة للخطر فى ذلك يقول ابن ماجد

اعلم ان للقياس علل فمنها اذا قمت من النوم ينبغى ان تغسل وجهك وعينيك بماء بارد وتجود الجلسة وتجعل النجم المقيوس عن النجم الذي يلقي وجهك سبعة اخنان كالجاه والطائر ويكون الخشب الكبار ضيقات القياس ومداهم بذكره ما استطعت والاربع الصغار نفيسات وقصر بهم يدك ما استطعت والاربع المتوسطات قياسهم عادة وذلك لاتساع ذيل الافق وانكفاف اعلى الافق، فافهم انا ادركنا جميع كسور هذه الصنعة، وينبغى ان يكون بين النجم المقيوس وبين الخشبة خيطا،

وبين الماء والخشبة كذلك خيطاء والزخن من مفسدات القياس وفساد الجلسة والباشي الفاسد اذا رأيت النجم مستقلا وانت على جانب غير مستقل فيزعم انه يستقبل وهو غير ذلك خصوصا اذا كان الفرقدين من جانب الجاه، فان الجاه سريع السير مثل استقلال الزراع، وانه مما يفسد صحة القياس، تغميض احد عينيه والبعض يفتح الجميع والاصح بفتح اليمين وتعميض اليسرى. والقياس باليد اليسرى من فساد القياس، واذا كان البحر فيه شباب من برد او ظل وحاية او جيش فى البحر فترى البحر كالنور لم يعرف الجو من البحر وقد عرفناك بدلك اقول هذا والله اعلم واحكم

ان تاريخ العلوم عند العرب لفي حاجة اليوم الى مجموعة من الدراسات العلمية المفصلة التي تتناول كل منها جانبا من جوانب كتابات ابن ماجد العلمية خصوصا ما يتعلق منها بعلمي الملاحة والفلك مع بيان كل من الخلفية العلمية لهده الكتابات والجانب الاصيل في تجربته العملية. وذلك حتى يأخذ ابن ماجد اخيرا المكانة التى يستحقها في التراث العلمي عند العرب.

AHMAD, S Maqbul, IBN MAJID, in **Dictionary of Scientific Biography**, vol. IX, New York, Scribner's Sons. pp.35-37

————————, IBN MADJID, **The Encyclopaedia of Islam,** 2nd ed.

ALVARES, Francisco, **The Prester John of the Indies,** 2 vol Tr. Lord Stanley of ALDERLEY, Cambridge, Cambridge University Press, 1961.

AXELSON, Eric, **South-East Africa 1488-1530,** London-New York, Toronto, Longmans, Green and Co, 1940

————————, **Portuguese in South-East Africa 1488-1600,** Johannesburg, C.Struik (PTY), 1973.

BOXER,C.R., **The Portuguese Seaborne Empire 1415-1825,** London, Hutchinson, 1969

CRONE, G.R., **The Discovery of the East,** London, Hamish Hamilton, 1972.

DA GAMA, Vasco, **A Journal of the First Voyage 1497-1499,** Tr. & ed. E G. RAVENSTEIN, London, The Hakluyt Society, 1898.

FERRAND, Gabriel, **Instructions nautiques et routiers arabes et portugais des XV^e et XVI^e siocles,** 3 vol., Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1921-1928.

KAMMERER, Albert, La Mer Rouge, l'Abssinie et l'Arabie depuis l'antiquito, in **Memoires de la Socioto Royale de Geographie d'Egypt,** XV, 3 part., 451 p.

KHORY, Ibrahim, Tr. & Exp., **As-Sufaliyya "The Poem of sofala by Ahmad Ibn Magid",** (Junta de Investigacoes Cientificas do Ultramar, Serie Separatas CXLVIII), Coimbra, Centro de Estudos de Cartografia Antiga, 1983

TAYLOR, E.G.R., **The Haven-Finding Art,** London, Hollis & Carter, 1956.

TIBBETTS, G R , Arab Navigation in the Red Sea, **The Geographical Journal,** CXXVII, 3, 1961, pp. 322-334

——————————, **Arab Navigation in the Indian Ocean before the Coming of the Portuguese,** London, The Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland,1981.

VERLINDEN, C., Vasco da Gama in het licht van zijn Portugese en Arabische voorgangers, in **Mededelingen van de Koninklijke Vlaamse Academie voor Wetenschappen, Letteren en Shone Kunsten van Belgio´,** XIX, 4, 1957, pp. 3-21.

# الأوضاع السّياسيّة في الخليج العربيّ إبان الغزو البرتغالي

يستلفت نظر الباحث عند دراسته للاوضاع السياسية فى الخليج العربى ابان الغزو البرتغالى فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر التفكك السياسى الذى كانت تعانى منه القوى العربية والاسلامية مما كان عاملا رئيسيا ساعد البرتغاليين فى فرض سيطرتهم على المنطقة

ولم يقتصر التفكك السياسى على القوى المحلية بل تعداه الى القوى الاسلامية الكبرى التى انشغلت اما فى تدعيم قواعد حكمها او فى صراعات قامت فيما بينها مما مكن البرتغاليين من استغلال تلك الظروف لتأكيد سيطرتهم على بحار الشرق وتطبيق سياستهم الاحتكارية التى كان لها اثر كبير فى اضعاف المقومات الاقتصادية وانهاء العصر الذهبى للملاحة والتجارة التى تمتع بها المسلمون فى القرون التى سبقت الزحف البرتغالى الى بحار الهند [1]

# تفكك القوى العربية والإسلامية ساعد البرتغاليين في فرض سيطرتهم على المنطقة


للدكتور
**جمال زكريا قاسم**
استاذ التاريخ الحديث بكلية الاداب
جامعة عين شمس ـ القاهرة


ولعل ما تجدر الاشارة اليه ان الفترة التى واكبت الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى كانت تعد فترة تحول بالغة الاهمية بالنسبة للقوى الاسلامية التى تصدت للزعامة فى ذلك الحين فقد شهدت تلك الفترة أفول بعض القوى الاسلامية وظهور بعضها الآخر وفي السنوات الأخيرة بين

القرن الخامس عشر او بشكل اكثر تحديدا فى عام ١٤٩٢ سقطت آخر المعاقل الاسلامية فى الاندلس وفى خلال السنوات الاولى من القرن السادس عشر اخذ الاتراك العثمانيون يتحولون بفتوحاتهم على حساب الشعوب المسيحية فى البلقان وأوروبا ويتجهون الى التوسع على حساب الشعوب الاسلامية فى الشرق وفى تلك الفترة ايضا تأسست الدولة الصفوية فى ايران وانهارت دولة المماليك التى كانت تحكم مصر والشام وبعض اجزاء من الجزيرة العربية كما ظهرت الدولة المغولية فى الهند

وعلى الرغم من تلك التحولات السريعة التى تعرض لها العالم الاسلامى الا ان النظرة الثانية تكشف لنا عدم تضامن تلك القوى فى مواجهة البرتغاليين وانما على العكس من ذلك انشغلت القوى الاسلامية فى صراعات مذهبية او توسعية فيما بينها وبين بعضها الاخر او فيما بينها وبين القوى الاخرى المجاورة لها مما اضعف من تماسكها ففى الهند كان الصراع محتدما بين القوى الاسلامية والهندوكية وشغل هذا الصراع تلك القوى عن التطلع لمواجهة الاطماع الاجنبية التى كانت تحيق بسواحل الهند العربية على اثر اكتشاف البرتغاليين لطريق راس الرجاء الصالح ووصولهم الى كاليكوت حتى ان سلطنة كجرات الاسلامية لم تجد سوى الاستنجاد بدولة المماليك فى مصر رغم بعد المسافة فيما بينهما للتغلب على الغزو البرتغالى لسواحلها وفى تلك السواحل تعرض الاسطول المملوكى لهزيمة ديو البحرية فى عام ١٥٠٩ التى تعد نهاية العصر الذهبى للملاحة العربية والاسلامية فى المحيط الهندى [٢] ومما يسترعى الانتباه حدوث تلك الهزيمة خلال الفترة التى كان فيها الشاه اسماعيل الصفوى ( ١٤٩٩ ـ ١٥٢٤ ) يعمل على توطيد دعائم دولته التى اتخذت من تبريز عاصمة لها ومما لا شك فيه ان تأسيس الدولة الصفوية فى ايران قد استنفد جانبا كبيرا من الجهد الذى اضيف اليه جهد آخر تمثل فى الصراع المذهبى الذى احتدم بين الدولتين الاسلاميتين الكبيرتين ، الدولة الصفوية التى اعتبرت نفسها حامية للمذهب الشيعى والدولة العثمانية التى اعتبرت نفسها حامية للمذهب السنى واستمرت المناوشات قائمة بين هاتين الدولتين حتى تفجر الموقف فى معركة جالديران ١٥١٤ التى انصرف العثمانيون بعدها للقضاء على دولة المماليك فى مصر والشام حتى اجهزوا عليها فى عام ١٥١٧

ويمكننا ان نستخلص من ذلك أنه لم تكد تمر سنوات قليلة على بدء وصول البرتغاليين الى سواحل الهند ثم الى سواحل الخليج العربى حتى قامت الحروب بين الدول الاسلامية الثلاث المماليك والصفويين والعثمانيين واسفرت نتائج تلك

الحروب عن تغييرات جذرية بعيدة المدى على الاوضاع السياسية فى المشرق الاسلامي كان لها اثرها على الموقف العسكرى والسياسى للبرتغاليين من ناحية والقوى الاسلامية من ناحية اخرى ومما لا شك فيه ان تلك الاوضاع التى اشرنا اليها كانت مواتية لتوطيد السيطرة البرتغالية على بحار الشرق ولعل ما يؤكد لنا تلك الحقيقة ان البرتغاليين لم يواجهوا تحالفا بين القوى الاسلامية الكبرى ولم تكن هناك سوى دولة المماليك التى تصدت لهم عسكريا خلال السنوات الاولى من وصولهم الى الهند وكان اصطدامهم اكثر وضوحا مع القوى المحلية الاسلامية سواء كان ذلك فى سواحل شرق افريقيا اوفى سواحل الهند او فى سواحل الخليج والجزيرة العربية [٣] على ان تلك القوى المحلية كانت قد وصلت هى الاخرى الى درجة كبيرة من الاعياء والتفكك فضلا عن احتدام الخلافات القبلية والمنافسات الاسرية فيما بينها وكانت تلك الظروف جميعها فى صالح البرتغاليين سواء ما كان يتعلق بها من اوضاع القوى الاسلامية الكبرى او القوى المحلية اذ استغل البرتغاليون تلك الاوضاع لصالحهم ففى سواحل شرق افريقيا حالف البرتغاليون شيخ ماليندة ضد منافسة حاكم ممبسه وفى منطقة الخليج العربى حالف البرتغاليون ملوك هرمز ضد منافسيهم شيوخ بنى جبر الذين نجحوا فى السيطرة على البحرين والاحساء والقطيف وبعض المقاطعات العمانية وازداد الامر سوءا حين عمد البرتغاليون الى ارسال سفارات الى ايران للتباحث مع الشاه اسماعيل الصفوى فى شأن مشروعات دفاعية وهجومية ضد الدولة العثمانية التى بدأت تتطلع للسيادة على سواحل الخليج العربى ولعل مما يسترعى الانتباه ان الخلافات العصبية والمذهبية كانت اشد خطورة بالنسبة للمفاهيم التى كانت سائدة فى ذلك الوقت بين الاطماع الاجنبية التى بدأت تتربص بالقوى الاسلامية خلال تلك الفترة حيث اضحت تلك الخلافات اقصر الطرق للمخططات الاستعمارية فى المنطقة ، وليست الخطورة فى استغلال القوى الاستعمارية لتلك الخلافات بل ان الخطورة تتفاقم حين تعمد القوى المتنافسة الى الاستعانة بالقوى الاستعمارية لتصفية حساباتها فيما بينها ولعل فى استقراء الاحداث التاريخية ما يفيد القوى العربية والاسلامية المتصارعة فى منطقة الخليج العربى فى وقتنا الحاضر [٤] بدأ البرتغاليون عملياتهم العسكرية الاولى بالسيطرة على مملكة هرمز باعتبارها تتحكم فى مدخل الخليج العربى وتشكل فى الوقت نفسه اكبر تنظيم سياسى واقتصادى عرفته المنطقة فى السنوات التى سبقت الغزو البرتغالى وقد انيطت العمليات العسكرية البرتغالية فى منطقة الخليج

العربى الى امونسودى البوكيرك [٥] الذى نشأ فى وقت كان الصراع فيه يدور على اشده بين المسيحيين فى شبه جزيرة ايبيريا فاشربت فى قلبه الرغبة العنيفة فى الانتقام من المسلمين وقد بدأ البوكيرك حياته العسكرية فى المغرب ثم انتقل الى ميدان الصراع الصليبى فى بحار الشرق واليه ينسب بناء مجموعة من الحصون البرتغالية التى وصفت بالحصون التى لا تقهر فى كل من هرمز ومسقط والبحرين وغيرها ولا تزال كثير من تلك الحصون باقية حتى يومنا هذا تشهد على ما كان عليه البرتغاليون من تسلط وغلظة

وقد يكون من المفيد ان نتوقف عند مملكة هرمز باعتبارها كما سبق أن اشرنا - اقوى التنظيمات السياسية والاقتصادية التى ظهرت فى الخليج العربى حتى مجىء البرتغاليين فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر وتجدر الاشارة الى ان هناك خلافات بين الباحثين بالنسبة لهوية تلك المملكة فالكتاب الايرانيون يغالون فى اصباغ الهوية القومية على هرمز فيصفونها بانها كانت مملكة فارسية على حين يؤكد الباحثون العرب على الصبغة العربية لهرمز باعتبار ان اللغة العربية كانت هى اللغة السائدة واغلب سكانها من العرب وانتماء ملوكها الى اصول عربية فضلا عن اعتناقهم المذهب السنى وذلك على خلاف المذهب الشيعى الذى كان سائدا فى ايران اما المصنفون المسلمون القدامى كالاصطخرى والمقدسى والادريسى وغيرهم فقد اكدوا على ان هرمز كانت مملكة عالمية فسكانها من العرب والفرس والهنود والزنوج والبلوش والترك والاوروبيين الى الحد الذى كانت تظهر فيه كمنطقة تجمع عالمية وان احتفظت فى نفس الوقت بطابعها العربى والاسلامي اذ انه على الرغم من انها كانت تجمع الكثير من الاجناس الا ان اللغة العربية كانت هى لغة التعامل كما كان اغلب سكانها من العرب اذ ان طبيعة النشاط البحرى والتجارى الذى كانت تتميز به مملكة هرمز قد ساعد على بروز الكثير من البحارة والتجار العرب خاصة من اليمن وعمان وموانىء الخليج العربى [٦] .

وينبغى ان نميز هنا بين مملكة هرمز القديمة التى كانت قائمة فى البر الاصلى وبين مملكة هرمز الاكثر حداثة التى ظهرت فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى فمملكة هرمز بمفهومها القديم كانت تشمل اجزاء داخلية من الساحل الايرانى وتتفق معظم المصادر على ظهور تلك المملكة منذ اواخر القرن العاشر الميلادى حيث تعاقب عليها الكثير من الامراء والملوك حتى اذا وصلنا الى الامير بهاء الدين وهو الخامس عشر من سلالة ملوك هرمز نجد ان عهده قد صادف الهجوم الكبير الذى تعرضت له مملكة هرمز فى عام ١٠٣١ اى فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى من قبل فرسان

التتار وكان الهجوم عنيفا لدرجة ان الامير وشعبه هجروا هرمز الواقعة على الساحل الشرقى من الخليج وانتقلوا الى جزيرة قشم ومنها الى جزيرة جرون المواجهة لمدينتهم القديمة والتى اطلقوا عليها هرمز تيمنا بها واصبحت جزيرة هرمز منذ ذلك التاريخ عاصمة لاكبر تنظيم سياسى وتجارى عرفته منطقة الخليج العربى [٧] ولعل مما يثير الانتباه ان تلك الجزيرة الصغيرة الجرداء قد ارتفع مستوى معيشة سكانها بعد فترة وجيزة من انتقال النشاط التجارى اليها ويرجع ذلك الى اتساع الحركة التجارية وكثرة الصادرات والواردات كما ان النشاط التجارى لم يقتصر على بلدان العالم الاسلامى فحسب وانما امتد الى القارة الاوروبية حيث اصبحت هرمز حلقة اتصال تجارى بين الشرق والعرب كما لعب تجارها دورا بارزا فى نقل بضائع الشرق الى اوروبا ولم تقتصر هرمز على اهميتها التجارية فحسب وانما امتد نفوذها على طول السواحل الغربية للخليج حتى البصرة كما امتدت سيطرتها على سواحل فارس الجنوبية وطبقا لما يذكره الرحالة البرتغالى بدرو تكسيرا فإن هرمز نجحت نجاحا باهرا خلال المائتى عام التالية بعد تأسيسها ١٣٠١ / ١٥٠٠ حتى انها سادت على كثير من مقاطعات الخليج والجزيرة العربية واستمرت قائمة حتى أخضعها البرتغاليون لسيطرتهم منذ عام ١٥٠٧ وظلت خاضعة للبرتغاليين حتى نجح الشاه عباس الكبير بالتعاون مع الانجليز فى إجلاء البرتغاليين عن هرمز فى عام ١٦٢٢ وامر بتدميرها وانتقل النشاط التجارى الى ميناء بندر عباس [٨] .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه ان مملكة هرمز كانت من بين الممالك الاسلامية الهامة التى زارها الرحالة ابن بطوطه وذلك خلال رحلته الاولى التى قام بها فى الربع الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ١٣٢٥ ـ ١٣٤٩ وقد خلف لنا وصفا ممتعا عن هرمز وسلطانها وتجارتها وحياتها الاجتماعية وقدم لنا صورة شيقة عما كانت عليه المملكة من عظمة وثراء فذكر انها مرسى السند وفارس وخراسان والهند وابدى إعجابه باسواق المدينة المجهزة تجهيزا حسنا كما وصف سلطانها قطب الدين وهو الحاكم الرابع فى هرمز الجديدة بالكرم والاخلاق النبيلة غير انه وجده مشغولا ومتهيئا للحرب ضد اخيه نظام الدين [٩] ولم يكن الرحالة المسلمون وحدهم هم الذين استرعى انتباههم اهمية هرمز وانما جذبت الجزيرة انتباه عدد كبير من الرحالة الاوروبيين من بينهم الرحالة لودفيج فارثمان Wartheman الذى زارها قبل مجىء البرتغاليين بسنوات قليلة فى عام ١٥٠٣ وكان بكتابته عنها خير شاهد على عظمتها ومما ذكره بصدد ذلك انه كان يوجد بمينائها ما يزيد

احيانا على ثلاثمائة سفينة تجارية لمختلف بلاد العالم راسية على ارصفتها البحرية كما كان يقيم فيها بصفة دائمة اكثر من اربعمائة تاجر وان معظم تجارتها كانت من اللؤلؤ والاحجار الكريمة والحرير والعقاقير والتوابل (١٠)

اما الرحالة البرتغالى دوارت باربوسا الذى كان مصاحبا لفاسكودى جاما فى رحلته الى الهند فقد وصف الجزيرة بالجمال وذكر ان بيوت اثريائها كانت اشبه ما تكون بالمتاحف لما تحويه من تحف وقطع اثاث واردة من الهند والصين وان الازدهار التجارى الذى تمتعت به كان يعود فى الدرجة الاولى الى موقعها الاستراتيجى فى المضايق المؤدية الى الخليج وقد اضيف الى ثرائها التجارى الدخل الذى كانت تحصل عليه من المكوس الجمركية التى كانت تفرضها على الموانىء التابعة لها ومن الطبيعى ان هذا الدخل احذ يتحول لصالح البرتغاليين بعد سيطرتهم عليها وعلى ذلك فانه من الخطأ المبالغة فى ان البرتغاليين حولوا تجارة الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح اذ ظلت الطرق البحرية القديمة مستخدمة فى تجارة الشرق وان كانت تحت السيطرة البرتغالية ويدل على ذلك كثرة الرسوم الجمركية التى كان يجبيها البرتغاليون لحسابهم (١١) تقديريا ان السبب فى الازدهار التجارى الذى تمتعت به هرمز يرجع الى ان دائرة النشاط التجارى قد اتسعت مع بداية العصور الحديثة فلم تعد مقتصرة على نقل التجارة بين الهند وسواحل شرق افريقيا الى قلب العالم الاسلامي بل اصبحت مملكة هرمز تمثل الحلقة الهامة فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وخاصة حين دخلت المدن الايطالية ذلك الميدان واصبحت هرمز مثلا يضرب على الثراء ويعرفها رجل الشارع الاوروبى وتردد اسمها فى اشعار جون ميلتون واعتبرت خاتمة العالم من يمتلكها يمتلك العالم باسره (١٢) على انه رغم العظمة التى بلغتها الا انها لم تستطع ان تحمى نفسها والمناطق التابعة لها من الغزو البرتغالى ولذلك سقطت فى ايدى الغزاة البرتغاليين فى عام ١٥٠٧ (١٣) ويمكن تفسير خضوعها السريع للبرتغاليين بأن اهلها كانوا يشتغلون بالتجارة والملاحة ولم تكن لهم دراية بفنون القتال يضاف الى ذلك التفكك الذى كانت تعانى منه المملكة بسبب تفاقم الصراع بين افراد الاسرة المالكة كما ان الدولة الصفوية كانت منشغلة فى توطيد دعائم حكمها ، وحتى بعد ان تبتت دعائم الحكم اتجهت الى التوسع فى الشمال ولم تلعب دورا يذكر فى صد الغزو البرتغالى وظلت بعيدة عن الاشتباكات العسكرية مع البرتغاليين بل انها اتجهت فى بعض الاحيان الى اقامة علاقات تحالف معهم ولم تتحول الدولة الصفوية الى قوة مناهضة

# الحرب المذهبية بين الدول الإسلامية

# في القرن السادس عشر

# مكنت الإستعمار الأجنبي من التسلل للمشرق

للبرتغاليين الا مند نهاية القرن السادس عشر الميلادى (١٤) وكان الامتداد الكبير الدى بلغته مملكة هرمز يشكل فى نفس الوقت عاملا من عوامل انهيارها ولذلك كان من الطبيعى ان يؤدى تفسخ تلك المملكة الى افساح المجال لظهور مجموعة من القوى السياسية التى اتجهت الى منازعتها السيادة ومن بين تلك القوى شيوخ بنى جبر الذين بدأ نجمهم يصعد فى اواسط نجد منذ النصف التانى من القرن الخامس عشر الميلادى ( ٨٧٢ هـ - ١٤٦٧ م ) وتمكنوا من انتزاع البحرين والاحساء والقطيف وبعض الاقاليم العمانية من مملكة هرمز مستغلين فى ذلك الصراع الاسرى الذى كان قائما بين سيف الدين واخيه فخر الدين تورانشاه بل ان ذلك الصراع اعطى بنى جبر فرصة للتدخل فى المملكة ذاتها واصبح شيخهم يلقب بسلطان البحرين والقطيف والاحساء ورئيس اهل نجد (١٥) .

نستخلص من ذلك انه عند مجىء البرتغاليين الى الخليج العربى كانت هناك قوتان متنافستان مملكة هرمز من ناحية وشيوخ الجبور من ناحية اخرى (١٦) وكان من الطبيعى ان يتجه البرتغاليون الى تعميق هدا التنافس تحقيقا لمصالحهم ويمكننا ان نضيف الى هذا التنافس بين هاتين القوتين تفكك الاوضاع السياسة فى كثير من المقاطعات العمانية ففى الوقت الذى خضعت فيه مسقط وحورفكان وقلهات وصور وسورات وغيرها من مقاطعات الساحل لمملكة هرمز (١٧) كانت المقاطعات الداخلية فى ايدى الملوك النبهانيين الذين كانوا يتعرضون دوما لثورات الإباضيين المتحمسين لبعث الامامة الإباضية (١٨) .

وفى عام ١٤٨٣ عقدت الامامة لعمر بن خطاب الخروصى ولكن لم يلبث ان

اطاح به النبهانيون بعد سنة واحدة قضاها فى الحكم ولعل ذلك مما جعله يستعين ببنى جبر فى الاحساء الذين نجحوا فى اعادة تنصيبه اماما على عمان فى عام ١٤٨٧ وكان من الطبيعى ان تصبح عمان الداخل فى دائرة نفوذ بنى جبر وظهر ذلك واضحا حين تحدد القتال بين الاباضيين والنبهانيين على عهد الامام محمد بن اسماعيل الذى خلف الامام الحروصى بعد ان نجح بفضل استعانته بشيوخ الجبور فى قتل الملك النبهانى واخذ البيعة بالامامة ١٥٠٠ ـ ١٥٣٥ (١٩)

ولعل مما يؤكد تفوق نفوذ بنى جبر فى عمان ان البرتغاليين حينما دخلوا الخليج اول مرة فى عام ١٥٠٧ تحدثوا عن قوتهم حتى إن افونسـودى البوكيرك ذكر ان عمان الداخل كانت خاضعة لشيخ من شيوخهم الذى وصفه بملك الجبور وذكر ان معظم جزيرة العرب تدين له بالولاء وعلى الرغم من ان ذلك الوصف يحمل الكثير من المبالغة الا انه يحمل ايضا كثيرا من الحقائق فالامر الذى لا شك فيه ان الجبور كانوا قد تمكنوا حول بداية القرن السادس عشر من السيطرة على كثير من المقاطعات الداخلية فى الجزيرة العربية بالاضافة الى الاحسـاء والقطيف والبحرين وعمان الداخلية والساحلية ويؤكد ذلك ما اشار اليه المؤرخ البرتغالى باروس Barrotz من ان الجبور كانوا يشنون هجمات مستمرة على مملكة هرمز وانهم كانوا يشكلون خطرا عليها (٢٠) ويفهم من ذلك ان الصراع بين ملوك هرمز وشيوخ الجبور كان هو الوضع السائد فى الخليج حين وصل البرتغاليون الى سواحله وعلى الرغم من ان الجبور كانـوا هم القوة الصاعدة الا ان هرمز كانت هى القوة الرسمية المتصدية لزعامة الخليج وكان عليها ان تتكفل بحمايته من الغزو البرتغالى المفاجىء رغم التفكك السياسى الذى كانت تعانى منه (٢١) ولعل مما يلفت النظر ان الدولة الصفوية الناشئة فى ايران حول ذلك الوقت لم تتعاون مع مملكة هرمز فى هذه المهمة وتلك الملاحظة لها اهميتها الخاصة لانها دليل واضح على عدم تبعية هرمز للدولة الصفوية او للدول التى سبقتها فى فارس وذلك خلافا لادعاءات بعض الكتاب الايرانيين المعاصرين الذين تمادوا فى تطبيق النظرة القومية على ذلك العهد الى حد ادعائهم ان نفوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شرق الجزيرة العربية باعتبار تبعية هرمز للسيادة الفارسية (٢٢).

بدأ البوكيرك عملياته العسكرية الاولى فى الخليج بمحاولة الاستيلاء على مسقط وكان ذلك على عهد الامام محمد بن اسماعيل فى عام ١٥٠٧ وقد حاول حاكم مسقط تفادى الخراب والدمار الذى الحقه البرتغاليـون بقريات بعقد الصلح معهم ولكن ملك هرمز رفض قبول ذلك الصلح وبادر

بارسال قوة عسكرية الى مسقط التى كانت تابعة له بيد ان البرتغاليين نجحوا فى تحقيق الانتصار واصدر البوكيرك امره بحرق المدينة واغتصابها انتقاما لنقد الصلح الذى عقد معها ولم تنته العمليات العسكرية الا بعد تعهد شيوخ المدينة بتسليم جزية من الذهب قدرت بعشرة آلاف زرافين (٢٣)

وحين انتهت العمليات العسكرية فى مسقط انتقل البوكيرك الى هرمز التى كان يحكمها سيف الدين وهو فتى لم يتجاوز عمره اثنى عشر عاما وكان يرأس مجلس البلاد خوجة عطار وهو شيخ محنك ، وقد رأى البوكيرك ان السيطرة على هرمز ستؤدى الى احكام سيطرته على الخليج العربى لأهميتها الاستراتيجية (٢٤) وقد استطاع ان يحقق نصرا عسكريا واصبحت هرمز منذ عام ١٥٠٧ تابعة للبرتغاليين حيث وافق ملك هرمز على دفع جزية سنوية قدرت بخمسة عشر ألف زرافين وبمقتضى المعاهدة التى عقدت مع ملك هرمز اعفيت البضائع البرتغالية من الرسوم الجمركية فى الوقت الذى عمد فيه البرتغاليون الى تطبيق سياستهم الاحتكارية حيث اصدروا اوامر بمنع اية سفينة من ممارسة الملاحة فى الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية وبذلك العمل كتب البرتغاليون السطر الاول فى سيادتهم البحرية والتجارية على الخليج العربى (٢٥)

وعلى عكس ما كان متوقعا من ان تتجه القوى المحلية للتضامن فيما بينها لمواجهة البرتغاليين نجد ان تلك القوى اخذت تعانى قدرا كبيرا من التفكك اذ انصرف ملوك هرمز الى سحق نفوذ الجبور فى البحرين حيث قامت هرمز فى عام ١٥١١ بارسال حملة عسكرية الى البحرين نجحت فى السيطرة عليها وانتزاعها من شيوخ بنى جبر الذين عاودوا السيطرة عليها ومن تم فعلى اثر هيمنة البرتغاليين على هرمز كان من الطبيعى ان يساندوا ملوكها للتخلص من نفوذ بنى جبر

ومما يستلفت الانتباه أنه على الرغم من ان الشاه اسماعيل الصفوى قد احتج على العدوان البرتغالى على هرمز الا انه لم يقم بدور ايجابى ضد البرتغاليين اذ كان منشغلا فى صراعه العسكرى ضد العثمانيين وكانت هزيمته فى جالديران ١٥١٤ سببا فى مهادنته للبرتغاليين على امل الاستعانة بهم ضد العثمانيين ويذكر لوريمر بصدد ذلك انه فى عام ١٥١٥ وصل الى هرمز سفير الشاه اسماعيل الصفوى يحمل عدة مطالب اجيب إلى بعضها واقترح ضمن اقتراحات كثيرة ان تقدم البرتغال بعض سفنها لايران كى تمكنها من غزو البحرين والقطيف وان يساعد البرتغاليون الشاه فى قمع تمرد قام ضده فى مكران وان يتنازل الشاه للبرتغاليين عن جوادور الواقعة على ساحل بلوخستان وان يقوم تحالف ضد تركيا بين ايران والبرتغال (٢٦) .

# السلطان مقرن هو أول حاكم في شرق العالم الإسلامي يلقى حتفه في معركة ضد المستعمرين

ويمكننا ان نستنتج من ذلك ان البرتغاليين قد استغلوا الصراع الصفوي العثماني لكي يبعدوا الى صداقة الصفويين ولا شك ان نجاح البرتغاليين في تثبيت نفوذهم في هرمز قد اكد للصفويين ان البرتغاليين قد اصبحوا يشكلون قوة بحرية في الخليج لا قبل لهم بالتصدي لها ومن ثم احذوا يعملون على كسب صداقتهم لمساندتهم ضد العثمانيين

لم يقتصر التسلط العسكري البرتغالي على هرمز والمقاطعات الساحلية من عمان وانما عمد البرتغاليون للسيطرة على البحرين والاحساء والقطيف وغيرها من المناطق الساحلية التي كانت تابعة لمملكة هرمز وباسم ملك هرمز حاض البرتغاليون صراعا عنيفا ضد بني جبر الذين كانوا يسيطرون على تلك المناطق وفي عام ١٥٢٠ تعرضت البحرين لهجوم برتغالي ـ هرمزي مشترك اثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل من بني جبر حيث كان قد سافر الى مكة لتأدية فريضة الحج ورغم البسالة التي تميز بها السلطان مقرن بن زامل الا انه لم يلبث بعد عودته ان وقع اسيرا في ايدي البرتغاليين الذين بادروا باعدامه وكان بذلك اول حاكم في شرق العالم الاسلامي يلقى حتفه في معركة ضد المستعمرين البرتغاليين

وقد روى تلك الاحداث المؤرخ المصري ابن إياس [٢٧] كما وردت ايضا في المصادر البرتغالية المعاصرة على انه مما يستلفت الانتباه اختلاف تلك الروايات فيما بينها فبينما تؤكد المصادر البرتغالية ان السلطان مقرن بن زامل مات متأثرا بجراحه تشير رواية ابن اياس انه وقع حيا في ايدي البرتغاليين وانه عرض عليهم اموالا كثيرة ليطلقوا سراحه الا انهم رفضوا

ذلك وقتلوه ومع ذلك فان صحت رواية ابن اياس فمن المحتمل ان يكون قد دارت بينه وبين البرتغاليين مفاوضات ابدى فيها استعداده بان يدفع لملك هرمز ما في ذمته من ديون الا ان اشتداد المعارك لم يؤد الى تنفيذ ذلك العرض وانما انتهى الامر بنجاح البرتغاليين في السيطرة على البحرين باسم ملوك هرمز وان لم يتمكنوا من التقدم الى الاحساء والقطيف بسبب عنف مقاومة الجبور [٢٨]

ومما يسترعى الانتباه انه لم يكن مصرع السلطان مقرن وخضوع البحرين للبرتغاليين حدثا عابرا وانما احدث صدى كبيرا ورنة حزن واسى في انحاء الخليج بل ان ابن اياس رغم اتهامه للسلطان مقرن بالتخاذل امام البرتغاليين الا انه لم يتردد في التعبير عن حزنه والتعليق على استشهاده بانه كان من اشد الحوادث في الاسلام واعظمها حيث اورد في حوادث عام ٩٢٨ هـ ( ١٥٢١ م ) ما نصه « واشيع قتل الامير مقرن امير عرب بني جبر متملك جزيرة البحرين الى بلاد هرمز الاعلى وكان اميرا جليل القدر معظما مبجلا في سعة من المال وكان مالكي المذهب سيد عربان الشرق على الاطلاق وكان قد اتى الى مكة وحج في العام الماضي . فلما حج ورجع الى بلاده لاقته الفرنج في الطريق وتحاربت معه فانكسر الامير مقرن وقبضوا عليه باليد واسروه فسألهم ان يشترى نفسه فيهم بالف الف دينار فأبوا الفرنج ذلك وقتلوه بين ايديهم ولم يعف عنه ماله شيئا وملكوا جزيرة بين النهرين وملكوا قلعتها التى هناك واستولوا على اموال الامير مقرن وبلاده وكان ذلك من اشد الحوادث في الاسلام واعظمها وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندى والامر لله تعالى [٢٩]

لم يستمر التحالف قائما بين البرتغاليين ومملكة هرمز اذ سرعان ما تبين لتورانشاه ملك هرمز سطوة البرتغاليين واستعلائهم وانهم لم يهدفوا بتحالفهم مع هرمز الا التمهيد لفرض سيطرتهم العسكرية والاقتصادية ومن ثم اخذ تورانشاه يترقب فرصة تسمح له وللولاة التابعين له سواء من كان منهم في عمان او البحرين او الاحساء والقطيف او غيرها من مقاطعات الخليج للتحرر من السيطرة البرتغالية وحين وصلت الانباء بان البرتغاليين يواجهون صعابا في الهند واصبحوا مضطرين لسحب جزء من قواتهم العسكرية في الخليج لمواجهة مشاكلهم هناك بادر تورانشاه باصدار اوامره لاعلان الثورة ضد البرتغاليين ( ٣٠ نوفمبر ١٥٢١ ) ومن الامور التى تثير الاهتمام ان يتوصل عرب الخليج الى خطة محكمة لتوقيت الصراع ومهاجمة الحصون البرتغالية دفعة واحدة حيث تعرضت الحاميات البرتغالية في هرمز والبحرين ومسقط وقريات وصحار وغيرها الى هجمات ليلية مفاجئة من

البر والبحر وقتل خلال تلك الاحداث عدد كبير من البرتغاليين [٣] ومع ذلك فان تلك الحركة فشلت فى تحقيق اهدافها بسبب استمرار الخلافات بين شيوخ الجبور وملوك هرمز ومما تجدر الاشارة اليه بصدد ذلك ان كثيرا من الكتاب الايرانيين يركزون على الموقف المتخاذل الذى وقفه فرع الجبور فى عمان مما كان سببا فى فشل الثورة وفى تقديرنا ان الموقف السلبى الذى اتخذه بنو جبر فى عمان يرجع اساسا الى ان طبيعتهم القبلية طغت على نفوسهم واستبدت بهم الرغبة للانتقام من ملك هرمز الذى سبق له ان تعاون مع البرتغاليين مما كان سببا فى قتل زعيمهم الكبير مقرن بن زامل ولعل ما يؤكد لنا ذلك تمكنهم من قتل الملك توارنشاه الذى كان قد التجأ الى جزيرة قشم هربا من البرتغاليين بعد فشل ثورته حيث ارسل الشيخ حسين بن سعيد زعيم بنى جبر فى عمان بعض اتباعه ليثأروا منه وبذلك نجح بنو جبر فى تصفية حسابهم مع عدوهم اللدود توارنشاه وان كان ذلك على حساب القضية العامة [٣١]

وكان من الطبيعي ان يؤدى فشل الحركة الى قيام البرتغاليين بوضع نهاية للحكم الوطنى فى هرمز وذلك بمقتضى معاهدة ميناب التى ابرمت مع محمود شاه الذى خلف توارنشاه فى الحكم وقد اكدت تلك المعاهدة السيطرة البرتغالية على هرمز وتوابعها واستمر خضوع هرمز للبرتغاليين حتى عام ١٦٢٢ حين سقطت فى قبضة الانجليز والفرس وخلال تلك الفترة من السيطرة البرتغالية التى امتدت لما يقرب من مائة عام ١٥٢٣ - ١٦٢٢ جرت محاولات من قبل القوى المحلية للتخلص من السيطرة البرتغالية ففى عام ١٥٢٦ قام العمانيون بمهاجمة الحامية البرتغالية فى كل من مسقط وقلهات وفى عام ١٥٢٩ اعاد البرتغاليون فرض سيطرتهم على البحرين [٣٢] كما حاولت الدولة العثمانية بين عامى ١٥٥٠ و١٥٨٠ التصدى للنفوذ البرتغالى فى الخليج [٣٣] وبخروج العثمانيين من ساحة الصراع فى الخليج العربى انفسح المجال امام قوة عربية ناشئة هى قوة اليعاربة فى عمان لكى تنهض بالتعاون

مع القبائل العربية فى الخليج لتحرير شواطئها من الاستعمار البرتغالى وهو الدور الكبير الذى قدر لعرب الخليج ان يحرزوا قصب السبق فيه مستفيدين فى ذلك من الظروف الداخلية والخارجية التى كانت تمر بها الامبراطورية البرتغالية مما

جعلهم يقفون منها موقف التحدى ويشكلون عاملا كبيرا من عوامل انهيارها فى بحار الشرق [٣٤] وما كاد النفوذ البرتغالى ينهار فى الخليج العربى منذ السنوات الاولى من القرن الثامن عشر حتى انفسح المجال للقوى العربية لتعيد تنظيم نفسها فى شكل تنظيمات سياسية جديدة

١ ـ عن الازدهار العربى الملاحى والتجارى فى المحيط الهندى انظر آدم متز الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ص ٤٣٩ ـ ٤٤٣ ترجمة الدكتور محمد عبدالهادى ابو ريدة وكذلك فضلو حورانى الملاحة العربية فى المحيط الهندى ـ القاهرة ١٩٥٨

ويحدد جون كيلى العصر الذهبى للملاحة والتجارة فى الخليج العربى على الفترة الممتدة من نشوء الخلافة العباسية فى بغداد فى منتصف القرن الثامن الميلادى ( ٧٥٠ م ) حتى وصول البرتغاليين الى مياه الخليج العربى فى عام ١٥٠٧
CF. john Kelly : Britain and The Persian Gulf 1795 — 1880 PP — 6 — 8 London 1968 .

٢ ـ Durate Barbosa : A Description Of The Coasts Of East Africa and Malabar in The begining Of The Sixteen Century Trans . by .H. Stanley PP. 75 – 76 Hakluyt society London 1866

وانظر ايضا ما ذكره ابن اياس عن معركة ديو فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور تحقيق محمد مصطفى ج ٤ ص ١٨٢ القاهرة ١٩٦٠

٣ ـ عبدالعزيز الشناوى المراحل الاولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية ـ من اعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية المجلد الثانى ص ص ٦٣٥ ـ ٦٣٩ الدوحة ١٩٧٦

٤ ـ جمال زكريا قاسم الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوروبى الاول ص ص ٤٨٥ / ٤٨٦ ـ القاهرة ١٩٨٥

٥ ـ Arnold Wilson : The Persian Gulf An Historical Sketch From The Earliest Times To The begining Of The 20 th Century P. 185. London 1954

٦ ـ جمال زكريا قاسم الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوروبى الاول ١٥٠٧ / ١٨٤٠ ص ص ٥٣ ـ ٥٤ القاهرة ١٩٨٥

٧ ـ راجع بصدد ذلك دراسة جان أوبان عن امراء هرمز من القرن الثالث عشر الميلادى حتى القرن الخامس عشر التى تعتبر من اوفى الدراسات التى كتبت عن مملكة هرمز

CF. Jean Aubin : Les Prince d'Ormuz du XIII" au XVC Siecles P. 7 et
120 FF. Journal Asiatique CDXLI 1973

٨ ـ . Chales Low, History Of The Endian Navy Vol 1 P. 43 London 1877

٩ ـ ابو عبدالله محمد بن بطوطه تحفة النظار في عجائب الأسفار وغرائب الامصار ح ١ القاهرة ١٩٣٣

١٠ ـ عبدالسلام عبدالعزيز فهمي
مملكة هرمز المجد في نشاتها وازدهارها والعبرة في سقوطها واستسلامها ـ مجلة العربي الكويت العدد ١٨٤ مارس ١٩٧٤

١١ ـ CF. The Travels Of Pedro Teixiera With His Kings Of Hormuz Translated by William F. Sinclair Hakluyt Society London 1902 See Ralation Of The Chronicle Of The Kings Of Ormuz PP. 265 — 266 —

١٢ ـ لم تحصل هرمز على شهرة تجارية فحسب بل حصلت على شهرة في عالم الادب حين اشاد بها الكتاب والشعراء وعلى رأسهم الشاعر الانجليزي جون ملتون Melton في ديوان الفردوس المفقود The Lost Paradise حيث اورد بيتا من الشعر جاء فيه

If all The World Were Mere a ring
Ormuz The Diamond should bring

انظر دونالد هولي عمان ونهضتها الحديثة ص ٢٦ ( مترجم ) نشر مؤسسة ستايس الدولة

١٣ـ عن خضوع هرمز للسيطرة البرتغالية انظر
The book Of Durate Barbosa by mansil Dames VoL I PP 101 — 103
CF An Account Of The Countries bordering on The Indian Ocean and their inhabitants Written by Durate Barbosa and Completed about The year 1518

١٤ ـ مصطفى عقيل التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ ـ ١٧٦٣ ص ٢٠ بيروت ١٩٨١

١٥ ـ علي عبدالرحمن ابا حسين من تاريخ البحرين خلال المخطوطات والوثائق انظر ابحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج العربي ص ٢٤٦ ابوظبي نوفمبر ١٩٧٩

١٦ ـ علي عبدالرحمن ابا حسين دراسة سبق ذكرها ص ٢٤٦

١٧ ـ عائشة السيار دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ ص ص ٢٢/٢٣ بيروت ١٩٧٥

١٨ ـ جون كيلي بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ـ ١٨٧٠ ترجمة محمد امين عبدالله الجزء الاول ص ١٧ ـ وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ١٩٧٩

١٩ ـ حميد بن محمد بن رزيق الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسى عبدالله ص ص ٢٧٥/٢٦٠ وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٧٧ راجع ايضا ابو سليمان محمد بن عامر المعولى قصص واخبار جرت في عمان ( مخطوط ) ورقة رقم ٤٣ وكذلك محمد بن عبدالله السالمي عمان تاريخ يتكلم ص ص ١٥٢/١٥٣ دمشق ١٩٦٣

٢٠ ـ عبداللطيف ناصر الحميدان التاريخ السياسى لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية العدد ( ١٦ ) من مجلة كلية الاداب جامعة البصرة ١٩٨٠

٢١ ـ F. Adamyiat : Bahrain Islands — A legal & Diplomatic Study Of British Iranian Controversy P. 14 New york 1955

٢٢ ـ صلاح العقاد التيارات السياسية في الخليج العربى ص ص ١٠/١١ القاهرة ٧٤

٢٣ ـ الزرافين عملة برتغالية وكان يعادل ثلاثمائة ريال CF. Werdell Philips Oman A History PP. 37 — 39 London 1967

٢٤ ـ عبدالامير محمد امين المصالح البريطانية ١٧٤٧/١٧٧٨ ( مترجم ص ٩ منشورات مركز دراسات الخليج العربى ـ بغداد ١٩٧٧

٢٥ ـ اربولد ويلسن تاريخ الخليج ترجمة محمد امين عبدالله ص ص ٦٩/٧٠ وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٨١

٢٦ ـ ج ج لوريمر دليل الخليج ـ القسم التاريخي ـ الجزء الاول ص ٨ ـ الدوحة ١٩٦٧ انظر ايضا صالح أوزبران البرتغاليون والاتراك العثمانيون في الخليج العربى ـ ترجمة الدكتور عبدالجبار ناجى ـ ص ص ١٩/٢٠ منشورات مركز دراسات الخليج جامعة البصرة ١٩٧٩

٢٧ ـ ابن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور ح ٥ ص ٢٧١

٢٨ ـ الحميدان دراسة سبق ذكرها مجلة كلية الاداب ـ جامعة البصرة ١٩٨٠

٢٩ ـ ابن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور تحقيق محمد مصطفى ـ المجلد الخامس ص ٤٣١ القاهرة ١٩٦٠

٣٠ ـ اربولد ويلسون الخليج العربى ص ص ٧٩/٨٠ انظر ايضا عباس اقبال مطالعاتي درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس ص ص ٦٣/٦٥ ـ القاهرة ١٩٥٦

٣١ ـ جمال زكريا قاسم الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الأوروبى الاول ١٥٠٧/١٨٤٠ ص ٧٩/٨٠

٣٢ ـ Wendell Philips, Oman A History P. 39 .

٣٣ ـ عائشة السيار دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا ص ٢٨ ولمزيد من التفصيل عن العمليات العثمانية فى الخليج العربى ضد البرتغاليين راجع صالح اوزبران البرتغاليون والاتراك العثمانيون فى الخليج العربى ، من منشورات مركز دراسات الخليج العربى جامعة البصرة ١٩٧٩

٣٤ ـ CF. Boyer, New Light on the Relation ship Of Oman and Portuguese, Proceedings of Omani Studies — Muscat November 1980 .

# قراءة في الوثائق الهولندية المكتشفة حديثاً

بقلم : احمد جلال التدمري

واجه الخليج العربي منذ القدم هجمات أجنبية وأطماعا دولية للسيطرة عليه واقتناص ثرواته، ولاتخاذه معبرا للتجارة بين الشرق والغرب وبعد ان كان الخليج أشبه بالبحيرة العربية تقطن سواحله شرقيها وغربيها القبائل العربية المعروفة بأصالتها وبعراقتها، انتشرت على شواطئه الشرقية وبعض جزره المراكز الأجنبية من برتغالية وانجليزية وهولندية وفارسية حتى كانت حملات التحرير العربية التي أجلت البرتغاليين وواجهت الفرس والانجليز والهولنديين

إن البحث عن الوثائق والمعلومات التاريخية المسندة يبقى هاجسا دائما يراود كل باحث ودارس في هذا الميدان، لربط الأحداث والكشف عن الحقائق والتوثيق من الروايات التي حلها ذات مصادر أجنبية

وخلال البحث والتنقيب عن الوثائق التاريخية ذات الصلة بخليجنا العربي وبتعاون من الجهات الأرشيفية الرسمية عثرت على عدد من الوثائق الهولندية التي كانت مجهولة ونظرا لأهميتها التاريخية وجدت من واجبي كباحث أن أضمنها هذه الدراسة

ودراستي هذه بمثابة المطالعة للوثائق التاريخية عن مرحلة حساسة من تاريخنا تشمل فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ومن ثم الربط بينها في نسيج يوضح حقيقة الوقائع ومسيرة الأحداث لتعكس في النهاية صورة عن الماضي القريب والبعيد الذي لا زالت مؤثراته وذيوله ممتدة الى واقعنا الحاضر وربما الى المستقبل المعاش قريبه وبعيده

## القوة البحرية في الخليج العربي

شغل القواسم منذ مطلع القرن السابع عشر زعامة البحر وقيادة السفن الحربية إبان عهد الدولة اليعربية إضافة إلى أن سفنهم التجارية كانت تجوب الخليج وشواطىء شرق إفريقيا وموانىء الهند، والبحر الأحمر

وفي أواخر عهد اليعاربة برز القواسم ومن خلفهم قبائل الساحل كأبطال نضال ضد المستعمرين وكزعماء في الساحل الشرقي والغربي وجزر[1] الخليج العربي ومن خلال زعامتهم القبلية التي انفردوا بها في الساحل الشرقي للخليج منطقة بندر لنجة وجزيرة قشم وما جاورها وساحل الشميلية على الشاطىء الشرقي للامارات المطل على خليج عمان والتي ازدهرت فيها مدن دبا وكلبا وخورفكان وكذلك الشاطىء الغربي للامارات مثل مدن رأس الخيمة والشارقة، كان للقواسم دور مشهود في مقارعة الغزاة ودحر المحتلين

أطلق أسم الهولى على القبائل العربية التي تقطن الساحل الشرقي للخليج العربي ومعظمها من قبائل آل سميط والعتوب والدواسر والمرازيق وآل بوعلي والمطاريش في بوشهر والرعاب في بندر ريق، إضافة الى القواسم الذين تركز وجودهم في جزيرة قشم وبندر لنجة ولاراك وما جاورها إلى جانب وجودهم في مدن الساحل الغربي للخليج

لقد كان التماسك العربي في حوض الخليج العربي شرقيه وغربيه قويا في مقارعة الاحتلال البرتغالي وفي التماسك بين القبائل العربية على كلتا الضفتين وفي المناطق الداخلية لعمان مما أضاف لدولة اليعارية قوة مكنتها من إنجاز الكثير من المهام التحريرية ففي عام ١٦٢٠ تمكن العرب بالتعاون مع الفرس من طرد البرتغاليين من

موقع احتلوه على الساحل الغربي للخليج قرب جلفار ـ رأس الخيمة[٢] الا أن الفرس هادنوا بعد ذلك البرتغاليين وعقدوا معهم في عام ١٦٢٥ إتفاقية صلح اعترف فيها البرتغاليون بانتقال هرمز وقشم الى الشاه عباس مقابل حصولهم على نصف العوائد الجمركية في كنج بالقرب من لنجة وهكذا ساءت العلاقات العربية الفارسية بسبب مهادنة الفرس للبرتغاليين وخاصة أن البرتغاليين كانوا لا يزالون يحتفظون بقوات لهم في برج حصين قرب جلفار، مما جعل هذا التحالف ينقلب الى احتلال فارسي لحصن الصير واحتلال برتغالي لحصن آخر بالقرب من جلفار، إضافة الى وجود سفن حربية برتغالية في ميناء جلفار وهكذا كان لزاما على القوات العربية في عهد الامام ناصر بن مرشد أن تتوجه لتحرير هذه المواقع من المحتلين[٣] حيث وقعت معارك عنيفة في مواجهة القوات الفارسية والبرتغالية ورغم التمركز القوي والمحصن للقوات الفارسية والبرتغالية فقد تمكنت القوات اليعربية بقيادة/ علي بن احمد من تحرير حصن الصير بعد معارك رهيبة سارع خلالها البرتغاليون بإمداد الفرس بالأسلحة والسفن إضافة الى إطلاقهم نيران مدافعهم على القوات العربية المحاصرة للحصن تدعيما من البرتغاليين للفرس، وكادوا بهذا الدعم أن يحولوا بين العرب وبين تحرير الحصن، إلا أن شجاعة القوات العربية وتصميم قائدها على النصر أو الموت أدى الى تمكنه من الاستيلاء على الحصن وطرد المحتلين منه[٤]

وبإحراز القوات العربية اليعربية لذلك النصر في تلك المعركة تمكنت من حصر النفوذ البرتغالي داخل القلعة التي تقوقعوا فيها حيث أجبروا فيما بعد وإثر معارك ضدهم على الاستسلام للقوات العربية وطلب الأمان

إن روح العرب العمانيين العالية وتصميمهم على النصرواسترداد الحقوق والذود عن حياض الأرض والمياه العربية جعلتهم يتبوأون مكانة عالية في المنطقة وبلغت القوة البحرية العربية بالذات في عهد الامام سيف بن سلطان اليعربي أقصى قوة لها فأخذ بمقاتلة القوى المعادية البرتغاليين في المحيط الهندي والفرس في مياه الخليج العربي[٥] فقد تحركت قوة بحرية عربية قوامها الف وخمسمائة مقاتل لمهاجمة منطقة كنج الخاضعة للفرس القريبة من بندر لنجة العربي على الشاطىء الشرقي للخليج العربي وقضت هذه القوة على قوات الفرس واستولت على الكثير من الثروات وكبدتهم خسائر فادحة، مما أدى بالفرس الى طلب العون من الوكالات الانجليزية لوقف أو إعاقة القوات العربية من التقدم نحو فارس ومن تم لمهاجمة مسقط وكان الهولنديون أيضا على استعداد لتقديم

# البحارة العرب في أسطول نادر شاه

## يرفضون محاربة إخوانهم على الشاطئ العربي

المساعدة للفرس مقابل أن تقدم السلطات الفارسية لهم تسهيلات تجارية. إلا أن الفرس تراجعوا عن فكرة مهاجمة مسقط[٦] لتقديرهم بأن الهجوم لن تكون نتائجه في صالحهم

واستمرت بعد ذلك محاولات تكوين جبهة فارسية برتغالية ضد التفوق البحري العربي في أواخر القرن السابع عشر ففي عام ١٦٩٦ وصلت الانباء الى الامام سيف بأن هناك اتفاقا بين الفرس والبرتغاليين لمهاجمة مسقط ولهذا بادر الامام بشن هجوم مفاجيء على أكبر المراكز البرتغالية في منطقة مانجالور فقضى بذلك على محاولتهم في مهدها ومنع الحليفين من بلوغ أهدافهما[٧]

وإثر هذه المعركة يئس الفرس من الدعم البرتغالي فتوجهوا الى القوى البحرية الجديدة في الخليج وهي الانجليزية والهولندية يطلبون مساعدتها ضد اليعاربة الا أن الانجليز وقفوا على الحياد في الصراع العربي الفارسي نظرا لعدم تعرض قوات الامام سيف للتجارة والسفن الانجليزية

وفي عام ١٧٠٧ قام الاسطول العربي بأسر عدد من السفن والقوارب الفارسية، وفي عام ١٧٢٠ استولى الاسطول على عدة جزر من أهمها جزيرة قشم، وقد أغضب ذلك الفرس فأرسلوا جيشا يقوده/ علي خان/ الى بندر عباس لاستعادة هذه الجزر، لكن غزو الافغانيين لبلاد فارس أرغم هذه القوة على التراجع نحو كرمان دون أن تحقق شيئا من مهمتها[٨]

لم تكن للفرس قوة بحرية خالصة منهم، لذلك حاولوا لتحقيق اهدافهم الاستعانة بالبرتغاليين والانجليز والهولنديين والفرنسيين، ليحاربوا بدلا منهم[٩] وباعتبار أن سكان الخليج العربي على شاطئيه الشرقي والعربي معظمهم من العرب وان القبائل الفارسية موطنها البلاد الداخلية والجبال. لذلك لجأ نادر شاه ملك الفرس الى العرب عندما قرر إعداد اسطول حربي ليواجه به البرتغاليين فجند منهم بحارة ونواخذة لذلك الاسطول. لكنه لم يستطع استغلالهم وتوجيههم لمحاربة

اشقائهم العرب في مسقط والساحل العماني. فإن شعورهم القومي وإنتماءهم العربي جعلهم يرفضون محاربة أبناء جلدتهم رغم السيطرة الفارسية عليهم وعلى بلدانهم ورغم عملهم تحت راية ذلك الاسطول لذلك شهدت حملات الاسطول الفارسي ضد العرب عصيانا من البحارة العرب وتمردا عنيفا كثيرا ما أدى الى إيقاع ضربات بذلك الاسطول وبالبحرية الفارسية مما جعلها تحقق كثيرا في هجماتها على السواحل والموانىء والجزر العربية

وذكرت وثيقة هولندية اكتشفت حديثا تناولت معلومات دونها المعتمد الهولندي في بندر عباس في ٨/١٠/١٧٣٨ انه ـ وردت أنباء من جيش الشاه في الجانب الغربي العربي للخليج حول الانتصارات على الفرس، مثل طرد العرب للفرس من مسقط ووضعهم تحت الحصار في جلفار برا وبحرا مع بحريتهم لهذا السبب فإن حركة التنقل للفرس قد أغلقت، كما أن سفن الشاه قد حوصرت وبمعركة بحرية أحرق بعضها على الشاطىء ومن السفن الفارسية التى انحرفت الى الشاطىء السفينة الكبيرة/فالتي شاه/بينما هوجمت ايضا سفينة بريطانية ضخمة كانت قد أجرت إلى الفرس وكانت حتى ذلك الوقت لا زالت في ميناء جلفار وقد أسر قائدها واثنان من بحارتها ( ١ )

وكان من نتائج حملات نادر شاه على عمان لاحتلال مسقط تمرد البحارة العرب في الاسطول الفارسي، وقيامهم بقتل القائد الفارسي/علي خان/في مسقط، واستولوا على عدد من قطع الاسطول الفارسي وهاجموا مدينة باسيدو في جزيرة قشم ثم توجهوا نحو خورفكان طلبا لحماية الحاكم القاسمي

وكانت ردة الفعل قاسية على نادر شاه فطلب النجدة من الهولنديين والانجليز الذين أمدوه بسفينتين حربيتين هولنديتين وحوالي عشرين سفينة من نوع الغراب، وتوجهت هذه القوة مع سفن اخرى اعدها تقي خان القائد الفارسي نحو رأس الخيمة وخورفكان لمقاتلة القواسم وفي ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٤٠ التقت قوات تقي خان بالاسطول القاسمي فكانت الغلبة للقواسم مما اضطر الحملة الفارسية الهولندية الى الانسحاب لجزيرة قشم فلحقها الاسطول القاسمي وأجبرها على الهرب الى ميناء كينج الفارسي وعاد بعدها الاسطول القاسمي الى قواعده سالما (١١)

ولكن ذلك لم يترك لنادر شاه أن ييأس، فأخذ يتابع تحرك السفن العربية وعين قائدا بحريا جديدا هو السردار/فردي خان الذي تحرك الى جزيرة قيس عندما علم بأن البحارة العرب المتمردين على الاسطول الفارسي السابق ينزلون فيها

واصطحب معه سفينتين هولنديتين كان قد احتجزهما في بندر عباس ووصول القائد الفارسي الى جزيرة قيس ومعه قواته واسطوله التحم في قتال شديد مع البحارة العرب أصيب خلاله السردار بجرح قاتل مات على إثره وتراجع اسطوله خاسرا إلى بندر عباس

وقد ادت الخسائر المتواصلة لاسطول نادر شاه والفشل الذي مني به الى تخلي نادر شاه عن إنشاء قوة بحرية فارسية في منطقة الخليج العربي ولم يكن ذلك مفاجأة للقوة الاجنبية في الخليج فقد تنبأ بذلك الفشل وكيل شركة الهند الشرقية الانجليزية في بندر عباس حين قال - [إننا نعتقد بأن مشروع نادر شاه في تاسيس الاسطول الفارسي غير ناجح وان نجاح الاسطول الفارسي سيتوقف على تعاون العرب مع الفرس. أما الفرس فإنهم بطبيعتهم يكرهون ركوب السفن ][١٢] ويقول السير بيرسي المهتم بالشئون الفارسية مؤكدا جهل الفرس بشئون البحر وعلل هذه الظاهرة تعليلا جغرافيا إذ لاحظ أن السواحل الشرقية للخليج العربي مفصولة عن الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة[١٣] يقطن خلفها الفرس. في حين كان معظم القاطنين على الساحل الشرقي للخليج من العرب

ورغم محاولات نادر شاه وغيره من ملوك الفرس القضاء على الوجود العربي على الشاطىء الشرقي للخليج باحلال القبائل الفارسية مكانهم فإن هذه السياسة لم تنجح تماما فقد بقي للعرب وجود

لم يوهن التحالف العدواني الانجليزي الهولندي الفارسي من عزيمة العرب، بل زادهم تصميما على التضحية والفداء ويقول جان جاك بيربي في وصف أعمالهم الفدائية - (وأخذوا يقومون بأعمالهم تلك وهم مرتاحو الضمير، لانهم إنما يفعلونها لتحرير بلادهم ) ويقول مالكولم - (ولو كنت أسيرا لديهم وقدمت لهم كل ما تملك مقابل حياتك، لرفضوا ذلك بإباء وشمم وقالوا - إننا لا نسرق الأحياء[١٤]

شكل تحرير مدينة جلفار في عام ١٦٣١ من الاحتلال الفارسي والبرتغالي نصرا مؤزرا للدولة اليعربية وقد كان ذلك الجيش العربي مسندا بالقواسم الذين شاركوا في تلك المعركة، وقد برز في ذلك الزعيم القاسمي - كايد بن عدوان - الذي شارك في القتال[١٥] ثم برز القائد القاسمي رحمة بن مطر خلال الأحداث الداخلية وخاصة في وقائع معركة المصنعة أو معركة بركا في عام ١٧٢٣ وكان قد وطد ملكه في رأس الخيمة في موقع المعيريض أحد أحياء مدينة رأس الخيمة اليوم ثم توسع في إمارته حتى شملت خورفكان[١٦]

ويذكر أيضا أن قوة يعربية اتجهت في عام ١٧١٦ الى جزيرة قشم وفي

طريقها توحدت مع قوات قاسمية أرسلها الشيخ رحمة بن مطر من بلدة الصير ـ رأس الخيمة ـ بهدف السيطرة على الجزيرة وتحريرها من الاحتلال الفارسى، حيث أن سكان الجزيرة من القبائل العربية من بني معين وغيرهم وقد تمكنت القوات اليعربية القاسمية من النزول فى الجزيرة والسيطرة عليها، وأسس القواسم فيها محطة تجارية[١٧] تم حاولت هذه القوات العربية السيطرة على هرمز، إلا أنها لم تنجح، فتركتها واتجهت لتجهيز نفسها والاستعداد لمهاجمة البحرين

وبقيادة سلطان بن سيف الثاني توجهت قوات الدولة اليعربية والقواسم في صيف عام ١٧١٧ نحو البحرين لتخليصها من الاحتلال الفارسى وبعد قتال طويل وعنيف بين الطرفين تكبدا فيه خسائر فادحة في الأرواح والمعدات هرب القائد الفارسي من البحرين إلى فارس فدخلها الأمام سلطان بن سيف بقواته ومعه مراكب العواصين البحرينيين، وأعاد هناك بناء قلعة عراد الشهيرة[١٨]

ويذكر أنه فى عام ١٧٢٤ تولى الشيخ رحمة بن مطر زعامة القواسم بعد وفاة أبيه وسجل مطر بطولة مشهودة في حملة بحرية غادرت في عام ١٧٢٦ رأس الخيمة لاستعادة جزيرة قشم فنزلت القوات القاسمية في ميناء باسيدو مما أثار مخاوف شركة الهند الشرقية البريطانية التي أرسلت وحدات بحرية مكونة من السفينة (بريطانيا(BRITANNIA)) والسفينة (بنغال (BANGAL)) وسفن اخرى أخف منها للحراسة وبعد معارك شديدة انسحب القواسم الى الصير فى رأس الخيمة، وارسل الانجليز وفدا الى الشيخ مطر ليفاوضه بدفع تعويضات عن الخسائر البريطانية بسبب تلك العملية وعلى ما يذكر بأن تلك الحادثة هي أول صدام مسلح مباشر بين الانجليز والقواسم[١٩]

وكما هو معهود من الحمية العربية عند دولة اليعاربة والقبائل العربية فى الخليج العربي والتي شهد لها التاريخ بطولاتها عندما طاردت قوات اليعاربة البرتغاليين من سواحل افريقيا الشرقية، فأجلتهم عن زنجبار وممباسة في سنة ١٦٦٢ فعاشت تلك البلاد في استقرار وازدهار إلى أن امتد التسلط البريطاني في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر الى شرق أفريقيا مما دعا زعماء تلك البلاد الى الاستنجاد بسليل زعماء البحار في الخليج وبحر العرب الشيخ سلطان بن صقر القاسمي فكتبوا [٢٠] يستنجدونه على المستعمرين الانجليز الذين حلوا بلائهم على العباد والبلاد فى تلك البقاع ومما جاء في رسالتهم الى الشيخ سلطان ـ «الموصوف بأقل صفاته المعروف برشح صفاته سلطان بن صقر القاسمي حرسه الله في حياته من فضيحة وفقر، وفي آخرته عن السعير

وصقر ومراد الورقة السلام عليكم وايصال اخبارنا إليكم وتذكير طاعتنا وشوقنا لديكم، اقول لك يا أمير المؤمنين متع الله بحياتكم المسلمين وأيد الله بك الدين ونصر بجندك المجاهدين فإن ملوك أهل الاسلام ضيعوا الشريعة، ولينوا أركانها المنيعة، ونادوا سلاطين الكفار، واستمدوا على أهل الأمصار حتى انزلوا القرين في عدن سمية الجنة واقدم مسكن احلهم الله دار البوار وانتقم منهم بعذاب النار وذلك من الرعب المقذوف في قلوبهم، وهذا من حملة عيوبهم والواجب عليكم تقويمهم، لاقامة الحنيفية وإظهارها ولذب رافضيها عنها وإشهارها ونحن اهل بادية واصحاب ماشية لكننا اولو قوة واولو بأس شديد واصحاب حرد ومرد وعد عديد لكننا نأوون عن الساحل لا نصله إلا بشق الأنفس والرواحل لكن بحمد الله قد طلع من الساحل نجم ثاقب وأسد رابض راقب، لزم والزم التوحيد ونفى الشرك والتنديد وهو السلطان الصالح الناصح الحاج العاقل فارح سلمه الله وحياه وحرسه وهداه وبياه، فصار واسطة بين الطرفين ومأوى لكلا الفريقين وقد بحث هو وسلاطين المسلمين بالاستخبار وساس قوانينهم باعتبار فتحصل له من مناقبك ما أسر خواطره، وحرك مشاعره ولميثاقه مع محمد بن سالم بن علي، عليه رحمة ربه العلي عن المنكر وذكرهم بهول القيامة

والمحشر وأطع الله وأطع الرسول اذ كل راع عن رعيته مسئول، وجاهد الكفار والمنافقين وأقم الحدود على الكافرين والزناة والسارقين فلا يجوز لك ان تهادن الكفار فوق أربعة أشهر، ووجب علينا إتباع الأمير الموحد المجاهد الامر الناهي القائم المساعد ونحن معدودون من رعيتك ومستريحون بمعيتك فساعدنا بيدك ولسانك، لقوله صلى الله عليه وسلم (المؤمنون يد واحدة على من سواهم، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا) ونحن، محتاجون إلى مدد وحتى كلامك يكفينا إذا أمرت السواعي المسافرة إلينا، أن يقوموا معنا ويجاهدوا في سبيل الله، بحيث إذا جاءوا عندنا ما يخالف أحد من الصومال لأنهم يهابون إذا سمعوا أن السلطان ابن صقر قائم للجهاد فيهابون ويقولون كلهم نحن من رعيته هذه السواعي المسافرة تكفينا بحول الله وقوته وما ترى ان شاء الله إلا وهم داخلون تحت طاعته في سنة واحدة ولا يضر هذا البعد الذي بيننا لأن السواعي مقربة تحمل الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس

واضافت الرسالة –

فاجتهد في ضم ملك الصومال الى ملكك فان المملكة سعادة لمن أدى حقها شقاوة لمن طغى وآثر الحياة الدنيا فيجب عليك أن تعاوننا باليد واللسان ويجب علينا السمع والطاعة . فيجب عليك أن تمدنا برجال وأموال

وتساعدنا بسواعي وأقوال، لأنك اذا أمرت السواعي المسافرة، والرجال المسافرة بالتناقيق والسفن ويحاربون معنا، الكلاب والكفار والعفن

فسأل لك بوجه الله الذي لا يجوز رد السائلين به أن تساعدنا وتمدنا بالاعانة الواجبة عليك، لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما معناه (أن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه) ويجب علينا السمع والطاعة، وعلى الله نصر المؤمنين فالله الله لا تتساهل في كلامنا هذا فانه مجلب الظفر ومعلم النصر ومكسب الاجر وتوكلوا على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه

«ان الله بالغ امره، انا لننصر رسلنا والذين آمنوا كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، أن الله قوي عزيز وكان حقا علينا نصر المؤمنين، أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون والغالبون وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين، وما يعلم جنود ربك الا هو»

وقد نزلت من البادية البعدى، الى قرى الساحل القربى، عند الحاج الأفخر، والسلطان الأعز فارح حرسي وأنا منتظر منك سعده الى الفتوح والأمر كله لله واليه يرجع الأمر كله وجيوش البادية علينا، ولو تبغي ثلاثين ألف خيال لكن ما لنا قوة في البحر غير الحاج فارح. لكن أصحابه وبنو أعمامه لا يقومون للحق ويحسدون عليه، واذا جاءت سواعي منكم وذكروا أنك قائم معنا يهتابون ولا يتكلمون بكلمة، ولا يقدرون أن يخالفوننا، فان لم تقدر ترسل لنا سعده مستعدة، فالله الله، قل للمسافرين الجائين من أراضيهم، أرسلنا السلطان صقر لنجاهد الكفار الذين في أرض الصومال مع الحاج علي والحاج فارح، فان ذلك ينفعنا نفعا جما، وان لك فيه أجرا لما فأعينونا بقوة حتى نجاهد الصومال وندخلهم في الاسلام والايمان باذن الله الرحمن، ونملك فيهم بعون الله الملك المعبود لما سمعنا فيك من الخصال الحميدة والمناقب العديدة والفضائل السعيدة، والفواصل المفيدة فأحببنا أن نكون لك عساكر مجاهدين وفوارس مساعدين »

وذكرت المصادر التاريخية أن الشيخ سلطان بادر الى مديد العون والمساعدة ولم يتأخر عن تلبية نداء إخوانه في الدين في الصومال فأرسل لهم ما يمكن إرساله من الرجال والسفن (٢١)

## التجارة واجهة للغزو :

اعتمدت هولندا وانجلترا في دخولهما إلى البحار الشرقية ومنطقة الخليج العربي على أسلوب تشكيل شركات تجارية خاصة أو مشتركة مع السلطات الحكومية في موطنها حتى يكون تعاملها مع تلك البقاع مقبولا ومرحبا به من الأهالي ومن زعماء تلك البلاد في حين فشلت الاساطيل الحربية الغازية التي قصدت احتلال

بلدان أو جزر بالقوة ومن ثم تسيير مصالحها التجارية كما فعل البرتغاليون

لهذا استطاع الانجليز والهولنديون التسلل إلى منطقة الخليج وغيرها من البلاد الواقعة شرقي افريقيا رغم أنهم وفروا لسفنهم التجارية ولمقار وكالاتهم الحماية العسكرية مما حولهم فيما بعد إلى مستعمرين ومحتلين لبعض تلك المناطق

وكمثال على ما تقدم سبق لتاجر انجليزي يدعى/ ريتشارد شان Richard Chan أن أسس في عام ١٥٥٥ شركة تحت اسم (شركة روسيا)[٢٢] إثر رحلته البرية الى روسيا في عام ١٥٥٣ ومن ثم رحلة لبعثة شركته الى بلاد فارس برئاسة انتوني جانكسون للحصول على الحرير الفارسي وكان ذلك في عام ١٥٦١

وكذلك رحلة التاجر الانجليزي/ نيوبري New Berta في عام ١٥٨٠ عبر بلاد الشام والتي اعقبتها رحلة أخرى رافقه فيها عدد من التجار الانجليز مثل / رالف فيتش ووليام ديدار وجيمس ستوري وقد أثمرت هذه الرحلات قيام معاملات تجارية مفيدة

وفي حين كان التجار الهولنديون يقومون بدور تجار التجزئة بشرائهم البضائع الشرقية من لشبونة وبيعها في الدول الأوروبية الاخرى[٢٣]، كان البرتغاليون يحتكرون التجارة مع الشرق ويسيطرون على تلك البلاد وعلى الطرق الموصلة إليها

وفي ٣/١٠/١٦٠٠ أسس مجموعة من التجار الانجليز شركة خاصة للاتجار مع الشرق مباشرة لاستيراد التوابل والحرير والعقاقير والعطور واللؤلؤ والمجوهرات مقابل تصدير البضائع الانجليزية من المنسوجات القطنية والنحاس والقصدير واختاروا أسما لها هو (محافظ وشركة تجار لندن الذين يتاجرون مع الهند الشرقية) تحول فيما بعد الى / شركة الهند الشرقية[٢٤] واتخذت هذه الشركة شكلا رسميا إثر إصدار الملكة اليزابيث الأولى مرسوما يمنحها الحق المطلق في احتكار التعامل التجاري مع الشرق

وبذلك اقتحمت هذه الشركة أبواب الهند ومن ثم بلاد فارس ومنطقة الخليج العربي حيث اكتسبت مكانة وقوة بما لقيته من دعم عسكري ورسمي بريطاني جعلها تتحكم في المنطقة وأدت الى دخول الاستعمار البريطاني إلى معظم مناطق شرق السويس مستعينة بالتحركات السياسية والصلات الدبلوماسية ومن ذلك ما عرضه مبعوث الملك جيمس على الشاه عباس في عام ١٦١٧ لانشاء مؤسسات تجارية إنجليزية في فارس مقابل تعهد بريطانيا بالوقوف عسكريا الى جانب فارس إذا تعرضت لغزو أجنبي[٢٥]

وإثر بدء انحسار التسلط البرتغالي عن منطقة الخليج العربي أخذ الهولنديون والانجليز في التقدم للحلول مكان البرتغال في المنطقة مخالفين بذلك الامر البابوي [٢٦] الذي منح ممتلكات الشرق للبرتغاليين وممتلكات العرب للاسبان وهما الدولتان الأكبر سطوة واتساعا في اكتشافاتهما البحرية وتجارتهما الخارجية

وبينما كان التجار في البلاد الواطئة يتعاملون مع التجار البرتغاليين في لشبونة كتجار تجزئة فيقومون بتصريف بضائعهم في البلاد الواطئة والبلاد الاوروبية الاخرى، وكنتيجة لما واجهوه من مضايقات في تجارتهم مع البرتغاليين إضافة الى ضعف التسلط البرتغالي اتجهوا للتعامل مباشرة مع بلاد الشرق

ففى عام ١٥٩٢ عقد كبار التجار الهولنديين اجتماعا في امستردام قرروا فيه انشاء شركة للتجارة مع الهند ونظرا للسرية المطلقة التى فرضها البرتغاليون على الطريق الى الهند انتدبت الهيئة التجارية الهولندية عنها المستر/ كورنيليوس دى هوتمان الى لشبونه لجمع المعلومات حول التجارة البرتغالية مع الهند كما استطاعت الشركة الهولندية الحصول على المعلومات المطلوبة من الأسقف الهولندى/ هيوبن فان لينشوتن Hubhen Van Linschoten [٢٧] وقد عاد في عام ١٥٩٢ من رحلة الى الهند كأمين سر لكبير اساقفة جوا البرتغالى الذى كان يعرف نقاط القوة والضعف في تعامل البرتغاليين مع بلاد الشرق ونشر بعد عودته اسرار الطريق الى الهند، وقد ضمت هذه المعلومات نتائج ابحاثه ودراساته مع ملحق خاص أوضح فيه المعلومات البحرية عن حركة السفن التجارية والرياح والتيارات والموانىء والجزر في الطريق الى الهند

وفي عام ١٥٩٤ اجتمع تسعة من تجار شمال هولندا في أمستردام لمتابعة الموضوع وقرروا تأسيس شركة اطلقوا عليها اسم ( شركة الاراضى البعيدة Company of Far Land ) [٢٨] وأرسلوا في عام ١٥٩٨ اسطولا تجاريا الى جزر الهند الشرقية عبر طريق الرجاء الصالح لاحتكار تجارة التوابل في الشرق يحمل تفويضا رسميا من الحكومة الهولندية بالعمل الحربى والسياسى والتجاري

حقق الاسطول نجاحا عظيما فقد استطاع فتح ارخبيل جزر الهند للتجارة مع هولندا بعد ان عبر رأس الرجاء الصالح وعقد اتفاقية تجارية بين هولندا وملك بانتام كما حقق ارباحا مالية بلغت اكثر من ٨٠ الف فلورين وذلك بالرغم من فقدانه عددا كبيرا من بحارته وغرق إحدى سفنه

يعزو المؤرخون نجاح هذا الاسطول الى خبرة ودراية قائده/ كورنيليس هوتمان Cornelis Houtman الذى سبق له زيارة الشرق عدة مرات وجمع معلومات

مهمة عن الطرق البحرية للشرق

وتوالت رحلات الاساطيل التجارية والهولندية الى الشرق حتى انه قدر عدد السفن التجارية الهولندية التى زارت الشرق وجنوب شرق اسيا فى عام ١٦٠١ بخمس وستين سفينة، سيطر الهولنديون خلالها على عدد من المستعمرات البرتغالية فى أرخبيل اندونيسيا وانشأوا عددا من المستعمرات فى تلك الارجاء

وامام هذا النجاح والتوسع الهولندى تنادى التجار الهولنديون الى اجتماع فى ٢٠/٣/١٦٠٢ بتوجيه من الرئيس الهولندى/ جوهان فان أولدن بورنوفلت Johan Van Olden Bornovelt وقرر التجار توحيد مؤسساتهم تحت اسم شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ٦,٥ مليون فلورين وتم دعم الشركة بمرسوم اصدره مجلس طبقات الامة يمنح بموجبه الشركة حق احتكار التجارة فى الشرق وخولها سلطات واسعة فى عقد المعاهدات والمحالفات والاتفاقيات لفتح ما تشاء من الاراضى وتأسيس القواعد وغير ذلك لمدة واحد وعشرين عاما (٢٩)

واستطاع الهولنديون كسب ود الدولة العثمانية من خلال اعترافهم بتبعية اليمن للدولة العثمانية، وقامت السفينة الهولندية/ تاسو/ بقيادة بيتر فاندون بروكة بزيارة لموانىء اليمن ووصل الى مسقط وحصل على كتاب من باشا صنعاء يأمر فيه رعاياه باستقبال الهولنديين فى كل مكان

نجح الهولنديون بعقد معاهدة فى عام ١٦٠٤ مع امبراطور مليبار الهندى تنص على طرد البرتغاليين من الهند

وفى عام ١٦١٨ أصدر السلطان العثمانى فرمانا يخول الهولنديين حق مزاولة التجارة بالبحر الأحمر، لكن الهولنديين استولوا على مجموعة من السفن البرتغالية التجارية مما أثار سخط تجار عمان وجنوب الجزيرة وأدى الى قيام السلطات العثمانية بطرد المعتمديات التجارية فى جنوب الجزيرة وعدم تجديد امتيازاتها (٣٠)

ونجح الهولنديون ايضا فى الاتفاق مع شاه فارس ـ الشاه عباس ـ على حصولهم على حصة من الحرير الفارسى والذى لم يستطع الا الموافقة باعتبارهم ساهموا مع الانجليز فى عام ١٦٢٥ بالحرب ضد البرتغاليين وفى إجبارهم على التخلى عن هرمز فكان ذلك الاتفاق بداية لتوطيد اقدام الهولنديين فى منطقة الخليج العربى وبوفاة الشاه عباس فى عام ١٦٢٩ خسر الانجليز صديقا وفيا لهم فى حين وطد الهولنديون اقدامهم فى فارس واستطاعوا ان ينتزعوا من الانجليز حصة الاسد بتجارة الحرير ولم ينتهِ عام ١٦٤٠ حتى كان للهولنديين مركز الصدارة فى الخليج العربى ويهيمنون على التجارة مع بلاد فارس. بينما كان البرتغاليون مازالوا يحاولون دون جدوى استرجاع منزلتهم التى فقدوها فى الخليج (٣١)

## الحملات ضد العرب:

لقد كان اندفاع القوى الاجنبية للسيطرة على الخليج العربى ذا محورين الأول فارسيا والثانى اوروبيا مع تدخل هذين المحورين ضمن دائرة واحدة يعمل الفرس على اشغالها كلية عن طريق التحالف مع أية قوة اوروبية تزحف نحو الخليج العربى للسيطرة عليه وضرب القوى العربية فيه ومن ثم الانفراد بالهيمنة على المنطقة (٣٢)

ففى مطلع القرن السادس عشر اندفع البرتغاليون نحو البحار العربية للتحكم بها والاستيلاء على منافذ التجارة العربية بين الشرق والغرب فكان احتلال جزيرتى هرمز وقشم ومن ثم فرض البرتغاليون سيطرتهم على موانىء الخليج العربى فى كل من ساحليه وقابل ذلك التحرك تحرك فارسى مماثل ترعمته الاسرة الصفوية التى تسلمت السلطة فى بلاد فارس عام ١٥٠٠ فالتقت تطلعاتها مع الغزو البرتغالى وتوجت ذلك بمعاهدة تحالف عسكرى للعمل المشترك فى عام ١٥١٥ نصت على ان تكون السفن الحربية البرتغالية فى متناول ايدى الفرس لشن هجوم على البحرين وعلى القطيف (٣٣) واستمرت تلك العلاقة حتى ظهور الهولنديين والانجليز فى مطلع القرن السابع عشر كقوى جديدة فى المنطقة الامر الذى أدى الى متغيرات فى التوجه السياسى الفارسى حيث عمل الشاه عباس الأول ( ١٥٨٧ ـ ١٦٢٩ ) على استثمار الوضع الجديد للضغط على البرتغاليين كى ينسحبوا من البحرين ليكون بديلهم فى احتلالها

ومما رجح كفة الهولنديين على الانجليز طوال القرن السابع عشر تقريبا ان الانجليز رفضوا الاشتراك بأى عمليات عسكرية مع الفرس ضد الدولة العثمانية او ضد البرتغاليين نظرا لمصالحهم الاخرى فى مناطق غير منطقة الخليج وهذا ما سبب لهم مشاكل فى فارس استغلها الهولنديون لصالحهم (٣٤) الا ان الهولنديين عانوا بعد ذلك بعض المضايقات وخاصة بعد الاحتلال الافغانى لايران فى عام ١٧٢٢ حيث وجه الافغان انذارا للهولنديين فى عام ١٧٢٧ بإغلاق وكالتهم فى بندر عباس خلال مدة لا تتجاوز اسبوعا (٣٥)

وفى خضم ذلك الوفاق بين الفرس وكل من الانجليز والهولنديين على حساب عرب الخليج اقتناصا لحقوقهم الوطنية والاقليمية واستلابا لارزاقهم ومعيشتهم وتجارتهم كونت دولة اليعاربة اسطولا بحريا قويا ـ كما اشرنا سابقا ـ للذود عن حياض الوطن وتحرير المواقع والبلدان التى تعرضت للاحتلال البرتغالى والفارسى ولمقاومة الغزو البحرى الاجنبى المعادى للموانىء والاسواق التجارية

من هنا كانت المحاولات الفارسية والهولندية والانجليزية لقهر الاسطول العربى اليعربى الا ان هذه

المحاولات فى كثير من الاحيان لم تنجح وكان مصيرها الفشل فى حين أخذ الاسطول يزداد قوة وسطوة، خاصة بعد ملاحقته البرتغاليين وانتزاع ممباسا منهم فى ١٦٩٨/١٢/١٤ حيث كانت هذه المعركة بمثابة النهاية للتفوق البرتغالى فازدادت ثقة العرب بأنفسهم وبحقوقهم بعد الانتصارات المتلاحقة التى احرزوها فى شرق افريقيا والهند حتى ان رئيس شركة الهند الشرقية الانجليزية وصفهم (بأنهم اصبحوا شديدى العطرسة، ولا يوجد من يمنعهم من القيام بشن هجمات على كل السفن التجارية باستثناء سفن شركة الهند الشرقية ذاتها لاقتناعهم بتفوق اسطول الشركة على اسطولهم)[٣٦]

لكن اقتناع رئيس شركة الهند الشرقية بتخوف الاسطول العربى من الاسطول الانجليزى لم يذهب بعيدا حيث ان السفن الانجليزية لم تنج من هجمات السفن العربية فقد هاجمت سفينتان عربيتان فى تلك الفترة احدى السفن الانجليزية الخاصة وكانت محملة بالمنتجات الهندية فى طريقها الى بندر عباس وهى اول حادثة معروفة يتعرض فيها البحارة العرب للسفن الانجليزية

وكان الفرس فى محاولات دائمة السيطرة على موانىء الخليج العربى بشاطئيه الشرقى والعربى مستغلين توافق المصالح مع الحملات الاوروبية على منطقة الخليج، مستعينين تارة بالبرتغاليين وتارة بالانجليز وأخرى بالهولنديين ورابعة بالفرنسيين وكانت تلك القوى تتصرف وفق ما تمليه عليها مصالحها وعلاقاتها سواء المحلية او الخارجية

ومن ذلك ان حاولت السلطات الفارسية فى صيف عام ١٦٩٩ الحصول على مساعدات فرنسية ضد العرب العمانيين بعد ان رفض كل من الانجليز والهولنديين تقديم المساعدة، وفشل البرتغاليون ايضا فى تقديم مساعدات فعالة للقوات البحرية الفارسية فبعث محمد مؤمن معتمد الدولة الفارسية مذكرة للملك لويس الرابع عشر للدخول بحلف عسكرى مع فرنسا لاحتلال مسقط، وقد نصت المذكرة على ان مشروع الاحتلال يحتاج الى ثلاثين الف جندى وعدد من السفن لنقلهم الى الساحل العمانى، واشترط ان تكون نفقات الحملة مناصفة بين الدولتين وكذلك الغنائم التى يحصل عليها الطرفان المتحالفان وتناولت المذكرة ايضا التفصيلات الى حد انها أوضحت ما سوف يسلم للفرنسيين من حصون حول مسقط، وما يختص به الفرس، فللفرنسيين حصنا جلالى ومارانى بينما يحتل الفرس بقية الحصون الداخلية[٣٧] ولكن هذا الحلف لم ينفذ، فجدد الشاه بعد ذلك عروضه للفرنسيين فأرسل فى عام ١٧٠٣ خطابا الى الملك لويس الرابع عشر لانشاء علاقات دبلوماسية بين

الدولتين على مستوى السفراء لتنسيق العلاقات الاقتصادية وغيرها بين البلدين وأدت الاتصالات الى عقد اتفاقية عامة فى عام ١٧٠٨ اتبعها الشاه فى عام ١٧١٥ بمبعوثه/ محمد رضا بك سفيرا له لدى فرنسا والذى طلب لدى مقابلته الملك الفرنسى لويس الرابع عشر ان تبادر فرنسا بارسال اسطول الى مياه الخليج ليقاتل فى صفوف الفرس من اجل احتلال عمان [٣٨] بناء على الوعد الشفوى الذى قدمه السفير الفرنسى ميشيل الى الشاه فى وقت سابق ولم ينجح الفرس هذه المرة ايضا فى جلب الاسطول الفرنسى لمساعدتهم ضد العرب فقد وجد الفرنسيون ان ذلك ليس فى صالحهم لاسيما وان الاسطول العربى ذو شدة وبأس

لقد كان للاسطول اليعربى وبحارته الاقوياء من القواسم وغيرهم هيبة فى البحر وفى مواجهة الاعداء مما جعل الانجليز والهولنديين يحسبون لأية خطوة يخطونها ضد العرب مباشرة او مدهم يد المساعدة للدولة الفارسية، يحسبون الف حساب حتى ان القائد الانجليزى الكسندر هاملتون وصف الاسطول العربى فى تلك الفترة وصفا دقيقا حين قال بأن الاسطول العربى فى عام ١٧١٥ كان يتكون من سفينة كبيرة تحمل اربعة وسبعين مدفعا وسفينتين اقل حجما تحمل كل منهما ستين مدفعا، وواحدة اخرى ثبت عليها خمسون مدفعا، وثمانى عشرة سفينة صغيرة تحمل كل منها ما بين اربعة الى ثمانية مدافع وبفضل هذه القوة البحرية مد العرب نفوذهم من رأس قمران حتى البحر الاحمر وكما يقول د صلاح العقاد فى كتابه ـ التيارات السياسية ـ إنه رغم رابطة الدين التى جمعت بين العرب والفرس فإن الصراع كان شديدا فى ذلك الوقت ولم يتردد حكام فارس في الاستعانة بالقوات الاوروبية لمهاجمة العرب، وفى النهاية كان الاوروبيون هم المستفيدون من هذا الصراع [٣٩]

وواصل الاسطول العربى حملاته التحريرية للذود عن الارض العربية وتحريرها من الاحتلال فقد أرسل الامام سلطان بن سيف اليعربى فى عام ١٧١٧ حملة الى جزر البحرين لتحريرها من الاحتلال وقد تمكنت هذه الحملة من طرد الفرس من الجزيرة وتابعت مسيرتها الى الجزر المحتلة الاخرى وتتبعت السفن الفارسية على الساحل الشرقى للخليج حتى حاصرت جزيرة قشم وركزت على مدينة لافت وهرمز وفى عام ١٧١٧ كادت هرمز ان تسقط فى ايدى البحارة العرب [٤٠] لولا تدخل البرتغاليين الذين هرعوا لمساعدة الفرس بقوة كبيرة، وفك الحصار عن هرمز ومن ثم الاستيلاء على البحرين ثانية

وفى عام ١٧١٩ وصل اسطول برتغالي آخر الى الخليج ودارت معارك عنيفة بينه وبين الاسطول العربى، اضطرت فيها السفن العربية

للانسحاب الى راس الخيمة

ثم كان الاحتلال الافغاني لايران في اكتوبر ١٧٢٢ فزالت الدولة الصفوية وسادت الفوضى البلاد الفارسية وعم الاضطراب وكسدت التجارة وتوقفت حركة الصادر والوارد وهكذا ايضا كان شأن الدولة اليعربية التي سادتها الخلافات والانقسامات

ورغم الظروف الصعبة المحيطة بالمنطقة من اضطرابات وصدامات وتدخلات اجنبية عدوانية فقد استمر الاسطول العربي بقيادة القواسم في حروبه ضد الغزو الاجنبي للخليج ووقفت السفن العربية بكل صلابة تواجه الاطماع الشرسة الرامية للسيطرة على الجزر والموانىء العربية

ولاستعادة مكانتهم قدم الهولنديون مساعدات عسكرية بحرية كبيرة الى الفرس ضد العرب الذين كانوا يغيرون على مواقع عربية على الساحل الشرقي للخليج لتخليصها من الاحتلال الاجنبي كما قدم الهولنديون المساعدة للفرس في عام ١٧٣٧ في حملة بحرية ضد قبائل البلوش بقيادة الملك دينار

وفي عام ١٧٤٠ قدم الهولنديون مساعدات بحرية للقائد الفارسي/ محمود تقي خان ضد البحارة العرب العاملين في الاسطول الفارسي - الذي سبق ذكره - ولاستعادة السفن الفارسية التي يسيطر عليها العرب ولكنهم فشلوا في ذلك (٤١)

كما استعان نادر شاه بالهولنديين ضد القائد الفارسي محمود تقي خان حاكم بندر عباس وكافأهم على ذلك بان قدم لهم التسهيلات التجارية وسمح لهم بإنشاء مقيمية تجارية في ميناء بوشهر سنة ١٧٤٧، وبعث الهولنديون بعد ذلك بسفينة هولندية كبيرة الى بندر عباس من تاتاپا بقيادة ميهر سكوند يورت M Secondeıwort يرافقه عدد كبير من الجنود الهولنديين مجهزين بأحدث المعدات القتالية وكميات ضخمة من البضائع بهدف إدخال الفزع في نفوس الاهالي وخاصة في نفوس القبائل العربية وكذلك ليسوقوا بضائعهم ولكنهم في وقت لاحق اصيبوا بخيبة امل لأن العرب لم يأبهوا بقوة الهولنديين ففي ٢٣ ابريل ١٧٥٣ هجم عرب جزيرة قشم على السفينة الهولندية/ نانسي Nancy بالقرب من ميناء لافت واستولى عبدالشيخ حاكم الجزيرة على معظم حمولتها قبل اغراقها

ومع ان السلطات الهولندية لم تكل في محاولتها للمحافظة على ما وصلت اليه من مكانة وسلطة في منطقة الخليج العربي فقد وجدت ان بقاءها في بندر عباس أصبح مستحيلا مما اضطرها لاغلاق وكالتها في بندر عباس سنة ١٧٥٩ (٤٢)

## الهولنديون وعرب الخليج

عندما قرر الهولنديون فتح اسواق لهم ومراكز تجارية في بلاد الشرق

الاوسط عامة والخليج العربى خاصة اتجهوا للتعامل فى أهم المواد والسلع التجارية رواجا فى كلا الاتجاهين فكان حصولهم على التوابل والحرير واللؤلؤ يمثل قمة النجاح، كما ان بيعهم لمنتجاتهم الصوفية فى اسواق المناطق الباردة يعتبر ايضا قمة النجاح ولهذا الغرض فقد كانت هولندا اكثر القوى إسهاما فى تصفية الوجود البرتغالى فى البحار الشرقية فى نهاية القرن السادس عشر وبالتالى كانت اكثر هذه القوى استفادة من هذه التصفية حتى أنه لم يحل عام ١٦٤٠ الا وكانت البضائع الهولندية تغرق أسواق بندر عباس وتنتشر فى المنطقة ومن ذلك استطاع الهولنديون ان يحققوا أرباحا طائلة عن طريق احتكارهم لتجارة التوابل فقد كانت سفنهم تجوب الموانىء العربية والهندية بحرية تامة (٤٣)

وتتابعت بعدها اعمال تدعيم النفوذ الهولندى فى الخليج فقد هاجم اسطولهم جزيرة قشم فى عام ١٦٤٥ وأعلن سيادته عليها واضطر الشاه الى الاعتراف بهذه السيادة

ومن منطلق العداء المشترك للوجود البرتغالى فقد ساد العلاقات الهولندية اليعربية العمانية لون من الود، بدأ واضحا بإعراب الهولنديين عن سرورهم لاسترداد العرب العمانيين مدينة مسقط من البرتغاليين فى عام ١٦٥٠ وقد أدى ذلك الى زيادة وتضخم التجارة الهولندية فى المنطقة

واستمرارا لسياسة التفاهم بين الطرفين قدم الامام سلطان بن سيف الأول في عام ١٦٥١ عرضا مغريا للهولنديين يختص بتسهيل انتقال بضائعهم عبر الاراضى العمانية الى البصرة بدلا من بندر عباس ـ جامبرون ـ وكان لهذا العرض أهمية كبرى للطرفين

وفى عام ١٦٥٤ وضع الهولنديون خطة لارسال تجارتهم الى جلفار ـ رأس الخيمة ـ لشراء اللؤلؤ فقد جاء فى تقرير (٤٤) للحاكم العام الهولندى فى بتافيا الى مدراء الشركة فى هولندا بتاريخ ١١ نوفمبر ١٦٥٤ حول تجارة اللؤلؤ في منطقة جلفار ، قوله

« برأينا اذا فخامتكم ترغبون فى المضى بهذه التجارة، فإنه يتوجب إرسال شخصين ماهرين ومختصين من التجار القديرين الى البحرين اوالى جزر جلفار قبل بعض الوقت من بدء موسم الصيد ـ الغوص ـ المعتاد، حيث يتم صيد هذه المجوهرات ومن الواجب إبلاغهم بالبقاء من بداية موسم الصيد حتى نهايته وهكذا يتعرفون شخصيا على طريقة العمل التجارى المتبع فى تجارة اللؤلؤ وتعتبر هذه الوثيقة بمثابة الاشارة الى أول الخطوات المتخذة لتأسيس علاقات تجارية بين البلاد الواطئة ـ البنولوكس ـ وبلاد الامارات الخليجية ورغم ان تجارة اللؤلؤ الهولندية لم تلق النجاح المرتجى، الا ان الهولنديين كانوا فى كثير من

الاحيان يدرسون إمكانية إقامة علاقات تجارية مع العرب الذين وجدوا فيهم تجارا متفهمين لطبيعة هذا العمل واكثر ودا من التجار الفرس المتشددين [٤٥]

وكما اسلفنا فان الهولنديين جاءوا الى الخليج عام ١٦٢٣ الى جانب البريطانيين وانشأوا لهم مركزا في بندر عباس حيث كانت شواطىء الامارات انذاك لا زالت خاضعة للنفوذ البرتغالي وكنتيجة لاتساع التجارة الهولندية مع بلاد فارس قام الانجليز بتحريض الشاه عليهم، وقد نجحوا في ذلك مما أدى الى قيام الاسطول الهولندي بغارة تأديبية على بندر عباس في عام ١٦٨٤ التي كانت خاضعة للشاه آنذاك

لم يكن اليعاربة على استعداد لاستبدال السيادة البرتغالية بسيادة هولندية خاصة مع وجود قوة بحرية عربية يمثلها الاسطول العربي الذي يجوب مياه الخليج العربي والمحيط الهندي ناشرا الرعب والذعر في قلوب الشركات الاجنبية في هذه البقاع

وكان طبيعيا ان يحدث احتكاك بين الهولنديين واليعاربة والذي بدأ منذ عام ١٦٩٥ وما بعدها حيث أخذت السفن اليعربية تهاجم السفن الهولندية في مياه الخليج وفي مياه المحيط وتفاقم الصراع بين العرب والهولنديين الى حد كبير، ويرجع ذلك الى نشوب صراع بين البحارة العرب والفرس مما جعل الفرس الذين ليس لهم قبل بالبحر يستعينون بالهولنديين ضد البحارة العرب الذين ثاروا على الفرس بعد ان تعاقدت معهم على العمل تحت رايتها ولكنهم قتلوا قائدهم الفارسي اثر توجيههم لمقاتلة اشقائهم العرب في مسقط، فاستولوا على الاسطول الذي كان يتكون من ثلاث سفن كبيرة وثلاث سفن صغيرة ومركب شراعي بساريتين، فاستنجدت الحكومة الفارسية بالهولنديين الذين سارعوا بسفينتين على كل منهما عشرون مدفعا، بحثا عن الثوار العرب واشتبكوا معهم في معركة حامية كان من نتيجتها ان اغرق العرب إحدى السفينتين وعاد الهولنديون الى قاعدتهم دون ان يحققوا شيئا لحليفتهم دولة الفرس

وأمدت بعدها الشركة الهولندية الفرس بسفينتين من نوع الغراب لمواجهة القوة العربية وإثر ذلك دارت مناوشات بين الجانبين افزعت القوة الحليفة فسارعت الى الفرار واللجوء الى ميناء كنج

وتشير الكتابات التاريخية الى ان الهولنديين لم يكونوا يثقون بالفرس الا انهم قدموا لهم مساعداتهم تلك طمعا في منحهم إحدى جزر الخليج العربي لاتخاذها مركزا مستقلا لهم عن جميع القوى المحلية [٤٦]

أما عن رأس الخيمة التي كانت معروفة آنذاك باسم/ جلفار/ والتي تحررت من النفوذ البرتغالي في عام ١٦٣١ فقد بدأت بعد ذلك التاريخ

تستعيد مكانتها التجارية شيئا فشيئا حتى أصبحت فى حوالى عام ١٧٠٠ مركزا مهما للتجارة الدولية حيث عمل الهولنديون على التعامل معها [٤٧] الا انه لم تكن لديهم الرغبة فى منافسة العرب فى تجارتهم ذلك أن العرب هم أنفسهم بحارة وتجار يستطيعون تقديم البضائع بأسعار أرخص من التجار الاوروبيين

ومن بين أوجه التعاون ما أشار إليه تقرير لرئيس المؤسسة الهولندية فى (جامبرون) الى الحاكم العام الهولندى فى الهند الشرقية بتاريخ ٢٧ يناير ١٧٠٢ تتعلق بسفينة هولندية متوجهة من الهند الى جلفار - رأس الخيمة - حيث واجهت السفينة طقسا سيئا من امواج عالية وعاصفة رعدية مما اضطرها للرسو فى بارسالو وانزال حمولتها من البضائع ووضعها فى مقر شركة الهند الشرقية الهولندية هناك انتظارا لتحسن الطقس وبعدها حملت السفينة بضائعها اضافة الى بضائع اخرى لتاجر عربى ولاتنين من سكان ( كانورا ) متوجهين الى جلفار [٤٨]

ان النمو التجارى للدولة اليعربية ونمو الموانىء العربية مسقط وجلفار والبحرين وحصولها على مكانة تجارية مؤثرة جعلتها فى طليعة الفعاليات الاقتصادية العربية آنذاك جعل هذا النمو وما اكتسبته عمان من قوة سببا مثيرا وداعيا للغضب فى بلاد فارس مما أدى الى معارك حربية والى قيام تحالفات بين الفرس والبرتغاليين ضد العرب ومن ذلك كانت معركة بحرية فى رأس الخيمة فى عام ١٧١٨ حاول فيها البرتغاليون حصار البحرية العربية هناك، ولكن دون فائدة وفى الجهة المقابلة من الخليج كان شيخ رأس الخيمة رحمة بن مطر قد حاصر جزيرة هرمز لمدة طويلة، ولكنه لم يكن مستعدا لمواصلة هذا الحصار حتى يجبر القلاع فيها على الاستسلام [٤٩]

وقد كشفت رسالة بعث بها الشيخ رحمة بن مطر - القاسمى - الى المعتمد الهولندى فى الخليج بتاريخ ١٧١٨/٢/٢١ اعرب فيها الشيخ رحمة عن مشاعر الود والصداقة والاعتزاز بالعلاقات الودية بينه وبين الهولنديين وابدى اعتذاره عن مصادرة البحارة القواسم لمركب اجنبى فيه ثلاثة اشخاص أجانب، اتضح فيما بعد ان المركب هولندى وانه لذلك اطلق سراحه وسراح الاشخاص الثلاثة [٥٠]

ثم كان رد المعتمد الهولندى المفعم بعبارات الود والشكر لاطلاق سراح المركب والاشخاص الثلاثة المشار اليهم وكذلك الاعراب عن المطالبة بإطلاق سراح محتجزين آخرين أجانب لدى القواسم فى لاراك

ومما يعكس تلك العلاقات ايضا رسالة بعث بها رئيس المؤسسة الهولندية فى بندر عباس فى شهر اكتوبر من عام ١٧٢٨ الى مبعوث المؤسسة فى جزيرة هرمز جاء فيها

«ان الشيخ رحمة الرئيس القوى لجلفار. هو رجل معروف جدا لى. وقد حاول التملك فى هرمز وانه عندما يريد ذلك الرجل تأسيس مكانته هناك، فانه من الممكن ان يساهم كثيرا فى إنجاح التجارة فى هرمز لأن ذلك الصديق معروف بأنه من اغنى الاغنياء ومن اقوى التجار فى الجزيرة العربية وفى المنطقة المحيطة بها بالذات ( الخليج الادبى ) وانه اذا كان شخصيا سيحضر الى هرمز ( وانى غير متأكد من ذلك وفيما اذا كان بقاؤه فى هرمز ملائما لشعبه ) فإنه من الامور الممتازة ان نقدم له الود»(٥١).

لقد ساعد الهولنديون الشيخ العربى/ راشد بن مطر زعيم قبيلة القواسم آنذاك برأس الخيمة ـ جلفار ـ لتثبيت سلطته وحكمه فى جزيرة قشم وقد أنشأ الشيخ راشد فى هذه الجزيرة قوة تجارية صغيرة مستقلة وفعالة

فقد أحب الهولنديون الشيخ راشد الا ان الانجليز كانوا على العكس من ذلك فتعاونوا مع الفرس ضده، ولكن راشد كان قويا فقد حمى نفسه لمدة طويلة. والشيخ راشد اقام علاقات مع الادارة الهولندية فى بندر عباس فقد كان هناك مراسلات بينهما محفوظة حتى الآن فى خزائن الارشيف الهولندى ومن هذه الرسائل رسالة بعث بها فى ١١/٥/١٧٣٢ من جزيرة قشم جاء فيها (٥٢) بعد التحيات

«لقد وصلتنى رسالة سعادتكم الافخم فى الوقت المناسب، وكنت جدا سعيدا باستلامها ولكن من جهة اخرى كنت آسفا لعدم تمكنى من الكتابة اليكم مبكرا من قبل لأن مسئوليات عديدة حالت دون ذلك

وقال انى اطلب من سعادتكم بكل الصداقة ان لا تعتقدوا بأنى خائف من وصول محمد على خان مع قوة عسكرية كبيرة الى الاراضى المنخفضة فى البلاد ان نفسى مرتاحة لأنى لم أوذى احدا، فكل ما عملته هو إقامة بلدة صغيرة ممتازة ومزدهرة جدا تجاريا حيث لجأ اليها الفقراء واللاجئين المنهكين الذين كان همهم إيجاد مأوى يعيشون فيه

لهذا لا احد اى سبب للخوف او الاكتراث، بل على العكس انى اجد الوقت مناسب لأعلن بأنه من حقى السعى لأخذ عرشه ردا على عدائه الأعمى

كما اننى أقيم بمكان محصن تحصينا عظيما حيث لا يوجد هناك ما يدعو للخوف أدعو الله ان يمنح جلالة ملككم الصحة الدائمة والسعادة فى الحياة ولمعلومات سعادتكم فإن الشهبندر ـ ميرزا محمد هو عضيد جيد ومساعد جيد لى. » وتضمنت الرسالة الكثير من عبارات الصداقة والود

ورغم ذلك الود فقد كان الهولنديون يهبون وفق ما تمليه عليهم مصالحهم الى تقديم مساعداتهم للحملات الفارسية فى حروبها ضد البحرين

وساحل عمان، ففى عام ١٧٤٠ قام الاسطول الهولندى بمظاهرة عسكرية على إثر التمرد الذى قام به البحارة العرب فى بعض قطع الاسطول الفارسى فى ذلك العام فقد ارسل وكيل مجلس حامبرون - بندر عباس - رسالة بهذا الخصوص بتاريخ ١٠/١٢/١٧٤١ الى رئاسته قال فيها « ثار العرب فى خدمة البحرية الفارسية واخذوا بعضا من السفن لهذا قام الهولنديون بضرب الثوار العرب باثنتين من سفنهم، ولكنهم لم يكسبوا سوى القليل »

ووصف تقرير [٥٣] كتبه الهولنديان المقيمان فى جزيرة خرج T F Vankniphausen J Vander Hulst فى عام ١٧٥٦ وصف منطقة الساحل الغربى للخليج العربى بين القطيف والصير - رأس الخيمة حاليا - فقال هناك ثلاثة مواقع بارزة على الساحل وهى الصير، جوهار، والشارقة، والتى يجلب لها الرز والتمر من البصرة ليباع الى عرب الصحراء والى غواصى اللؤلؤ

الصير كما هو معروف محصنة جيدا وفيها عدد من المدافع ويسكنها عرب من قبيلة الهولا - المسمون بالقواسم ويحكمها الشيخ رحمة بن مطر الذى يقال له ايضا الشيخ كايد وقد ايدته مختلف قبائل البدو العربية الصحراوية

ويعتبر الشيخ رحمة فى الواقع الاقوى فى شيوخ وحكام عرب الهولا

وقد سلح من جماعته اربعمائة رجل فى مدينة الصير التى يتبعها ميناء جيد قادر على احتواء اكبر المراكب وهناك تحت امرته حوالى ستين مركبا اغلبها كبيرة وواسعة ومزودة بكل الاحتياجات بشكل جيد

وفى السنة الماضية لذلك التاريخ قام الشيخ رحمة بالتعاون مع ملا على شاه حاكم بندر عباس الذى تربطه به قرابة المصاهرة بحملة بحرية اعاد فيها مدينة لافت فى جزيرة قشم الى السلطة العربية

١ ـ عمان تاريخ يتكلم ص ١٩٢

٢ ـ دولة اليعاربة، د عائشة السيار ص ٣٠ نقلا عنDennis OP. Cit. P. 210

٣ ـ Ross. OP. Cit. P. 160.

٤ ـ Badger : OP.Cit P 67& Miles op.P .204

٥ ـ Badger: OP. Cit. P. 66

٦ ـ لو ريمر ج ١، ص ١٢٧

٧ ـ Ibid P. 220

٨ ـ Lockhart, Nadir Shah's Compaigns in Oman 1737 - 1744 p.160

٩ ـ Dr. Slot. In the Land Of the White Tower, P. 6

١٠ ـ الوثيقة محفوظة فى الارشيف ـ القسم الهولندى تحت رقم182 - VOC 2476

١١ ـ Lockhart: Nadir Shah P. 184

١٢ ـ I. O. R .G . 129 — 5 — 15 th September 1740

١٣ ـ د عبدالامير محمد أمين، ص ٢٥

١٤ ـ جان جاك بيربى ـ الخليج العربى ص ٤

١٥ ـ مخطوطة الجواهر واللآلى فى تاريخ عمان الشمالى، عبدالله صالح المطوع

١٦ ـ المفصل فى تاريخ الامارت العربية المتحدة ـ فالح حنظل، ص ١٠٩

١٧ ـ نفس المصدر السابق ص ١٢٦

١٨ ـ دور القواسم فى الخليج العربى، د صالح العابد ص ٨٨

١٩ ـ ابن رزيق ـ الشعاع الشائع ص ـ ٣١٤ ـ ٣١٥، وعائشة السيار ـ دولة اليعاربة ص ١٩٠

٢٠ ـ كتاب وثائق عن الصومال، الحبشة واريتريا ـ احمد برخت ماح ص ١٨٢

٢١ ـ نفس المصدر ص ١٨٥

٢٢ ـ وردت تفاصيلها فى كتابHaklay, Richard Voyages & Discoveries P. 91

٢٣ ـ Steensgard. OP. P. 121

٢٤ ـ لوريمر ج ١، ص ٢٣

٢٥ ـ د خانبابا بياني، خليج فارس وريزيان صفوية، ص ٩٨

٢٦ ـ مصطفى عقيل الخطيب ـ التنافس الدولى فى الخليج العربى ص ١٣٣ ـ ١٣٤

٢٧ ـ C. R . Boxer. The Dutch Seaborne Empire 1660 - 1800 P. 22

٢٨ ـ C. R . Boxer OP. Cit P. 233

٢٩ ـ مصطفى عقيل الخطيب ـ التنافس الدولى فى الخليج ص ١٤٦

٣٠ ـ جاكلين بيرين ـ اكتشاف جزيرة العرب، ص ٨٢

٣١ ـ الخليج العربى قدرى قلعجى، ص ٣٨٦

٣٢ ـ د علاء الدين نورس ـ السياسة الايرانية فى الخليج العربى ص ٧

٣٣ ـ Lorimer, OP. Cit. Vol. 1, Part 1 A PP. 4-5

٣٤ ـ ج ج لوريمر ج ١، ص ٦٢ ـ ٦٣.

٣٥ ـ د محمود على الداود ـ العلاقات الهولندية مع الخليج العربى ص ١٦

٣٦ ـ Bruce's Annals - Vol. III P. 439

٣٧ ـ لورنس لوكهارت ـ انقراض سلسلة صفوية، ص ٥٠٩ ـ ٥١٠

٣٨ ـ د محسن عزيزى ص ١٢

٣٩ ـ د صلاح العقاد، ص ٤٩

٤٠ ـ سليمان البارونى ص ٥٦

٤١ ـ محمد حسين قدوسى ـ نادر نامة ص ٢٠٢

٤٢ ـ لوريمر ج ١، ص ٢١٧

٤٣ ـ دولة اليعاربة، د عائشة السيار، ص ١٧٥

٤٤ ـ وثيقة من الارشيف الهولندى رقمVoc Vol. 1208

٤٥ ـ تقرير لقبطان السفينة الهولندية ( ميركات ) عن رحلة لها فى موانىء الساحل العمانى ـ الامارات ـ رقم التقرير فى الارشيفVoc. 1259

٤٦ ـ Saldanha, Public Department Diary No. 10 of 1736,1737 P. 56

٤٧ ـ د سلوتDr. B.J. Slot-In the Land of the White Tower P.3

٤٨ ـ تقرير رئيس المؤسسة الهولندية فى جامبرون، تحت رقم ١٦٦٧ فى الارشيف الهولندى

٤٩ ـ د سلوت ـ المرجع السابق ـ ص ٥

٥٠ ـ الرسالة موثقة تحت رقمVol. 1913 P. 437-438

٥١ ـ وردت الرسالة فى الوثيقة رقمVoc. 2114 - 3657

٥٢ ـ الرسالة محفوظة فى الارشيف الهولندى تحت رقم Voc. 2254 P. -1274-1278

٥٣ ـ جاء هذا التقرير ضمن الوثيقة المعنونة بـ Aanwinsten le afdeling 1889 23 - B

# الغزو والسيطرة البرتغالية

لقد انكشف جزء غير يسير في تاريخ الخليج العربي في مطلع العصور الحديثة، وبالذات الفترة التي اعقبت الغزو البريطاني للمياه العربية، بيد ان جزءا اخر غير قليل ما يزال غامضا ويحتاج الى تسليط الضوء عليه ومن المعروف ان عددا كبيرا من الباحثين اعتمد الى حد ما في دراسة تاريخ هذه المنطقة على المؤلفات الاجنبية اكثر من اعتمادهم على المؤلفات العربية المحلية التي اما إنها كانت قليلة او انها وقفت صامتة أمام احداث هذا الغزو - كالمصادر العمانية مثلا وعلى اية حال، فان استقصاء هذه المؤلفات، اجنبية كانت ام عربية، سيعين الباحث على دراسة تاريخ الخليج العربي بصورة افضل، وهو ما سنقوم به في هذه الدراسة ، التي تهدف اساسا الى التعريف بالمصادر التي لها علاقة وتفي باحداث الغزو البرتغالي في المنطقة ودراستها

الدكتور طارق نافع الحمداني

الوثيقة

AL WATHEEKAH

وقد قسمت هده الدراسة الى عدة اقسام. يشمل القسم الأول منها حصر الوثائق المنشورة ـ وبالذات البرتغالية والعتمانية والانكليزية. وقد سهل مهمتنا في هدا المحال اقدام كتير من مراكز الدراسات في اقطار الخليج العربى على نشر متل هده الوتائق تتطرق بعدها الدراسة الى التعريف بالمصادر الاجنبية والعربية المعاصرة والقريبة من احداث العرو البرتغالى للخليج من خلال اعطاء صورة عامة عن هده المصادر، تم اولت الدراسة اهتماما مماتلا بالمراجع والبحوث ذات الصلة بالموصوع، احنبية كانت ام عربية

## الوثائق البرتغالية المنشورة

١ ـ تاريخ الخليج العربى في الوثائق البرتغالية، فصول مترجمة من كتاب حوادى ساروس ( عن اسيا )، أصدرته لحنة وتائق الخليج العربى

ويتحدث هدا الكتاب عن وصول البرتغاليين الى الخليج، وتعرضهم للموانىء الواقعة على شاطئيه، كما يتطرق الى وصول العتمانيين الى المنطقة وحملاتهم البحرية اليه في منتصف القرن السادس عشر بيد انه من الملاحظ ان الكتاب فيه روح تعصبية ظاهرة، اذ يحد فيه القارىء تبريرا واضحا لكل ما ارتكبه البرتغاليون من اعمال وتخريب وتدمير في موانىء الخليج بعد وصولهم اليه

ولدلك فمن الضرورى ان نتذكر عند قراءتنا لهدا الكتاب ـ كما يقول بكنجهام ـ الاسباب التى دفعت مؤلفه للكتابة والافكار والافتراضات التى طرحها في عمله [1] ومع ذلك فالكتاب له فائدة كبيرة جدا في دراسة تاريخ المنطقة واستقصاء كثير من المعلومات عنها، خاصة وانه ليست هناك روايات عربية معاصرة معروفة يمكن ان نعتمدها في تدوين احداث الغزو البرتغالى للخليج ومراحله المختلفة

٢ ـ « مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالى لسواحل المغرب والبحر الاحمر والخليج العربى وما تولد عنه من ردود فعل »

قام الدكتور احمد بوشرب في هدا البحث بجمع كثير من الرسائل والمعاهدات المحفوظة في الارشيف الوطنى البرتغالى، والمتعلقة بمراحل الغزو والسيطرة البرتغالية على الخليج العربى، وفيها معلومات عن تعسف المسئولين البرتغاليين وطغيانهم في المنطقة وردود الفعل التى تولدت عن ذلك بين سكان البلاد وتسمح هده الرسائل ايضا بدراسة المخططات البرتغالية لاغلاق الخليج العربى بوجه الملاحة العربية، فضلا عن الدوافع المختلفة التى حدت بالبرتغاليين لاكتساح مناطق الوطن العربى سياسية واقتصادية ودينية

وعلى الرغم مما تحمله هده الوثائق من وجهات نظر موالية للبرتغاليين، فان بالمستطاع اعتمادها لسد الكثير

من التعرات التى تركتها المصادر العربية، اذا ما استخدمت بشىء من الحيطة والحذر

ومن الحدير بالذكر، ان الدكتور بوشرب قد نشر هذه الوثائق عدة مرات، اد ظهرت لأول مرة فى « **مجلة المناهل** » ( المغربية )، العدد السادس والعشرون، السنة العاشرة ( مارس، ١٩٨٣ ) ص ص ٣٢ ـ ٨٣ وظهرت للمرة الثانية فى مجلة « **الخليج العربى** »، التى تصدر عن مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة، المجلد السادس عشر، العدد ١ ( ١٩٨٤ )، ص ص ٣١ ـ ٤٦ وأخيراً قامت مجلة **الوثيقة** ( البحرينية ) بنشرها فى عددها العاشر، السنة الخامسة ( يناير، ١٩٨٧ ) ص ص ١٤٤ ـ ١٨١

٣ ـ « مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية فى كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الاول من القرن السادس عشر » نشرة الدكتور احمد بو شرب فى مجلة **الوثيقة** البحرينية العدد الرابع، السنة الثانية ( يناير، ١٩٨٤ ) ص ص ١١٨ ـ ١٤٠

ويتطرق هذا البحث الى اوضاع الخليج العربى فى النصف الاول من القرن السادس عشر، بخاصة البحرين والقطيف والاحساء ولكن اهمية البحث الفعلية تكمن فى الملاحق الثلاثة التى وردت فيه فالملحق الاول هو بعنوان « حملة برتغالية ضد البحرين من خلال رسالة لوالى هرمز ١٥٢٩ » والملحق الثانى « رسالة من الرئيس ركن الدين، وزير هرمز الاول الى الرئيس شرف، وزير هرمز المعزول حول محاولات ملك الاحساء السيطرة على البحرين والقطيف والبصرة » والملحق الثالث « رسالة من برنالدودو سوزا الى الملك البرتغالى حول هجوم برتغالى على الخليج العربى ١٥٤٥ »

والحقيقة ان هذه الملاحق الوثائقية تسلط بعض الاضواء على المحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة على مناطق الخليج العربى، والاهم من ذلك احتواؤها على معلومات تتعلق بالقوى العربية المحلية الموجودة فى المنطقة ودورها فى مقاومة البرتغاليين، كما هو الحال بالنسبة لآل معامس ـ حكام البصرة

٤ ـ الاتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربى ١٥٣٤ ـ ١٥٨١ »، تأليف صالح اوزبران، ترجمة الدكتور عبدالجبار ناجى، نشر مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ( مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٩ )

لا تكمن اهمية هذا الكتاب فى المعلومات القليلة التى نشرها الباحث ملخصا لاطروحة الدكتوراه المقدمة الى مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن عام ١٩٦٩، والمتعلقة بالصراع العثمانى ـ البرتغالى فى الخليج العربى، التى قد تكون اكثرها معروفة للباحثين المتخصصين بتاريخ المنطقة، ولكن فى الملاحق التى اوردها المؤلف، وهى

عبارة عن ترجمة لرسائل برتغالية مهمة، تحتاج لدراسة تفصيلية لالقاء الضوء على منطقة الخليج العربى انذاك

فالملحق الاول هو « رسالة من دوم ما نوئيل دى ليما حاكم هرمز الى د حواو دى كاسترو حاكم الهند، هرمز فى ٢٣ حزيران ١٥٤٧ » وهذه الرسالة تتضمن معلومات قيمة عن تحركات البرتغاليين فى الخليج، ومراقبتهم لتحركات العثمانيين وقوتهم فى المنطقة، وبعض الجهود العثمانية الرامية الى اقامة نوع من التقارب الودى مع البرتغاليين، وذلك من خلال ايفادهم للتاجر العربى الحاج فياض ومعه رسالة الى الحاكم البرتغالى فى هرمز دى ليما، وقد اوضحت هذه الرسالة نوايا السلطات العثمانية فى استمرار حركة التجارة عبر الخليج العربى

واما الملحق الثانى ( ص ص ٧٦ ـ ٨٠ )، فهو عبارة عن رسالة مكتوبة فى هرمز فى ٣٠ اكتوبر ١٥٥٢، وفيها تفصيلات عن كيفية محاصرة الاتراك العثمانيين لهذه المدينة واما الملحق الثالث ففيه « رسالتان من دوم نورونها فى هرمز حول النشاطات التركية على طول ساحل الجزيرة العربية، وفى هاتين الرسالتين يظهر لنا بوضوح طبيعة التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكري للمحيط الهندى والخليج العربى فى القرن السادس عشر، وطبيعة الاهتمام الشديد للبرتغاليين والعثمانيين بتلك الاجراء التى كان يصل عن طريقها المواد والبضائع الاسيوية الى سواحل البحر المتوسط

## الوثائق التركية المنشورة

ما زالت الوثائق التركية المنشورة عن الخليج العربى واحداث المجابهة البرتغالية ـ العثمانية فيه قليلة جدا ولا تفى بالمراد ولعل مما له علاقة بهذا الموضوع ما نشره الدكتور احمد فؤاد متولى بعنوان « البحرية العثمانية والبرتغالية فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى على ضوء الوثائق التركية »، فى « مجلة كلية العلوم الاجتماعية » ( السعودية )، ١٩٨٠ ولكن يظهر ان البحث يحمل عنوانا اكبر بكثير مما هو فى المتن، لكونه لا يحتوى على مادة غزيرة تتعلق بالخليج، وليس فيه غير وثيقتين مترجمتين الى العربية موجهتين الى سيدى على رئيس لقيادة الاسطول العثمانى، وما عدا ذلك فان البحث لا يتضمن مادة جديدة

وهناك ايضا التقرير الذى اعده البروفسور ى اورهنلو بالتركية وترجمه الى العربية الدكتور حسين على الداقوقي بعنوان « تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين سنة ١٥٥٩ » ونشرته ( مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية »، العدد الرابع والعشرون، السنة السادسة

(تشرين أول ١٩٨٠) وهذا التقرير كتبه شخص شارك في هذه الحملة العثمانية، وهو يلقي ضوءا على بداية الحملة وأسبابها، والجهود البرتغالية المضادة لابعاد العثمانيين عن البحرين

وقد نشرت مجلة « الوثيقة » البحرينية ايضا في عددها الاول، السنة الاولى ( يوليو، ١٩٨٢ ) صحيفة ١٤٩ نص الوثيقة العثمانية الموجهة الى مراد شاه حاكم البحرين في ٢٨ ذي الحجة ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٩م، تعلمه بعدم رضى السلطات العثمانية بقيام مصطفى باشا حاكم الاحساء بمحاصرة البحرين دون اذن منها، فاتخذت بعض الاجراءات ضده حيث تقرر طرده وتعيين شخص آخر محله، حتى لا يتمكن البرتغاليون من الحاق ضرر بتلك الاقاليم

وتعد اطروحة الدكتور سى ايج ابر المعنونة ادارة البحرية العثمانية خلال حكم السلطان سليمان الاول ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ التى قدمها لجامعة كمبردج عام ١٩٧٠، من اكثر المصادر صلة بموضوع الصراع العثمانى ـ البرتغالى فى الخليج العربى خلال القرن السادس عشر ذلك لأن هذه الاطروحة قد كرست اصلا لترجمة الوثائق العثمانية حول الموضوع والموجودة فى دور الوثائق العثمانية، ومن هنا تكمن اهمية هذه الاطروحة ممثلا قام هذا الباحث بترجمة كافة الاوامر الصادرة الى الولاة العثمانيين فى البصرة، والمتعلقة باتخاذ كافة الاستعدادات ـ المالية والعسكرية ـ لمواجهة البرتغاليين فى الخليج ( انظر على سبيل المثال وثيقة رقم ٧٧ ـ ٨١ فى ص ص ٩٤ ـ ٩٨ )

## الوثائق الانكليزية المنشورة

تعد الوثائق التى نشرها وليم فوستر William Foster فى مطلع القرن العشرين بعنوان « الوكالات الانكليزية فى الهند The English Factories In India » التى ظهرت بثلاثة عشر مجلدا وتغطى الفترة من ١٦١٨ ـ ١٦٦٩، من ابرز الوثائق الانكليزية المنشورة التى تلقى اضواء على النشاطات البرتغالية المختلفة فى الخليج خلال القرن السابع عشر، وعملية التنافس التى حصلت بين البرتغاليين من جهة والقوى الاوروبية الاخرى التى وصلت الى المنطقة من جهة اخرى وهى فى الوقت نفسه من اهم المصادر عن تنامى المقاومة العربية العمانية، والتى تمت على يدها نهاية النفوذ البرتغالى فى الخليج فى منتصف القرن السابع عشر، وعن طريقها يمكن مقارنة النصوص الاجنبية بالنصوص العربية العمانية التى بدأت ترد باسهاب، وبدون شك فان هذه الوثائق قد افادت الباحثين كثيرا فى تخفيف الصعوبات التى يواجهونها فى مراجعة السجلات الرئيسية لشركة الهند الشرقية، وهى

بحق معين لا ينضب من المعلومات عن القرن السابع عشر

ومما يتمم هده المجموعة الوثائقية المهمة ما نشره كل من نويل سينس بيري Noel Sains bury بعنوان Calendar Of State Papers Colonial Series, East Indies China and Persia 1622 — 1627 (London, 1878—84) وسلدانا A. Saldanha بعنوان « Selections From State Papers, Bombay, regarding The East India Company's Connection With The Gulf, With a summary Of events 1600 — 1800 ( Calcutta 1908 ) اد تعد هاتان المجموعتان ذ غاية الاهمية لدراسة النشاط البرتغالى ذ الخليج خلال القرن السابع عشر، من حيث علاقته بالقوى المحلية والاجنبية

ومن المصادر الوثائقية الهامة ايضا « حوليات شركة الهند الشرقية Annals Of The Honorable East India Company 1600 — 1800 » 3 Vols ( London 1810 ) التى صنفها جون بروس John Bruce وتعد هذه المجموعة ذات صلة وثيقة بتاريخ الخليج، دلك لأنها حوت كثيرا من المعلومات عن توسع البرتغاليين وغزوهم لهذه المنطقة ذ القرنين السادس عشر والسابع عشر، وذلك بالاعتماد على رسائل شركة الهند الشرقية الانكليزية

ومن ضمن الوثائق الانكليزية المنشورة المهمة « حوليات الاباء الكرملين في فارس ـ A Chronicle of Carmelites in Persia and The Papal Missions of The XVIIth and XVIIIth Centuries, 2 Vols London, 1939» تلك الوثائق التي نشرت غفلا، ولكنها تحتوى على الكثير من الموضوعات التى لها علاقة وثيقة بوضع البرتغاليين ذ الخليج وانحدار نفوذهم فيه بفضل تنامى قوة عمان وازدهارها، حيث يجب عدم اغفالها من قبل اى مؤرخ يهتم بتاريخ هذه المنطقة واحداتها انداك

## المصادر البرتغالية والمصادر الاخرى

تشكل مادة المصادر الاجنبية ـ بخاصة البرتغالية ـ العمود الفقرى لدراسة تاريخ الغزو والسيطرة البرتغالية ذ الخليج العربى، وذلك لأنه ذ الوقت الذى انعدمت فيه المعلومات عن احداث الغزو البرتغالى للمنطقة، بخاصة ذ المصادر العمانية، فان الباحث لا يجد بديلا عن هذه المصادر، سواء ما كان منها بشكل مذكرات او رحلات او كتب اصلية مستندة على هذا وذاك

تأتى مذكرات و« تعليقات » الفونسو دى البوكيرك، التى نشرت ذ اربعة اجزاء بعنوان « The Commentaries Of Great Alfonso Dalboqerque, Translated From The Portu-

guese by Walter de Gray Bırch, « London, Hakluyt Socıety, 1881, في مقدمة الكتب البرتغالية ذات الصلة باحداث الغزو البرتغالى ومن الواضح ان هذه المذكرات تحمل روح المبالغة في اظهار افصال ابطالها، فهى تشيد بالانتصارات الكبيرة والاحداث الفخمة التى قام بها البرتغاليون في الشرق، وتتضمن حكايات عن حالات الحصار والمعارك وذبح « الاعداء » ويمكن للمرء ان يعدد الكثير من الامثلة على ذلك، بيد ان موقف البوكيرك تجاه المدن العمانية الساحلية يكشف عما كان يحدث بوجه خاص اذ لم يكتف البوكيرك عند مهاجمته لبلدة خورفكان بنهبها، بل قام بنفس ما كان يقوم به في المدن العمانية الاخرى من قطع اذان السكان وانوفهم، وهو عمل يحمل روح القسوة والتعصب لدى البرتغاليين تجاه سكان المنطقة (٣)

وعلى اية حال، فان هذه « المذكرات » لا تخلو من الفائدة الكبيرة في معلوماتها عن منطقة الخليج العربى وسكانها، اذ نجد فيها وصفا مسهبا لمعظم المدن الواقعة على الساحل

ومن الكتب الاساسية التى الفها البرتغاليون في النصف الاول من القرن السادس عشر وفيها وصف مفصل للبلدان المطلة على المحيط الهندى والخليج العربى، فصلا عن القائها الضوء على احداث الغزو البرتغالى المبكرة، كتاب تومى بيرير ودوراتى باربوسا. فالكتاب الاول الموسوم « سوما اورينتال « The suma Orıental Of Tome Pıres An account Of The East, From The Red Sea To Japan, Wrıtten In Malacca and Indıa ın 1512 — 1515, 2 Vols ( London, Hakluyt Socıety, 1944 ), لا يتضمن الا القليل من المعلومات عن الخليج العربى بل ان معلوماته عن هذا الجانب جاءت مخيبة للامال اما كتاب باربوسا المعنون The Book Of Durate Barbosa an Account Of The Countrıes borderıng On The Indıan Ocean and Theır Inhabıtants Completed about The year 1518 A D, Translated From The Portuguese Text by Mansul Longworth Dames, Vol 1 ( London, Hakluyt Socıety, 1918 ), فانه ذو قيمة كبيرة، ذلك لأنه يجمع بين الخبرة الشخصية الطويلة في الشرق وبين كثير من الملاحظات الدقيقة لقد وصف باربوسا عددا كبيرا من مدن الخليج العربى، على الساحلين الشرقى والعربى، وكانت اوصافه غاية في الاهمية لانها عرفتنا باوضاع تلك المدن في الفترة المبكرة من القرن السادس عشر الا ان المؤلف يظهر تعصبا سياسيا للبرتغاليين عندما يتحدث عن مواقفهم السياسية المتطرفة تجاه سكان المنطقة

وهنا لا بد من الاشارة الى كتاب آخر مهم بعنوان « اسبانى في جزر الهند الشرقية البرتغالية A Spanıard

In The Portuguese Indies, Harvard University Press, Cambridge Massachusetts, 1967 ). لمؤلفه مارتن فرناندز ميكارو ( فيفارو )، الذى نشره جيمس مكينا James Mckenna، كمبردج، ماساشوسيتس ١٩٦٧

ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة عن العقدين الاولين من القرن السادس عشر، وذلك لأن معلوماته تكمل « تعليقات » البوكيرك و« كتاب باربوسا » وفى الكتاب نجد الاشارة الى حالة الرعب التى اثارها البرتغاليون بين السكان عند دخولهم لمدن الخليج العربى - بخاصة المدن العمانية، فضلا عن رغبتهم الفعلية فى السيطرة عليها لما كانت عليه هذه المدن من غنى فى ثرواتها ومواردها ( انظر على سبيل المثال ص ص ٨١ - ٨٧ )

وحتى الان لم اقل شيئا عن اهم مصدر برتغالى نشر حتى الان يتعلق بالعقود الاولى من القرن السابع عشر، ذلك هو كتاب روى فريير اندرادى المعروف بـ « التعليقات »

Commentaries Of Ruy Freyre De Andrada, edited With an introduction by C R Boxer ( George Routledge & Sons LTD London 1930 )

وتعود اهمية هذا الكتاب لان مؤلفه كان ممن تولوا عدة مناصب فى الاساطيل البرتغالية الى الخليج العربى عام ١٦١٩ ومن خلال وجوده هناك اتخذ مسقط مقرا لقيادته فاستعاد كلا من صحار ودبي وخورفكان وغيرها من الاماكن التى كانت تحتلها حاميات من الفرس كما قام بعدة غارات على الساحل الغربى للخليج العربى، عرف من خلالها بحماسته ومقدرته الحربية، لكنه من الناحية الاخرى كان معروفا بالعنف والقسوة، وقد اكسبته الاعمال والفظائع التى ارتكبها فى الخليج على مدى فترة تصل الى ثلاثة عشر عاما ( ١٦١٩ - ١٦٣٢ )، اكسبته شهرة دائمة وسمعة سيئة [٣]

وعلى اية حال، فان الكتاب يعطينا معلومات مفصلة عن العمليات الحربية البرتغالية فى منطقة الخليج العربى آنذاك، وعن موقف القوى المحلية من البرتغاليين

ومن المصادر المهمة فى تاريخ الغزو البرتغالى كتاب المؤرخ البرتغالى فاريا سوسا Fariay de Sousa المعروف بـ « اسيا البرتغالية The Portuguese Asia »، وقد ترجم جون ستيفن John Stevens هذا الكتاب الى اللغة الانكليزية ونشر فى لندن عام ١٦٩٥

يقع الكتاب فى ثلاثة اجزاء، ويحتوى على تاريخ مفصل للنفوذ البرتغالى فى الخليج العربى والمحيط الهندى وجنوب الجزيرة العربية والبحر الاحمر بيد ان مما يؤخذ على فاريا سوسا تعصبه الشديد للبرتغاليين وروحه الحاقده ضد المسلمين، لذلك نجده يميل الى المبالغة فى تصوير عدد القتلى من المسلمين فى

المعارك التى جرت ضد البرتغاليين، وتصوير عمليات الارهاب والوحشية اثناء غزو البرتغاليين للخليج على انها من اعمال البطولة البرتغالية، لذا يجب ان تؤخذ رواياته بحذر شديد، ومقابلتها مع الروايات الاخرى المعاصرة

والى جانب هذه المجموعة من كتب المذكرات ( او التعليقات ) والكتب البرتغالية الاصيلة، تبرز كتب الرحلات البرتغالية حيث تعد رحلة بيدرو تكسيرا الى الخليج عام ١٦٠٤ من اهمها وهى بعنوان The Travels Of Pedro Teixeira, translated and annoted by William F— Sinclair ( London Hakluyt Society, 1902 )، ورحلة مانويل عوديبهو Manoel Godinho الموسومة بـ « Relations Of The New route Father Manuel Godinho Took From India To Portugal In The Year 1663 » التى تجد لها ملخصا بالانكليزية نشره ديفيد لى فى كتابه Portuguese Voyages 1498 — 1663 ( London, 1947 ), PP XX — XX1, 333 — 360

والرحلتان لهما فائدة كبيرة عن الخليج العربى ذلك لأنهما تشيران الى عوامل ضعف النفوذ البرتغالى فى المنطقة، وتحذران من وصول القوى الاوروبية الاخرى، واعتزامها انهاء الوجود البرتغالى فى الشرق.

ويهمنا فى هذا المكان ان نشير بوجه خاص، الى رحلة الايطالى بترو ديلافال Pietro Della Valle، المعروف بـ « The Travels Of A Noble Roman to East Indies and Arabian Desert ( London, 1665 )

وترجع اهمية هذه الرحلة لانها ألفت فى نفس الفترة التى ألفت فيها مذكرات القائد البرتغالى روى فريير اندرادى، ولهذا فان بالامكان استخدامها وسيلة للتحقيق فى المعلومات التى ذكرها اندرادى، تلك المعلومات التى تطغى عليها صفة المبالغة عن انتصارات البرتغاليين واعمالهم الوحشية تجاه سكان الخليج العربى

## المصادر التركية والمصادر العربية.

لم يكن القادة البحريون البرتغاليون هم الوحيدون الذين تركوا مذكرات عن اعمالهم الحربية - البحرية فى الخليج العربى كما هو الحال فى مذكرات البوكيرك واندرادى، ولكننا نجد مثل هذه المذكرات لدى بعض القادة البحريين العثمانيين امثال سيدى علي ريس، الذى عهدت اليه قيادة الاسطول العثمانى عام ٩٦٠/ ١٥٥٣، وكان عليه ان يقوم بتخليص السفن العثمانية الراسية فى البصرة وايصالها الى مصر، وقد قبل سيدى علي هذه المهمة متوجها الى البصرة عن طريق حلب وبغداد فوصلها فى اليوم الاخير من صفر

٩٦١/ الثالث من شباط عام ١٥٥٤، وشرع باصلاح السفن العثمانية للعودة الى مصر. ولكن في طريق العودة التقى بالاساطيل البرتغالية في الخليج العربي ودارت بينهما عمليات بحرية متعددة، وكانت النتيجة ان لاقى الاسطول العثماني الهزيمة على يد البرتغاليين واندفعت السفن العثمانية المتبقية بفعل الرياح المعاكسة الى سواحل الهند ومن هناك اتخذ سيدى على ريس الطريق الى القسطنطينية، وقد وصلها في رجب ٩٦٤/ مارس ١٥٥٧

لقد وصف سيدى على هذه الاحداث جميعها في كتابة المعروف بـ مراة الممالك، درسعادت، اقدام مطبعة سى، اسطنبول، ١٣١٣ ) الذى يعد من ابرز المصادر التركية لا عن عمليات الصراع العثماني - البرتغالي في الخليج العربي في منتصف القرن السادس عشر فحسب، ولكن عن كل الجهود البحرية العثمانية في المياه الشرقية

لقد ترجم كتاب « مرآة الممالك » من قبل المستشرق الهنغارى فامبرى تحت عنوان The Travels and Adventures Of the Turkish admiral Sidi Ali Reis In India, Afghanistan, Central Asia and Persia, during The Year 1553 — 56 ( London 1899 ) ولكن من الملاحظ ان هذه الترجمة تتجاوز بعض التعبيرات، التى قد تكون غير مفهومة للمترجم، مما يجعل النص الانكليزى غير واضح في بعض الاحيان

استفاد الميرالاى اسماعيل سرهنك في كتابه « حقائق الاخبار عن دول البحار » القاهرة، ١٣١٢هـ، من كتاب سيدى على « مراة الممالك » فاشار بصورة ملخصة الى عمليات المواجهة البرتغالية - العثمانية في الخليج العربي في منتصف القرن السادس عشر ( انظر ص ص ٥٤٧ - ٥٥ )

ولا يقل كتاب « تحفة الكبار في اسفار البحار » استنبول، مطبعة بحرية، ١٣٢٩، لمصطفى بن عبدالله حاجى خليفة، المعروف بكاتب جلبى ( ت ١٠٦٧هـ /١٦٥٦م ) اهمية عن كتاب سيدى على، ذلك لانه يلقى الضوء على النشاط العثماني البحرى في البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى والخليج العربي ابان القرن السادس عشر مما يجعلهما افضل مصدرين واكثرهما تفصيلا لمن اراد الكتابة عن تاريخ الخليج البحرى في القرن المذكور

اما المصادر العربية، بخاصة العمانية، فقد كان من المتوقع ان تمدنا بمعلومات وافية عن اوضاع الخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر بصورة لا تقل آهمية عن المعلومات التى زودتنا بها المصادر البرتغالية المعاصرة الا انها للاسف التشديد جاءت مخيبة لآمال الباحثين ذلك لأن المصادر العمانية قد تجاهلت، وبشكل يكاد يكون تاما، احداث الغزو

البرتغالى للخليج العربى التى بدأت بظهور البرتغاليين ق مياه الخليج عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م وحتى مجىء الامام ناصر بن مرشد اليعربى عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م ويبدو ان سبب سكوت المؤلفين العمانيين عن هذا الحدث ـ كما يقول سليمان محمد العنام [٤] ـ يعود الى العوامل التالية

١ ـ ان اهل عمان، كما يشير السالمى [٥] لا يعتنون بتدوين الاحداث التاريخة لذاتها وانما تأتى عرضا ق سير الائمة ومناقشة القضايا الدينية كالاحكام وغيرها

٢ ـ ان المؤلفين العمانيين شعروا ان الاحتلال البرتغالى لموانئهم، وما يعنيه من سيطرة ليس فيه ما يشرف فأعرضوا عن تدوينه عمدا، ق حين انهم سجلوا شىء من الحماس وعلى الاخص المراحل الاخيرة لطرد البرتغاليين من عمان [٦]

والملفت للنظر انه لم ترد اى اشارة ق المصادر العمانية الى البرتغاليين واحتلالهم لموانىء عمان، او اسهام امام عمان محمد بن اسماعيل ق المقاومة التى أبداها سكان هذه البلاد ضد الاحتلال البرتغالى، سواء عند بدء هذا الاحتلال او الثورات التي حدثت ق كل من مسقط وقريات وصحار وقلهات عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م، بينما اوردت المصادر الاجنبية ذلك ـ [٧]

أحجمت المصادر العمانية، كما اشرنا، عن ذكر احداث الغزو البرتغالى لسواحل عمان حتى مجىء الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٢٤، وبدء الصراع معهم حتى اخراجهم النهائى من مسقط عام ١٦٥٠، ماعدا بعض الاشارات التى وردت عرضا، من ذلك وصف البرتغاليين « بالجبابرة » لان « خراج » عمان قد اصبح تحت سيطرتهم [٨] واشارة ثانية الى احتلال البرتغاليين صحار سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م [٩]

توفرت الكثير من المعلومات بعد مجىء الامام ناصر بن مرشد، ودخوله ق حروب متواصلة مع البرتغاليين، ولكن هذه المعلومات على وفرتها النسبية، نجدها في مصدر يكاد يكون واحدا، هو كتاب « سيرة الامام ناصر بن مرشد »، لمؤلفه عبدالله بن خلفان بن قيصر [١٠]، الذى كان معاصرا للامام ناصر بن مرشد اليعربى، فأرخ له وكتب سيرته

استقصت المصادر التى تلت ابن قيصر معلوماتها عنه فيما يتعلق بالعقدين الاولين من عهد الامام ناصر، يقول السالمى [١١] ق ذلك « وانما كتبنا ق سيرة هذا الامام مالم نكتبه ق سيرة من قبله لأن بعض اصحابه ( اى ابن قيصر ) قد ارخوا بعض سيرته ولم يؤرخ من مضى الا ما وجدناه ق القضايا التى يحتاج الى البحث عنها ق الاحكام »

وواضح من مقارنة كتاب « كشف الغمة الجامع لاخبار الأمة »، لسرحان بن سعيد الازكوى، ان هذا الكتاب قد

اعتمد الى حد كبير على كتاب ابن قيصر، بيد أن الازكوى قد عدل من روايات ابن قيصر المسجوعة واضاف اليها وحذف منها، ولكنه لم يبتر الى مصدرها [١٢]

ومع هذا فان كتاب « كشف الغمة » [١٣] الذى استمر بحوادثه حتى عام ١٧٢٨، يعد مصدرنا الوحيد فيما يخص استعادة مسقط من البرتغاليين وطردهم منها على يد الامام سلطان بن سيف عام ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩ ـ ٥٠م [١٤]

وهناك كتاب « قصص واخبار جرت فى عمان » [١٥]، الذى ينسب لابى سليمان بن محمد بن عامر بن راشد المعولى (ت بعد سنة ١٧٨٣ م ) ومقارنة بين هذا الكتاب وبين كشف الغمة يظهر مدى اعتماده على الاخير لدرجة انه ينقل حرفيا عنه، غير ان هناك بعض المعلومات فى كتاب المعولى غير موجودة فى كشف الغمة وعلى اية حال، فالكتاب مفيد عن حروب الامام ناصر بن مرشد مع البرتغاليين حتى تحرير مسقط عام ١٦٥٠ م

ويمدنا كتاب « الفتح المبين لسيرة السادة البوسعيديين » [١٦] لمؤلفه حميد بن محمد بن رزيق ، وكتاب « تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان »، لمؤلفه نور الدين عبدالله بن حميد السالمى، بمعلومات مماثلة للمصادر العمانية الاخرى، وذلك عن علاقة الامام ناصر بالبرتغاليين. كما يشترك هذان المؤلفان مع المصادر العمانية المحلية الاخرى فى كونهما لا يعدان مصدرا رئيسيا بالنسبة لنشاطات البرتغاليين المبكرة فى الخليج وغزوهم له منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى

وما دمنا بصدد الحديث عن المصادر العربية لا بد من الاشارة الى المصادر العربية الاخرى غير العمانية واهمية معلوماتها عن الموضوع الذى تناوله بالبحث

يعد كتاب « تحفة المجاهدين فى بعض احوال البرتكاليين » لزين الدين المليارى المعبرى ( المتوفى فى القرن ١٠هـ/ ١٦م )، تحقيق دى لوبيز Lopes ( لشبونه، ١٨٩٨ )، من اهم المصادر العربية واقدمها من حيث تناوله لامتداد النفوذ البرتغالى فى المحيط الهندى، وتوضيحه للاهداف الصليبية والاقتصادية التى دفعت بالبرتغاليين لاحتياز راس الرجاء الصالح ومع ان كتاب زين العابدين هذا يمتاز بدقة الملاحظة والتحليل، الا انه لم يترك لنا الا اشارات قليلة عن الخليج العربى وجنوب شبه الجزيرة العربية

اما كتاب « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى »، لقطب الدين النهروالى المتوفى فى اواخر العقد الثامن من القرن السادس عشر، فيزودنا بمعلومات هامة عن مجيء البرتغاليين الى الشرق، وتحركاتهم فى البحر الاحمر، غير انه لا يتطرق الى احداث

الخليج العربي بشيء

وتجدر الاشارة هنا الى ان المصادر اليمنية، ورغم انها كتبت في نفس الفترة التي ازداد فيها النفوذ البرتغالي في الشرق، الا انها لا تمدنا بمعلومات هامة عن منطقة الخليج العربي يستثنى من ذلك « الحوليات الحضرمية » التي ترجمها سيرجنت R B Serjent في كتابه المشهور بـ « البرتغاليون في الساحل العربي الجنوبي ـ The Portuguese of The South Arabian Coast, ( Beirut, 1974 )

وقد تناولت هذه الحوليات بالذكر وصول البرتغاليين الى هرمز وسيطرتهم عليها، واتخاذها قاعدة لنفوذهم في المنطقة ( ص ص ٤٣ ـ ٤٤ ) كما تطرقت الى النشاطات العثمانية ضد البرتغاليين في الخليج العربي في منتصف القرن السادس عشر ( ص ص ١٠٩ ـ ١١٠ )

ويبدو ان سيرجنت لم يكن على علم بنص يمني لا يقل اهمية عن تلك النصوص التي نشرها في كتابه المشار اليه، بخاصة وانه يتناول الفترة التي صاحبت ضعف السيطرة البرتغالية وقيام الانكليز والفرنسيين بدورهم وهذا النص الذي سنعرض له فيما يلي هو مخطوط لمؤرخ يمني هو عبدالله بن علي بن محمد بن عبدالله بن احمد الوزير الذي توفي سنة ١١٤٧ او ١١٤٨هـ/ ١٧٣٤ ـ ٣٥ م ، بعنوان طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى » لقد نشر الاستاذ عبدالله محمد الحبشي نصوصا من هذا المخطوط باسم «البرتغاليون على ساحل البحر الاحمر نصوص لم تنشر عن مخطوطة يمنية »، في ( مجلة العرب )، ج أو ٢، السنة التاسعة أب وايلول ( ١٩٧٤ ) ص ص ١٨ ـ ٣٧، على ان النصوص التي نشرت من هذا المخطوط تكاد تكون ملحقا لكتاب سيرجنت، بخاصة وان المؤرخ اليمني قد رصد اخبار البرتغاليين وتحركاتهم حول ساحل البحر الاحمر والخليج العربي في القرن السابع عشر

ومما يذكر ان الاستاذ الحبشي اشار ( حاشية، ص ١٨ ) في النصوص التي نشرها في ( مجلة العرب، عام ١٩٧٤ بانه عرض على الاستاذ سيرجنت ما نقله من مخطوطة « طبق الحلوى » فذكر له بأنه لم يرجع اليها في كتابه المشار اليه ولم يكن له علم بها » ويظهر ان الباحث الانكليزي المعروف قد انتبه الى اهمية هذه المخطوطة فاعتمدها اساسا في كتابة بحثه الموسوم « النشاط الملاحي العماني على الساحل العربي الجنوبي » الذي قدمه لندوة الدراسات العمانية عام ١٩٨٠، ونشر في حصاد ندوة الدراسات العمانية ( ١٩٨١ ) ج ٨ ( ص ص ١١٣ ـ ١٣٧ )

وعلى اية حال، فان البحث يعد ذا فائدة كبيرة عن النشاطات العمانية

البحرية ضد البرتغاليين ق القرن السابع عشر

## المراجع والبحوث الاجنبية.

عندما وصل البرتغاليون الى الشرق الاوسط وسيطروا على اماكن كثيرة فيه اصبح توسعهم مطمح انظار الاوروبيين الذين ارادوا ان يعرفوا سر توسع دولة البرتغال الصغيرة والسياسة التى اتبعتها ق البحار الشرقية، فراحوا ينقلون كثيرا من المدونات البرتغالية كالوثائق وكتب المذكرات والرحلات. ولعل من ابرز هذه الكتب المنقولة كتاب فريا سوسا Sousa الذى ترجم من البرتغالية الى الانكليزية ونشر ق اواخر القرن السابع عشر، كذلك ترجمت « تعليقات » البوكيرك و« رحلة تكسيرا » وما الى ذلك وقد اصبحت هذه الكتب المترجمة الاساس الذى بنيت عليه معلومات كثير من المؤلفات التى صدرت عن الشرق عامة والخليج العربى خاصة، منذ القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر نخص بالذكر كتابا يحمل عنوان « تاريخ الاكتشافات والغزوات والمؤسسات التى اقامها البرتغاليون ق جزر الهند الشرقية The History of the Discoveries, Conquests and Establishments made by the Portuguese in the East Indies", والذى نشر غفلا وبدون تاريخ تحت عنوان « التاريخ الحديث استمرارية للتاريخ العام Modern History · Being a Continuation of The Universal History, Book XIII ·

ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة ذلك لأنه يحتوى على معلومات مفصلة لا نجدها ق مؤلف اخر عن تاريخ الغزو البرتغالى للخليج، ومراحل هذا الغزو خلال السادس عشر والسابع عشر وتأتى اهمية هذا الكتاب لكونه اعتمد بالدرجة الاولى على المصادر الاصلية المؤلفة باللغة البرتغالية واللغات الاوروبية الاخرى

اما كتاب فردريك شارل دانفرز FrederickCharles Danvers, The Portuguese in India, 2 Vols ( London, 1894 ). فانه يعد مكملا للكتاب المذكور اعلاه لأنه لم يقتصر على احداث الغزو البرتغالى للخليج والسيطرة عليه خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وانما تابع المؤلف تاريخ البرتغاليين حتى القرن الثامن عشر

وقد صدر ق القرن العشرين عدد من المؤلفات الاوروبية التى نالت شهرة كبيرة لدى الباحثين ق تاريخ الخليج الحديث، وهذه المؤلفات هى كتاب صموئيل مايلز المعنون The Countries and Tribes of The Gulf, London, 1919 ), الذى ترجمه السيد محمد امين عبدالله باسم « الخليج بلدانه وقبائله »، وصدرت طبعته الثالثة عام ١٩٨٦؟ وكتاب جى جى لوريمر « The Gazetteer of The Gulf, Calcutta, 1908 », الذي ترجم الى

العربية من قبل مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر لقسميه التاريخي والجغرافي بعنوان « دليل الخليج » وهناك كتاب ارنولد ويلسون« The Gulf » « London, 1928 »، الذي ترجم من قبل الدكتور عبدالقادر يوسف، ونشر في الكويت د ت، وصدرت له ترجمة ثانية عام ١٩٨١ من قبل السيد محمد امين عبدالله

يعد كتاب مايلز من اوائل المؤلفات الاوروبية التي صدرت في القرن العشرين التي تناولت احداث الغزو البرتغالي للخليج اعتمادا على المصادر البرتغالية الاساسية، فضلا عن ابرازها لدور المقاومة العربية للبرتغاليين، غير ان هناك على اية حال كتاب « دليل الخليج » للوريمر، الذي وضعه المؤلف بتكليف رسمي من قبل حكومة الهند البريطانية في مجلدين احدهما تاريخي والاخر جغرافي وذلك في عام ١٩٠٨، تم اعيد طبعه عام ١٩١٥، و١٩٧٠ وقد ظل هذا الكتاب مقصورا على الرسميين البريطانيين لعدة اعوام، ولم يتح للجمهور الاطلاع عليه الا في الخمسينات من هذا القرن ويعد هذا الكتاب اوسع نطاقا من كتاب مايلز ذلك لأنه تناول احداث الخليج من اوائل القرن السادس عشر حتى السنوات الاولى من القرن العشرين. ومن حيث علاقته باحداث الغزو البرتغالي للمنطقة فقد جاء معتمدا بصورة رئيسية على وثائق شركة الهند الشرقية الانكليزية، والمؤلفات الرسمية الاخرى للشركة [١٧].

اما كتاب ويلسون فقد كان واحدا من ابرز المصادر الهامة عن الخليج ذلك لأن مؤلفه افرد ثلاثة فصول مستقلة عن وصول البرتغاليين الى الخليج، والصراع بينهم وبين الانكليز، وطرد البرتغاليين من الخليج ومما يزيد في قيمة الكتاب انه احتوى على قائمة فريدة من المصادر الوثيقة الصلة بالخليج واوضاعه، بيد ان هذا الكتاب قد خلا من قائمة المصادر تلك بترجمته العربية

والى جانب تلك المؤلفات الرئيسية عن الخليج هناك كتاب ستر ىلنك G W. F Stripling، المعروف بـ « الاتراك العثمانيون والعرب ١٥١١ ـ ١٥٧٤ »The Ottoman Turks and The Arabs 1511 — 1574, The University of Illinois Press, Urbana, Illinois, 1942— ومع ان هذا الكتاب قد صدر في الاربعينات [١٨] الا ان بعض معلوماته عن المراحل الاولى للغزو البرتغالي للخليج ما زالت مفيدة جدا، كما ان مصادره عن الموضوع ذات قيمة كبيرة للباحثين

وقد وضع عدد من المؤلفات الحديثة عن البرتغاليين وتوسعهم في الشرق وقد تناولت هذه المؤلفات تاريخ الخليج ايضا، ومن بينها كتاب سي. أر بوكسرBoxer الموسوم « امبراطورية البرتغال البحرية ١٥١٤ ـ ١٨٢٥، لندن ١٩٦٩The

Portuguese Sea-borne Empire 1415 — 1825 ( London, 1969 ) وللمؤلف نفسه فصل بعنوان « التنافس الانكليزى - البرتغالى فى الخليج ١٦١٥ - ١٦٣٥ »، فى مؤلف جى بريستدج المعنون « فصول فى العلاقات الانكليزية البرتغالية »، واتفورد، ١٩٣٥ « Chapter in Anglo — Portuguese relations in the Gulf 1615 — 35 (ed) by G Prestage (Watford, 1935), pp. 46 — 130.

وهناك كتاب ار اس وايت وى R S White Way المعنون « ظهور القوة البرتغالية فى الهند ١٤٩٧ - ١٥٥٠ The Rise of Portuguese» Power in India," 1497 — 1550, London, 1967, الذى تناول فيه المؤلف احداث الغزو البرتغالى المبكرة للمياه الشرقية بصورة عامة ومياه الخليج العربى بصورة خاصة

وهنا من الضرورى ان نتذكر كتاب سونيا ى هاو، المعنون « فى طلب التوابل » ترجمة محمد عزيز رفعت ( مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧ ) باعتباره من المصادر القديمة التى ركزت على التوابل باعتبارها الدافع الاساسى لتوسع البرتغاليين والامم الاوروبية الاخرى من بعدهم. بيد ان كتاب نايلز ستريز كوردگارد Niles Streens gaard الموسوم « carracks, Cavvans and Companies ( Denmane, 1973 », يعد قفزة نوعية فى الدراسات التاريخية الاقتصادية، ذلك لان مؤلفة تابع ولمدة طويلة دراسة النشاطات الاقتصادية البرتغالية والاوروبية الاخرى فى الخليج ودوافعها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر

وقد يكون من المفيد ان نشير هنا الى عدد من البحوث والدراسات التى تناولت الغزو والسيطرة البرتغالية لانها تحفل بمادة تاريخية كبيرة عنها، قلما تتوفر فى المصادر العربية من ذلك دراسة ستيف « Arthar W Stiffe المعروفة بـ Ancient Trade Centres of Gulf »,The Geographical Journal,Vol X ( 1897 ), التى احتوت على معلومات قيمة عن الوسائل التى احتل فيها البرتغاليون الساحل العمانى ( انظر ص ص ٦١٥ - ٦١٧ )

وثمة دراستان عالجتا بشكل خاص التوسع البرتغالى فى الخليج العربى والمحيط الهندى خلال القرن السادس عشر، لمؤلفهما بالارد G A Ballard الاولى بعنوان The War of The Arabian Sea, **Mariners Mirror** ( tan 1925 )، والثانية باسم The Century of Portuguese Supermacy in the Indian ocean",Mariner's Mirror, Oct. 1925.

وهناك بحثان يدخلان فى عداد الدراسات الخاصة التى تعالج نشوء القوة البحرية العثمانية وتطورها فى مواجهة القوة البحرية البرتغالية فى المحيط الهندى والخليج العربى، اولهما مقالة هس Andrew C. Hess

الموسومة « نشوء القوة البحرية العثمانية في عصر الاستكشافات المحيطية ١٤٥٣ ـ ١٥٢٥ « The. « Evolution of The Ottoman Seaborne Empire in The Age of The Oceanic Discoveries, 1453 ' 1525 », The American Historical Review Vol. LXXXV ( dec. 1970 ), PP. 1892 — 1919 وثانيهما بحث ديمز M Longworth Dames الموسوم « البرتغاليون والاتراك في المحيط الهندي في القرن السادس عشر « The Portuguese and Turks. « in the Indian Ocean in The Sixteenth Century », **Journal of the Royal Asiatic Society**, Pt. I ( April, 1921 ) على ان البحث الثاني يمتاز بتركيزه الشديد على عمليات المواجهة البحرية البرتغالية ـ العثمانية في المياه الشرقية بشكل عام ومياه الخليج العربي بشكل خاص، وذلك اعتمادا على المصادر العثمانية الرئيسية

على أن هناك بعض البحوث التي عالجت السيطرة البرتغالية على بعض مناطق الخليج العربي، وتابعت مراحل هذه السيطرة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، نذكر منها على سبيل المثال بحث بلكريف J H D Belgrave المعنون « البرتغاليون في جزر البحرين ١٥٢١ ـ ١٦٠٢ » ـ The Portuguese in the Bahrain Islands, 1521 — 1602, Journal of the Royal Central Asian Society, Vol XXII ( 1935 ). PP — 617 — 30

وقد عالج الباحث نونو. دي. سلفا الموضوع نفسه في بحثه الذي ترجم عن الانكليزية الى العربية بعنوان « ملاحظات حول تاريخ البحرين في العصر البرتغالي ١٥٢١ ـ ١٦٠٢ »، ونشر في مجلة **الوثيقة** البحرينية العدد الثامن السنة الخامسة ( يناير، ١٩٨٦ ) ص ص ١٢٤ ـ ١٣٠ ولكن الملاحظ ان الباحث استعرض احداث الغزو البرتغالي للبحرين بصورة وصفية موجزة دون تحليل للاحداث

اما ابرز البحوث والرسائل التي عالجت علاقة البرتغاليين بعمان فهناك بحث الدكتور بارثيست R. D Barthust المعروف بـ « التجارة البحرية وحكومة الامامة Maritime Trade and Imamate Government Two Principal Themes in The history of Oman to 1728 in The Arabian Peninsula, ( ed ) by Derek Hopwood ( London, 1972 ), PP 89 — 106

على ان الباحث قد تناول هذا الموضوع بشكل مفصل في رسالته التي قدمها لنيل درجة الدكتوراة من جامعة اكسفورد عام ١٩٦٧ الموسومة «اسرة اليعاربة في عمان » The Ya'rubi Dynasty of Oman", Linacre College, Oxford University, ( March, 1967 ). فقد افرد الفصل الثالث لدراسة موضوع « طرد البرتغاليين

من الخليج »، في حين خصص الفصل الرابع لدراسة « مطاردة البرتغاليين فيما وراء البحار »، وكان جل اعتماده على الوثائق الانكليزية غير المنشورة.

والى جانب تلك البحوث لا بد من الاشارة الى بحث مانديفل J E Mandaville الموسوم ولاية الاحساء العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر «The Ottoman Province of al — Hasa in The 16 and 17th Centuries, Journal of the American Oriental Society 90 (1970), PP. 486 — 513. الذي ذكر فيه كثيرا من المعلومات عن العلاقات العثمانية - البرتغالية في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر اعتمادا على الوثائق العثمانية غير المنشورة، وهذه المعلومات تعين الباحثين على معرفة طبيعة النشاطات العثمانية في المنطقة انداك.

## المراجع والبحوث العربية.

مما لا شك فيه ان عزو البرتغاليين لمناطق الوطن العربي في القرن السادس عشر كان بداية المرحلة الاستعمارية الطويلة التي عاني منها وطننا العربي في القرون التالية، وهي عند كثير من الباحثين المنطلق الحقيقي لتاريخ العرب الحديث. ومما يدلل على اهمية هذه الفترة وبعدها التاريخي كثرة النصوص التاريخية التي كتبها الاوروبيون عنها.

ولكن للاسف الشديد فان معلوماتنا عن هذه الفترة ظلت حتى العقود الاخيرة من القرن العشرين معتمدة بالدرجة الاولى على كتب الاوروبيين الذين وفدوا الى الخليج العربي بصورة او باخرى، وكتبوا عنه كتابات عدة سبقت الاشارة اليها مثل كتاب « الخليج العربي.. » لأرنولد ويلسون، وكتاب « الخليج بلدانه وقبائله »، لمايلز، وكتاب « دليل الخليج » للوريمر، وما الى ذلك

وقد وضح اهتمام الباحثين العرب بمنطقة الخليج العربي في العقود الاخيرة، بيد ان معظم دراساتهم انصبت على القرنين التاسع عشر والعشرين، اما القرنان السادس عشر والسابع عشر فقد كان نصيبهما محدودا حتى صدر كتاب الدكتور بدر الدين عباس الخصوصي الموسوم « دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الجزء الاول، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٩٧٨ » الذي عالج الفترة من القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر، ولكن هذا الكتاب اعتمد في سرده لاحداث العزو البرتغالي على مراجع ثانوية معروفة ولم يعتمد على المصادر البرتغالية والاوروبية الاصيلة. ومع ذلك فان الكتاب يلقي اضواء جديدة على موضوعات جديدة مثل دراسة القوى العربية التي نشأت في الخليج العربي خلال القرنين الثامن

عشر والتاسع عشر وظروف تطورها.

وهناك كتاب الاستاذ مصطفى عقيل الخطيب « التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢ - ١٧٦٣ »، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨١. وهذا الكتاب فى الاصل هو رسالة ماجستير، لذلك فقد اعتمد فيه الباحث على مجموعة جيدة من الكتب والوثائق التى لها صلة بتاريخ الخليج حلال القرنين السابع عشر والتامن عشر، تعد البداية للدارسين عن تاريخ هذه المنطقة

ومن المؤلفات التى صدرت عن البرتغاليين فى الخليج كتاب نوال حمزة يوسف الصيرفى « النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى »، الرياض، ١٩٨٣، الذى نالت فيه المؤلفة درجة الماجستير من كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الملك عبدالعزيز. ووأضح أن المؤلفة ركزت بصورة اساسية على الدافع الدينى كاساس لحركة الاستكشافات الجغرافية، ورد الفعل العثمانى الدينى تجاهه ومع ان الباحثة قد جهدت فى بيان روح المقاومة التى اظهرها اهل الخليج ضد تلك الهجمة البرتغالية الصليبية بقدر ما وسعهم الجهد، بيد ان معظم اعتمادها جاء منصبا على مراجع ثانوية ولم يعتمد الا قليلا على المصادر الاساسية التى تناولت احداث الغزو البرتغالى للخليج ومراحله.

يعد كتاب الدكتور جمال زكريا قاسم « الخليج العربى. دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوروبى الاول ١٥٠٧ - ١٨٤٠ » دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٥، واحدا من ابرز المؤلفات التى لها علاقة وثيقة بتاريخ الغزو البرتغالى فى الخليج، ذلك لان المؤلف قد خصص فصلين رئيسيين عن هذا الجانب وتابع افول الامبراطورية البرتغالية فى الشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر. وقد اعتمد الباحث على عدد غير قليل من المصادر البرتغالية الرئيسية وكتب المذكرات التى وثقت الكتاب.

ومن المؤلفات التى تطرقت بصورة مفصلة الى عرب عمان وعلاقتهم بالبرتغاليين كتاب « دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا للفترة من ١٦٢٤ - ١٧٤١ »، لمؤلفته عائشة على السيار، ( دار القدس )، بيروت، ١٩٧٥ ). وفيه تابعت المؤلفة نمو قوة دولة اليعاربة وقيامها بمطاردة البرتغاليين ليس فقط فى الخليج العربى وانما فى المياه الشرقية بصورة عامة

والى جانب الكتب المذكورة هناك الكثير من البحوث المنشورة التى تناولت البرتغاليين فى الخليج من جوانب مختلفة، اولها بحث الاستاذ عبدالعزيز محمد الشناوى « المراحل الاولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية »، الذى نشره ضمن البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات

تاريخ شرق الجزيرة العربية، الدوحة، قطر، الجزء الثاني، ١٩٧٦ ويمتاز هذا البحث انه يتناول تاريخ مجيء البرتغاليين الى الشرق منذ اواخر القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السادس عشر، ولكن الملاحظ انه جاء بحثا استعراضيا عاما اكثر منه تحليليا خاصا

وهناك بحث للدكتور عبدالعزيز محمد عوض باسم « الاحتلال البرتغالى لموانىء الجزيرة العربية »، **المؤرخ العربى**، العدد ٢٩، السنة الثانية عشرة ( ١٩٨٦ ) ص ص ١٧ ـ ٢٦، الذى عالج فيه الباحث وقائع الغزو البرتغالى لموانىء الخليج العربى فى النصف الاول من القرن السادس عشر، وعملية الصراع العثمانى ـ البرتغالى فى المنطقة، معتمدا فى ذلك على عدد من الدراسات وثيقة الصلة بالموضوع

ومن البحوث التى تلقى مزيدا من الضوء على حالة الصراع العثمانى ـ البرتغالى بحث الدكتور عبدالوهاب القيسى المعنون « موقف العثمانيين من الغزو البرتغالى للمياه العربية »، مجلة الخليج العربي (البصرة) ، المجلد ١٢، العدد ١ ( ١٩٨٠ ) ص ص ٤٥ ـ ٥٣ وفيه تناول الباحث اسباب المجابهة العثمانية ـ البرتغالية، والاحداث الرئيسية فى هذه المجابهة ونتائجها.

على ان فلسفة الصراع العثمانى ـ البرتغالى فى الخليج العربى خلال القرن السادس عشر قد تطرق اليها الدكتور طارق نافع الحمدانى فى بحثه الموسوم « النزاع العثمانى ـ البرتغالى: رؤية جديدة » المنشور فى « دراسات عن تاريخ الخليج والجزيرة العربية »، منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ( ١٩٨٥ ) ص ص ١٨٥ ـ ١٩٨. وتقوم فكرة البحث الرئيسية على اعتبار أن عملية الصراع بين البرتغاليين والعثمانيين قد اتخذت مراحل مختلفة دينية وسياسية واقتصادية ومع صعوبة الفصل بين كل مرحلة من هذه المراحل لتداخلها وامتزاجها مع احداث المرحلة الاخرى، الا انه من الممكن القول ان المرحلة الاولى فى النزاع العثمانى ـ البرتغالى اتخذت الصبغة الدينية على اعتبار ان البرتغاليين استغلوا هذه الظاهرة لدعم اهدافهم التوسعية من قبل الكنيسة من جهة ولتبريرها فى الشرق من ناحية اخرى، واتخذ العثمانيون الصفة الدينية نفسها فى الرد على اهداف البرتغاليين وكسب شعور المسلمين من ناحية والدفاع عن الاماكن المقدسة والاماكن المحيطة بها من ناحية اخرى.

وبمضى الوقت اتخذ النزاع اشكالا سياسية واقتصادية على اعتبار ان البرتغاليين ارادوا ان يوجدوا لهم قواعد يستقرون فيها ويثبتون نفوذهم فى الشرق، ومن ثم عمدوا الى تحقيق منافع اقتصادية عن طريق ذلك، وكان

الرد العثماني على ذلك منسجما مع الاهداف العثمانية

وهناك عدد من البحوث التى تناولت عمليات الغزو البرتغالى لمناطق معينة فى الخليج العربى منها بحث الاستاذ احمد العنانى الموسوم « البرتغاليون فى الخليج وما حولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر »، مجلة **الوثيقة**، العدد الرابع، السنة الثانية ( يناير، ١٩٨٤ ) وفيه تابع الباحث المطامع البرتغالية فى المنطقة حتى طردهم من الخليج فى منتصف القرن السابع عشر وعلى غرار هذا البحث نشرت مجلة **الوثيقة** ايضا فى عددها الاول، السنة الاولى (يوليو ، ١٩٨٢) بحثا تحت عنوان «صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين» ، تناول البحث عمليات الغزو البرتغالي للمنطقة ، وتضمن نشر عدد من الوثائق التركية المتعلقة بأوضاع البحرين (أنظر ص ص ١٤٧ ـ ١٤٩)

ومن البحوث التى عالجت عملة مقاومة البرتغاليين فى الخليج وطردهم منه بحث الدكتور صالح محمد العابد الموسوم « تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية فى الشرق، مجلة **افاق عربية**، العدد الثالث، السنة العاشرة ( ١٩٨٥ )

وهناك بحث اخر للدكتور صلاح العقاد بعنوان « دور العرب والفرس فى مكافحة الاستعمار فى الخليج » دراسة مقارنة »، حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد الرابع ( ١٩٨٠ ) وهذا البحث الاخير كما يقول الباحث نفسه « يستهدف توضيح الفرق بين الاسلوب الذى اتبعه العرب عامة، والعمانيون بصفة خاصة حينما كافحوا البرتغاليين بصورة منفردة، فى حين ان الفرس رغم قيام دولة قوية فى بلادهم كانت اوسع انتشارا من الدولة العمانية الا انهم تصدوا للبرتغاليين مستندين الى محالفات اجنبية ». ( انظر ص ٥٩ ).

١ ـ بروفسور سى بكنهجام، بعض الملاحظات عن البرتغاليين فى عمان، حصاد الندوة العمانية، سلطنة عمان، مطابع سجل العرب ( ١٩٨١ ) ص ١٨٥.

٢ ـ بكنجهام، المصدر نفسه، ص ١٨٧

٣ ـ بروفسور سى بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليين من ١٦١٣ ـ ١٦٣٢، حصاد الندوة العمانية، المجلد الثانى ( مطابع سجل العرب، ١٩٨٠ ) ص ٢١٠.

٤ ـ « الوجود البرتغالى فى عمان فى المصادر المحلية العمانية »، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، مصادر تاريخ الجزيرة العربية،( مطبعة جامعة الرياض، الرياض، ١٩٧٩ )ج ٢ ص ١١٦

٥ ـ نور الدين عبدالله بن حميد السالمى، تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان ( ١٣٩٤/ ١٩٧٤ )ج ١ ص ٣٥٣

٦ ـ س .ب مايلز، الخليج العربى بلدانه وقبائله، ترجمة محمد امين عبدالله ( امون للطباعة، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٦ ) ص ١٤٩

٧ ـ Frederick Charles Danvers, The Portuguese in India ( London, 1894 ), Vol. I, P. 354. الغنام، المصدر السابقة، ص ١١٧

٨ ـ سرحان بن سعيد الأزكوى، تاريخ عمان « المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة »، حققه عبدالمجيد حسيب القيسى ( مطابع سجل العرب، ١٩٨٠ ) ص ٧٧

٩ ـ الأزكوى، المصدر نفسه، ص ٩٢

١٠ـ حقق هذا الكتاب عبدالمجيد حسيب القيسى، ونشرته وزارة التراث والثقافة لسلطنة عمان، ١٩٧٧

١١ـ تحفة الاعيان، ص ٢٠

١٢ـ انظر الدكتور فاروق عمر، مقدمة فى دراسة مصادر التاريخ العمانى ( بغداد، ١٩٧٩ ) ص ١٠٢.

١٣ـ من المعروف ان المستر روس الذى كان معتمدا بريطانيا فى مسقط قد نشر ترجمة لهذا الكتاب فى مجلة الجمعية الاسيوية فى البنغال عام ١٨٧٤ تحت عنوان «حوليات عمان». E. C. Ross, Annals of Oman by Sirhan Bin Said.

From Old days until 1728, The Journal of the Asiatic Society of Bengal, Vol. XLIII, Pt. I (1874).

١٤ـ الأزكوى، المصدر السابق، ص ١١١

١٥ـ نشرت وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان هذا الكتاب عام ١٩٨٣

١٦ـ لقد نشر جورج برسى بادجر George Percy Badger، وهو احد الباحثين الثقاة في تاريخ عمان، هذا الكتاب الذى تناول تاريخ الائمة والسادة البوسعيدين حتى عهد سعيد بن سلطان ( ١٨٠٦ ـ ١٨٥٦ ) وقد اضاف مقدمة تاريخية تحليلة امتد بها الى عام ١٨٧١ تحت عنوان. « History of the Imams and Seyyids of Oman », by Salil Ibn Razik.

١٧ـ يمكن الاطلاع على المصادر العديدة التى اعتمدها المؤلف في كتابة دليل الخليج، القسم التاريخى، ج ١ ص ص ٢٠ ـ ٢١

١٨ ـ لقد صدرت طبعة جديدة للكتاب عام ١٩٧٨

# معركة تحرير مسقط
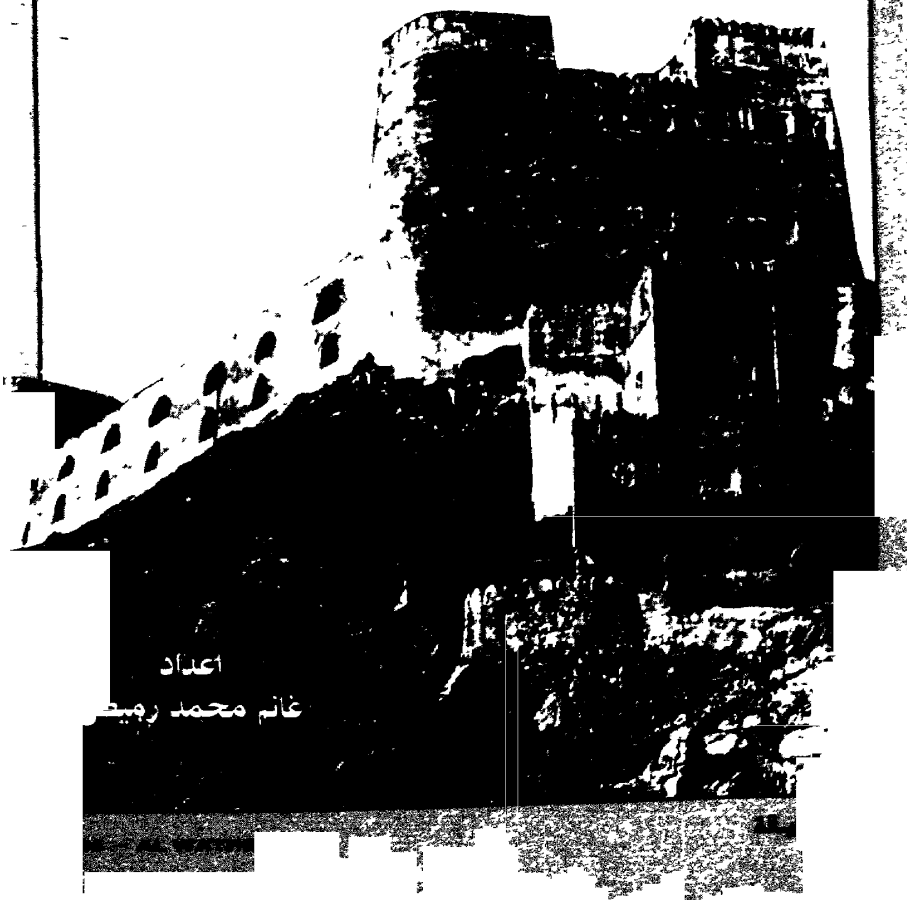
اعداد
غانم محمد رميض

**كان تحرير سواحل عمان من الهيمنة البرتغالية هدفا مركزيا للامام ناصر بن مرشد (١٦٢٤/١٦٤٩) بعد نجاحه بتحقيق وحدة وطنية ارتكزت على قوة القبائل العمانية وتلاحمها[١] وقد ادرك ان الاستقرار الحقيقي للبلاد لا يمكن أن يتحقق الا بالتخلص من الوجود الأجنبي فوجه اهتمامه صوب الشريط الساحلي، وخاض صراعا مريرا ضد الفرس والبرتغاليين ومما تجدر الاشارة اليه انه على الرغم من ان كثيرا من المصادر تحدد سقوط قلعة البرتغاليين في هرمز على ايدي الانجليز والفرس عام ١٦٢٢، على انها نقطة النهاية للسيطرة البرتغالية على الخليج العربي، الا ان حقيقة الامر تبدو في تحول البرتغاليين بتحصيناتهم الى السواحل الغربية للخليج، وبدأت القلاع البرتغالية في مسقط[٢] تدعم تدعيما كافيا باعتبارها القلاع الرئيسية بعد سقوط قاعدتهم الحصينة في هرمز**

شهدت سنة ١٦٤٨ بداية المرحلة الحاسمة في حرب التحرير تتويجا لخطة الامام في انتزاع قاعدة البرتغاليين في مسقط، فقد تحرك جيش كبير بقيادة مسعود بن رمضان ووصل الى مسقط في ١٦ آب ١٦٤٨ وباشر بعملية التطويق وتواصل القتال حتى ١٠ ايلول من العام نفسه ونجح العرب خلاله في انتزاع معظم تحصينات الميناء، كما اجبرت الحامية البرتغالية على طلب الصلح في نفس الوقت الذي كان القتال مستمرا بشكل متقطع[٣] وقد تضمنت الشروط العمانية اعفاءهم من دفع الضرائب على البضائع العربية في مسقط، وان يدفع البرتغاليون جزية الى الامام، ويزيلوا اسوار مسقط[٤]. الا ان القائد البرتغالي دوم جولجيار دانورنها اعتبر هذه الشروط ثقيلة جدا، ولذلك استأنف القتال، واستطاعت القوات العربية الاستيلاء على القلعتين الكبيرتين مورت كابتن ومكلا (الميراني والجلالي)[٥]، واستمر ضغط العرب باصرار متزايد ستة اسابيع اخرى على البرتغاليين مما ولد اليأس في نفوسهم، ووجد القائد البرتغالي نفسه مجبرا على التماس الصلح موافقا على الشروط العربية، وتم التوقيع على اتفاقية في ٣١ تشرين الاول ١٦٤٨، وقعها كل من سلطان بن سيف القائد العام لقوات الامام، والقائد البرتغالي دوم جوليار دانورنها[٦]، وقد تضمنت الاتفاقية[٧].

١ - يتعهد البرتغاليون بدفع الجزية بانتظام لامام عمان.

٢ - يمتنع البرتغاليون عن القيام

بأية اعمال عدوانية ضد رعايا وممتلكات الامام.

٣ ـ ضمان حرية التجارة لرعايا الامام واعفاؤهم من الضرائب ورسوم الجمارك.

٤ ـ حرية السفن العربية في الملاحة والتجارة وعدم خضوعها للتفتيش في مقابل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية في طريق عودتها.

ومن الواضح جدا ان هذه المعاهدة اوضحت ان السيطرة البرتغالية لمسقط اوشكت على نهايتها، وانه من الضروري بذل جهود موحدة وقوية لتأمين طردهم منها. وان اهم ما يستلفت النظر ما نصت عليه المعاهدة باعتراف البرتغاليين بحرية التجارة في مسقط والمحيط الهندي ومرور السفن العمانية في البحر دون تفتيش، وان كان عليها ان تتزود بتصاريح من المراكز البرتغالية عند عودتها من الهند فهي بمثابة جوازات للمرور تسمح للعمانيين بالابحار بحرية مع اي نوع من البضائع والى اي من الموانيء.

اثارت انباء الحصار العربي للحامية البرتغالية قلقا كبيرا للسلطات البرتغالية في كل من لشبونة، ومستعمراتها في الهند، فقد رفض ملك البرتغال الشروط السابقة واعتبرها اهانة لشرف بلاده، وامر باعلان الحرب ضد العرب. وسارع نائب الملك في الهند الدوم فيلبي ماسكارينا الى ارسال قطعة من الاسطول لنجدة الحامية البرتغالية ووصل الاسطول الى مسقط في منتصف كانون الثاني ١٦٤٨ ليفاجأ بالتسوية التي تمت بين القيادة العربية وقائد الحامية البرتغالية [٨] وتغلبت روح العنجهية الاستعمارية على قائد الاسطول فوجه الاتهام الى دوم جوليار لعدم صموده امام الحصار العربي وامر بارساله الى (كوا) حيث القى به في السجن[٩]. كما ان الملك دوم جوا الرابع اصدر اوامره في ٤ كانون الثاني ١٦٤٩ ببذل كافة الجهود من اجل التمسك بمسقط وزيادة عدد السفن الحربية في الميناء ومنع العرب من البقاء في المدينة [١٠] ولكن في الوقت الذي وصلت فيه الاوامر الى (كوا) كان الامر قد خرج عن ارادة البرتغاليين وكان العلم العربي يرتفع بشموخ على طول الساحل المحرر.

توفي الامام ناصر بن مرشد[١١] في ٢٣ نيسان ١٦٤٩ بعد ان حقق المرحلة الاصعب من مراحل ملاحقة وطرد الغزاة البرتغاليين. ويصف لنا المؤرخ انطونيو بوكارو صعود نجم الامام بأنه (جعل من نفسه منذ سبع سنوات أقوى حاكم في جميع انحاء الجزيرة العربية، بمناصرته للشريعة المحمدية التي كان من اشد المتمسكين بها)[١٢] الا أنه توفي ولم تسعد عيناه برؤية آخر جندي اجنبي يرحل عن بلاده فقد انحصر وجودهم في مسقط ومطرح.

Arabia.

## انتخاب سلطان بن سيف

ما ان اعلنت وفاة الامام ناصر بن مرشد حتى اجتمع الفقهاء والقضاة والقادة لاختيار امام جديد وفي تلك الظروف الدقيقة التي كانت تمر بها البلاد لا سيما ان معركة تحرير مسقط لم تحسم بعد كان منطقيا ان يحصل الاجماع على اختيار ابن عم الامام الراحل وقائد جيوشه سلطان بن سيف لما يتمتع به من صفات ابرزها الحزم والجرأة والكفاءة العسكرية ويصفه السالمي بانه كان (للامام ناصر بن مرشد سيفا وكفا يبيد بها الاعداء)(١٣) وقد شهد عهده المرحلة الاخيرة من عملية التحرير فقد عاود السياسة الهجومية ضد البرتغاليين وتقدم بنفسه لقيادة العمليات الحربية التي تكللت بنهاية مجيدة خلال أشهر تسعة (١٤)

شهدت عمان في ظل امامة سلطان بن سيف عهدا زاهرا بذرت فيه بذور التوسع المذهل الذي اعطى ثماره بعد فترة وجيزة(١٥)

قطعت عمان شأوا بعيدا في الرقي والازدهار بعد نجاحه في فتح منافذ البلاد البحرية وقد لخص لنا ابن رزيق عهده بقوله (ان عمان اعتمرت في ايام دولته وازدهرت واستراحت في عصره رعيته ورخصت الاسعار وصلحت الاسفار وكان متواضعا رؤوفا بالرعية وكان يخرج الى الطريق بغير عسكر)(١٦) وهذا هو شأن القادة العظام.

وضع الامام الجديد الخطط الكفيلة بتطوير ودعم قوة عمان البحرية لحماية سواحلها وتجارتها البحرية ضد القرصنة البرتغالية واضاف الى الاسطول التجاري العماني عددا ملحوظا من السفن كما كان يشترك بنفسه في الاعمال التجارية(١٧) مقدما المثل لمن جاء بعده من الائمة الامر الذي جعله موضع انتقاد البعض من الوجهة الفقهية.

وفي عصر الامام سلطان بن سيف وضعت خطط عديدة لحملات بحرية بهدف مطاردة البرتغاليين وتصفية تدحلاتهم حتى في المياه الاقليمية الهندية وشرق افريقيا، الامر الذي هيأ الفرصة لحكام عمان لطرد البرتغاليين من (مومباسا). اما في داخل عمان فقد بنى الامام الجديد القلعة المستديرة في نزوى التي استغرق بناؤها اثني عشر عاما.

يذكر لنا المؤرخ العماني سرحان بن سعيد بصدد ذلك انه

«نصب الحرب لمن بقي من النصارى بمسقط وسار عليهم حتى نصره الله عليهم وفتحها له ولم يزل يجاهدهم اينما وجدهم في بر وبحر، فاستفتح كثيرا من بلدانهم وخرب كثيرا من مراكبهم وغنم كثيرا من اموالهم فقيل انما بني القلعة التي بنزوى من غنيمة الدير»(١٨)

وادى انتعاش الموانىء العمانية وازدهارها بالحركة التجارية، الى

انتعاش مماثل شمل الاقسام الداخلية من البلاد، فنشطت حركة التبادل التجاري، وتطلب ذلك من الامام ان يوجه اهتماما متزايدا للزراعة ويوصح هذا الاموال الطائلة التي صرفها لصيانة الافلاج عماد الزراعة العمانية منذ عهود قديمة[١٩] فقد احدث فلج (البركة) قرب (ازكان)[٢٠]

ومن الملفت للنظر ان المصادر العمانية [٢١] لا تفصل لنا في موضوع الصراع بين الامام سلطان بن سيف والبرتغاليين بالقدر الذي كتبت عن الصراعات القبلية المحلية وهو تقصير كبير في رأينا فمما لا شك فيه أن طرد البرتغاليين من السواحل الشرقية بشكل نهائي على يد الامام سلطان بن سيف يعد عملا رائعا ومفخرة قومية. ولم يكتف بذلك بل نقل ميادين القتال الى مراكز المستعمرات البرتغالية غرب الهند وشرق افريقيا[٢٢] محققا انتصارات مهمة

## معركة تحرير مسقط

اوضحت المعاهدة التي فرضها الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٨ درجة الضعف الكبيرة التي كان يعيشها البرتغاليون وان نهايتهم اصبحت وشيكة

اعد الامام سلطان بن سيف الخطط اللازمة لمهاجمة البرتغاليين في مسقط وفي عام ١٦٤٩ باشر الامام حملته النهائية لدحر العدو:

(واستجابت القبائل العمانية بابتهاج عظيم لنداء الامام واحتشدت في (سيح الحرمل) خارج مطرح وهي مهيأة للهجوم)[٢٣].

ولا بد من ملاحظة ان بعض المصادر العمانية [٢٤] تشير الى ان الامام سلطان بن سيف هاجم مسقط لعدم التزام البرتغاليين بالاتفاقية التى فرضها عليهم الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٨. ولكن واقع الحال ان الامام كان مصمما اساسا على انهاء الوجود البرتغالي في البلاد متمما الشوط الدي قطعه سلفه العظيم.

وكان البرتغاليون قد استعدوا لصد الهجوم فبنوا ابراجا حصينة على رؤوس الجبال، وكانت الحاميات العسكرية البرتغالية مكونة من وحدات عسكرية برتغالية ووحدات هندية وصفها مؤرخو عمان بانها من ولاية (هندجوه)[٢٥]، اتخدت لها مواضع دفاعية عند اطراف المدينة ووضعوا فيها خيرة رجالهم المزودين بالبنادق والمدافع وكانوا يضربون كل من يتقدم من قوات الامام باتجاه مسقط[٢٦]. اما قلعتا مسقط الشهيرتان فقد كانتا بمثابة مقر للقيادة العامة والتموين ومدفعية الساحل والثكنة العسكرية الرئيسية في المنطقة، وقد اكمل البرتغاليون تحصيناتهما بشكل محكم[٢٧]

اتخذ الامام من منطقة (طوى الرولة) قاعدة متأخرة له وتقدم بوحداته المقاتلة الى منطقة التجمع والوثوب في منطقة (سيح الحرمل)

ومن هناك اصدر اوامره بالهجوم. وتقدمت القوات العربية واستولت على اول اهدافها وهي مجموعة تلال تسمى (بير الراوية). لكنها جوبهت بنيران كثيفة وفي نفس الوقت لم يتمكن البرتغاليون من زحزحة قوات الامام في المطرح [٢٨]

وفي ٢٣ كانون الثاني ١٦٥٠ [٢٩] قامت قوة فدائية بهجوم ليلي مباغت، فعبرت السور واندفعت الى شوارع مسقط ببسالة عالية واصيب البرتغاليون بالذعر والانهيار المعنوي التام، فتدافعوا الى السفن الراسية في الميناء [٣٠] والمراكز (مخزن السلاح والذخيرة) طلبا للنجاة واندفع العرب نحو اعدائهم ونجحوا في الاستيلاء على سفينتين كانتا راسيتين في الميناء واحاطوا بالمركز ولم يتمكن المدافعون من الصمود وانسحبوا الى القلعة الحصينة (فورت كابتن - الجلالي) تاركين الحرس الهنود لمصيرهم وفي اليوم نفسه استسلم قائد القلعة فرانسسكودي تافرتا وبعد ثلاثة ايام استسلم المركز وتراجع الاسطول البرتغالي بعد ان فقد اثنتين من سفنه [٣١].

ومن المناسب ان نطلع على ما كتبه لنا الكسندر هاملتون الذي اورد لنا اقوال شاهد عيان لعملية الهجوم الاخير على مسقط:

«بلغت الحماسة لدى العرب درجة قصوى بحيث هددوا بالتمرد اذا لم يقدم ضباطهم على الفور الى الهجوم على اسوار المدينة وحينما لم يجد الملك (الامام) حجة يمكن تهدىء ثائرتهم على الرغم من اقتراب الليل اصدر امره بالهجوم وجوبه المهاجمون بنيران كثيفة اطلقها البرتغاليون عليهم من قلاعهم على المرتفعات ولكن العرب تقدموا الى امام ولم يكن بحسبانهم ان يتراجعوا ولم يبالوا بالاعداد الكبيرة من رفاقهم الذين تساقطوا قتلى وواصلوا تسلق الاسوار على اشلاء من سقطوا في ساحة الوغى. وعند غياب الشمس تمكنوا من السيطرة على بابين من ابواب المدينة مجبرين المدافعين على الفرار، واندفعوا خلف اعدائهم باصرار بحيث لم ينج منهم احد بالرغم من فرارهم باقصى سرعة باتجاه القلعة الكبيرة حيث يقيم الحاكم وكانت القلعة مبنية على صخرة عظيمة محاطة بالبحر من كل جهاتها تقريبا. والطريق الوحيد المؤدي اليها لا يسمح لاكثر من شخصين او ثلاثة بارتقائه سوية. وادرك العرب ان اقتحامها امر مستحيل دون تضحية جسيمة ولهذا فرضوا عليهم الحصار الكامل وخسر العرب في الهجوم مابين اربعة الى خمسة الاف من رجالهم. واجبر المتحصنون في الحصون الصغيرة على الاستسلام. ثم استسلم رجال الحصن بدون قيد او شرط» [٣٢].

وهكذا دخل الامام المدينة محررا وطهر القلعتين الشهيرتين وابدل اسميهما الى (الميراني) و(الجلالي)،

وعين سيف بن بلعرب واليا عليها [٣٣] اما هو فقد اسرع بقواته الى مطرح لمنازلة البرتغاليين هناك ويبدو ان قائد منطقة مطرح العسكري قد وصلته انباء الهزيمة المريرة التي حلت بالحامية البرتغالية في مسقط فخرج على رأس معاونيه ورجاله رافعا راية الاستسلام[٣٤].

وكان رد الفعل البرتغالي على الاندحار الذي منيت[٣٥] به قواتهم في مسقط سريعاً فما ان وصلت انباء الهزيمة إلى نائب الملك (دوم فيلبي) عن طريق سفينة تحمل ٧٠٠ برتغالي نجحت في الهروب من مسقط الى ديو[٣٦] حتى ارسل اسطولا من سبع سفن الى الخليج العربي واصدر تعليماته الى قائد الاسطول بان يبذل ما بوسعه للحصول على مساعدة الفرس ضد العرب[٣٧] وبعد ان توقف في ميناء (كنك)[٣٨] اتجه الى القطيف، وهناك التقى بقطعة من الاسطول العماني، فنشبت معركة بحرية اسفرت عن تراجع البرتغاليين وفشل اسطول اخر اكثر قوة من سابقه ارسله نائب الملك في اذار ١٦٥٠ لاستعادة اي من موانىء ساحل عمان[٣٩].

وبعد هذه الانتصارات الرائعة عاد الامام الى العاصمة (نزوى) واستقبل استقبالا كبيرا يليق بهذا الانتصار العظيم الذي الهب حماس العمانيين الذين لم يكتفوا بذلك، بل وضعوا استراتيجية جديدة تمثلت في ضرب مواقع العدو في غرب المحيط الهندي وشرق افريقيا وبموجب هذه الاستراتيجية كان من الطبيعي ان يعمد العمانيون الى بناء قوة بحرية[٤٠] مناسبة للمنازلة المرتقبة.

## بناء القوة البحرية العمانية:

ادرك الامام سلطان بن سيف ان معركة مسقط لم تكن نهاية الصراع مع البرتغال فقد صاحب الوحدة الوطنية الجديدة في عمان انبعاث الشعور القومي ضد البرتغاليين بشكل خاص ولهذا فان امتلاك قوة بحرية قوية موازية لقوة العدو يعد امرا حاسما لتأمين السواحل من الهجمات التدميرية وصيانة تجارة البلاد، فالصراع مع البرتغال هذه المرة سيكون صراعا بحريا بالدرجة الاولى حتى ان هذه الفترة اطلق عليها (حرب البحر العربي)[٤١] او حملة بحر الهند ولتحقيق نتائج حاسمة كان على العرب تطوير بناء سفنهم، وبناء قوتهم البحرية على طراز جديد وقد شكلت السفن التي اسرها العرب خلال معارك التحرير نواة الاسطول الحديث[٤٢]. وكان يتم بناء السفن والمراكب في العديد من الموانىء العمانية وخاصة مينائي مطرح وصور، اما الاخشاب بمختلف انواعها فيتم استيرادها من (مليبار) في الهند. ويتم ربط اجزاء السفينة

بواسطة الحبال التي تصنع محليا في مطرح وغيرها من الموانيء، اما الاشرعة فيتم جلبها من البحرين ويتم صنعها في صحار والموانيء العمانية الاخرى. ويمكن تقسيم السفن العمانية من حيث حجمها ونوعها الى طبقتين تختلف احداهما عن الاخرى، فطراز (البدن) و(البغلة) مخصصة للتجارة مع الموانيء الاجنبية، بينما تستخدم الانواع الصغيرة للتجارة المحلية[٤٣] والى جانب السفن التي تصنع محليا، كانت السفن الكبيرة تصنع في سورات على نهر السند، في احواض بناء السفن التي لم يكن الاوربيون يعرفون عنها الا القليل ولم يكن لهم فيها نفوذ

ولقد نجح العمانيون في التكيف مع الاساليب الحديدة في صناعة السفن، وقد مكنهم هذا النجاح من اتقان هذه الاساليب من خلال المراكب التي اسروها من عدوهم واستخدموها، واستوعبوها دون وسيط[٤٤]. فخلال وقت قصير تحرر العرب من الاسلوب التقليدي في بناء السفن ذات الهيكل الذي تشد الواحة بالحبال، واخذوا ببناء سفن على الطراز الاوربي من ذوات الاشرعة المربعة المزودة بمدفعية حديثة، وحتى المراكب المبنية على الاسلوب القديم اخذت تبني بالواح مثبتة بالمسامير[٤٥].

واضافة الى السفن التي تم اسرها فقد نما الاسطول العربي وفق خطة بعيدة المدى وضعها العرب للحصول على كافة الوسائل التي يمكن بها مقابلة خصومهم. واخذت القوة البحرية اليعربية في النمو في نفس الوقت الذي تدهورت فيه القوة البحرية البرتغالية[٤٦]، وقد اشار المبشر الفرنسي الشهير (الاب روفائيل دي مان) الذي مكث في اصفهان مدة ستة وعشرين عاما وقدر له البقاء هناك حتى مماته في ١٦٩٦، الى ما يعانيه - البرتغاليون من مضايقات يثيرها عرب عمان.

«الذين نجحوا بفضل السفن التي غنموها من مختلف مقارعاتهم البحرية في الحد من قدرات وامكانيات البرتغاليين في فرص هيمنتهم على البحر»[٤٧]

وخلال حكم الامام فقد قطعت القوة البحرية في عهده شوطا بعيدا في الرقي والازدهار واصبحت (البحرية العمانية في اوج نشاطها من حيث القوة والقدرة والتجهيزات والمدفعية الحديثة)[٤٨]، وقد وصف لنا الكابتن شارلز لوكير الذي زار مسقط عام ١٧٠٦ ذلك الميناء ماشاد بتطوره

«تحسن تحسنا مطردا منذ انتزعه العرب من ايدي البرتغاليين حتى انه اصبح مصدر قلق لكافة المتاجرين مع الهند... ان السفن الحربية كانت تصنع في سورات. وشاهدت في الميناء.

أربع عشرة سفينة حربية وعشرين سفينة تجارية، وكانت تحوى احدى هذه السفن سبعين مدفعا ولا يوجد من بين هذه السفن الحربية جميعها من تحمل اقل من عشرين مدفعا . ورغم ان البارود كان شحيحا فان العرب كانوا من اكثر سكان العالم تبديرا له وفي كافة المناسبات لقد كانت الالوان الحمراء هي المفضلة لديهم حيث تتجلى في راياتهم وصواريهم وعارضات اشرعة سفنهم وفي كل الاماكن البارزة الاخرى من سفنهم، كما كان للاسطول العربي مظهرا أخاذا عند دخولنا المرفأ وللوهلة الاولى»(٤٩)

توفي الامام سيف بن سلطان الاول في الرستاق عام ١٧١١ بعد ان حكم البلاد حوالي عشرين عاما حافلة بالامجاد وخلفه في الامامة ولده سلطان بن سيف الثاني الذي شهد عهده قمة التفوق الملاحي العربي فزاد من قوة الاسطول الذي شن بواسطته سلسلة من الغارات على المواقع البرتغالية وبعمله هذا فانه لم ينفق كل ما ادخره اسلافه من اموال فحسب بل تعداه الى اقتراض اموال الجوامع والاوقاف(٥٠) وكان عدوا لدودا للبرتغاليين والفرس(٥١) لقد اعطى الكابتن الكسندر هاملتون الذي كان في مسقط عام ١٧٢١ الوصف التالي لما كان عليه الاسطول العربي من قوة في عهد سلطان بن سيف

«كان الاسطول العربي عام ١٧٥١ يتكون من سفينة تحمل اربعة وسبعين مدفعا وسفينتين تحملان ستين مدفعا وواحدة بخمسين مدفعا وثمان عشرة سفينة صغيرة تحمل مابين اربعة الى ثمانية مدافع لكل منها»

اما السالمي فقد قدر الاسطول العربي في الحقبة نفسها بما بين اربع وعشرين الى ثمان وعشرين سفينة حربية تحمل اكبرها وتدعى (الملك) ثمانين مدفعا ضخما(٥٢) وتمكن الائمة اليعاربة المتعاقبون(٥٣) وحتى عام ١٧١٨ من جعل عمان اعظم قوة بحرية غير اوربية في غرب المحيط الهندي وبلغ اسطولهم اوج عظمته خلال العقدين الاول والثاني من القرن الثامن عشر.(٥٤).

«وبفضل خبرتهم هذه وقوتهم البحرية فرضوا هيبتهم وسيطرتهم على كافة السواحل البحرية الممتدة من رأس قمران حتى البحر الاحمر وكان العرب غالبا مايشنون غاراتهم ضد المستعمرات البرتغالية على ساحل الهند»

# الهوامش

(١) صالح محمد العابد تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية، مجلة افاق عربية (بغداد/اذار ١٩٨٥)، ص ٣٩

(٢) للتعرف على تحصينات البرتغاليين في مسقط يراجع نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، تحفة الاعيان في سيرة اهل عمان، ١ (القاهرة، ١٢٥٠ هـ)، جـ ٢، ص ٦٢ سعاد ماهر، الاستحكامات الحربية في مسقط، ندوة الدراسات العمانية وزارة التراث القومي والثقافة، (سلطنة عمان ـ ١٩٨٠) المجلد الثاني، ص ١٤٠ ـ ١٤٥

(٣) المصدر السابق

(٤) العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢

(٥) في عام ١٥٢٧ بدأ البرتغاليون في بناء هاتين القلعتين، وقد تم تجديد قلعة الجلالي عام ١٥٨٧، والميراني عام ١٥٨٨ انظر احمد حمود المعمري، عمان وشرق افريقيا، ترجمة محمد امين عبدالله، (سلطنة عمان، ١٩٨٠) ص ٦٢

(٦) مصدر السابق

(٧) عبدالعزيز محمد عوض، الاحتلال البرتغالي لموانىء، الجزيرة العربية مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، العدد ٢٩، بغداد ١٩٨٦) ص ٢٠.

(٨) العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢

(٩) المصدر السابق

(١٠) المصدر السابق

(١١) توفي الامام بنزوي بعد ان دام حكمه ستة وعشرين عاما حافلة بالكفاح البطولي ولم يخلف غير ابنة واحدة هي فاطمة الزهراء توفيت بعده بستة اشهر انظر السالمي تحفة الاعيان، جـ ٢، ص ٥٧

(١٢) مقتبس من بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليين من ١٦١٣ الى ١٦٣٣، ندوة الدراسات العمانية، (سلطنة عمان ـ ١٩٨٠) ص ٢١٢

(١٣) السالمي، تحفة الاعيان، ص ٦٣

(١٤) المصدر السابق.

(١٥) لورنس لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه في اواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ترجمة علاء الدين احمد حسين، مجلة الخليج العربي، العدد العاشر ١٩٧٨، ص ٩٠
(١٦) حميد بن محمد بن زريق، الفتح المبين في سيرة السادة البو سعيديين تحقيق عبدالمنعم عامر ومرسي عبدالله، وزارة التراث القومي، (سلطنة عمان - ١٩٧٧) ص ٢٩١ - ٢٩٢
(١٧) وزارة التراث القومي والثقافة، عمان تاريخنا وعلماؤنا، ترجمة محمد امين عبدالله، سلسلة تراثنا، العدد العاشر (سلطنة عمان ١٩٨٠) ص ٩
(١٨) سرحان بن سعيد الأزكوى، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي، وزارة التراث القومي والثقافة (سلطنة عمان، ١٩٨٠) ص ١٠١
(١٩) وزارة الاعلام والثقافة، عمان وتاريخها البحري، (سلطنة عمان ١٩٧٩) ص ٦٤
(٢٠) الأزكوى، المصدر السابق، ص ١١١
(٢١) من امثلة هذه المصادر الأزكوى، المصدر السابق، بن زريق، المصدر السابق، السالمي، المصدر السابق
(٢٢) جمال زكريا قاسم، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية (القاهرة، ١٩٧٥) ص ١٠٥
(٢٣) نفس المصدر
(٢٤) السالمي، تحفة الاعيان، ص ٦٣
(٢٥) ابن زريق، الفتح المبين، ص ٢٨٤
(٢٦) السالمي، تحفة الاعيان، جـ ٢، ص ٢٦٣ابن رزيق، الفتح المبين ص ٢٨٥
(٢٧) فالح حنظل، المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة، لجنة التراث والتاريخ، الامارات العربية المتحدة (ابوظبي) جـ ١ ص ٨١
(٢٨) طارق نافع الحمداني، دور عرب عمان في اقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الاول من القرن السابع عشر، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، العدد الثالث، ١(بغداد، ١٩٨٤) ص ٢٨٠
(٢٩) يذكر لنا مايلز تاريخين فيهما اختلاف بسيط حول عملية الهجوم واستسلام القائد البرتغالي، ففي الصفحة ١٩٣ يحدد يوم ٢٣ كانون الثاني وفي الصفحة ٢٠٧ يحدد يوم ٢٢ كانون الثاني تاريخا للهجوم العماني
(٣٠) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، وزارة التراث القومي والثقافة، (سلطنة عمان - ١٩٨٦)، ص ١٩٣
(٣١) العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢

(٣٢) المصدر السابق.
وانظر ايضا العابد تحرير ساحل عمان، ص ٤٢ ـ ٤٣

(٣٣) بن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٠٩، السالمي، تحفة الاعيان، ص ٦٥

(٣٤) فالح حنظل، المصدر السابق، جـ ١، ص ٨٣

(٣٥) ان طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢ ومن مسقط عام ١٦٥٠ قد اضاع لقبين هامين من القاب ملوك البرتغال وهما (سادة الفتح والملاحة في جزيرة العرب وفارس) انظر لوريمر، دليل الخليج القسم التاريخي، ترجمة قسم الترجمة بمكتب امير دولة قطر، (الدوحة) جـ ١، ص ١١ ـ ١٢

(٣٦) مايلز، المصدر السابق، ص ١٩٣ لوريمر، المصدر السابق، جـ ٢ ص ٦٣٦

(٣٧) مايلز، المصدر السابق، ص ١٩٤

(٣٨) كنك ميناء صغير يقع على الساحل الشرقي من الخليج العربي التجأ اليه البرتغاليون بعد طردهم من مسقط

(٣٩) مايلز ـ مصدر سابق

(٤٠) يذكر مايلز ان الامام قام بزيادة سفنه الحربية مباشرة بعد الهجوم على مسقط والحقيقة ان الاسطول العماني كان مكونا من السفن البرتغالية التي غنمها العرب بعد معركة تحرير مسقط ولا نتفق مع المؤرخة عائشة السيار بذكرها ان (الامام سلطان بن سيف تزعم حركة الجهاد ضد البرتغاليين حيث ارسل حملاته الى المحيط الهندي قبل استيلائه على مسقط) (عائشة السيار، دولة اليعاربة في عمان، وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ ص ٧٢) اذ لا يتفق ذلك مع المنطق العلمي

(٤١) وزارة التراث القومي والثقافة، عمان في امجادها البحرية، (سلطنة عمان، ١٩٨٠) سلسلة تراثنا، العدد الثامن، ص ٦٤

(٤٢) لورنس لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه في اواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، مجلة الخليج العربي، العدد العاشر، (جامعة البصرة ـ ١٩٧٨) ص ٩٠

(٤٣) مايلز، المصدر السباق، ص ٣٤١

(٤٤) وزارة الاعلام والثقافة، عمان وتاريخها البحرى، ص ٦٤

(٤٥) روبرت جيران لاندن، عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا، ترجمة محمد امين عبدالله، (سلطنة عمان ـ ١٩٨٤)، ص ٥٤

(٤٦) السيار، المصدر السابق، ص ٦٧

(٤٧) مقتبس من لوكهارت، المصدر السابق، ص ٩٠

(٤٨) لاندن، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٤٩) مقتبس من لوكهارت، المصدر السابق، ص ٩٢

(٥٠) السالمي، تحفة الاعيان، جـ ٢، ص ١٠٩ مايلز، المصدر السابق، ص ٢١٣
(٥١) مايلز، المصدر السابق، ص ٢١٣.
(٥٢) السالمي، تحفة الاعيان، ٢، ص ١٠٠
(٥٣) سلطان بن سيف (١٦٤٩ ـ ١٦٧٩)، بلعرب بن سلطان (١٦٧٩ ـ ١٦٩٢)، سيف بن سلطان الاول (١٦٩٢ ـ ١٧١١)، سلطان بن سيف الثاني (١٧١١ ـ ١٧١٨)
(٥٤) كاظم باقر علي، البحرية الفارسية في الخليج العربي، دراسة لواقعها البحرى ١٨٤٨ ـ ١٩٠٧، مركز دراسات الخليج العربي (جامعة البصرة ١٩٨٤) ص ص ٣٣ ـ ٣٤ المصدر السابق ص ٢١١

# القرصنة

## ابتكرها الأوروبيون واتهموا بها العرب
## الفرنسيون حولوا موريشيوس إلى وكـ

يعتبر موضوع القرصنة من أكثر من المواضيع التي تثير نقاشاً وجدلاً حول تفسير الاعمال البحرية التي قامت بها القوى البحرية العربية المحلية ، والقوات البحرية للدول الاوربية في العصور الحديثة من تاريخ الخليج العربي ، ففي الوقت الذي كانت القوى العربية ترى فيه ضرورة استجابة الاوربيين للاعتراف بسيادتها على مياهها الاقليمية (وهذا من حقها) وبالتالي دفع رسوم المرور على السفن الاوربية المارة في تلك المياه ، وفي حالة الرفض تلجأ الى مهاجمة الرافضين الى أن يخضعوا للأمر الواقع ، كانت الدول الاوربية من جانبها تصف تلك الاعمال وتطلق عليها اسم القرصنة مبررة بذلك اعمالها العدوانية على تلك القوى العربية المحلية الناهضة .

الدكتور صادق ياسين الحلو
جامعة بغداد . كلية التربية

**«القرصنة الاوربية في الخليج العربي وسواحل افريقيا الشرقية ضد القوى البحرية العربية في القرن الثامن عشر ونهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر» .**

# المدافعون عن مياههم وبحارهم للقرصنة في المياه العربية
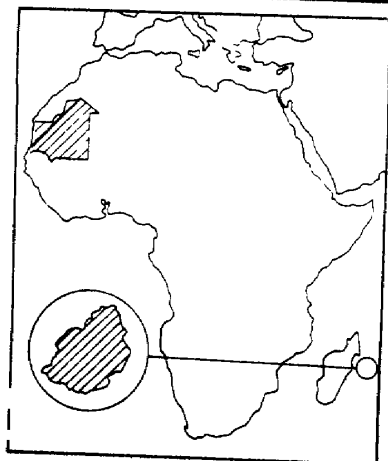
وقد ناضلت القوى العربية لكى تحافظ على استقلاليتها من مسألة الصراع بين الفرنسيين والبريطانيين والهجمات البحرية المتبادلة بينهما في مياه المحيط الهندي والخليج العربي ، لكنها لم تنجح في تحقيق هذا الهدف في كثير من الاحيان لأن موانئها وسفنها تعرضت لأعمال قرصنة من هذا الطرف أو ذاك بحجة ضرورة تأييد تلك القوى وانحيازها الى أحد الطرفين . ولهذا خسرت عدداً من سفنها وبضائعها بسبب تجاهل اولئك الاوربيين لموقف الحياد العربي وبخاصة في مسقط ، ومع ذلك ظل العرب يلجأون الى الطرق الدبلوماسية

للوصول الى حل لتلك المشاكل ، بينما لجأوا في أحيان اخرى الى قوة السلاح وهاجموا اولئك المعتدين واتصفت تلك الهجمات بالجرأة والشجاعة .

وتعرض البحث الى هذا الموضوع الذي سمي القرصنة الاوربية في مياه الخليج وشرق افريقيا ويقصد بها الاعتداءات الاوربية على السفن العربية ونهبها وذلك ابتداء بالقرصنة البرتغالية في القرن السادس عشر وانتهاء «بالقرصنة الانكليزية ضد القواسم في القرن التاسع عشر .

## القرصنة البرتغالية في الخليج العربي

ابتدات اعمال الاعتداء والقرصنة الاوربية ضد السفن والاساطيل العربية البحرية التجارية والحربية منذ ان غزا البرتغاليون الخليج العربي في القرن السادس عشر وكان من اهم اهدافهم تدمير الامكانيات العربية البحرية حيثما صادفوها حتى وان كانت مسالمة وليس لها أي أذى أو مقاومة ضدهم[1]، وقد بلغ عدد السفن المدمرة اثناء تجوال الاسطول البرتغالي في المنطقة الشمالية الشرقية من المياه العمانية بالقرب من مصيره وحدها كما قدرها مايلز بين ٣٠ و٤٠ سفينة[2] .

ولم تتوقف اعمال القرصنة للبرتغاليين ضد السفن العربية طيلة القرن السابع عشر فظلوا ينهبون حتى السفن الصغيرة في الموانىء العربية ساعين الى تحجيم القوى البحرية حتى وان كانت صغيرة الى الحد الاقصى الممكن[3]، وقد تذرعوا بحجج واهية منها ان هذه السفن لا تحمل تراخيص من السلطات البرتغالية

غير ان القرصنة البرتغالية لم تتمكن من ايقاف تطور نمو القوى البحرية العربية وبخاصة العمانية منها التي استطاعت ان تبرز وتنشط بشكل فاعل على المسرح التجاري والحربي في مياه الخليج العربي وكان لها شرف طرد البرتغاليين نهائيا من مياه الخليج العربي وملاحقة العزاة الى سواحل افريقيا والهند

### عمليات القرصنة لسفن جزيرة فرنسا ضد الموانىء والسفن العربية في القرن الثامن عشر :

أدى امتداد الصراع الفرنسي - الانجليزي الى مياه المحيط الهندي والخليج العربي الى تعرض الموانىء والسفن العربية لهجمات قرصنية نتج عنها نهب بضائع وأسر عدد من السفن العربية تحت حجج ملاحقة كل طرف اوربي للآخر ضمن اطار عمليات نهب السفن وبضائعها المتبادلة بين فرنسا وبريطانيا

ففي عام ١٧٥٨ دخلت بندر عباس سفينتان بريطانيتان هما Revenge الريفانج ، والدراك Drake للاستيلاء على سفينة فرنسية كانت ترسو في ميناء البصرة منذ ثلاثة شهور لتتزود

بالوقود ، وطلب ممثل شركة الهند البريطانية من حاكمها بأن يضع كل الفرنسيين في البصرة في الحجز حتى يمنع بذلك السفينة الفرنسية البريستول (Bristol) من أسر ثلاث سفن انجليزية قادمة من الهند وستكون في مدخل شط العرب[٤]

وقد تطور الصراع أكثر في عام ١٧٥٩ عندما دمر اسطول فرنسي المكتب التجاري البريطاني في بندر عباس وهذا الاسطول كان يتألف من سفينتي شركة الهند الفرنسية «الكوندي» Le conde والمرقاطة الاكسبديسيون L'Expedition وقد كانتا غادرتا ميناء جزيرة فرنسا تحت أمرة ديستيان D'Estaing وعند مرورهما في مسقط أطلق ديستيان النار على سفينة تسمى الميري Le merry [٥] معتقداً انها تابعة الى الانكليز، ولكنها في الواقع كانت تابعة لشخص يدعى شلبي من تجار البصرة من الدرجة الاولى[٦]، وعند مقابلة أسقف بابل لباشا بغداد كان الباشا يذكر الأسقف «بأنه اندهش عندما علم أن اسطولاً فرنسياً نهب سفينة تعود الى أحد الرعايا الاتراك في ميناء محايد ويعود الى المسلمين «كميناء مسقط»[٧] ويبرر أسقف بابل العملية عند رده على الباشا ويقول «بأن السفينة شحنت البضائع من سورات، المدينة التي استولى عليها الانكليز من الفرنسيين وانها تحمل أوراق موقعة من الانجليز، وعندما دخل اسطولنا ميناء مسقط كانت السفينة ترفع العلم الانكليزي، كما انها أطلقت طلقات المدفعية ضد اسطولنا قبل أن تعرف بأن سفينتنا ستهاجمها»[٨].

ويبدو أن الفرنسيين خرقوا بشكل واضح حياد ميناء مسقط، فيستمر أسقف بابل بالقول «المسقطيين لم يكونوا أبدا محايدين تجاهنا فالأمير العربي الذي يحكم مسقط طرد بطلب من الانكليز السير هوكيت Hoquet ساعي البريد الذي كان يقيم في ذلك الميناء[٩] واعتدوا على سفينة بصرية فيه وبهذا العمل خرق الفرنسيون حياد ميناء مسقط والبريطانيون خرقوا حياد ميناء البصرة

وتكررت تلك الأعمال القرصنية في السنوات التالية ففي عام ١٧٦١ وصلت حملة فرنسية جديدة ورست في ميناء مسقط قادمة من ميناء بورت لويس Port Louis وكانت تتألف من السفينة بولون Boulogne وقارب للحماية، وتجاهل قائد البولون حياد ميناء مسقط، مهاجم فيه احدى السفن الانكليزية[١٠]

وهكذا أصبح ميناء مسقط مسرحاً للصراع الدموي[١١] الانكليزي الفرنسي، ونتيجة لاستمرار خرق حياد ميناء مسقط من السفن الفرنسية اتخذت حكومة مسقط في بعض الاحيان مواقف حادة عند تلك الهجمات. ففي عام ١٧٧٨ تابعت احدى السفن الفرنسية القرصنية سفينة انكليزية لجأت الى الميناء فما

كان من حاكم مسقط خلفان بن محمد الا أن قدم الحماية الى تلك السفينة الانكليزية، وقدم ملاحظة احتجاج الى المهاجمين (الفرنسيين) وعندما لم يرتدعو أطلق النار على السفينة الفرنسية التي قتل خمسة من بحارتها قبل أن تتمكن من الهرب.[١٢]

ولكن هذا الموقف لا يعني أن حاكم مسقط والعمانيين كانوا بجانب الانكليز «وإنما كان ذلك العمل من العادات العربية التي تقوم على حماية الدخيل والدفاع عنه بالسلاح عند الضرورة بغض النظر عن جنسيته ودينه»[١٣]

وفي هذه الفترة أيضا بدأت قوى القواسم بالبروز وأخذت زمام المبادرة في مهاجمة السفن الانكليزية التى ترفض الاعتراف بسيادتهم أو دفع ضرائب المرور مقابل الرسو في موانئهم. وقد أطلق الانكليز على تلك المقاومة المشروعة اسم القرصنة [١٤]

وفي أثناء فترة حرب الاستقلال الامريكية، تصاعد التصادم الانكليزي الفرنسي، فانعكس ذلك سلباً حيث تبعه خرق لحياد ميناء مسقط من قبل أساطيل البلدين وبالأخص الاسطول الفرنسي.

غير أن العلاقات المسقطية الفرنسية وإن لم تقطع الا أنها شهدت مرحلة تأزم عندما أسرت السفينة المسقطية، الصالح، ونهبت بضاعتها، من قبل الاسطول القرصني الفرنسي الذي كان يقوده الكابتن (ديشتيان (Deschiens كالوي) Kalway) .[١٥]

وبدأت عمليات سفن القرصنة الفرنسية التابعة لجزيرة فرنسا بالقرب من سواحل أفريقيا الشرقية والتي تتجول في السواحل الغربية للهند ومياه الخليج العربي بالعمل على ضرب وتخريب تجارة العدو (الانكليزي) وكذلك كانت تعامل كل السفن التي يتبث بأنها تحمل بضائع تعود للتجار الانكليز بنفس المعاملة (للسفن الانكليزية) [١٦]

أما عن كيفية أسر سفينة الامام الصالح فيروى «ان سفينتين من سفن القرصنة الفرنسية (Corsaires) تلاقتا في الخليج معها، وفيها بطاريتان ومسلحة بـ ٥٠ مدفعا، وهي محملة ببضائع ومنتجات هندية وكانت متوجهة الى البصرة فهاجمتها تلك السفن وسيطرت عليها ومن تم نهبت بضاعتها»[١٧] وتعتبر شحنة السفينة مهمة جداً لأنها مرسلة الى تجار عديدين[١٨] وقد تمكن أحد أفراد الطاقم من الهرب من الاسر وأخبر الامام بالحادث

وكان لهذا الحادث القرصنى وقع مؤثر على الامام والمسقطيين لأن مسقط ليست في حالة حرب ضد فرنسا، والامام كان يحتفظ بعلاقات تجارية مهمة مع جزيرة فرنسا لذلك عندما رست احدى السفن الفرنسية في ميناء مسقط للتزود بالمياه وهي تجهل ما وقع للسفينة المسقطية أعطى

الامام الامر بالاستيلاء عليها. وبعث رسولاً الى السفن القرصنية الفرنسية التى أسرت الصالح مقترحاً استبدالها بالسفينة الفرنسية المحتجزة واسمها الفلبين «Le philippine»

غير أن الامام عاد وفضل حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية متحاشياً اللجوء الى الانتقام من السفن الفرنسية، ولهذا أطلق سراح الفلبين وطاقمها وأرسل ملاحظة الى حاكم جزيرة فرنسا (السيد دوسوياك) (Desouillaq) للاحتجاج ضد أعمال السفن الفرسية القرصنية المتصاعدة وحرقها لحياد ميناء مسقط كما وجه رسالة أخرى الى لويس السادس عشر عبر فيها عن رغبته بالاحتفاظ بعلاقات طيبة وقلبية مع فرنسا، لكنه طالب باتحاد عقوبات ضد قبطان السفينة المسؤول عن حادث أسر السفينة المسقطية [١٩]

وكان رد الملك الفرسي ايجابياً فهو أيضاً يسعى للحفاظ على العلاقة الفرنسية المسقطية [٢٠]، وتعهدت الحكومة الفرنسية باهداء سفينة فرنسية (Le courrier d'ile de france) كتعويض للامام عن خسارة الصالح [٢١]

لكن تلك الهدية لم تصل مسقط مطلقاً، لأنها نهبت في الطريق بفعل عملية قرصنة من السفن الانكليزية، وأصبح إمام مسقط ضحية مرة أخرى للصراع الفرنسي الانكليزي [٢٢]

وواصل خلال هذه الحقبة الاسطول الفرنسي فعاليته القرصنية في مناطق الخليج الاخرى، مما أدى الى الاضرار بتجارة الخليج ودمرت أكثر من مئتي بارك (نوع من السفن الصغيرة) في البصرة.[٢٣]

أضرت تلك العمليات البحرية التي قام بها الاسطول القرصني لجزيرة فرنسا (مورشيوس) بصغار التجار العرب الذين فقدوا أموالهم والذين أخذوا يضغطون أكثر فأكثر على الامام ليسرع بارجاع الاموال المنهوبة [٢٤] وبدأ الناس في البصرة لا ينظرون الى الفرنسيين الا بمنظار سيء منذ أن قامت سفن القرصنة لجزيرة فرنسا بعمليات النهب في الخليج العربي [٢٥] وطالب تجار بغداد سلطان عمان بمنع الفرنسيين من دخول ميناء مسقط لأنهم تسببوا في فقدانهم لبضائعهم [٢٦]

وظل سلطان مسقط ينتهز كل فرصة للمطالبة بالتعويض عن سفينته المنهوبة بعمل قرصني، الا أن التعويض لم يتم الا بعد تسع سنوات لانشغال فرنسا بمشاكلها الداخلية وعدم اعارتها المشكلة ما تستحق من الأهمية، وعلى الرغم من أن السفينة المهداة من الملك الفرنسي الى السلطان لم تكن كبيرة كتلك التي فقدها الامام[٢٧]، فانها أحدثت فرحا عظيما مشوبا بالعاطفة لدى المسقطيين وأفتخر الامير العربي بها، حيث شرف بالاحترام الكبير من قبل عظيم اوربا.[٢٨]

## نشوب الثورة الفرنسية وتصاعد الاشتباكات الفرنسية البريطانية القرصنية في الخليج العربي:

عند قيام الثورة الفرنسية في ١٤ تموز ١٧٨٩ تجددت حدة الصراع البريطاني الفرنسي البحري القرصني، وقد قدرت الحكومة العمانية، بأن قيام الجمهورية الفرنسية ستكون له نتائج مقبولة على العلاقات مع فرنسا وستحد من أعمال القرصنة التي اقترفتها البحرية الفرنسية ضد السفن العمانية في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي. ولهذا السبب تقدمت حكومة مسقط برسالة الى القنصل الفرسي طلبت فيها معرفة «فيما اذا كانت الصداقة السائدة بين الفرنسيين والمسقطيين تبقى دائمة، والا اذا كانت الحالة معاكسة لذلك تستطيع (الحكومة العمانية) أن تحمي بلدنا وتجارتنا»[٢٩]

وصدقت توقعات العمانيين فبعد اشتعال حرب عام ١٧٩٣ في أوربا «خرق الفرنسيون من جديد حياد مسقط»[٣٠] «وعادت شكاوي واحتجاجات المسقطيين ضد قراصنة جزيرة فرنسا الى الشرق من سواحل افريقيا الشرقية فبالرغم من الحبوب التي يأخذونها من مسقط، فالمستعمرون الفرنسيون في الجزيرة كانوا مهتمين جدا بالنهب، حتى يؤمنوا الخدمات لأن الحكومة الفرنسية بعيدة عنهم، وليس لها سلطة على هذه المستعمرة، فهم مستقلون في الحقيقة ومن جهة أخرى، لهم هموم أخرى، وعندما يأتيهم احتجاج من الامام يعرضونه على المجلس، ويظهر أن السلطان العماني غير معروف لديهم»[٣١]

وهكذا عاد عهد قرصنة سفن جزيرة فرنسا (Corsaire)، وبدأ الحياديون وبخاصة سفن مسقط تقاسي بعنف من تلك الاعمال[٣٢]

وفي الحقيقة لم تول الحكومة الفرنسية اهتماما كبيرا بمنطقة الخليج العربي في البداية وانما أعطتها اهتماما ثانويا لانشغالها بأوضاعها الداخلية والاوربية، ولذا بدأ قلق حكومة عمان من جديد وحاولت معرفة موقف الحكومة الجديدة من الأعمال القرصية فكتبت اليها «اذا أتنت لنا الجمهورية الفرنسية رغبتها بعدم قطع علاقاتها معنا واذا ما أرجعت السفينتين التي نهبها رعاياها الى امام مسقط، والا في الحالة المعاكسة، اذا رغبت في قطع عقدة الصداقة، سيكون لكل واحد منا يعمل ما يحلو له من جانبه ويلائمه»[٣٣]

لم يقم العمانيون بأي عمل انتقامي ضد السفن الفرنسية بل ظلوا يأملون بالطرق الدبلوماسية لوضع نهاية لأعمال القرصنة وهددوا بقطع

العلاقات التجارية مع جزيرة فرنسا في حالة استمرارها، لكن هجمات سفن قرصنة الجزيرة استمرت ضد السفن العربية[٣٤] وأخبر ممثل الامام في بغداد القنصل الفرنسي روسو Rousseau بأن سفن الكورسير Corsaire (القرصنة) استولت على السفينة المسقطية فتح (FATH) ونهبت بضائعها التي قدرت قيمتها بـ ١٤,٠٠٠ روبية قبل قيادتها الى جزيرة فرنسا [٣٥]

وعندما تمادت عمليات القرصنة ووصلت الى حد «قتل طواقم السفن من قبل السفن الكورسير Corsaire القرصنية»[٣٦] ردت السلطات المسقطية «بمنع تصدير الحبوب الى المستعمرات الفرنسية[٣٧]

وقد أدينت عمليات القرصنة في داخل فرنسا فقدمت لجنة العلاقات الخارجية تقريرا الى لجنة السلامة العامة تدين العمليات القرصنية التي ارتكبتها البحرية الفرنسية ضد السفن العربية مؤكدين انها ضد أخلاق البلاد المتطورة والمتمدنة»[٣٨] ومع ذلك ظل المسقطيون يستقبلون السفن الفرنسية التي كانت ترسى في ميناء مسقط استقبالا حسنا، ولم ينجرفوا الى أعمال القرصنة، فالشيخ خلفان حاكم مسقط كتب بهذا الخصوص يقول بأن «سفينة فرنسية في نفس هذه الفترة وصلت الى مسقط، لاننا ليس فقط لم نقم بأي سوء ضدها، لكننا قمنا بمساعدتها وحمايتها لأن الجمهورية الفرنسية عزيزة علينا، ونترك لها أن تعطينا العدالة التي تتوجب عليها جزاء العمليات القرصنية ضد السفن المسقطية»[٣٩]

مع ذلك تصاعدت عمليات سفن (الكورسي) السفن القرصنية الفرنسية ولم تسلم من شرها السفن العربية، وهذا ما وصفه روسو القنصل الفرنسي في بغداد لتلك الاعمال «ان ما يقوم به الجمهوريون (المستعمرون) من جزيرة فرنسا من أعمال مزعجة في كل بحار الهند، فنهبوا أكثر من ثلاثين سفينة من مختلف القوى اضافة الى اسطول مؤلف من خمس سفن وفرقاطة للتجوال، ومنذ ثلاثة سنوات في ضواحي سورات وبومباي، وكل ساحل ملبار، وبالنسبة الى معرفتي، فالكورسيرا سبق ونهبت خمس سفن انجليزية كبيرة كانت قادمة من الصين، وسفينتين انكليزيتين من البنغال، وفي منطقة الخليج العربي نهبت سفن محملة ببضائع غنية ذاهبة من مدراس الى امام مسقط، وقائدها كان انكليزيا، وسفينة اخرى عربية اكد لي ان على ظهرها ما قيمته اكثر من ٦٠٠ الف روبية من ذهب، وفي الاخير فان سفن الكورسيرا نهبت من ميناء مسقط سفينة كبيرة لشركة الهند الهولندية قادمة من بتافيا.[٤٠]

وكما هي الحالة مع السفينة المسقطية التي نهبت سابقا بعمل

قرصني لم تتوقف حكومة مسقط عن المطالبة بالتعويض عن السفن المنهوبة. وانفجر جدل بخصوص القيمة الحقيقية لحمولة تلك السفن، فالفرنسيين راوا بان الادعاءات العربية مبالغ فيها فانهم (الفرنسيون) يرون بأن السفن العربية صغيرة ومبنية دون حديد اي الألواح المخاطة المشدودة بالحبال» (٤١)

ويظهر من ذلك ان اللجنة المكلفة من الحكومة الفرنسية بتقدير التعويضات عن تلك السفن «تجهل بشكل عام حالة الاسطول العربي وسفنه، وتمرح في الواقع بين البارك (القارب الصغير) التي تستعمل محليا مع السفن الكبيرة التي يبنيها العرب لأغراض التجارة» (٤٢)

وفي الواقع لا توجد معلومات عما قدمته فرنسا من تعويضات الى حكومة مسقط غير أن احدى رسائل روسو الى الشيخ خلفان حاكم مسقط تؤكد استعداد فرنسا لاحترام حياد الميناء (٤٣)

ان عدم منع القرصنة الفرنسية ضد السفن المسقطية لم يمنع من تطور التبادل التجاري بين ميناء مسقط وجزيرة فرنسا. ونظر الانجليز بعدم الارتياح لهذه الوضعية، ففي الحقيقة ليس فقط العمانيون يحصلون على فائدة كبيرة من بيع البضائع والسفن المستولى عليها من الانكليز (كما يدعون)، كما انهم (الانكليز) لم يتمكنوا من منع مسقط لأن تكون قاعدة تنطلق منها هجمات الكورسير المدمرة ضد سفن الملاحة الانكليزية في المحيط الهندي والخليج العربي (٤٤)

## القرصنة ومشكلة رفع العلم المسقطي على السفن الفرنسية والهولندية:

في عام ١٧٩٧ اخذت حكومة بومباي على ممثلي شركة الهند الشرقية في مسقط عدم تأثير الدعايات التي تقول بأن سلطان مسقط سمح للسفن الفرنسية والهولندية برفع العلم العربي (يقصد المسقطي) والتجهز بالمؤن في ميناء مسقط، وهكذا تتخلص من هجمات السفن الانكليزية ويأخذ عليهم (ممثلي شركة الهند ايضا) عدم احتجاجهم لدى السلطان على ذلك، لذا طلب السلطان بعدم السماح للأوربيين برفع العلم العربي على سفنهم في أعالي البحار (٤٥)

ولا ننسى أن يؤثر أن الوجود الفرنسي كان فاعلاً بمنطقة الخليج العربي في نهاية القرن الثامن عشر فللفرنسيين علاقات تجارية مزدهرة مع مسقط والبصرة وهذه التجارة كان يمكن أن تتطور أكثر لو تجنبت السفن الفرنسية مهاجمة السفن العربية ونهبها (٤٦)

لذا سعت انجلترا لتقوية جهدها السياسي في مسقط فالانكليز تخوفوا من السلطان وشكوا بأنه يهاجم

السفن الانكليزية لحساب الفرنسيين وهذا ما كتبه مهدي علي خان (مبعوث حكومة الهند الى فارس) ممثلهم في بوشير فيدكر «لدى أسباب كثيرة تجعلني أشك ان الفرنسيين يستخدمون السفن التي تقوم بالتجارة بين مسقط وخليج البنغال والتي اعتقد أن عددها ارتفع من سبعة الى ثمانية»[٤٧]

ومن جهة أخرى اعتقد الانكلير أن السلطان لم يحتفظ بحياده تجاه النزاع الانكليزي الفرسي في الخليج والمحيط الهندي، فالتجار المسقطيون يشترون البضائع وحتى السفن المأسورة من الفرنسيين، واضافة الى ذلك أن أحد الاسباب لفشل الحصار الانكليزي ضد جريرة فرنسا هو الاحتفاظ بالعلاقات التجارية بين الجزيرة ومسقط

ومما زاد من الشكوك الانكليزية أن سلطان بن أحمد، بعث برسالة الى دنكان (حاكم الهند) أصر على حياده ويشرح له فيها رفضه مهاجمة السفن الفرنسية فيقول «انتم تعلمون بأنه لا يوجد بينهم (الفرنسيين) وبيني أي تقارب لكن أخذين بالحساب النقل البحري مع الهند والاتصالات العديدة مع السفن الفرنسية التي تسير بهذا الاتجاه لا أستطيع اعلان الحرب عليهم بشكل مفتوح، وذلك حتى لا تتحطم تجارة رعاياي الذين يتعاملون بشروط جيدة معهم. اذا اعتقدتم بأنه يجب اعلان الحرب على الفرنسيين فيجب أن تعرفوا بأننا سنكون مضطرين لاستخدام كل سفننا التجارية للدفاع عن زنجبار ومسقط وجانبي الخليج».[٤٨]

وهذا الموقف تلاءم بشكل تام مع جهود ماكلون (Magallon) (حاكم جريرة فرنسا) الذي دفع باتجاه بقاء مسقط على الحياد ومن هده الفترة وظهر ذلك عندما «اسرت سفن الكورسير الفرنسية ثلاثة سفن مسقطية الاحمدي، المصطفى، والفضل عيلام، فرفض ماكلون الاعتراف بهذا الاستيلاء، مكلف دليل السفينة شاتوفيل ليقود تلك السفن الى الهند لارجاعها الى الامير العربي وفي مارس ١٨٠١ ظهر شاتوفيل Chatouville أمام مسقط على ظهر الاحمدي وهو يحمل رسائل بتعليمات مناسبة»[٤٩]

## مناقشة حجج عمليات القرصنة البريطانية ضد القواسم في القرن التاسع عشر:

ان تطور القوى البحرية العربية أقلق بريطانيا التي وجدت فيها تهديدا لمصالحها في المنطقة، فالانكليز لم يريدوا بأي ثمن رؤية قوة عربية تتنافس مع قواتهم على طريق مستعمراتهم الهندية حتى وان كانت تلك القوى تمارس تجارة عادية. فكان عليهم اذن عاجلاً أو آجلاً الدخول في

صراع مع القواسم الذين يمتلكون اكبر اسطول عربي مهم يقاوم محاولاتهم للهيمنة، كذلك كانت بريطانيا في نفس الوقت تواجه البحرية الفرنسية لتتخلص من المنافسة الاجنبية في مناطق النفوذ هذه

ولاجل بلوغ هذا الهدف أي ضرب القوى العربية البحرية، كان على الانكليز ايجاد غطاء لذلك فاخترعوا مسألة ما يسمى بالنضال ضد القرصنة. فأطلقوا على أعمال تصدي القواسم وكعب وغيرهم للسفن الاجنبية التي ترفض الاعتراف بالسيادة العربية على مياههم الاقليمية اسم القرصنة فكان «ضرورة القضاء على القرصنة احد الحجج، المقبولة كغطاء للتدخل في شئون كل الدول الصغيرة لساحل بحر عمان فالعرب لم يظهروا أقل حماسة في نهب السفن فهي مثل القوافل من وجهة نظرهم. فالبحارة الهندوس كفره والملاحين الاوربيين غير مؤمنين»، كما كتب أحد الرحالة الفرنسيين (٥٠)

وفي الواقع لا نستطيع أن نطلق اسم القرصنة على الهجمات التي شنها القواسم ضد السفن الحربية أو المدنية التي ترفع العلم الانكليزي أو الأمم الأخرى لأنهم يدافعون عن اراضيهم. «في حين أن القراصنة هم أولئك الذين يهاجمون السفن او الجزر في اعالي البحار».(٥١)

ومن جانب اخر فان المعنى السياسي للدولة لم يكن بعد قد تطور لدى القوى العربية والحروب تركت آثارها بين مختلف القبائل العربية على ضفتي الخليج فكل واحد يهاجم سفن الاخر، وكان المؤرخون الغربيون لا يفهمون تلك الحروب ولذلك اطلقوا عليها مصطلح قرصنة (٥٢)

وكمثال على تلك الاحداث ما زودنا به الصراع في ذلك العصر بين العمانيين والقواسم والذي حوّل الخليج الى ساحة معركة حقيقية ونتج عنه الاستيلاء على بعض السفن البريطانية، فالانكليز سموا ذلك قرصنة بدون أن يأخذوا بنظر الاعتبار أن سفنهم كانت تمر من خلال منطقة حربية (٥٣)

وبمهاجمتهم للسفن التجارية تصور القواسم بأنهم يقومون بعمل مهم يتشبه الى حد ما الغزو لدى البدو (٥٤)

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر اتخذت نشاطات القواسم البحرية طابعا دينيا واعتبرت أعمال مهاجمة السفن نوعا من الجهاد (حرب مقدسة) واعتبروا ما يستولون عليه من بضائع كغنائم الحرب يعطي خمسها الى الشيخ، فعندما كانوا يسيطرون على سفينة انكليزية كانوا يغسلونها ويطهرونها بالمياه (٥٥) ثم يقودون أعضاء طاقمها الواحد بعد الآخر الى مقدمة السفينة ليقطعوا رؤوسهم تحت هتافات (الله أكبر) (٥٦)

ولم يكن القواسم وحدهم يمارسون القرصنة فالانكليز والفرنسيون أنفسهم مارسوها الواحد ضد الآخر في مياه المحيط الهندي والخليج العربي.[٥٧] وخصوصاً خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وسنوات العشرينات من القرن التاسع عشر ونفس الحالة بالنسبة للقوى الامبريالية الاروبية الاخرى، وهكذا فبين ١٨٠٣ و ١٨٠٩، استطاعت فرنسا من خلال عمليات القرصنة أن تنهب ما قيمته بحدود ١٥,٠٠٠ طن من البضائع تعود الى شركة الهند البريطانية [٥٨]

ان هجمات القواسم ضد السفن الانكليزية كانت بسبب رفض الاخيرة دفع ضرائب الكمارك في الموانيء القاسمية، وكان هدف القواسم القضاء على الاحتكار التجاري الذي يمارسه الاجانب في الخليج العربي،[٥٩]، وهذا ما رفض الانكليز الاقرار به لأن الخليج يقع على الطريق بين أوربا والهند، لذا مارست بريطانيا ضغطاً على التجار الهنود الذين يقيمون علاقات مع الخليج للشكوى ضد القواسم

فالانكليز أنفسهم كانوا يعتبرون عمليات القرصنة التي مارسوها ضد السفن الفرنسية شرعية سواء كانت تعود الى أشخاص أو الأسطول الحكومي.[٦٠]، لأن تلك الاعمال أجيزت من الحكومة البريطانية بهدف أضعاف قوة منافسة، والفرنسيون من جانبهم طوروا من تلك التبريرات (التفسيرات)، فنشاط القواسم أذن اعتبر نوعا من القرصنة لأنه لم يجز من قبل حكومه لكن في بعض الحالات يمكن اعتبار القبيلة كيانا سياسيا رسميا، وعلى هذا الاساس تعتبر الهجمات العربية كأفعال حربية بحرية تهدف منع الاوربيين من اختراق منطقة النفوذ العربي.[٦١]

وفي هذه الفترة ولدت الامارات العربية الصغيرة ففي ١٨٠٦ عقد الانكليز اتفاقية مع القواسم، وفي عام ١٨٢٠ عقدت بريطانيا اتفاقية بحرية معهم وهذا يدل على اعترافها بأنهم يشكلون سلطة من الممكن أن يتعاملوا معها على المستوى العالمي، كما أن مفهوم الامة لم يكن ناضجاً في المنطقة وبذلك لا يمكن اطلاق كلمة قرصنة على الاعمال البحرية التي تقوم بها سفنهم.

ومن جانب آخر فان القواسم كانوا يتعاملون بقسوة مع السفن والبحارة الانكليز أكثر من تعاملهم مع الفرنسيين، وفي هذا الصدد يروي بأن سفينتين من سفن جزيرة فرنسا كانتا تحملان بضائع وإحداهما كانت مسلحة وهاجمتهما سفن قاسمية في راس الحد ونهبت شحنتهما وجلبوا بحارتهما (طاقمهما) الى اليابسة ولكن بمجرد أن عرف القواسم بأنهم فرنسيون اعطوهم حريتهم [٦٢] وهذا دليل على أن القواسم يفرقون بين العدو الحقيقي الانكليزي وأولئك الذين

هم ليسوا في حالة حرب معهم.

فبدل أن يتوجهوا إلى القواسم بشكل سلمي ويعرضوا عليهم مطالبهم، لجأ الانكليز الى العنف، ومراسلات شركة الهند الشرقية تدل بوضوح على انها أرادت القضاء على المنافسة العربية في طرق الاتصال التجاري بين الخليج والهند وأفريقيا الشرقية.(٦٣)

وفي الواقع تعتبر منطقة الخليج لبريطانيا منطقة منفعة اساسية انطلاقاً من حقيقة انها تشكل سلسلة هامة لطريق التجارة الشهير الى الهند، العصب الحيوي للامبراطورية البريطانية، ويجب التذكير بأن أحد المرتكزات الاساسية للسياسة البريطانية هو ضمان الاتصالات الامبريالية بين لندن، التي هي رأس الامبراطورية والهند التي هي القلب، فاليوم الذي تقطع فيه انكلترا عن الهند سيكون بدون شك نهاية العظمة البريطانية، ولهذا السبب عملت انكلترا على تركيز نفوذها في كل المناطق التي يمر منها الطريق إلى الهند.(٦٤)

ولهذا ايضا غزت بريطانيا المنطقة عسكريا ووجهت ضدها الحملات العسكرية البحرية في أعوام ١٨٠٦ ـ ١٨٠٩ ـ ١٨١٠ و ١٨١٩ و ١٨٢١، تحت ستار القضاء على القرصنة في حين انها استهدفت بالدرجة الأولى القضاء على النشاط البحري للقوى العربية وتدمير أساطيلهم البحرية،

وبالوقت الذي كان فيه القواسم يتصدون للقرصنة والغزو البريطاني للخليج العربي وقفت فارس بجانب الانكليز وأيدت أعمالهم العدوانية، واكد ذلك المبعوث البريطاني هارفرد جونز (Harvard Johnes) الى البلاط الفارسى فقال «ان الشاه ايد الحملات البريطانية ضد عرب الخليج، وعندما اخبره جونز بالنجاحات التي حققها اسطول شركة الهند البريطانية ضدهم اجاب بارك الله هذا عمل شجاع»(٦٥)

## عمليات القرصنة الفرنسية والبريطانية الاخرى في الخليج العربي وسواحل افريقيا الشرقية حتى نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر:

حاولت الحكومة الفرنسية في القرن التاسع عشر تقوية علاقاتها مع مسقط لأن نابليون لم يتخل عن مشاريعه لضرب المستعمرات البريطانية في الهند ولهذا كان يحتاج الى تقوية العلاقات مع الحكام المحليين على طريق الهند، اضافة الى الموقع الاستراتيجي المهم لمسقط. وتتضح تلك الرغبة فيما جاء بتعليمات القنصل الفرنسي كافيناك (Cavaignac) المرسل الى مسقط حيث اكدت تعليماته

على «تطمين الامير العربي بأن ينتظر عدالة الحكومة الفرنسية وانه سينظر في احتجاجاته والحقيقة أن الاحداث ستفهم بشكل كامل، ونعرف بأن عدد من السفن المسقطية (التي نهبت بضائعها وقدرت بكميات هائلة قامت بنهبها سفن الكورسير لجزيرة فرنسا، وقد أدينت تلك العمليات من محكمة الجزيرة».(٦٦)

وكانت تعليمات ديكان (حاكم جزيرة فرنسا) الى كافيناك تؤكد على نفس الموضوع حيث جاء فيها «اعطاء سلطان مسقط التقدير والاهتمام بارسال شخص منتخب لاعادة العلاقات الخاصة التي لم تتدهور أبدا بين الفرنسيين الذين يأتون الى السواحل العربية وسكانها الا بسبب سفن الكورسير التي بقيت بعيدة عن الرقابة»

وأشارت تعليمات ديكان أيضا الى كافيناك «ابدأ علاقاتك مع الامام باعطائه اثبات عن تصور حكومة فرنسا تجاه القرصنة التي تمارس ضد تجارة الأمة والتي لا تريد معها الا علاقات الصداقة، وانت مكلف بشكل خاص لجمع المعلومات والتلويح بأنه سيتم التعويض اذا ما ثبت ذلك».(٦٧)

وعلى الرغم من كل هذا الاهتمام من الحكومة الفرنسية لم تتوقف سفن الكورسير الفرنسية التي استمرت ترسو في ميناء مسقط للتزود بالوقود من مهاجمة السفن الانكليزية التي تلاقيها في الخليج العربي (٦٨)

وبسبب من تلك الاوضاع اقترح المقيم الانكليزي في بوشير على حكومة الهند تأمين الحماية للتجارة الانكليزية وحراسة كل سفينة تجارية بسفينه حربية.(٦٩)

ومن جانب آخر ازدادت الاشتباكات وأعمال القرصنة البحرية بين السفن الانكليزية والفرنسية في هذه الحقبة، وقد قدرت الاضرار التي نجمت عن أعمال الهجوم القرصنية تلك بين عام ١٧٩٣ ـ ١٨٠٤ بـ ٣٠٠ الف ليفر استرليني

والجدول التالي يوضح عدد «السفن التي نهبت من الفرنسيين أو الانكليز في المحيط الهندي والخليج العربي بين ١٧٩٣ ـ ١٧٩٧».(٧٠)

| السنة | سفن بضائع سيطر عليها الفرنسيون من الانكليز وعددها | سفن بضائع سيطر عليها الانكليز من الفرنسيين وعددها |
|---|---|---|
| ١٧٩٣ | ٢١٦ | ٦٣ |
| ١٧٩٤ | ٥٢٧ | ٨٨ |
| ١٧٩٥ | ٢٠٢ | ٤٧ |
| ١٧٩٦ | ٤١٤ | ٦٣ |
| ١٧٩٧ | ١١٤ | ٥٦٢ |
| المجموع | ١٤٧٣ | ٨٢٣ |

ويبدو ان العمانيين كانوا يستفيدون من عمليات القرصنة المتبادلة بين البريطانيين والفرنسيين، فثمرة تلك العمليات كانت جلب تلك السفن المستولى عليها قرصنيا وبضاعتها وبيعها في جزيرة فرنسا فكان «عرب مسقط يجدون في هذه العمليات (عمليات البيع) وقسم من المواد الغذائية سوقاً مفتوحة للمضاربة(٧١)، فالسلطان والتجار العمانيون كانوا يحتفظون بممثلين في بورت لويس مكلفون بشكل خاص بشراء تلك المنهوبات التي ترسل لاحقاً الى موانىء الخليج العربي، وحتى الى كلكتا لتباع هناك ثانية»(٧٢)

لقد غالى الطبيب والفيزيائي الايطالي ميروزي Muruzi الذي كان يقيم في مسقط عام ١٨٠٩، كطبيب خاص للسلطان فذهب الى حد القول «بأن غالبية سفن البحرية العمانية ذات الحمولة من ٣٠٠ الى ٧٠٠ طن كانت سفنا انكليزية نهبت من قبل الفرنسيين تم شراؤها من المسقطيين في جزيرة فرنسا»(٧٣)

والواقع ان هذا التفسير ينطبق مع وجهة نظر الانكليز التي أرادت الضغط على سلطان مسقط لجعله يتخلى عن موقف الحياد ويقف الى جانب انكلترا في صراعها ضد الفرنسيين.

ان تصاعد الاعمال القرصنية الفرنسية أقلق الانكليز اكثر فأكثر، فالقبطان وود (Wood) قائد سفينة الحرب كونكورد (Concorde) التي كلفت بالتجوال والحراسة في الخليج مع السفينة كورنواليس Cornwallis قدم تقريراً في ٧ تشرين الأول ١٨٠٤ الى مسؤوليه ليجلب انتباههم حول الخطر الذي تشكله حالة القرصنة سواء بالنسبة للنقل التجاري والمراسلات الانكليزية.(٧٤)

ومن الامثلة على عمليات القرصنة المتبادلة بين السفن الفرنسية والانجليزية في منطقة الخليج العربي ما حدث في تشرين الاول ١٧٩٩ فتقابلت السفينة الملكية (Tricomali) تريكو مالي مع السفينة الفرنسية الافيجين (Ephigenie) ونتج عن الاشتباك تدمير السفينتين بعد وقوع انفجار في السفينة الانجليزية (Tricomali)، وفي عام ١٨٠٤ نهبت سفينة الحرب الفرنسية (Lafortine) الحظ، السفينة الانجليزية (الطائر) فلاي (Fly) التابعة لشركة الهند الشرقية (٧٥) وقادتها الى بوشير ومن جانب آخر لم تكن هذه أولى السفن التى تقاد الى هذا الميناء (٧٦) فثلاث سفن اخرى على الأقل لاقت نفس المصير بين أيلول وتشرين الثانى عام ١٨٠٤ (٧٧) وعندما علمت حكومة بومباى بخبر الاستيلاء على الفلاى (Fly) أرسلت الملازم كورت الذي

سبق أن شارك بعمليات بحرية داخل الخليج ليحاول ارجاع السفينة المنهوبة لكن قبل مغادرته وصل خبر الاستيلاء على السفينة الفرنسية لافورتين (Lafortine) في شهر تشرين الثاني بواسطة السفينة الانجليزية الكونكورد [٧٨].

ولعل الشيء المهم الملاحظ على هذه العمليات البحرية أن تأثيرها لم يظل محدودا ومقصورا على سفن الدول الاوربية وانما امتد تأثيره بشكل قرصنة ضد السفن العربية التي لم تكن داخله في حرب مع أي من البلدين، فقامت سفينة فرنسية كانت تتجول مقابل مسقط بمهاجمة «سفينتين عربيتين بالقرب من هذا الميناء»[٧٩].

ولم يقتصر التأثير السلبي للصدامات الفرنسية البريطانية البحرية على مهاجمة السفن العربية فقط اذ كان يقود قسم منهم السفن المنهوبة وبضائعها الى الموانىء العربية وهذا ما يثير سلطان الطرف الثاني ضد العرب ويتهمونهم بالتواطؤ مع هذا الطرف أو ذاك. ففي شهر آب من عام ١٨٠٥ استولت السفينة الفرنسية بيل بول (Belle Poule) على السفينة الانجليزية (Endeavour) آنديفور وقادتها الى مسقط [٨٠] وهذا أثار من جديد سلطات بومباي وذهبت الى حد اعتبار ميناء مسقط قاعدة للسفن الفرنسية تهاجم سفنها (الانجليزية) منها، وقاعدة لتموينها وسوق لمنهوباتها[٨١].

وفي الحقيقة كان الانجليز يطلبون من سلطان مسقط تحقيق ماهو مخالف للقانون وفوق طاقة الحكومة المسقطية فلا توجد اتفاقيات معقودة بين الانجليز والسلطان يتعهد فيها بمنع رسو السفن الفرنسية في موانئه.

عادت الصدامات مرة اخرى بشكل كبير بين السفن الفرنسية والانجليزية في منطقة الخليج العربي اثناء حكم سيد سعيد، واقتربت اكثر فأكثر من المياه الاقليمية المسقطية وفي بعض الاحيان كانت تقع في ميناء مسقط نفسه. ولكن في هذه المرة كان الفرنسيون يشكون الى سلطان مسقط هجمات الانجليز ضد سفنهم في حين انه في المرات السابقة كان العكس. ففي ٢٦ تموز ١٨٠٦ كانت سفينة الكورسير الفرنسية (Le vigilant) الفيجلانت في ميناء مسقط تتزود بالمياه والمؤن عندما ظهرت الفرقاطة الانجليزية (الكونكورد) (Concorde) وهاجم البحارة الانجليز البحارة الفرنسيين الذين كان قسم منهم في سفن عربية صغيرة بالقرب منها، بعد أن رفضوا طلب أحد موظفي السفينة الانجليزية بتسليم مفاتيح مخازن السلاح في السفينة الفرنسية[٨٢].

ولم يكتف قبطان السفينة الانجليزية (الكونكورد) بذلك، بل تقدم الى السلطان يطلب منه اعطاء

الامر الى السفينة الفرنسية بمغادرة ميناء مسقط خلال أربع وعشرين ساعة، لان الخدمات التي قدمت لها، تشكل خرقا للاتفاقيات المعقودة بين مسقط وانجلترا، وتضع علامة استفهام على حياد مسقط (كما قال القبطان الانجليزي) [٨٣].

بعد هذا الانذار أعطى السلطان امرا مباشرا الى السفينة الفرنسية (الفيجلانت) بمغادرة الميناء وعند خروجها من الميناء اعترضتها السفينة الانجليزية على بعد ٩ اميال [٨٤] واستولت عليها دون مقاومة لانها لم تتمكن من التزود بالوقود من مسقط[٨٥].

ولخشية سيد سعيد (امام عمان) من رد الفعل الفرنسي ضد السفن العمانية (لان جزيرة فرنسا كانت مركزا لسفن الكورسير القرصنية ويخشى أن تهاجم السفن المسقطية)، أرسل مبعوثا الى حاكم جزيرة فرنسا لتسوية المشكلة وشرح الحادث الذي وقع أثناء غيابه واثناء الاضطرابات في مدينة مسقط.[٨٦]

ثم كتب الامام بعد ذلك الى دنكان (رئيس حكومة بومباي) محتجا ضد ما قام به قبطان (الكونكورد) وطلب اعادة الفيجلانت، وقد اعترف دنكان بأن حجة قبطان السفينة الانجليزية القانونية لم تكن مقنعة لكن دنكان عندما كان يقدم شرحا الى رئيس محكمة بومباي الذي يحكم بقضية الفيجلانت ذكر للقاضي بان الحكومة (حكومة بومباي) ستكون في وضع رسمي حرج في حالة مصادرة السفينة، غير أن هذا القاضي ظل يرفض أن يأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر دنكان وأكد للحاكم أنه يعتبر الفيجلانت غنيمة حرب.[٨٧]

ولم يكن سلطان مسقط مخطئا لتحوطاته، ففي الواقع بعد بضعة اشهر تعرض الاسطول المسقطي لخسائر كبيرة، فالسفينة الفرنسية البيومنتيز (Piemontaise) اعترضت بالقرب من خليج البنغال ثمان سفن ونهبت حمولتها وبضائعها وعندما اعترض المسقطيون على هذا العمل رد قبطان السفينة (الفرنسية) بأن الصداقة بين فرنسا ومسقط قطعت منذ أن رفض السلطان استقبال كافيناك، ومنذ أن عوملت السفينة الفيجلانت معاملة سيئة[٨٨] وأضاف كذلك بانه استلم أمراً للانتقام من الاستيلاء على الفيجلانت[٨٩].

وخشية من ثأر الفرنسيين، قرر سيد سعيد ارسال مبعوث الى بومباي يحمل رسالة الى دنكان، وفي هذه الرسالة يشتكي السلطان من موقف البريطانيين منه واقترح عليهم أما أن يتكفلوا بحماية السفن المسقطية وأما أن يعيدوا سفينة الفيجلانت (الفرنسية)[٩٠].

يئس سيد سعيد من وصول جواب على رسالته من دنكان فأرسل مبعوثا الى حاكم جزيرة فرنسا، وهو يحمل رسالة اكد فيها مساعيه السابقة لدى

السلطات الانجليزية في الهند لاستعادة السفينة الفرنسية وأمله في استعادتها»(٩١).

غير أن حاكم جزيرة فرنسا أوقف المبعوث المسقطي وحجز سفينته في ميناء نابليون، ولكنه سمح لقسم من الطاقم بالمغادرة بعد أن أعطاهم رسالة الى السيد سعيد. «احتج فيها ضد المعاملة السيئة التى عانى منها الفرنسيون عند الاستيلاء على الفيجلانت، وضد مقتل قبطان أحدى السفن الفرنسية، وطلب بأن تعاد السفينة الفرنسية المأسورة وطاقمها، ويجرى معاقبة قتلة القبطان شتلان، وارسال ممثلين لديهم صلاحيات كاملة للتفاوض على ما يرضي فرنسا وما لها من حقوق» (٩٢).

ويبدو أن الرسالة تركت اثرها على السلطان فكتب من جديد الى حكومة بومباي بأعادة السفينة الفرنسية، وتعجب من عدم استلام اي جواب على رسائله السابقة بهذا الخصوص

ولم يأت الرد من حاكم بومباي الى السلطان حتى نيسان عام ١٨٠٧ ومما جاء فيه «ان حكومة بومباي ترى من الافضل أن تعتمد مسقط موقف الحياد من الصراع الانجليزي الفرنسي، وبالنتيجة ترى بأن من غير المناسب أن يكون لمسقط علاقات صداقة حميمة مع فرنسا(٩٣).

استمر سلطان مسقط في سعيه لحل مشكلة السفينة الفرنسية كي لا تتعرض سفنه لقرصنة جديدة، فوصل مبعوث الى ميناء نابليون في ٢٠ مايس (مايو) ١٨٠٧ مع سفينتين (٩٤)، واكد المبعوث المسقطي الجواب السابق وهو أن حادث السفينة وقع أثناء وجود الامام خارج الميناء، أما بالنسبة لقاتل القبطان الفرنسي فانه غادر مسقط قبل أن يعرف أحد بجريمته ويوجد الان خارج اطار سلطة امام مسقط»(٩٥).

وخلال فترة النظام القاري عقدت اتفاقية بحرية مهمة عام ١٨٠٧ بين جزيرة فرنسا وامام مسقط سمحت احدى موادها لسفن السلطان بالانتقال بين مختلف الموانىء الواقعة تحت النفوذ الفرنسي أو الانجليزي بدون التعرض لخطر الاستيلاء عليها من سفن جزيرة فرنسا (٩٦)، الا أن هذه الاتفاقية لم تصادق عليها الحكومة الفرنسية لتعارضها مع تشريع النظام القاري.

غير ان عمليات القرصنة عادت من جديد ضد السفن المسقطية بالرغم من الاتفاقية السابقة، فعادت معها شكاوي التجار ضد سلطات جزيرة فرنسا، ففي عام ١٨٠٨ كتب امام مسقط رسالة الى الجنرال ديكان حاكم الجزيرة (وهو غير دنكان) يبين له فيها بأن سكان جزيرة فرنسا قاموا بأعمال بالضد من الصداقة (بين البلدين فرنسا ومسقط) فعند ملاقاة السفن العمانية في المحيط الهندي وزنجبار، فأنهم يقتربون (الفرنسيين) من السفن المسقطية بحجة أخذ الاخبار منها ولكنهم يستولون عليها وينهبونها

(٩٧). وعلى الرغم من ارجاع عدد من السفن المسقطية وحمولتها الى المسقطيين بعد تدخل ديكان ظل «الموريشسيون يبحثون عن الف حجة وعذر لتفادي الانصياع لأوامر الجنرال». (٩٨)

وقد أخبر امام عمان (حاكم جزيرة فرنسا) بأنه كتب الى كاردن السفير الفرنسي في فارس، طالبا اليه الكتابة الى الحكومة الفرنسية لتمنع الاعمال القرصنية للسفن الفرنسية وتضع حدا لها ونهاية (٩٩) وعندما تم نهب سفن مسقطية من جديد، ارسل السلطان من جديد مبعوثا أخر هو ملا صالح، الى ديكان الذي حاول تهدئته، لكن المبعوث المسقطي طالب باحترام الاتفاقية المعقودة بين الحكومتين من قبل الحكومة الفرنسية( ١)

وفي الحقيقة لم تتوقف عمليات القرصنة ضد السفن العربية رغم كل تلك الجهود ويظهر غضب التجار الوطنيين من خلال رسالة أحد التجار الاغنياء المسقطيين الى نابليون الاول التي جاء فيها «لم يبق أمام العرب أي طريق للخروج من مأزقهم، مهم اعتادوا الاتجار مع الهند، ولكن بسبب ما تعرضوا له من نهب فأنهم قللوا من تلك العلاقات، ونحن نكتب الى فخامتكم لنحتج على ماسلب منا من قبل سكان جزيرة فرنسا»(١٠١).

* * *

وهكذا كانت القرصنة الاوربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ضد القوى العربية البحرية أحد العوامل المهمة التي أثرت على التجارة العربية وطرق اتصالها الخارجي وأضرت بالمصالح الاقتصادية العربية، واستهدفت القضاء على السيادة العربية على مياه العرب الاقليمية في الخليج العربي والحد من عملياتهم التجارية في المحيط الهندي والبحر الاحمر

ولم يحترم الأوروبيون موقف الحياد الذي اتخذه العرب تجاه الصراع الفرنسي الانجليزي، فتعرضت السفن والموانىء العربية للضرب والنهب وفي الوقت الذي خاضت فيه بعض القوى العربية البحرية كالقواسم مثلا نضالا بحريا شجاعا ضد القرصنة الاوربية (خاصة الانجليزية) التي ترفض الاعتراف بسيادة العرب على مياههم فقد سميت هجماتهم على سفنها (وللعجب) باسم القرصنة .

# الهوامش

1 . Pavie (Th), La marine des Arabes et des Hindous, Revve des deux moudes, Vol 4, Paris, 1843, p 576
2 . Miles S B , "THE COUNTRIES AND THE TRIBES OF PERSIAN GULF, London, 1966, p.143.
3 . Al Hilo S L'EUROPE ET LES PROBLEMES MARITIMES DU GOLFE ARABE DE 1789-1857
T.1 AIXEN PROVENCES, Thise doctorat d'Etat un public, 1983, p. 57.
4 . Expedition Maritime Aux Indes Orientales, Archives, Nationales, Serie M1201 France
5 . Ibid
6 . Lettre de Mr l'Eveque de Babylone a'mr le Ministre de la Marine, Bagdad, 9 Janvier 1760 Archive Nationales, A F.B. Bagdad, Correspondance consulaire et commercial, p 140.
7 . Ibid
8.9. Ibid
10. Miles S.B., Op Cit pp 269-270
11 Guillain m., DOCUMENTS SUR L'HISTOIRE LA GEOGRAPHIE ET LE COMMERCE DE L'AFRIQUE ORIENTALE, Vol 2, PARIS 1857, p.555
12. Miles S.B. Op. Cit p. 274.
13. ـ العابد ، صالح، الموقف البريطاني من النشاط الفرنسي في الخليج العربي، بغداد ١٩٧٩، ص ٦٨
14. Al Hilo S, p. 99
15. Miles S B. Op. Cit 277
16. Guillain M, "Op. Cit, Vol 1, pp. 204-205.
17. Ibid 205.
18. Lettre de Mr. Rousseau a Mr. le Marquis de castries, Ministre de la marine, Arch. Nat. B1AF 197, 1783-1791), Bassorah, p. 348.
19. Lettre de l'Imam de Muscate T1, 1783-1810, p. 33
20. Copie de la lettre de l'Imam de Muscate a Mr Roussau, 1786 Arch. Nat. Corresp. Consul, B1AF Bagdad, 176, 1776-1786.
21. ـ صالح ، زكي، العراق وبريطانيا ١٦٠٠ ـ ١٩١٤ ، بغداد ١٩٥٧ ص ٥٣
22. Miles (S.B) Op. Cit p. 278.

23. Au Zoux A LA FRANCE ET MASCATE AUX XVIII ET XIX SIEDES, Revue d'Instuite diplomatique, Vol 23, Paris, 1990, p.526.
24. Ibid
25. Lettre de Mr. Rousseau a Mr. le Ministre de la Manne, Alep, le 26 A Avril 1782, Arch. Nat. B1 AF 176, 1776-1786 Bagdad.
26. Au Zoux A. Op Cit p. 558
27. Lettre de l'Imam de Mascate a M Rousseau 1790, Corresp. Consul Muscate T1 1783-1810 p. 72
28. Rousseau a M le Comte de la, le 28 mai 1790, Arch. Nat, Bagdad, B1AF 177.
29 Lettre de Rousseau au Citogen Descroches, envoye extraordinaire de la Republique Francaise aupres de la Porte Ottomane, AAE, Corresp. Politique, Perse, Vol 8. p. 54.
30. ٣٠ ـ العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة
31. AuZoux M. Op Cit. Vol 24 p 234
32. Firouz K.LE SULTANAT D'OMAN ET LA QUESTION DE MASCATE, Paris, 1974 p. 76.
33. Lettre de Rousseau Des Corche, representant de la France aupres des Ottomans, Bagdad 430 Venal mare AN III, AAE., Corresp Consul et commercial, Mascate T1 p 79
34 Al HiloS Op Cit. Pt 1 p. 120
35. Al Akad S La rivalite Franco — Britanique dans le Golfe Arabe et les dependance de l'Oman 1792-1862, Thise de doctorat de, Universite de Paris, Paris 1956 p. 13
36. ـ العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ص ٦٢
37. Archives Colonies, Ile de France, Corresp. General 37 C4 Vol 93 An III
38. Rapport au Comite de Salut Public, 18 Germinal, Au III Archives Colonies 14 de France Vol 93
39. Traduction de la copie d'une lettre ecrite paz le cheik Kalfan Government de Mascate 1 au citoyen Rosseau Consul in Bagdad An 71, AAEI Mimoires et documents, Perse, Vol 2, 1740-1839 p. 156
40. Lettre du Citogen Rousseau au Citogen Descroches envoye' extra-ordinaire de la Republique Francaise a' Constantinople AN 11 1AAE, Corresp Consul Bagdad Vol 4 1792-1812, p.25
41. Rapport du 18 germinal, ANIII, AAE Corres Consul Mascate T1 1783-1810, p. 110

42. AuZoux M1 Op cit Vol 24 p 235
43. Lettre de M. Rousseau a Descroches envoye extraordinaire de la Republique Francaise Pres de la porte Ottoman, bagdad 30 Nov. AN 111, AAE, Corresp. Consul, T1 Mascate p. 79.
44. ـ العابد ، صالح ، الموقف البريطاني من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ص ٧٣
45 Miles SB Op Cit p. 289
46 Al Hilo S Op Cit. T1 p. 130
47. Al Akad S. les rivalities Op Cit p 28
48. Ibid p 51
49 Prentout Henri Lile de France Sous Decaen 1803-1810 Paris 1901 p 332
50 La mer Rouge et le golfe Arabe: Situation des Agents anglais et Francais.par un voyageur 1 Revue des deux mondes, vol 6 Paris 1844 p.825.
51. ـ نوري ، برهان محمد . ساحل القراصنة، آفاق عربية العدد ١١، بغداد، تموز ١٩٧٨، ص ١١٣ .
52. Landen R OMAN SINCE 1856 New Jersey, 1967 p. 10
53 ـ العابد ، صالح ، دور القواسم في الخليج العربي، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٩٦
54. Dubuisson P "Qasimi, Piracy & the General Treaty of Peace 1820"
55. ٥٥ ـ العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ٩٣
56 Kelley J. BRITAIN AND THE ARAB GULF 1795-1880 Oxford 1968 p. 111
57. Al Hilo S. Op Cit. p 305
58. Philips CH THE EAST INDIA COMPANY 1784-1834 Manchester 1961 pp 79-155
59 ـ ابراهيم ، عبدالعزيز غني ، بريطانيا وامارات الساحل العماني ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ١٧٣ ـ ١٣٨ .
60. Dubuisson P Op Cit p. 47
61 ـ النجار ، مصطفى عبدالقادر ، التاريخ السياسي لمقاطعة عربستان ١٨٨٧ ـ ١٩٢٥ ، القاهرة، ١٩٧٠ ص ٤٥
62. Buckingham J S. TRAVELS IN ASSYRIA, MEDIA & PERSIA London 1829 pp 380-382
63. ٦٣ ـ ابراهيم* نفس المصدر ، ص ١٣٧
64. Chevalier J.J. LE'VOLUTION DE L'EMPIRE BRITANNIQUE T2 Paris 1930 p, 999
65. Brydges U.J. AN ACCOUNT OF THE TRANSACTIONS OF HIS MAJESTY TO THE COURT OF PERSIA 1807-1811 Vol 2 London 1834 p. 40

66. Instructions pour le citoyen cavaignae, resident commissaire general des relations commerciales de la Republique Francaise a Mascate 5 Vendemiaire ANX1 Arch Nat Section d'outre mer papier de cavaignal, mission a lile de France, micro film No. 1 mit B8
67. Ibid
68. Coupland R. AFRICA AND ITS INVADERS FROM THE EARLIEST TO THE DEATH OF SEYYED SAID IN 1856 Oxford 1938 p. 106
69. ٦٩ ـ العقاد ، صلاح .، التيارات السياسية ص ٦٦
70 Malleson CGR "les deraieres lettes des Francaise dans l'Inde et sur l'ocean indien" Translait de Englis, Paris, 1932, p. 87
71. Guillain M. Op. Cit. Vol. 1 p. 210
72. Coupland R. Op Cit pp 16-107
73. Maurizi V.S. A HISTORY OF SEYED SAID SULTAN OF MUSCATE TOGETHER WITH AN ACCOUNT OF THE COUNTRIES AND PEOPLE ON THE SHORES OF THE GULF, London, 1811. p. 30.
74. Captain Wood, Commanding HMS Concorde to G.A. Grant, Nov 7 1801 IOR, Bombay Pol & Sec Proceeding Range 382 Vol 1
75. Buckingham G. Op. Cit p. 409
76. Bulletin des nouvelles d' Alep du per nivose au XIII, AAE Corresp. Publique Perse Vol 8 1758-1805 p. 205
77. Low C.R. HISTORY OF INDIAN NAVY 1613-1863 London 1877 p. 225
78. Ibid
79. Bulletin des nouvelles Op Cit AAE Corresp. Politique Perse Vol 8 p. 203
80. Miles Op Cit p. 307
81 Kelly J.B. Op Cit p. 307
82. AuZoux Op Cit Vol 24 p. 256-257
83. Coupland R. Op Cit p. 116
84. Kelly J.B. Op Cit p. 76
85. AUZOUX A. Op Cit Vol 1 pp 256-257
86. Rapport du ministre de la marine a a amajeste l'empreur et Roi sur les evenements qui out precede la conclusion d'une convention Signee l'imam de Mascate, Paris, Mars 1808, dossier 4 AN, AF 1215
87. Kelly J.B. Op Cit. p. 77

88. Coupland R. Op. Cit p. 110.
89- Kelly J.B. Op Cit p. 77
90.
91. Sayed Said a 'Decaen 15 Sep 1806 Arch Nat Colonies 14 de France, Corresp. Politique Vol 113
92. Deacen a Sayed Said, 21 Octobre 1806 Arch Nat, Colonies 14 de France, Corresp Politique Vol 113
93. Kelly J.B. Op Cit p. 78.
94. Au Zoux A1 Op Cit Vol. 24 p. 259.
95. Rapport du ministere de la marine Op Cit, Arch. Nat. AFIV 1215.
96 Al Hilo S Op Cit T1 p. 212
97. Lettre du Sultan de Zanzibar et d'Oman au general gardane 1808, Arch. Nat. AFIV 1686.
98, 99 Ibid.
100. AuZoux Op Cit Vol. 24 p. 264.
101 Traduction d'une lettre e'crite par Said Mohamed Akib, Negociant de Mascate, a.s.m.

l'empereur et Roi, Mascate, le 27 aout 1810 AAE Corresp. Consul Mascate T1 1783-1820 p 317

ABBREVIATIONS:
AAE Archives du minister des Affaire etrangere
Arch Nat Archives Nationales
Corres Consul Correspondence Consulaire

# دور السياسة البريطانية في تقسيم

## بعثة كوجهلان تتمخض عن تقسيم الـ

انتقل الطور الايجابى للعلاقات العربية الافريقية الى طور الارتباط العربى الافريقى وهو الارتباط بين مسقط وزنجبار ارتباط شرق افريقيا ووسطها بالسواحل العربية تحت سيطرة حاكم عربى اتخذ من زنجبار مقرا له ، وامتد حكمه حتى عام ١٨٥٦م

الا ان التنافس الدولى الذى اشتد على سواحل شرق افريقيا والسواحل العربية فى ذلك الوقت لم يكن ليترك هذا النمو والازدهار للارتباط العربى الافريقى

فكانت المحصلة النهائية لهذا التنافس خروج بريطانيا بنصيب الاسد حيث اصبحت السياسة البريطانية ازاء هذه المنطقة معروفة لكتير من الباحتين وكتبت حولها العديد من الدراسات

والذى يلفت الانتباه لاول وهلة هو ان بريطانيا اهتمت بالسلطنة لاهميتها الاستراتيجية اكثر من القوى

# السلطنة العربية الأفريقية

# سلطنة العمانية الكبرى إلى دولتين

بقلم الدكتورة : سنى محمد على عبدالجبار الطائى

الاستعمارية الاخرى ، صحيح ان البرتغاليين والفرنسيين تم الالمان لم يغفلوا عن هذه الاهمية لكن البريطانيين رسموا خطتهم للسيطرة على المنطقة بدهاء وبرؤية مستقبلية ، بالاضافة الى ذلك فان بريطانيا كانت تتميز بتفوق بحرى واضح فى المحيط الهندى دعم هذا اقتصادها المتين وجشعها الاستعمارى ودهاء قادتها السياسيين

فنجاح بريطانيا فى السيطرة على السلطنة العربية الافريقية يعنى السيطرة على طرقها التجارية فى هذه المنطقة ، وخلق مراكز حربية تكون نقطة الانطلاق لتحقيق اهدافها

ولم يكن نجاح السياسة البريطانية النشطة فى السيطرة والتدخل فى شئون السلطنة فقط ، وانما امتدت لتكون سببا رئيسيا فى تقسيمها وتفتيت كيانها حفاظا على مصالحها الحيوية ، اضافة الى الحد من الارتباط الافريقى بالجانب العربى .

## تقسيم السلطنة العربية الافريقية

في السنوات الاخيرة من حكم السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦)[١] بلغت ممتلكات دولته اقصى اتساع لها ، فقد كانت تمتد في اقليم عمان من رأس مسندم الى صحار ، واشتملت على بعض الاراضي الشرقية من سواحل الخليج العربي ، منها ميناء بندر عباس الذي استأجرته دولة بو سعيد من فارس لمدة عشرين عاما بمبلغ ٣٥,٠٠٠ ريال نمسوي[٢] .

اما بالنسبة للممتلكات الافريقية ، فقد كانت تضم الساحل الشرقي من رأس جوردفاي شمالا الى رأس دلجادو جنوبا . هذا بالاضافة الى عدة مقاطعات كانت تخضع لحماية الدولة العثمانية كمقديشيو ولامووبان[٣]

وكادت تدخل ضمن تلك الدولة ايضا الاراضي الداخلية في وسط افريقيا التي كان يطرقها التجار العرب الذين لعبوا دورا مباشرا في نشر الدين الاسلامي واللغة العربية[٤] ، وكان سكان هذه المناطق يعترفون بشيء من السيادة للسيد سعيد ويعقدون مع العرب الاتفاقيات التجارية عن طريق قنصلياتهم وبيوتهم التجارية ووكلائهم في زنجبار[٥] .

ولم تقتصر ممتلكات دولة بو سعيد على تلك الاراضي التي ذكرناها وانما امتد النفوذ العماني الى بلاد اخرى وان لم يتحقق لهذه الدولة ما كانت تنشده من سيطرة على تلك البلاد كالبحرين وزيلع وعدن وغيرها[٦] .

وأياما كان الوضع ، فلا يجوز ان نبالغ في تصوير التناسق الذي اتسمت به دولة بو سعيد فالسلطة المركزية لم تكن قوية الا في بعض اجزاء الدولة كمدينتي مسقط وزنجبار ، بينما كانت مزعزعة في المناطق الاخرى ، حيث الاضطرابات القبلية والمعارضة للحكم التي كانت تتمثل في الجناح المحافظ ، والاعتداءات الوهابية المستمرة على الاراضي العمانية كل هذه العوامل كادت تقضي على سلطة بو سعيد في المنطقة الساحلية من عمان[٧] .

الا ان اختيار السيد سعيد زنجبار مقرا لحكمه في عام ١٨٣٢م لم يبعده بالضرورة عن المشكلات العمانية كما أن اتجاهه للشرق الافريقي لم يكن بسبب حرصه البالغ على هذا الجزء من دولته لكثرة موارده ووفرة خيراته ، اضافة الى موقعه التجاري الحيوي[٨] ، وانما كان راغبا في تكوين دولة عربية في الشرق الافريقي[٩] .

على ان السيد سعيد لم يلبث ان تأكد من صعوبة السيطرة على عمان من موقعه في شرق افريقيا ، ولذلك كان مضطرا الى ان يغادر زنجبار كي يواجه المشكلات في عمان ، على الرغم

من انه استطاع فى بداية السنوات الاولى من حكمه ان يفرض سيطرته على ممتلكاته العربية(١٠) فتمسكه بممتلكاته الافريقية ونقله ، مركز حكمه اليها كان له اثر واضح فى الاحداث التى ظهرت فى عمان بحيث كان السيد سعيد سلطانا على زنجبار اكثر منه سلطانا على عمان وهذا لم يمنع ان تكون زنجبار طيلة حكمه الطويل تابعة من الناحية الرسمية لمسقط .

## التقسيم الادارى للسلطنة

اذا كان السيد سعيد قد فشل فى تحقيق الاستقرار لحكمه رغم ما حظى به من تأييد أجنبى خاصة وانه كان حليفا دائما لبريطانيا طيلة حكمه الطويل(١١) خاصة وان هذا التحالف قد اثبت فعاليته على امتداد الفترة التى حكم فيها آل بو سعيد .

فالنتيجة الحتمية كانت استحالة الوصول الى حكم مستقر بعد وفاته ومن المحتمل ان السيد سعيد حين قسم دولته اداريا بين اثنين من ابنائه ، انما كان يريد ان يسهل على نفسه مهمة ادارتها ، وان كان هذا لا يعنى بالضرورة رغبته فى تقسيم السلطنة الى دولتين منفصلتين(١٢) كما فسرتها الحكومة البريطانية فيما بعد .

فقد عين السيد سعيد اثنين من انجاله نائبين عنه فى كل من الجزء الافريقى زنجبار والجزء الاسيوى – مسقط – للعمل اثناء الفترات الطويلة التى كان يتغيب فيها عن الحكم ، ومنذ عام ١٨٣٣ كان السيد ثوينى ينوب عن والده فى العاصمة – مسقط – بينما كان الابن الثانى السيد ماجد ينوب منذ عام ١٨٥٤ عن والده فى زنجبار(١٣) فكان من الطبيعى ان يكون لكل منهما نفوذ واسع فى المنطقة التى يحكمها ولكن ليس بالدرجة التى تمكنه من ضم الجزء الآخر الى حيز نفوذه كما لا يبدو ان السيد سعيد قد رشح احد ابنائه ليخلفه على الحكم بعد وفاته

واصبح وضع دولة بو سعيد حرجا بعد وفاة السيد سعيد عام ١٨٥٦ – حيث كان يعد آخر حاكم بارز فى الخليج ويعد عهده مرحلة ناجحة فى اطار الحضارة التقليدية للمنطقة ونطاقها الديناميكى ، اذ ان تأثير الامبريالية الغربية وعملية التحديث للمنطقة دمرت البناء السياسي العام ان لم تكن قد دمرت كل خاصية من خواص ذلك النظام وذلك بعد اعوام قليلة من وفاة السيد سعيد – حيث تمت مبايعة السيد ماجد حاكما على زنجبار – وبتأييد من الانجليز – واعلن السيد ثويني نفسه حاكما على المملكة العمانية بما فيها زنجبار وبذلك انقسمت السلطنة بطريقة فعلية(١٤) .

وقد تعرض حكم السيد ماجد فى زنجبار لعدة اخطار – قبل ان يثبته الانجليز بتحكيمهم لعام ١٨٦١ – من

هذه الاخطار :
- الاخطار والاضطرابات التى اثارتها قبيلة الحارث او - الحرث - اكبر العائلات فى زنجبار حيث طلبت من السيد برغش ان يقودها فى صراعه مع اخيه السيد ماجد والواقع ان هذه القبيلة كانت ترغب فى التخلص من حكم أسرة بو سعيد كلها ، ووضع حاكم منها على زنجبار[١٥]
- رغبة السيد ثويني فى توحيد السلطنة تحت حكمه وكان لديه من المبررات ما يستطيع به ان ينازع اخاه السيد ماجد حكمه فى زنجبار بوصفه اكبر ابناء السيد سعيد وهو الذى يحكم اقاليم الوطن الام كما يستمد من بيعة القبائل العربية له قوة فى ادعائه .

وفى اطار الاستراتيجية التى فرضها مبدأ المحافظة على طرق المواصلات الى الهند نجد ان السياسة البريطانية كانت تؤيد تقسيم السلطنة وتعارض فكرة ضم ممتلكات ثويني الى ممتلكات ماجد ، بحيث تضمن السيطرة على موقع يعد من اهم المواقع لحماية مصالح الامبراطورية حيث تعد الشواطىء الشرقية الافريقية امتدادا استراتيجيا يؤثر فى المجال الدولى للسيطرة على الملاحة البحرية للتجارة العالمية الى الهند وقد اصطدمت خطط بريطانيا بمطالبة السيد ثويني بتوحيد السلطنة انطلاقا من : أن موارد القسم الافريقى من السلطنة تبلغ اضعاف موارد القسم الاسيوى وان امتناع السيد ماجد عن دفع الاعانة السنوية الى مسقط والتى قدرت بـ ٤٠,٠٠٠ ريال نمسوى - قبل ان يثبتها تحكيم كاننج - اثار مشكلة حول طبيعتها وهل تعنى نوعا من التبعية من جانب زنجبار لمسقط ام انها اعانة شخصية من اخ الى اخيه[١٦] ويبدو أن اصرار السيد ثويني على اعتبار الامر الاول هو الذى دفع السيد ماجد الى الامتناع عن الدفع[١٧] .

وبذلك امتدت المشكلة بين الطرفين وكانت من الاسباب التى دفعت السيد ثويني الى اعلان الحرب ضد اخيه السيد ماجد واعادة توحيد السلطنة .

## التنافس البريطاني الفرنسي

كان لاعلان الحرب وارسال حملة فى عام ١٨٥٩ الى زنجبار من قبل السيد ثويني وقع سىء على بريطانيا خاصة وان السيد ثويني اتجه الى فرنسا من اجل مساعدته فى توحيد السلطنة وقد بثت هذه الحملة الذعر فى الاوساط البريطانية خشية تعرض مصالحها فى المنطقة الى المنافسة الفرنسية التى كانت ترمي الى الحصول على موطىء قدم فى المحيط الهندى وفى المراكز الاستراتيجية الحساسة على طريق الهند مما جعل بريطانيا تسارع بايقاف الحملة[١٨] ، وتوجيه الاتهامات الى فرنسا التى

كانت ترغب بتقديم المعونة الى السيد ثويني مقابل حصولها على بعض الاراضي فى شرق افريقيا واحياء تجارة الرقيق[١٩] - التى حرمتها بريطانيا - نظرا لحاجتها للعمالة الافريقية للعمل فى المستعمرات التى حصلت عليها والملاحظ ان اهتمام فرنسا بزنجبار جاء نتيجة لتزايد تبادلها التجارى مع الساحل الشرقى لافريقيا .

ومما لا شك فيه انه ترتب على ظهور اطماع فرنسا فى زنجبار ان ازداد السيد ماجد تقربا من الانجليز واصبح اكثر انصياعا لهم ولم يقف الامر عند حد تقديم المعونة البريطانية اليه بل حاولت بريطانيا ان تحل النزاع القائم بين مسقط وزنجبار بطريقة يقبلها الطرفان او يرغمان على قبولها اذا استدعى الامر ذلك انطلاقا من تصميمهم على منع اى دولة من استخدام المنطقة الحساسة بشكل يهدد الهند او المواصلات الامبراطورية بالخطر .

## بعثة كوجلان

تتميز بريطانيا عن القوى الاستعمارية التى سبقتها الى المنطقة باتباع استراتيجية ذات صفة غير عسكرية وهى أسلوب عقد المعاهدات والاتفاقيات مع حكام المنطقة والزامهم بنصوصها .

ومما يستوقف النظر فى امر الاستعمار البريطانى ان الاساليب التى اتبعها فى السيطرة على السلطنة واحدة تقريبا فقد جرى على اغتنام فرص وقوع الخلافات العائلية فى اسرة بو سعيد وكان لا يتورع عن ايجادها اذا اقتضت الظروف التدخل فيؤيد احد الفريقين المتنازعين ويكون الفوز دائما فى جانب الفريق الذى يؤيده لكثرة وسائطه وتعددها ثم يبسط ظله على البلاد عن طريق الحاكم الجديد الذى يجلسه او يعضده[٢٠] .

ومعنى ذلك ان السيطرة البريطانية على السلطنة العظيمة لم تكلف الانجليز جهودا مادية تستحق الذكر بل سيطروا عليها بالطرق والاساليب الدبلوماسية وبالوسائل الاخرى التى يعرفونها مستعينين على ذلك بالزمن وقد أنالهم ما يريدونه ولا نظن ان استعمارا فى العالم تم على مثل هذا المنوال .

فالهدف الرئيسى للسياسة البريطانية كان تقسيم السلطنة وتفتيت كيانها انطلاقا الى مايلى .

- ان التقسيم سوف يمهد لها سبيل السيطرة على اقليمى الدولة وبشطريها الافريقى والعربى .
- ان دعمها للسيد ماجد يعنى تدعيم نفوذها فى زنجبار وبالتالى سيطرتها على مسقط لكونها واقعة ضمن مناطق نفوذها فى الخليج العربى .
- ان بريطانيا كانت تدرك بلا شك انها ان لم تتدخل فى النزاع الناشىء

بين مسقط وزنجبار بما يحقق فى النهاية الهدوء والسلام فى المنطقة فقد تتاثر مصالحها الحيوية فى الطريق الموصل الى امبراطوريتها فى الهند .

ولكى يتفادى البريطانيون اتساع نطاق هذا الصراع الذى يمكن ان يؤدى لنشر الفوضى على امتداد منطقة حوض المحيط الهندى ، اقترحوا على المتنازعين على السلطة احالة الخلاف بهدف التحقيق فى اسبابه على هيئة تحكيم هندية بريطانية ، كان على راسها الكولونيل دبليو كوجلان المقيم السياسى فى عدن(٢١) .

وكان من نتيجة الاعمال والدراسات التى قامت بها بعثة كوجلان بعد زيارتها لمسقط وزنجبار (١٨٦٠) التعرف على مطالب وحجج كل من السيد ثويني والسيد ماجد وقد تضمنت حجج السيد ثويني انطلاقا من رغبته فى توحيد السلطنة الاتى .(٢٢) .

– ان السيد ثويني يرى انه مادام حاكما لعمان فهو بالتالى حاكم لتوابعها ، وان والده السيد سعيد ليس من حقه ان يتنازل او يتصرف فى ممتلكاته ، مؤكدا انه ليس من حق اى حاكم ان يتنازل او يتصرف فى ممتلكات دولته .

– ويرى السيد ثويني ان والده السيد سعيد لم يقصد او ينوى او يهدف الى تقسيم سلطنته ، وان تعيينه لابنه السيد ماجد – بعد وفاة اخيه السيد خالد عام ١٨٥٤ والذى انابه السيد سعيد على زنجبار – على الشطر الافريقى وتعيينه – اى السيد ثوينى – على الشطر الآسيوى لا يعنى بالضرورة استقلال كل منهما بممتلكاته وانما حدث هذا التعيين لاسباب ادارية تنظيمية بحتة

– وعليه فالهيمنة على شطرى السلطنة تكون لمن يحكم الدولة الام ، والذى ترضى به القبائل العربية

– اعتبر السيد ثويني المبلغ الذى تدفعه زنجبار الى مسقط سنويا ما هو الا دليل كاف لتبعية زنجبار للدولة الام مسقط

– وبالمقابل جاء تبرير السيد ماجد ضعيفا مقارنة بحجج السيد ثوينى حيث اكد على ما يأتى (٢٣) ،

– انه تم انتخابه من قبل أسرة بو سعيد المقيمة فى زنجبار .

– وانه حصل على تأييد الزعماء الافريقيين القبليين وانه يتعامل مع القوى الاجنبية كمسئول وحاكم لزنجبار وتوابعها

– اما المبلغ الذى تدفعه زنجبار سنويا الى مسقط ، فما هو الا اعانة منه الى اخيه ولا يعنى التبعية له ، مؤكدا فى ذلك على ان السيد ثوينى ارسل وفدا – كما ذكرنا سابقا – للتفاوض معه بشأن المبلغ المذكور وهذا – برأيه – اعتراف من ثوينى باستقلاله .

وبعد دراسة ما تقدم به الطرفان

المتنازعان على السلطة قدمت بعثة كوجلان تقريرها النهائي الى اللورد كاننج – نائب الملك في الهند – في عام ١٨٦١ بعد ان كان لبريطانيا دور كبير في تمويه الحقائق وعدم اقرار العدل ، بحيث جاء التقرير متفقا ومصالحها في المنطقة انطلاقا من الاستراتيجية التي فرضها مبدأ المحافظة والسيطرة على طرق المواصلات الى الهند ، والذي تضمن الاتي (٢٤)

– ان الطريقة التي يتولى بها الحكم سلاطين اسرة بو سعيد ، انما تقوم على اساس الانتخاب ، وانه عقب وفاة السيد سعيد بن سلطان فان اهل زنجبار انتخبوا ابنه السيد ماجد حاكما عليهم . وعلى ذلك فليس هناك مبرر لمطالب السيد تويني في السيطرة على ممتلكات اخيه في زنجبار ، وينبغي اذا ان يبقى كل منهما سلطانا في مكانه

## تحكيم كاننج لعام ١٨٦١

وبموجب تقرير كوجلان الذي استند عليه اللورد كاننج في وضع تحكيمه المشهور نجحت السياسة البريطانية في تحقيق هدفها الرئيسي وهو تقسيم السلطنة الواسعة الى دولتين .

دولة افريقية غنية عاصمتها زنجبار .

دولة اسيوية فقيرة عاصمتها مسقط .

ويمقتضى التحكيم تم اقرار ما يأتي :(٢٥)

– بقاء السيد ماجد في منصبه حاكما على زنجبار والممتلكات الافريقية الاخرى خلفا للسيد سعيد والاعتراف بالسيد تويني حاكما شرعيا على مسقط .

– ومراعاة للعدل في عملية التقسيم تتعهد الدولة العمانية الافريقية في زنجبار بدفع تعويضات مالية ٤٠ر٠٠٠ ريال نمسوى سنويا على ان تتعهد بدفع المتأخرات المستحقة عليها عن العامين الاخيرين – اعتبارا من عام ١٨٥٨م .

– وعد التعويض المالي السنوي الذي تدفعه حكومة زنجبار لحاكم مسقط هنا لقاء تنازل الاخير عن كل حقوقه ومطالبه في القسم الافريقي من المملكة .

– وتقرر بموجب التحكيم ان يستمر هذا الحل على تعاقب الورثة من حكام الدولتين .

– واطلق وفقا للتحكيم لقب (سلطان) على كل حاكم منهما .

– كما جاء في التحكيم ايضا رفض طلب تقدم به السيد تركي بن سعيد – وهو ابن ثالث للسيد سعيد اعلن نفسه حاكما على القسم الشمالي من مسقط في ولاية صحار – في الاستقلال بولايته(٢٦) .

وقد ادى تحكيم كاننج الى ان وجدت بريطانيا نفسها ملزمة

# الانجليز يغذون الخلاف بين أبناء السلطان سعيد لأحكام سيطرتهم على طريق التجارة الى الهند

بالاشراف على عملية دفع التعويض المالى السنوى أو حتى التعهد بدفعه من جانبها اذا لزم الامر .

وبذلك اصبحت العلاقة بين شطرى السلطنة علاقة مالية فقط واعطى التحكيم حق قطع هذه العلاقة اذا ما تعرض حاكم زنجبار لاعتداء من حاكم مسقط على ان يعرض الامر على حكومة الهند[٢٧]

وبذلك نجحت استراتيجية السلطان ماجد فى تجريد اخيه من كل حق له فى زنجبار ، ولا يخامرنا شك بأنه لولا الانجليز وتأييدهم له فى حججه لما نجح فى حل اهم مشكلة واجهته فى حكمه .

فالتأييد الخارجى له – لكونه الدعامة الاساسية لدولته – كان نقطة تحول جديدة فى سياسة زنجبار تجاه مسقط .

## التطورات التى اعقبت التحكيم

ان الحل الذى فرضته بريطانيا لمشكلة النزاع بين الاخوين كان اسوأ من المشكلة نفسها من وجوه عديدة .

فالطابع الافريقى اخذ يغلب على سلطنة زنجبار بعد التقسيم نتيجة لانقطاع الصلة بالوطن الام ، حيث اتخذ السلطان ماجد بعض الاجراءات التى أدت الى اضعاف الصلات بين زنجبار ومسقط

فالتقسيم لم يشطر فقط دولة قائمة وموحدة وصفها احد المراقبين البريطانيين (بالدولة البحرية[٢٨] الاولى) بل قوض اقتصاد هذه الدولة ووحدتها السياسية واسهم بالتالى فى اضعاف النشاط التجارى للملاحين العمانيين فى زنجبار نتيجة لاضعاف الحركة الملاحية بين الشطرين حيث

منع السلطان ماجد سفن مسقط من الملاحة فى مياه زنجبار الا اذا اثبتت انها تتجر فى سلع شرقية مستنداً على اتفاقه مع بريطانيا فى مكافحة تجارة الرقيق .

كما منع مشايخ الخليج العربى من ارسال سفنهم الى زنجبار وحرم على سكان زنجبار تأجير المساكن للتجار العرب الآتين من شبه الجزيرة العربية ، واوقف الهدايا التقليدية التى كان يقدمها السلاطين لقبائل عمان(٢٩) .

ولم يكتف السلطان ماجد باتخاذ هذه الاجراءات فقط وانما اصبحت اهداف سياسته تنحصر فى محاولة التخلص من دفع الاعانة السنوية الى مسقط وبذلك يستطيع ان يلغى اخر مظهر يشير الى الصلة بين زنجبار ومسقط وكانت اول فرصة اتاحت له محاولة تنفيذ سياسته هذه هى مقتل اخيه السيد ثوينى عام ١٨٦٦ بيد ابنه السيد سالم الذى اعلن نفسه سلطانا على مسقط(٣٠) .

فكان من الطبيعى ان يعلن السلطان ماجد عن رغبته فى معاقبة قاتل اخيه السيد سالم الذى وصفه بالقرصان المغتصب(٣١) — الا ان السياسة البريطانية الثابتة فى تقسيم السلطنة وعدم افساح المجال لاية محاولة لاعادة توحيدها مهما كان السبب منعت السلطان ماجد من معاقبة السيد سالم(٣٢) الذى حصل على اعتراف بريطانيا به حاكما شرعيا على مسقط وتثبيته سلطانا عليها — فى مقابل ان يكون ركيزة للسياسة البريطانية فى المنطقة ومنفذا لما يملى عليه من شروط بريطانية .

وعلى اية حال فقد تشبثت بريطانيا بتحكيم كاننج والذى فرض على السلطان ماجد دفع الاعانة السنوية ووافق عليها وهذه الموافقة

من وجهة نظر بريطانيا ـ جاءت بدون قيد او شرط ولم تكن مجرد اتفاق شخصي ينتهى بوفاة احد الطرفين.

وتعهدت بريطانيا بأن تتولى هى اخذ المعونة من سلطان زنجبار وتقديمها لسلطان مسقط حتى يمكن تجنب العلاقة المباشرة بين الطرفين ـ وبدأ السلطان ماجد في الوفاء بالتزاماته منذ عام ١٨٦٨ ـ خاصة وان سلطان مسقط اعلن بانه عاجز عن دفع قيمة ايجار ميناء بندر عباس لدولة فارس مما حدا بالاخيرة الى محاولة استعادة الميناء ثم محاولة القيام بنشاط بحري واسع النطاق في الخليج العربي(٣٣).

وهذا يعني انه كان على بريطانيا ان تضع استراتيجية اخرى من اجل تنفيذ ادوارها في المنطقة والتى هدفت الى جعل الخليج العربي كله بمثابة بحيرة بريطانية بدون منافس.

ولم تكتف بريطانيا بذلك بل انها استغلت معاهدات منع تجارة الرقيق

لكي تقضي على الاتصالات البحرية بين مسقط وزنجبار - مستخدمة في ذلك حق تفتيش السفن العربية ومصادرتها وفقا لما تقرر لها في تلك المعاهدات وكان هذا آخر حل وصلت اليه السياسة البريطانية للقضاء على الامل الذي قد يراود بعض حكام المنطقة في احياء السلطنة العربية الافريقية.

***

في ضوء ما تقدم نستطيع ان نقول ان الذي يبحث في احداث هذه الفترة التاريخية للسلطنة العربية الافريقية لابد وان يتأكد من ان حكام أسرة بوسعيد - والذي امتاز تاريخ حكمهم الطويل بالخضوع للسيطرة البريطانية - لم يكونوا يعرفون اسباب التخبط الذي كانوا غارقين فيه، والذي كان من الاسباب الرئيسية لانهيار امبراطوريتهم - وكان من الممكن بالاستخدام الذكى ان يحافظوا على دولتهم بشطريها العربي والافريقي الا ان ممارسة الوجود البريطاني في المنطقة انطلاقا من مبدأ توازن القوى بين الدول الاوربية الكبرى - الطامعة في المنطقة - كان سببا رئيسيا في انهيار وتفتيت السلطنة والتغلغل فيها وبذر الانشقاق وهدمها في النهاية.

وبذلك نجحت السياسة البريطانية في تحقيق الابعاد الثلاثة في هذه المنطقة وهي: البعد الامبريالي والبعد الهندي والبعد السياسي وكان لكل منها نصيب في تكييف السيطرة البريطانية وغنى عن البيان ان فوز الاستعمار البريطاني بامتلاك السلطنة وتفتيتها ساعده على التسلط على المناطق الاخرى تدريجيا.

وبصرف النظر عن الافتراضات والتخمينات فانه من الواضح ان السيد سعيد بن سلطان - رغم كل شيء نظرا لتورطه مع الانجليز - الا انه كان ولا يزال يعد اهم واقوى حكام اسرة بوسعيد.

وهكذا اختتمت هذه الحقبة من تاريخ السلطنة العربية الافريقية التى اقترنت بها العلاقات العربية الافريقية بالنمو والازدهار للجانبين بينما اتسمت العلاقات العربية والافريقية بالدول الاستعمارية بالنزف المادي والقهر البشرى. كما هو معروف تاريخيا.

# الهوامش


( ١ ) Reute, R.Said. Said bin Sultar. Landen 1929,P.47

( ٢ ) روبرت جيران لاندن عمان منذ ١٨٥٦، ترجمة محمد أمين عبدالله لبنان، ١٩٧٠، ص ١٩٤.

( ٣ ) د جمال زكريا قاسم دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا منذ تاسيسها حتى انقسامها (١٧٤١ - ١٨٦١)، مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة، ١٩٦٧ هي ٢٥٤

( ٤ ) جون جوزيف الاسلام في ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء، ترجمة، مختار السريفي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٨٤ ص ١٤٠

( ٥ ) James B. Missionary Researches and Travels to Tanganika, Dublin 1970, p. 47.

( ٦ ) د. جاد محمد طه. دور بريطانيا والمانيا في تفكيك سلطنة زنجبار العلاقات العربية الافريقية، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٠٦.

( ٧ ) Coupl and R.: East Africa and its Invaders, Oxford Press.. London, 1938,P.6

( ٨ ) «عرف عن السيد سعيد انه كان اكثر ميلا الى التجارة منه الى المناورات السياسية».

- روبرت جيران لاندن، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦

( ٩ ) Pears B:Zanzibar, The Island Metropolis Eastern Africa, London. 1920,P 116.

(١٠) «على الرغم من الخطر الذي كان يهدده في عمان فانه لم يعد اليها الا في عام ١٨٥١ بعد ان نصحه الانجليز الذي بدا الخوف يساورهم من تغلب العناصر المتطرفة الممثلة في الفئات الاباضية المحافظة اضافة الى المناطق الداخلية من عمان حيث كانت تضطرم بالقلاقل »

- روبرت جيران، مرجع سابق ص، ٦٤.

لكي تقضي على الاتصالات البحرية بين مسقط وزنجبار - مستخدمة في ذلك حق تفتيش السفن العربية ومصادرتها وفقا لما تقرر لها في تلك المعاهدات وكان هذا آخر حل وصلت اليه السياسة البريطانية للقضاء على الامل الذي قد يراود بعض حكام المنطقة في احياء السلطنة العربية الافريقية.

***

في ضوء ما تقدم نستطيع ان نقول ان الذي يبحث في احداث هذه الفترة التاريخية للسلطنة العربية الافريقية لابد وان يتأكد من ان حكام أسرة بوسعيد - والذي امتاز تاريخ حكمهم الطويل بالخضوع للسيطرة البريطانية - لم يكونوا يعرفون اسباب التخبط الذي كانوا غارقين فيه، والذي كان من الاسباب الرئيسية لانهيار امبراطوريتهم - وكان من الممكن بالاستخدام الذكى ان يحافظوا على دولتهم بشطريها العربي والافريقي الا ان ممارسة الوجود البريطاني في المنطقة انطلاقا من مبدأ توازن القوى بين الدول الاوربية الكبرى - الطامعة في المنطقة - كان سببا رئيسيا في انهيار وتفتيت السلطنة والتغلغل فيها وبذر الانشقاق وهدمها في النهاية.

وبذلك نجحت السياسة البريطانية في تحقيق الابعاد الثلاثة في هذه المنطقة وهى: البعد الامبريالي والبعد الهندي والبعد السياسي وكان لكل منها نصيب في تكييف السيطرة البريطانية وغني عن البيان ان فوز الاستعمار البريطاني بامتلاك السلطنة وتفتيتها ساعده على التسلط على المناطق الاخرى تدريجيا.

وبصرف النظر عن الافتراضات والتخمينات فانه من الواضح ان السيد سعيد بن سلطان - رغم كل شيء نظرا لتورطه مع الانجليز - الا انه كان ولا يزال يعد اهم واقوى حكام اسرة بوسعيد

وهكذا اختتمت هذه الحقبة من تاريخ السلطنة العربية الافريقية التى اقترنت بها العلاقات العربية الافريقية بالنمو والازدهار للجانبين بينما اتسمت العلاقات العربية والافريقية بالدول الاستعمارية بالنزف المادي والقهر البشرى. كما هو معروف تاريخيا.

(١) Reute, R.Said. Said bin Sultar. Landen 1929,P.47

(٢) روبرت جيران لاندن. عمان منذ ١٨٥٦، ترجمة محمد امين عبدالله لبنان، ١٩٧٠، ص ١٩٤

(٣) د. جمال زكريا قاسم. دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا منذ تاسيسها حتى انقسامها (١٧٤١ - ١٨٦١)، مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة، ١٩٦٧ هي ٢٥٤.

(٤) جون جوزيف. الاسلام في ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء، ترجمة، مختار السريفي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٨٤ ص ١٤٠

(٥) James B. Missionary Researches and Travels to Tanganika, Dublin 1970, p. 47.

(٦) د. جاد محمد طه. دور بريطانيا والمانيا في تفكيك سلطنة زنجبار العلاقات العربية الافريقية، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٠٦

(٧) Coupl and R.: East Africa and its Invaders, Oxford Press.. London, 1938,P.6

(٨) «عرف عن السيد سعيد انه كان اكثر ميلا الى التجارة منه الى المناورات السياسية»

- روبرت جيران لاندن، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦

(٩) Pears B:Zanzibar, The Island Metropolis Eastern Africa, London. 1920,P 116.

(١٠) «على الرغم من الخطر الذي كان يهدده في عمان فانه لم يعد اليها الا في عام ١٨٥١ بعد ان نصحه الانجليز الذي بدا الخوف يساورهم من تغلب العناصر المتطرفة الممثلة في الفئات الاباضية المحافظة اضافة الى المناطق الداخلية من عمان حيث كانت تضطرم بالقلاقل » .

- روبرت جيران، مرجع سابق ص، ٦٤.

(١١) ان النفوذ البريطاني بدا بالتغلغل الفعلي في زنجبار منذ ان عقدت بريطانيا مع السيد سعيد معاهدة عام ١٨٣٩ استنادا لمعاهدة (Moresby Treaty) كان من اهم نصوصها ان يعمل السيد سعيد على اتخاذ اجراءات اكثر حرصا ضد تجارة الرقيق ( الرابحة آنذاك) كما اعطيت للسفن البريطانية حق تفتيش المراكب في الموانيء التابعة للسيد سعيد للتاكد من خلوها من الرقيق.

(*) ورد ذلك في كتاب روبرت جيران لاندن مرجع سبق ذكره ص ٦٢
A.J.Arberry and Rom Landau: Islam Today London, 1942. P. 124

(١٢) د. السيد رجب حراز بريطانيا وشرق افريقيا من الاستعمار الى الاستقلال، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧١، ص ١٤٠.

(١٣) Lyne.R.N: Zanzibar In Con temporary Times, London, P. 49

(١٤) Ibid., P.50.

(١٥) د. جمال زكريا قاسم مرجع سبق ذكره ص ١١٩.

(١٦) «حيث بادر السيد ثويني بارسال ابن عمهما محمد بن سالم مبعوثا الى اخيه السيد ماجد للتباحث حول المشاكل السياسية بينهما، وكانت نتيجة هذه المباحثات تعهد السيد ماجد بدفع ٤٠,٠٠٠ ريال نمساوي الى أخيه السيد ثويني على ان يتخلى الاخير عن مطالبته باقليم زنجبار»
- روبرت جيران لاندن مرجع سبق ذكره ص ٦٦

(١٧) Coupland R: OP.Cit.,P. 151.

(١٨) حيث سارعت السلطات البريطانية في الهند بارسال الكولونيل رسل (Rnssel) لمنع الحملة مما اضطر السيد ثويني الى التراجع الى مسقط بعد ان اغلق الاسطول البريطاني الطريق في وجهه
- د صلاح العقاد ود جمال زكريا قاسم زنجبار، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٢١

(١٩) كانت تعتبر جزيرة زنجبار من المراكز المهمة والرئيسية لتجارة الرقيق قبل تحريمها.
Jasper H. Stembridge: The World Aceneral Regional Geography, Oxford Univ Press, London, 1939, p. 361

(٢٠) محمد سعيد: تاريخ الاستعمار الانجليزي في بلاد العرب، الجزء الأول، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٦. ص ٣٨٩.

(٢١) «ليس الهدف من ارسال بعثة كوجلان تحقيق الهدوء بين البلدين فقط وانما لمنع تدخل الفرنسيين في تلك المناطق الهامة على الطريق البحري الى الهند».
- روبرت جيران لاندن: مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧.
(٢٢) المرجع السابق، ص ٦٦.
(٢٣) المرجع السابق.
(٢٤) د. جاد محمد طه: مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥
(٢٥) ج ج. لوريمر دليل الخليج - القسم التاريخي - ترجمة، مكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، الجزء الثاني، ص ٧٣١
(٢٦) د. جمال زكريا قاسم: مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٨
(٢٧) روبرت جيران لاندن مرجع سبق ذكره، ص ٦٨.
(٢٨) «كان يتألف اسطول السيد سعيد من ١٥سفينة حربية من الطراز الاوربي و٧٤ سفينة مقاتلة وخمس فرقاطات وعدد كبير من السفن الغربية الطراز»
- روبرت جيران لاندن: المرجع السابق، ص ٦٦.
(٢٩) د. صلاح العقاد ود. جمال زكريا قاسم مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠
(٣٠) ج ج. لوريمر مرجع سبق ذكره، ص ٧٤٥.
(٣١) المرجع السابق.
(٣٢) «انطلاقا من وجهة نظر بريطانيا في مقتل السيد ثويني بيد ابنه السيد سالم والتى تنحصر في انه (اي سالم) ليس اول حاكم شرقي اعتلى السلطة وسط الدماء والسيد سعيد نفسه طعن ابن عمه السيد بدر واحتل مكانة في السلطة».
- رودولف سعيد روث سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان (١٧٩١ - ١٨٥٦)، ترجمة عبدالجميد حسيب القيسي، مركز دراسات الخليج العربية، جامعة البصرة، ١٩٨٣، ص ١٧٧.
(٣٣) Lyne, R.N: OP. Cit., P.45

# د. بندركار و ٣٠ عامًا في البحرين

# مستوصف المحرق

# طبيب من البهرة

**الدكتور بندر كار . اسم يعرفه الكثيرون في البحرين باعتباره احد الذين شاركوا في الرعاية الصحية منذ العشرينات من هذا القرن . وقد قضى الطبيب الهندي في البحرين ٣٠ عاما شاهد خلالها الكثير من التطورات التي دارت على هذه الارض الطيبة وسجل الكثير من الملاحظات التي احتفظت بها ذاكرته . وفيما يلي من صفحات نقدم بعض ملامح هذه الذكريات تسجيلا للتاريخ من شاهد عيان .**

اتصل بي احد اصدقائي في شهر ابريل عام ١٩٢٥ يخبرني انه قرا اعلانا في جريدة (بومبي) يطلب طبيبا للعمل في البحرين ويقول انه تقدم لشغل هذه الوظيفة الا انه حصل على وظيفة أخرى بالهند ويسالني اذا كنت راغبا في ان أحل محله ووافقت ثم سافرت على الفور الى بومبي ومن هناك أرسلت برقية للطبيب الجراح الذي كان يعمل في المعتمدية البريطانية بالبحرين تفيد اعتذار صديقي ورغبتي في ان احل محله وتلقيت برقية بالموافقة وبدأت الاستعداد للرحيل ومن بومبي سافرت على ظهر سفينة بريطانية هندية وبعد ١٥ يوما وصلت الى البحرين في النصف الثاني من شهر مايو عام ١٩٢٥ وفي البحرين كان في انتظارنا مجموعة من السفن للترحيب بنا وكانت من طراز (الداو)

د. بندكار

# كان دكاناً صغيراً يشرف عليه

# ويعالج بالطبّ الشعبي اليوناني

عيادة المحرق الثانية

محاضرة للدكتور بندر كار
قدمت سنة ١٩٥٥

عيادة المحرق الاولى

كما كان معها سفينة يركبها الطبيب الجراح بدار المعتمدية والذي كان يعتبر رئيسي المباشر وقد ركبت معه في سفينته التي نقلتنا الى الشاطيء . وبعد ايام باشرت عملي فوق مركب خصص لي وهو من طراز (البوم) وحمولته بين ٥٠ و ٩٠ طنا وهو مصقول ولامع وقد طلي باللون الابيض حتى يسهل على سفن الغوص التعرف عليه من بعيد

وكانت مهمتي الرئيسية هي ان اكون بمثابة طبيب لهذا المستشفى العائم الذي يتجول بين مغاصات اللؤلؤ طوال موسم الغوص لتزويد الغواصين بحاجتهم من الدواء والعلاج السريع

وكانت معظم الامراض الشائعة في المغاصات هي السعال والزكام والنزلات المعوية التي كانت تصيبهم نتيجة تسخين الطعام المكون من السمك والتمر اكثر من اللازم كما كان الغواصون يشكون من آلام الاذن والنزيف الذي كان يصيبها نتيجة ضغط الماء في الاعماق . كما قمت بخلع مئات الاسنان التالفة وقد وجدت الجميع متعاونين معي الى اقصى درجة وكانوا يشعرون بالعرفان لهذه الرعاية الطبية التي تم توفيرها بناء على مبادرة من صاحب السمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة .

وكان علي ان اقوم بجولة على المغاصات فوق السفينة المستشفى وهي جولة تستغرق بين ثلاثة او اربعة اسابيع في كل مرة قبل ان اعود الى الميناء للتزود بالمؤن والادوية والضمادات والوقود والماء العذب ثم ابدأ على الفور جولة ثانية في المغاصات وهكذا طوال موسم الغوص وكنت احتفظ معي بسجل حول حالة الطقس وقائمة بأسماء المرضى الذين تلقوا العلاج ونوع الامراض وكنت أرسل هذا التقرير الى السلطات المختصة عقب كل موسم .

وفي عام ١٩٢٥ لم تكن هناك مكاتب ادارية حكومية فيما عدا مكتب للجمارك في مبنى قديم تم ترميمه ومبنى اداري صغير فيه كاتبان احدهما عربي وقد توفي والثاني هندي من ولاية البنجاب وقد تقاعد اخيرا اما ادارة المستشار فقد تم تاسيسها عام ١٩٢٦

* * *

في الفترة بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣٨ قمت بزيارات منتظمة على ظهر سفينة المستشفى لكل مغاصات اللؤلؤ وكان يصحبني في هذه الجولات مفتش من حكومة البحرين للتفتيش على تراخيص صيد اللؤلؤ وكاتب له ومساعد لي .

وكانت السفينة تغادر المنامة في بداية الموسم وكنت أقوم خلال الموسم بأربع أو خمس جولات على المغاصات وكانت سفينة المستشفى سفينة عادية حتى عام ١٩٣٢ ولكن بعد ذلك خصص لنا أحد اللنشات وكان مزودا بمحرك مما ساعد على القيام بجولات قصيرة وسريعة للمغاصات كانت تستغرق كل جولة بين ثلاثة او اربعة أيام كما أن عملية تزويد المستشفى بالمؤن والأدوية أصبحت أكثر يسرا وسهولة كما استطعت بذلك أن انقل المصابين بحالات خطيرة كالحمى أو الالتهاب الرئوي الى المستشفى داخل البحرين .

كنت أزور كل المغاصات حول البحرين شمالا وشرقا وكنا نرتاح لبعض الوقت في جزر حوار أو فشت الديبل أو جراده كما كنا نتزود أحيانا بالماء العذب من خور فشت .

وفي السنوات الأولى التي كنت أزور فيها المغاصات بصورة منتظمة كانت هناك حوالي ٧٠٠ سفينة بحرينية تعمل في شمال البحرين وكنت أحيانا اصادف بعض السفن السعودية أو الكويتية أو القطرية ولكنها لم تكن تزيد على ٥٠ سفينة في

المنطقة كلها وكنا نصادف احيانا سفينة كويتية كانت تزور البحرين للتجارة وتمارس الغوص على اللؤلؤ اثناء رحلتها بينما اقتصر نشاط السفن السعودية على صيد السمك بالقرب من البر الرئيسي اما بعض السفن السعودية الكبيرة فكانت تبحر بعيدا عن الشاطىء وتتجه للشرق وقد لاحظت في السنوات الاخيرة لخدمتي على السفينة المستشفى انخفاضا في عدد سفن صيد اللؤلؤ لكن اكثرها كانت لاتزال بحرينية وظلت نسبتها كما كانت في السنوات الاولى .

وفي جولاتي كنت أزور كل سفن البحرين وأعالج كل العاملين عليها بغض النظر عن جنسية المرضى وعلى الرغم من أنني لم أزر سفنا غير بحرينية بصورة منتظمة الا انني كنت اقدم المساعدة الطبية لكل من يطلبها من هذه السفن دون تفرقة .

وكان لا بد ان يكون لدى كل سفينة من سفن الغوص ترخيص بالعمل وكان المفتش الحكومي الذي يرافقني يقوم بفحص هذه التراخيص وكان كاتبه يسجل اسماء قادة السفن وعدد الغواصين في كل سفينة .

* * *

اثناء عملي كنت أسمع حكايات من الغواصين معظمها يدور حول تعرضهم للهجمات من البدو المسلحين الذين كانوا يهاجمونهم من البر الرئيسي في زوارق صغيرة وكانت هذه الهجمات تقع بالليل في الظلام الدامس وعندما يكون الغواصون غارقين في النوم العميق بعد يوم من العمل الشاق وكانت هذه الهجمات تستهدف التجار الذين لديهم كميات كبيرة من اللآلىء والأموال كما كان المهاجمون يستولون على الأرز والمؤن الاخرى ولكن سفينتي والسفن المجاورة لها اثناء جولاتنا لم تتعرض على الاطلاق لأي من هذه الهجمات ذلك لأن اللون الابيض لسفينة المستشفى كان يدل على انها سفينة حكومية مما كان يحميها ويحمي السفن المجاورة لها من هذه الهجمات .

وقد أخبرني بعض صيادي اللؤلؤ بأن (النواخذة) كانوا رجالا مستبدين وانهم كانوا يعاملونهم بغاية القسوة كما كانوا يجوعون الغواصين الذين لا يمتثلون لاوامرهم لكنني شخصيا لم أصادف مثل هذه الحالات ذلك لأن حكومة البحرين كانت متيقظة وكانت تستمع لأي شكوى يتقدم بها الغواصون كما كان من حق اي غواص ان يطلب تعويضا عن اى ظلم تعرض له اثناء موسم الغوص . واذا مات احد على ظهر احدى السفن فإن جثته كانت تنقل الى البحرين ويتم ابلاغ الحكومة بالوفاة كما كان يجرى فحص الجثة قبل التصريح بدفنها ولم تلق جثث في البحر قط .

أما سفن الغوص فكانت ثلاثة انواع .

سفينة كبيرة تحمل بين ٦٠ شخصا بينهم حوالي ٣٠ أو ٣٥ غواصا والباقون من السيوب وغيرهم من العمال بالاضافة الى النوخذة وقائد السفينة اما السفينة المتوسطة فكانت تحمل بين ٤٠ و٥٠ شخصا والصغيرة بين ١٠ و١٥ شخصا . ولما كان عدد السفن يتراوح بين ٦٠٠ و٧٠٠ سفينة فإن عدد الاشخاص الذين يشتركون في موسم الغوص كان يتراوح بين ٢٠ و٢٥ الف شخص . وكان بينهم عدد كبير من الوافدين من الساحل الايراني والجزيرة العربية يجلبهم أصحاب السفن البحرينيون للعمل بشروط مغرية . وقد سمي معظم المغاصات باسماء عائلات بحرينية عربية شهيرة وهي العائلات التي اكتشفت هذه المغاصات

سواء داخل المياه الاقليمية او خارجها .

وقد تأثرت تجارة اللؤلؤ ايضـا بسبـب الكسـاد الاقتصادي الذي اصاب العالم كله في عام ١٩٢٩ وسجلت تجـارة اللؤلـؤ تدهورا مستمرا فيما بعد مع انها كانت مصدرا رئيسيا للاستقرار الاقتصادي . اما السفن التي مازالت تمارس صيد اللؤلؤ حتى اليوم (نوفمبر ١٩٥٥) فهي لا تزيد على ست. سفن في موسم للصيد يستمر لاربعة اشهر وعشرة أيام

* * *

كان الغواصون يبداون عملهم مع مطلع الشمس وذلك بعد افطـار خفيف يتكـون من عدة تمـرات وفنجان او فنجانين من القهوة . وكان العمل يستمر حتى غروب الشمس حين يتناول الجميع عشاء ثقيلا يتكون من الأرز المقلي في عصير التمر وكمية كبيرة من السمـك المشوى والتمـور وكانوا يستخدمون كميات كبيرة من الدهن في اعداد الأرز الحلو .

وكـان الغواص يضـع ضاغطا على انفه كما كان يغطي رؤوس اصابعه بقفاز مصنوع من جلد البقر ولم يكن يرتدي الا مئزرا او سروالا قصـيرا . وكـان يغـوص مستخدمـا ثقـلا مربوطا بحبل رفيع ويحمل معه سلة خفيفة مصنوعة من الحبال ومربوطة بحبل اما الثقل فكان يسحب الى سطح الماء بعد ان يصل الغـواص للقـاع ويبقي الغـواص في القاع حيث يجمع في سرعة الاصداف ويضعها في السلة فإذا نفد نفسه هز الحبل في اشارة الى السيب وهو الرجل المكلف بسحب الغواص فيقوم على الفـور وبسرعة شديـدة بسحبه الى سطح الماء وعادة يقضي الغـواص في قـاع المغـاصـة حـوالي دقيقـة ونصف دقيقة في كل مرة ويقضي فترة الراحة بعد كل ١٠ غيصات وتعمل فرقة ثـانيـة من الغـواصـين بالتناوب وفي فترة الراحة يكون الغواص في اشد الحاجة الى الانعاش بالقهوة والتمر ومن المناظر الرائعة التي لا تنسى منظر المغاصات حيث تجتمع السفن فيما يشبه السوق الكبيرة الكثيرة الحركة والضوضاء وحيث يرتفع صوت المؤذنين معلنة عن مـواعيـد الصـلاة والغواصون يعملون اثناء الظروف المواتيـة للطقس ولكن عندما كـانت تظهر بوادر عاصفة في الأفق فإن المراكب الشراعية كـانت تسرع بالابحار الى مكان امن مثل فشت الجارم حيث تبقي هناك الى ان تنجلي العاصفة ويتحسن الطقس من جديد .

* * *

في بداية موسم الغوص وأواخـره كـان الغـواص يصاب غالبا باحتقـان في الرئتين ربما بسبب برودة الماء في القاع وكان معظم المصابين يبصقون دما ليوم او يومين دون ارتفاع في درجة الحرارة ولكني لم اصادف حالات التهاب رئوي او التهاب شعبي رئوي الا نادرا .

اما المصابون بأمراض الأذن فكانت نسبتهم تتراوح بـين ٨٠٪ و٩٠٪ وكانت الاصابات حادة أو مزمنة وكانت مصحوبة في بعض الاحيـان بنزيف والسبب يرجع الى تأثير ضغط الماء على الغشاء الطبلي للأذن . وكـانت الصحة العـامـة للغواصين رديئة جدا وذلك بسبب تناولهم وجبة واحدة في اليوم وبسبب عدم توازن الطعام وافتقاره لكثير من العناصر مع عملهم الشاق . لقد كانت السفن تبقى في البحر لمدة طويلة وكـان الغواصون يعانون كثيرا أما الآخـرون كـالمجـدفـين والسيوب فكانوا يتمتعون بصحة جيدة .

* * *

كـان تجـار اللـؤلـؤ

يتحركون في مراكبهم الخاصة لشراء اللؤلؤ من سفن الغوص وفي بعض الاحيان كان عدد كبير من التجار يأتون الى المغاصات حيث يعقدون صفقات رائجة جدا وقد قام بعض اصحاب رأس المال من فرنسا وبريطانيا بزيارة البحرين وكان تواجدهم في السوق يؤدي الى رفع الاسعار بالنسبة للؤلؤ وكان الهنود ذوو الخبرة يحضرون لشراء اللؤلؤ بملايين الروبيات لتغطية احتياجات شبه القارة الهندية من هذه الجواهر . وكانت اللآلىء الممتازة تجد سوقا رائجة في كل من لندن وباريس حيث كان يقبل عليها اصحاب الملايين من السياح الامريكيين لذلك ازدهرت سوق اللؤلؤ في هاتين المدينتين . ولكن بسبب الكساد العالمي فقد بدأت تجارة اللؤلؤ في التدهور ابتداء من الثلاثينات يضاف الى اسباب التدهور عدم اهتمام الجيل الجديد بالغوص بسبب ما يتطلبه من جهد ومشقة وما يتطلبه ايضا من الابتعاد عن المدينة والبقاء في البحر لمدة طويلة . وفضل كثير من الشباب وخاصة المتعلمين الالتحاق بوظائف في شركات النفط بكل من البحرين والسعودية نظرا لما توفره الوظيفة من دخل ثابت ومستقر وقد أدى ذلك الى ظهور نقص شديد في الايدي العاملة في الغوص على اللؤلؤ وتدني الحصاد السنوي حتى لم يعد يجاوز حاليا (سنة ١٩٥٥) الـخمسة ملايين روبيه سنويا مقابل ٥٠ أو ٦٠ مليونا في العشرينات والثلاثينات .

* * *

كما ذكرت من قبل فقد بدأت عملي في البحرين من اجل تقديم الخدمة الطبية للعاملين في مغاصات اللؤلؤ . وعقب انتهاء موسم الغوص في سبتمبر عام ١٩٢٥ توليت العمل في مستوصف المحرق الذي انشاه سمو شيخ البحرين والمحرق هي ثاني أكبر جزر البحرين وكان يسكنها في ذلك الوقت معظم افراد العائلة الحاكمة كما أقام عدد من كبار التجار مستودعاتهم ومحلاتهم بها وأصبحت المحرق هي المقر الاداري للدولة تقريبا وكان الدبلوماسيون الاجانب والاعيان والوجهاء يترددون عليها باستمرار للسلام على سمو الشيخ عيسى بن علي حاكم البلاد وكان المستوصف يقع في دكان صغير طوله ٢٠ قدما وعرضه عشرة اقدام وله باب كبير في المقدمة ونافذة صغيرة في جانب واحد وتنقصه التهوية والاضاءة وكان يديره قبل حضوري للبحرين طبيب من طائفة البهرة ويمارس العلاج فيه على اساس الطب اليوناني الشعبي القديم وتصادف بمجرد استلامي العمل في المستوصف أن وقع حادث سيارة مما أدى لوفاة أحد الاشخاص واصابة عدد آخر بجراح ولم تكن بالمستوصف أي ضمادات أو ابر لخياطة الجروح أو خيط كما ان المستوصف نفسه كان من الصعب الوصول اليه بالسيارات نظرا لسوء الطرق المؤدية اليه وقد بذلت اقصى جهدي لاسعاف الجرحى بكل ما أمكنني تدبيره من مواد وعند وصولي الى بيتي الذي أعد بسرعة في العاشرة مساء كانت هناك كارثة في الطريق ، ففي هذه الساعة المتأخرة تعرضت البحرين والمنطقة المحيطة بها لعاصفة مرعبة فاجأت مئات السفن التي كانت راسية في المغاصات والتي كان الآف العاملين عليها يرقدون في سبات عميق بعد يوم عمل شاق دون ان يشعروا ببوادر الكارثة في هذه الليلة المشئومة . وفي الصباح التالي اسرع الآلاف

# بعد الكارثة أسرعت للمغاصات حيث مات

# حوالي ٥٠٠٠ شخص ولم ينج سوى واحد

من الرجال والنساء والاطفال الى الشاطىء وقد ارتفع صراخهم وبكاؤهم وهم يحدقون في البحر في ذهول دون ان يعرفوا شيئا عن مصير اقربائهم وقد تلقيت تعليمات بالتوجه الى البحر في لنش المعتمدية لتقديم المساعدة الطبية وانقاذ من بقي على قيد الحياة وقد وجدنا مئات السفن مقلوبة وطافية فوق سطح الماء ولكننا لم نجد اثرا للضحايا فيما عدا شخصين تعلقا بحطام احدى السفن وقد توفي احدهما من التعب قبل ان نصل للميناء وقد بلغ عدد الغرقى حسب التقديرات المعتدلة خمسة الاف شخص وقد ظل مكتب البرقيات مشغولا لمدة اسبوع دون توقف في ارسال واستلام الرسائل من والى اقارب الاجانب العاملين في البحرين للاطمئنان عليهم . وقد تم نقل المستوصف مرتين ولكن ظلت مشكلة التهوية والاضاءة ولم نحصل على اكثر من منضدتين للمرضى حتى عام ١٩٣٨ عندما وصل في ذلك العام اول طبيب رسمي لدولة البحرين كما تم انشاء اول دائرة صحية وفكر هذا الطبيب في نقل المستوصف الى مكان جديد اوسع وافضل تهوية واضاءة ويتوفر له الماء النقي

* * *

كانت الملاريا من الامراض المهلكة التي فتكت بعدد كبير من الضحايا بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٥ وكان عدد المصابين يزداد كثيرا في الفترة بين مايو ويوليو وبين نوفمبر ويناير . وقد كنا نستخدم كميات كبيرة من الكينين كل عام للتصدى لهذا المرض المستوطن مما ادى الى ارتفاع اسعار الكينين في السوق لتصل الى ٤٠ روبية للرطل . وفي بعض الأوقات كان هذا الدواء يختفي من السوق تماما . وقد قامت حكومة البحرين بحملة كبيرة للتصدي لهذا المرض فحشدت عددا من الاخصائيين ومساعديهم من الهند وشكلت لجنة لمكافحة الملاريا تضم الموظفين الحكوميين وموظفي البلدية والرجال البارزين وبذل المعتمد السياسي جهودا خاصة لوضع خطط استئصال هذا المرض والآن لا نجد مصابا واحدا به سوى بعض الوافدين من المناطق المجاورة مثل ايران ودبي والجزيرة العربية ومنذ تشكلت الدائرة الصحية بالبحرين يجرى كل عام حملة تطعيم لمواجهة الجدري وهو المرض الذي كان مستوطنا في الماضي . وترسل دائرة الصحة الآن (١٩٥٥) فرق التطعيم الى كل قرية ومدرسة مع فحص كل

سمو الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة يحضر حفلة استقبال في منزل الدكتور سدركار في بومباي في نوفمبر

المسافرين والقادمين والتأكد من حمل كل القادمين لشهادة تفيد التطعيم ضد الجدري كما هو متبع في البلدان المتقدمة وتبذل دائرة الصحة جهدا كبيرا في تعزيز المعدلات الصحية خاصة بين أطفال المدارس ميزور طبيب رسمي المدارس والمعاهد العامة بصفة منتظمة لفحص التلاميذ ومتابعة مرض التراخوما المنتشر بينهم . وتوالي دائرة الصحة اتخاذ اجراءات الوقاية من الملاريا وهي تحشد مئات العمال لرش الاسواق والمستودعات والاحياء بمادة الـ د د ت للقضاء على البعوض والذباب وكذلك رش البالوعات والمجاري بالنفط للقضاء على اليرقات

ويراقب مفتشو دائرة الصحة العامة المؤهلون بدقة كل الاسواق والفنادق والمطاعم والمرافق العامة في البحرين الحديثة وهي خطوة جديرة بالتقدير وقد اصبحت دائرة الصحة العامة الآن (١٩٥٥) تحتل مبنى جديدا رائعا ويعمل بها عدد كبير من الكتاب والممرضين تحت اشراف طبيب انجليزي واثنين من المساعدين الهنود احدهما يهتم بالحجر الصحي والآخر بالعيادات المدرسية التي يزداد عددها يوما بعد يوم لمواكبة تزايد المدارس

* * *

وفي عام ١٩٢٥ لم يكن هناك الا مؤسستان طبيتان في المنامة وهي الجزيرة الرئيسية في مجموعة جزر البحرين :

● مستشفى فيكتوريا التذكاري تحت اشراف الطبيب الجراح للمعتمدية البريطانية وقد انشىء هذا المستشفى أصلا من اجل موظفي المعتمدية لكنه كان

يفتح ابوابه للجميع

● مستشفى الارسالية الامريكية وقد تاسس قبل بداية القرن الحالي وتتوافر فيه اماكن لاقامة المرضى كما تتوافر فيه التجهيزات اللازمة لاجراء العمليات الجراحية ويعمل به جراحون ذوو كفاءة ويتمتعون بشعبية كبيرة وقد غادروا هذه الشواطىء مصحوبين بكل الاعزاز والتقدير ويبرز من بينهم الدكتور باول هاريسون الذي امضى اكثر من نصف قرن بين عرب الجزيرة العربية ودول الخليج الاخرى الممتدة من مسقط الى الكويت وقد قام باجراء مجموعة من الجراحات النادرة كللت بالنجاح رغم الظروف الصعبة التي اجريت فيها . وقد تم توسيع هذا المستشفى واصبح يوجد به جناحان احدهما للرجال والآخر للنساء وهما مجهزان باحدث المعدات الطبية والجراحية ووحدة للاشعة السينية ومختبر ويقبل على المستشفى مئات المرضى يوميا .

● وقد انشىء المستشفى الحكومي بالبحرين في بداية عام ١٩٣٨ ثم شهد بعد ذلك تقدما رائعا بسبب التخطيط الدقيق والاهتمام الكبير من الحكومة ويضاف اليه كل عام مبنى جديد لتوفير اكبر قدر من الخدمة للمرضى وقد كان عدد الاسرة في البداية قليلا جدا الا ان هذا العدد اخذ يزداد عاما بعد عام لمواجهة الزيادة المستمرة في اعداد المترددين عليه بعد ان لمسوا ما يوفره لهم هذا المستشفى من علاج ورعاية وتغطى ابنية المستشفى مساحة تصل الى اربعة اكرات وتقع شمال غرب المنامة وهناك مجمعان يتكونان من طابقين للمرضى الداخليين من الرجال والنساء ويوجد كذلك مبنى جديد واسع يستخدم كجناح خاص لمن يريد ذلك وتوجد اجنحة خاصة في الاقسام الطبية والجراحية والبصرية للرجال والنساء في المستشفيات وسعة الاسرة في هذه المستشفيات غير كافية الآن (١٩٥٥) وحسب معلوماتي فإنه يجري حاليا تشييد مبان جديدة لمواجهة الطلب المتزايد من المرضى . وتعمل وحدة الاشعة السينية دون راحة يوميا كما يعمل المختبر الحديث بمساعدة الفنيين بكل طاقته . ورغم انه كان يوجد طبيب انجليزي واحد في كل قسم يساعده اثنان من الهنود الا انه يوجد الآن طبيبان في كل قسم مع حوالي ١٢ فنيا ذوي مؤهلات عالية وخبرة واسعة كما توجد اليوم ممرضات انجليزيات وهنديات ذوات كفاءة ممتازة ويجرى تشجيع الشباب العرب من الجنسين للتدريب على التمريض والتضميد وقد بلغ مستوى الجراحة معدلا عاليا جدا بعد تعيين الطبيب الجراح المحنك المستر ولكنس اف آر سي اس

وقد انشىء مستشفيان للامراض المعدية التي تحتاج الى عزل المرضى وتعالج فيهما الامراض التناسلية والزحار والدرن . ويخرج المرضى منهما بعد تحصينهم وتعقيمهم ضد نشر العدوى ويجدر بنا ان نذكر هنا ان الامراض التناسلية لا تشكل الآن عقبة كبيرة بسبب توافر المضادات الحيوية والكبريتات ولكن مرض الدرن سجل ارتفاعا ملحوظا وقد افتتحت لذلك عيادة خاصة بالامراض الصدرية واصبح الناس اكثر وعيا مما ساعد على الاكتشاف المبكر للاصابة وعلاجها على وجه السرعة .

* * *

وكما اتذكر فلم تكن هناك شوارع جيدة لمرور السيارات في السنوات الاولى لقدومي للبحرين مع انه كانت بالبحرين بضع سيارات ولم يكن في استطاعة البلدية بناء واصلاح الطرق في السوق وقد ظهرت هذه المرافق العامة الى حيز الوجود عندما قرر كل من صاحب السمو الشيخ حمد بن عيسى والشيخ سلمان بن حمد تحديث البحرين خلال ٣٠ سنة . ونشاهد اليوم ثمار جهودهما في البحرين الحديثة والجميلة . ففي كل مكان نرى الشوارع المرصوفة والواسعة والاسواق والمباني الجميلة والدوائر الحكومية الحديثة ، كما نشاهد باب البحرين الجميل حيث يتسلم حاكم البحرين فيه طلبات رعاياه والتماساتهم كل يوم ، كما نشاهد المحاكم التي تجري امامها المرافعات والتي تصدر الاحكام القضائية مثل اي بلد متقدم . وتتوسع وزارة التربية والتعليم كل يوم حيث تشرف على عدد من المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية كما تم تشييد مبان حديثة جميلة لهذه المدارس وتبذل الوزارة جهدا لترويج البرامج التعليمية والدراسات المتقدمة ودراسة التكنولوجيا للبنين والبنات ولم تكن توجد في بداية العشرينات سوى مدرستين للبنين احداهما في المحرق والاخرى في المنامة ويبلغ عدد طلبتهما ٦٠٠ طالب أما الآن فنجد المدارس الابتدائية في كل قرية كبيرة كما نجد مدرستين ثانويتين للبنين والبنات في مبان مختلفة ، ويبلغ عدد الطلبة اكثر من ٨٠٠٠ يدرس لهم المدرسون الأكفاء ذوو المؤهلات العالية في كل من مصر وسوريا ولبنان ويتخرج في المدرسة الفنية النجارون والميكانيكيون كل سنة حيث يتم توظيفهم في شركة النفط (بابكو) والشركات الاخرى المهتمة بالبناء . ويحصل الطلبة الاذكياء على منح دراسية لمواصلة الدراسة العليا في العراق ومصر ولبنان ، كما يرسل بعض الاثرياء ابناءهم الى انجلترا للدراسة ذلك ان اولياء الامور حريصون على تعليم ابنائهم ويرأس دائرة التربية والتعليم عربي من اسرة بارزة في البحرين وهو رجل كفء في شئون التنظيم ذكي ومتفان في عمله لتوفير فرص التعليم لابناء بلاده وهو يستحق التقدير والثناء لما قام به في هذا المجال .

وتعمل دائرة الجمارك وسلطات الصحة العامة في ميناء البحرين بيقظة تامة ويؤدي رجالهما واجباتهم المختلفة بهمة وغالبية الموظفين من العرب الذين تدربوا في البحرين ولا يمكن ان نغفل اهمية القانون والأمن فرجال الشرطة والأمن العام مدربون على أعلى مستوى وهم ذوو كفاءة عالية ويعمل في هذا المجال ضباط عرب من الشباب جديرون بكل ثقة ويوجد البوليس في كل تقاطعات الطرق ينظمون المرور وكذلك في الاسواق للحفاظ على الأمن والسلام والأمر الذي يدعو للاطمئنان ان رئيس الشرطة هو شيخ من الاسرة الحاكمة

* * *

عندما وصلت لهذا البلد الكريم سبق لجد الحاكم الحالي وهو سمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ان بقي في الحكم لاكثر من نصف قرن وكان يناهز الثمانين من عمره آنذاك فتم تفويض سلطة الحكم الى ابنه الاكبر وخلفه سمو الشيخ حمد بن

عيسى آل خليفة الراحل ووالد الحاكم الحالي صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة

وقد كان لي شرف زيارة صاحب السمو الراحل الشيخ عيسى بن علي آل خليفة بصفتي طبيبا اكثر من مرة وقد عالجته مرة من بعض الجروح التي اصيب بها إثر سقوطه وآخر مرة اسرعت الى سموه عند اصابته بنوبة قلبية توفي بها نتيجة الشيخوخة

وكان سموه رجلا كريما للغاية واشتهر بالكرم بين رعاياه والاجانب على حد سواء . واعضاء الاسرة الحاكمة والحكام انفسهم يحبون الرياضة والقنص بالصقور فيزورون العربية السعودية لهذا الغرض قبل بداية موسم الشتاء مصطحبين معهم قافلة ضخمة من السيارات وسيارات الجيب التي تحمل المحروقات والاطعمة والصيادين وفي بداية هذا القرن كان العرب يقومون بالصيد على ظهور الجمال لكنهم الآن (١٩٥٥) يستخدمون السيارات الجيب في مطاردة الفرائس . ويبدأ القنص قبل طلوع الشمس وهم ينطلقون بسرعة لمسافة مئات الاميال وراء فريستهم التي قد تكون طائر الحباري ويرجعون للمخيم في المغرب بأكياس ممتلئة بعدد كبير منها ويحمل الصياد صقرا مدربا على ذراعه ويرفع الغطاء عن عينيه عندما يريده ان ينطلق فيحرك الصقر عينيه برهة وينظر في كل الاتجاهات وهو يلاحظ أي حركة في آي شجيرة مهما كانت بعيدة فينطلق نحوها للانقضاض على الفريسة وتشعر الحباري لدى انطلاقه بالخوف فتطير تجنبا لمطاردة الصقر ويبدأ القتال بينهما في الجو ثم سرعان ما يسقطان على الارض ويسرع الصيادون عندئذ لانقاذ الفريسة من مخالب الصقر ثم يعطونه قطعة من قلب او كلية فريسة اخرى تشجيعا له كي يكرر العملية وتوجد الصقور في شمال ايران حيث يتم الحصول عليها ويساوي الصقر بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ روبيه حسب سلالته ومستوى تدريبه ويتم تقييم الثمن بواسطة اخصائيين في ذلك . ويدوم القنص عادة لأربعين يوما ويبلغ الحصاد اكثر من الف طير من طيور الحباري وبعض الغزلان .

وقد اتيح لي في عام ١٩٤١ ان اشارك في القنص ، فقد كان سمو المغفور له الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة يحب القنص وقد شارك في قنص هذا العام وشارك معه ايضا المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود عاهل العربية السعودية وابناؤه وآلاف من رجال البادية كما شارك فيه ايضا حاكم الكويت المغفور له الشيخ احمد الجابر وقد اقيم مخيم القنص بالقرب من الكويت في مكان يسمى القيصومة وبدا المخيم كمدينة جميلة مزينة بالاعلام والرايات وكان الحكام الثلاثة يغادرون المخيم للقنص بصحبة ابنائهم واقاربهم بعد صلاة الفجر مباشرة وعقب افطار سريع يتكون من القهوة والتمر ، وكانوا خلال القنص يجتمعون في مكان واحد متفق عليه لتناول الغداء وصلاة الظهر ثم يباشرون بعد ذلك القنص حتى مغيب الشمس وقد اقام الملك عبدالعزيز لضيوفه مأدبة عشاء قدمت فيها الخراف المشوية والطيور واكوام من الارز والفواكه وكذلك اقام كل من حاكمي البحرين والكويت مأدبة مماثلة وكانت اعداد السيارات وسيارات الجيب

وسيارات النفط والسيارات الكبيرة لركوب الحكام تكون قافلة رائعة المنظر عند خط الأفق وهي تثير سحابة من الغبار والرمال تمتد لعدة أميال وكان حصاد القنص في هذه السنة ٣ آلاف من طيور الحبارى و١٠٠ رأس من الغزلان . وكانت سن المغفور له الشيخ حمد تزيد على ٧٥ عاما وكان يتبع نظاما صارما في الأكل فرضه الاطباء حفاظا على صحته وقد شاركت في القنص بصفتي طبيبا لصاحب السمو وقد عالجت اثناء الرحلة عددا من البدو واطلعت على بعض عاداتهم وقد توفي صاحب السمو بعد شهر من عودته من هذه الرحلة وكان رحمه الله كريما نحو رعاياه وقد قام بتنفيذ مجموعة من الاصلاحات فأقام مستشفى

حكوميا جديدا وعددا من المستوصفات ومجموعة من المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات ودائرة للاشغال العامة وعددا من الدوائر العامة التي تعمل كلها لتوفير الرفاه للمواطنين ، وقد قام سموه بزيارة انجلترا مرتين بدعوة من الحكومة البريطانية وقد حاول الى حد ما تحديث البحرين على غرار ما شاهده في انجلترا وقد تولى الحاكم الحالي صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة الحكم في عام ١٩٤١ وهو أيضا مولع بالقنص بالصقور ولكنه مشغول كثيرا بشئون الدولة وقد حظي سباق الخيل باهتمام ملحوظ في الفترة الاخيرة ويقام السباق مرتين في العام وينفق العائد منه من أجل المرضى المصابين بالدرن الذين يحتاجون للعلاج بالخارج وتقام المباريات الرياضية كل عام تحت اشراف سلطات التربية والتعليم ودائرة الشرطة وبحضور صاحب السمو وضيوفه الكرام ويحصل الفائزون على الجوائز والهدايا من صاحب السمو وتشهد البحرين انتعاشا في كل المجالات وخاصة في الاعمال التجارية

* * *

وفي الختام ليس لي الا ان أعبر عن امتناني وتقديري للبحرين وشعبها التي كانت بمثابة أمي التي عشت في حضنها لأكثر من ٣٠ عاما كما أشكر اسرة آل خليفة التي حظيت برعايتها طوال مدة اقامتي وما كان يمكن ان أواصل عملي طوال هذه الفترة لولا هذه الرعاية الكريمة .

نوفمبر ١٩٥٥

* * *

ومما يذكر أن الدكتور بندركار كان صديقا لكل أهل المحرق وكان يعرف كلا منهم باسمه ، وكانوا هم يطلقون عليه اسم عيسى اعتمادا على الحروف الأولى من اسمه (ايه. إس) وكان الدكتور بندركار يشارك في كل الأعياد والمناسبات لأهل المحرق وكان شديد الحماس للمناسبات الاسلامية وقد أطلق على أولاده اسماء اسلامية فسمى أحد أبنائه باسم عبدالله وهو يعمل الآن في الشئون القانونية باحدى الشركات بالبحرين .

وقد رزق بندركار بستة أبناء وبنتين اشتغل ثلاثة منهم بالطب ، تعمل واحدة منهم في البحرين حاليا وقد توفي د. بندركار عام ١٩٦٤

# وقائع اجتماعات الدورة العاشرة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية

## الكويت ٢١ ـ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧

في اجتماعات الدورة العاشرة للامانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية التى عقدت بالكويت في الفترة من ٢١ وحتى ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧م تم اقرار توصية تقول انه نظرا لوجود مجلات متخصصة مثل (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية) في الكويت ومجلة (الخليج العربي) في البصرة ومجلة (الدارة) بالسعودية ومجلة (الوثيقة) البحرينية ومجلة (دراسات يمنية) في صنعاء فانه يستحسن أن تنشر وقائع الجلسات وتوصيات الدورات وكذلك الابحاث السنوية في هذه المجلات وذلك تعميما للفائدة واقتصادا في النفقات وذلك بدلا من الكتاب السنوى

واستجابة لهذه التوصية فإن (الوثيقة) تنشر على الصفحات التالية وقائع اجتماعات الدورة العاشرة .

انعقدت اجتماعات الدورة العاشرة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية تحت رعاية حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت وذلك في الفترة ما بين ٢٩ ربيع الأول الى ٢ ربيع الثانى ١٤٠٨هـ الموافق ٢١ ـ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧م .

وقد بدأ حفل الافتتاح في الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ٢١ نوفمبر ١٩٨٧م بآيات من الذكر الحكيم ثم افتتح الدورة معالى وزير التربية الرئيس الأعلى لجامعة الكويت نيابة عن صاحب السمو أمير دولة الكويت وقد ألقيت في حفل الافتتاح كلمة ممثل صاحب السمو أمير الكويت ، ألقاها الاستاذ أنور عبدالله النورى وزير التربية الرئيس الأعلى لجامعة الكويت . وقال فيها

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخوة والاخوات .

يشرفني أن أنوب عن صاحب السمو أمير البلاد ، الشيخ جابر الأحمد الصباح حفظه الله ، في افتتاح اجتماعات الدورة العاشرة لمراكز الدراسات والوثائق في دول الخليج العربي والجزيرة العربية .

ولقد تفضل سموه حفظه الله ، فشمل دورتكم هذه برعايته . وهى رعاية كريمة لها مدلولها على اهتمام صاحب السمو أمير البلاد بمثل هذه اللقاءات ، ودعمه لها وتشجيعه المتواصل عليها . إذ ان مثل هذه اللقاءات والاجتماعات ، بين الاخوة في الخليج والجزيرة العربية ، تعزز مسيرة دول مجلس التعاون الخليجي ، التى يحرص سموه دائما على تقوية أواصرها ، لما بينها من علاقات خاصة ، وسمات مشتركة نابعة من عقيدتها السامية ، وتشابه أنظمتها ، ووحدة تراثها ، وتماثل تكوينها السياسى والاجتماعى والسكاني وتقاربها الحضارى .

ومن دواعى سروري أن تستضيف الكويت ، من خلال مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، هذه الدورة برحابة صدر على نحو ما عودتنا دائما وأن تضع لها كافة الامكانات المتاحة ، مادية كانت أو معنوية ، حتى تؤتى هذه الدورة ثمارها المرجوة ، بما يحقق الخير والامان لمنطقتنا العزيزة .

ومن الحق في هدا المقام ، أن أشير إلى أن انشاء الأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في دول الخليج والجزيرة العربية ، يعد بلا ريب حدثا متميزا في تاريخ البحث العلمى ، في منطقة الخليج والجريرة العربية . ذلك أنه حاء تعبيرا صادقا ، وانعكاسا حقيقيا لطموح أبناء المنطقة ، وتأكيدا لصدق النوايا الخيرة في تعزيز أسس التعاون ، من خلال طرق البحث العلمي عن أحوال المنطقة ، سواء كان ذلك في ماضيها أو حاضرها أو مستقبلها

إن منطقة الخليج والجزيرة العربية ، كما تعلمون ، وفي هذه

بالمرحلة بالذات ، يجب ان تحتل مكانتها بين الامم ، لا عن طريق ثرواتها وحدها ، ولا عن طريق موقعها الاستراتيجي فحسب ، بل كذلك من خلال الاسهام العلمي والحضاري والثقافي . لنعيد الى الاذهان ، أمجاد حضارتنا العريقة ، التي كان لها تأثير واضح في تقدم الامم وتفوقها ، في مختلف مجالات المعرفة . ولنستأنف مسيرتنا العلمية الحضارية في الركب العالمي .

ولا شك ان ما وصلت اليه منطقتنا في الماضي ، لم يكن حدثا عابرا ، وإنما كان أمرا فريدا بجميع المقاييس . كانت حضارتنا معتمدة في انطلاقها على عقيدتنا السمحة وديننا الاسلامي الحنيف ، الذي طلع على هذا الوجود نورا متلألئا ناصع الاشعاع ، من ربوع منطقتنا العربية ، من مكة بالذات ، وهجير بطحائها المتوهج ، وافاء بظله الوارف على أرضنا الواسعة . فجمع شتات العرب ، ووحد قواهم ، وأمدهم بروحانية من السماء تمثلت في عقيدة تسامت في غاياتها عن الماديات ، وارتفعت بتعاليمها عن كل تعاليم البشر . فقوى شأن العرب أهل هذه العقيدة ، وطفقوا ينشرون العلوم والآداب والثقافة والحضارة في أرجاء المعمورة .

أيها الاخوة والاخوات :

في هذا الاطار من ماضينا العلمي تتطلع اليوم الى انعقاد هذه الدورة للامانة العامة في الكويت ، متطلعين الى الخطوات التنفيذية التي تزمع الامانة اتخاذها ، لتكون خطوة على طريق التقدم العلمي الذي نصبو اليه

وأول خطوة أود أن أنادي بها هنا لتحقيق هذا الهدف ، هي أن تعمد الامانة العامة ومراكزها المتخصصة المنتشرة في هذه المنطقة ، الى الاستعانة بالمتخصصين من أبناء المنطقة لاعادة كتابة تاريخنا ، وفق منهج علمي رصين ، يعتمد على الوثائق المحققة التي تزخر بها مكتبات العالم ودور الوثائق ، وبعقل عربي وروح عربية أصيلة لتخليص تاريخ منطقتنا من الادران والشوائب التي علقت به ، وتحليل مواده واحداثه ، واعطائه حقه من التفسير

وانتم تعلمون ، أن تحقيق هذه الخطوة المرجوة انما يتم من خلال الاتصالات المباشرة وغير المباشرة ، بمراكز الدراسات والوثائق العربية والاجنبية على حد سواء . ان دعم الاتصال بالمراكز الاجنبية ، في تقديري ، عمل لا يقل أهمية عما تبذله الامانة العامة من جهد على النطاق الاقليمي . وهذا يتطلب تكثيف الجهد المبذول ، لتبادل البحوث مع مناقشة ما فيها من نتائج حتى تتاح لنا وللمؤرخين والباحثين الاجانب ، معرفة حقيقية بعض المفاهيم التي لم تسعفهم أدواتهم في الوصول اليها . وضيوفنا العلماء الاجانب الكرام ،

الذين نشكر لهم تلبية هذه الدعوة ، هم بيننا في اطار هذه الرؤية .

ولا أعني بهذا القول ، أن تقتصر مهمة الامانة العامة على هذا الجانب التاريخي ، وانما يطلب منها كذلك ، أن تشجع البحوث العلمية المتخصصة . وأن تضع الحلول للمشكلات والمعوقات التي تعترض مسيرة مجتمعنا في الخليج والجزيرة العربية . وذلك من خلال بحوث أبنائها المتخصصين ، ومن خلال ايجاد صيغة عمل مشترك بين مجتمعاتنا ، على نحو يقلل من المخاطر التي تعترض مسيرتنا الخيرة .

ايها الاخوة والاخوات .

في هذه الآونة التي تمر بها منطقتنا وأمتنا العربية ، وهي في حاجة الى مزيد من الترابط والتواصل بين أبنائها ، يطيب لي أن أنقل اليكم تمنيات صاحب السمو أمير البلاد ، وولي العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح حفظهما الله ، لاجتماعكم هذا بالنجاح التام ، والتوفيق في تحقيق أهدافكم العلمية الخيرة . وأدعو الله العلي القدير ، أن يوفقهما واخوانهما قادة دول مجلس التعاون ، لما فيه الخير لهذا الجزء الغالي من الوطن العربي الكبير .

والسلام عليكم ورحمة الله .

بعد ذلك اعطيت الكلمة لسعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة الأمين العام لمركز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية الذي بدأها بتحية للكويت أميرا وحكومة وشعبا وأكد على الاخوة القائمة وقال ان ما يصيب الكويت يصيبنا ويكدّرنا وأن ما يفرح الكويت يفرحنا . ودعا للكويت أميرا وحكومة وشعبا بالتوفيق والسداد تحت قيادة أميرها المفدى الشيخ جابر الأحمد الصباح وحكومتها الرشيدة برئاسة سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبدالله الصباح . ثم ألقى سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة الكلمة التالية .

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي الأخ عبدالله النوري الممثل الشخصي لصاحب السمو أمير دولة الكويت المفدى السادة أصحاب المعالي الوزراء الاخوة مدراء المراكز .

الاخوة والاخوات الافاضل .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته )

أرجو أن تسمحوا لي أن أوجه باسمكم خالص الشكر والتقدير لصاحب السمو أمير دولة الكويت وحكومتها وشعبها وجامعتها على استضافة هذه الدورة . وعلى كرم الوفادة الذي قوبلنا به على هذه الارض الطيبة ، ثم على كلمة معالي الوزير الاستاذ أنور النوري ممثل صاحب السمو التي تؤكد مدى اهتمام دولة الكويت بالعمل الكبير الذي يجري داخل المراكز المنتشرة الآن على الساحة الخليجية كلها ، والتي

تتصدى بنشاط ملحوظ ومشكور ، لعمل من أهم الأعمال التى توصل تاريخ هذه المنطقة الخصب . وتدفع بحركة التوثيق والتاريخ خطوات واسعة للامام .

الاخوة الافاضل

ان تواصل هذه اللقاءات . الذى جاء بنا الآن الى الدورة العاشرة ، هو ابرز الخطوات الايجابية فى عملكم الكبير . ذلك ان اللقاء المباشر فى مثل ما نتصدى له من عمل إنما يساعد وبصورة فعالة . على تبادل الخبرة والتجربة ، ومناقشة ما يمكن ان يعترض السعى المتواصل والحثيث والنشط . الذى تشهده المراكز ، من معوقات قد تحول دون اداء مهمتها الكبيرة . فتبادل الخبرة يوفر جهدا يمكن أن يوجه لمزيد من العطاء . وتبادل التجربة يوفر وقتا نحن أحوج ما نكون اليه لدفع حركة التوثيق القائمة خطوات أوسع وأسرع . نحو تحقيق الهدف المنشود . كما ان تواصل هذه اللقاءات يقيم جسورا من الود بين المراكز بعضها والبعض من ناحية . وبين المراكز والامانة العامة من ناحية اخرى . ويعمق روحا من التعاون قائما بالفعل ، ويربط بين هذه الاجهزة برباط اخوي متين .

الاخوة الافاضل :

لا جدال فى أن المراكز استطاعت وخلال السنوات الماضية ، ان توفر كما لا بأس به من الوثائق التى كانت حبيسة الارشيفات الاجنبية . حقيقة ان ما تم جمعه لا يمثل نهاية المطاف فى هذا السبيل . ولكنه أيضا يوفر لهذه المراكز المادة التى تمثل أساسا لتنشيط حركة البحث والدراسة بدرجة تواكب العمل المستمر والدؤوب فى جمع هذه الوثائق . وتصنيفها . واعتقد ان استكمال أجهزة البحث والدراسة سواء عن طريق التفرغ أو الاستكتاب أصبح ضرورة ملحة . حتى ندفع الى المكتبة العربية والاجنبية وباستمرار بما يسد النقص القائم فى تغطية الكثير من الاحداث التى احتشدت فى كثير من عصور التاريخ بالمنطقة ، وفى تصحيح الكثير من المقولات المغلوطة التى افرزتها أقلام بعض الكتاب الاجانب عن هذه الساحة وكل ذلك يعود بالفائدة الكبيرة على المركز المعنى . ثم على المراكز الاخرى نظرا للترابط العضوي الذى ربط ويربط كل دول المنطقة فى مختلف حقب التاريخ .

ان جمع الوثائق أمر طيب ومطلوب ولكن التوقف عند عملية الجمع فقط يجعلنا كمن يحرر هذه الوثائق من سجن الارشيفات الاجنبية لنضعها فى سجن الارشيفات المحلية . والكم القليل من الوثائق التى تتحول الى دراسات ، تلقى أضواء على ما غمض فهمه ، وتتيح لطلاب العلم ودارسي التاريخ ، المادة التاريخية ذات القيمة ، اكثر فائدة من كم هائل يتكدس فى الاركان والادراج . ان الاستعداد لاستقبال طارقي الابواب

من طلاب العلم قد يكون شيئا جيدا .
ولكن الاجود أن نبادر نحن الى طلاب العلم ودارسي التاريخ بحشد من الدراسات والابحاث ، تكون أساسا متينا لاعادة كتابة تاريخ المنطقة على أسس علمية مدروسة وموثقة نحن لا ننكر أن بعض المراكز قد قطعت شوطا فى هذا الطريق ، ولكن ما نأمله أن يسود هذا الاتجاه كل المراكز فى المنطقة . لتعم الفائدة كل من يحيا على هذه الارض العريقة اضافة الى أن ذلك يحقق الشق الثانى من المهمة الصعبة التى اختارتها المراكز باعتبارها مراكز للوثائق والدراسات وقد يساعد فى هذا السبيل ، التركيز على ندوات الموضوع الواحد وقد استطاع مركز رأس الخيمة الوليد أن يقدم نموذجا ممتازا في هذا المجال .
وذلك بتخصيصه بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ندوة «عن الاستعمار البرتغالى فى الخليج العربي» فقد أمكن من خلال هذه الندوة توفير ما يزيد على العشرين بحثا . باقلام مجموعة مختارة من المؤرخين العرب ، تتناول موضوع البرتغاليين من كل زواياه ، وترسم اطارا كاملا ومتكاملا لاحدى الفترات الهامة التى مرت بالخليج ، والتوسع فى عقد مثل هذه الندوة على أساس خطة يتم الاتفاق عليها بين المراكز ويتم من خلالها تحديد الموضوعات المطلوب معالجتها ، يمكن أن يسد كثيرا من أوجه النقص فى الدراسات التاريخية لهذه المنطقة .

**الاخوة الافاضل**

لقد طرح فى الدورة الماضية موضوع الخطة الطموح للاستفادة من الارشيفات العتمانية وقد قامت الامانة العامة بالكتابة الى أصحاب المعالى وزراء الخارجية وتلقت عددا من الردود التى توضح الاستعداد الكامل لبذل الجهد فى هذا الصدد . ومازلنا فى انتظار بقية الردود حتى يمكن التحرك في هذا الاتجاه وان كانت التوصية الخاصة بقيام كل مركز بنشر قائمة بجزء مما لديه من وثائق ضمن الكتاب السنوي للمراكز ، ما زالت مطلبا ملحا كخطوة مرحلية وايجابية للاستفادة مما هو متوافر فعلا داخل أرشيفات المنطقة ، وتحقيقا لما يربط بين هذه المراكز من روح التعاون الذي هو هدفنا جميعا .

ان تاريخ الشعوب هو نبعها الفياض ، الذى تستمد منه الدروس والتجارب ، وتستلهم منه ومما دار فيه من قصص للكفاح والبناء ما يتيح لها ان تختار الدروب السليمة ، التى تصل بها الى ما تتمناه وتأمله من تقدم وازدهار وأنتم كتاب هذا التاريخ وسدنته وبأيديكم يمكن ازالة ما يحجبه من استار النسيان أو الاهمال ويمكن القاء الاضواء الكاشفة على عصوره وحقبه ، لابراز قصة كفاح الانسان الخليجي مع البحر ومع الصحراء ومع القوى الاجنبية فى تصارعها وتسارعها للسيطرة على هذه

المنطقة الهامة من العالم . ايها الاخوة لا ينكر منصف الجهد الكبير الذى بذلتموه طوال السنوات الماضية فى اداء مهمتكم الجليلة التى بدأت تؤتى ثمارها فاصبحت الدوريات التاريخية التى تصدر عن المراكز بغية الكثيرين كما تزايدت الاقلام التى بدأت تتصدى للكتابة عن تاريخ المنطقة وتزايدت المطبوعات التى بدأت تغذى المكتبة العربية والعالمية بصورة ملفتة للنظر .

ولكن الطموح الكبير لا يقف عند حد وهو ما ندعو الله أن يعينكم بالتوفيق على تحقيقه

وفى النهاية لا يسعنى الا أن أتقدم بخالص الشكر للاخوة فى مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية ، وعلى رأسهم الاخ الدكتور بدر اليعقوب على ما تجشموه من عناء فى تنظيم هذه الدورة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم تحدث بعد ذلك الدكتور بدر اليعقوب رئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية التى تصدر بالكويت والمستضيفة للدورة فعرض لمنجزات المجلة ومجال انتشارها ونوعية الابحاث التى تعرض لها والكفاءات التى حشدتها للاشراف على اصدارها والأبواب التى تنقسم اليها والطموحات المستقبلية لها .

وبعد انتهاء مراسم الافتتاح انتقل الحضور يتقدمهم معالي وزير التربية الاستاذ أنور النورى ومعالى الأمين العام الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة الى افتتاح معرض الكتاب الخليجي التى تساهم فيه المراكز المشتركة فى الامانة العامة وهى :

### (١) دولة الامارات العربية المتحدة :

(أ ) مركز الوثائق والدراسات فى ابوظبى .

(ب ) مركز الوثائق والدراسات فى رأس الخيمة .

### (٢) دولة البحرين :

(أ ) مركز الوثائق التاريخية .

### (٣) المملكة العربية السعودية :

(أ ) دارة الملك عبدالعزيز فى الرياض .

### (٤) الجمهورية العراقية :

(أ ) مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة

(ب ) مركز التوثيق الاعلامي لدول الخليج العربي .

### (٥) دولة قطر :

(أ ) قسم الوثائق والابحاث .

(ب ) مركز الوثائق والدراسات الانسانية فى جامعة قطر .

### (٦) دولة الكويت :

(أ ) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية .

(ب ) مركز الوثائق فى الديوان الاميري بالكويت .

## (٧) الجمهورية العربية اليمنية :

(أ ) مركز الدراسات والبحوث اليمنى .

## (٨) دائرة المحفوظات والمؤلفات العمانية ـ مسقط

وفى الجلسة الاولى للدورة التى انعقدت فى التاسعة صباح اليوم التالى عرض مدراء المراكز نشاطات مراكزهم لعام ١٩٨٧ والخطط المستقبلية لعام ١٩٨٨م حسب الترتيب الابجدي .

وفى الجلسة الثانية المنعقدة فى الساعة التاسعة من صباح الاحد ٢٢ نوفمبر ١٩٨٧م نوقشت توصيات الحلقة التاسعة التى عقدت فى أبوظبى فى العام الماضى وقد طلب سعادة الامين العام أن يدرج مع توصيات هذه الحلقة جميع التوصيات السابقة ليكون هناك تقييم صحيح لنشاط المراكز .

كما أوضح سعادة الامين العام ما تم من اجراءات حول مشروع جمع الوثائق العثمانية وشرح كيف أرسلت الامانة رسائل الى وزراء الخارجية عن طريق المراكز المعنية ووصل الى الامانة تفويض من أربعة وزراء خارجية وهم :

١ ـ الامارات العربية المتحدة .
٢ ـ دولة البحرين .
٣ ـ الجمهورية العراقية .
٤ ـ دولة قطر .

وانه لايزال ينتظر الاجابات الباقية حتى يتسنى لسعادة الامين العام مفاتحة الجهات التركية وهو مفوض من جميع دول المراكز ولذا يؤكد على ضرورة متابعة المراكز لارسال الاجابات من وزراء خارجيتهم .

وقد نوقش موضوع الكتاب السنوى والتوصيات الهامة السابقة ومنها موضوع فهارس الوثائق .

وعرض الدكتور على أبا حسين نائب الامين العام مسألة انضمام المركز العربي للدراسات الايرانية بجامعة البصرة والمركز اليمنى للابحاث والثقافة فى عدن وتمت الموافقة على انضمامهما .

وقد أتيحت الفرصة لكل من الدكتور عبدالجليل التميمي لبيان خبرته حول الوثائق العثمانية وكذلك الدكتور (سلوت) معاون مدير الارشيف الهولندى عن خبرته فى الوثائق الهولندية .

واقترح الدكتور مصطفى النجار المستشار العلمى للامانة تسمية الدكتور بدر اليعقوب أمينا عاما مساعدا .

## القرارات والتوصيات

لقد اتخذ المجتمعون خلال جلساتهم التوصيات التالية :

(١) التأكيد على ضرورة متابعة مدراء

المراكز الذين لم تصل بعد اجابات وزراء خارجيتهم الى سعادة الامين العام بخصوص الارشيف العثماني حتى يتسنى المباشرة في هذا المشروع

(٢) تقديرا لأهمية فهارس الوثائق للمراكز وتبادلها فيما بينها يكرر المجتمعون ضرورة الاهتمام بهذا الموضوع

(٣) نظرا لوجود مجلات تخصصية مثل (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية) في الكويت ومجلة (الخليج العربي) في البصرة ومجلة (الدارة) التى تصدرها دارة الملك عبدالعزيز بالرياض ومجلة (الوثيقة) في البحرين ومجلة (دراسات يمنية) في صنعاء فإنه يستحسن أن تنشر وقائع الجلسات وتوصيات الدورات وكذلك الابحاث السنوية في هذه المجلات وذلك تعميما للفائدة واقتصادا في النفقات بدلا من الكتاب السنوى

(٤) تقديرا لقيمة الوثائق الهولندية يوصي المجتمعون بعقد ندوة حول تاريخ الخليج في الوثائق الهولندية وقد اقترحوا عقدها في المجمع الثقافي في أبوظبي نظرا لوفرة الوثائق وخبرة المركز في هذا الموضوع

(٥) نظرا لأهمية الوثائق العثمانية في كتابة تاريخ الخليج والجزيرة العربية فقد بارك المجتمعون اقامة الندوة من قبل مركز الدراسات والوثائق في رأس الخيمة تحت عنوان (الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية) في الفترة ما بين ١٩ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٨٨م

(٦) يؤكد المجتمعون على ما سبق من توصيات حول التعاون المشترك بين المراكز في كافة المجالات .

(٧) الموافقة على تسمية الدكتور بدر اليعقوب أمينا عاما مساعدا لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية

(٨) الموافقة على عقد الدورة الحادية عشرة في رأس الخيمة بناء على دعوة من مركز الدراسات والوثائق في الديوان الاميري برأس الخيمة تحت رعاية كريمة من قبل صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي حاكم الامارة وذلك في الفترة ما بين ١٩ ـ ٢١ نوفمبر ١٩٨٨م .

وقد فوض المجتمعون سعادة الامين العام الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة أن يرسل برقية شكر وتقدير الى صاحب السمو الشيخ جابر الاحمد الصباح أمير البلاد حفظه الله وبرقية الى سمو ولى العهد الشيخ سعد العبدالله الصباح

# اجتماعات الأمانة العامة منذ عام ١٩٧٦م وحتى تاريخه

## (١) الاجتماع الأول :

عقد في مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، في الفترة من ١٠ - ١١ أكتوبر ١٩٧٦م

وأهم التوصيات

١ - أن تكون الدراسات المشتركة ذات طابع مستقبلي تعالج الشئون العلمية والعلوم الانسانية وغيرها سواء من الناحية الاقليمية أو مستقبل الخليج والجزيرة العربية في الشئون الدولية

٢ - أن تقوم المراكز بنشر قوائم باسماء المتخصصين والمهتمين بشئون الخليج والجزيرة العربية مع ذكر مؤهلاتهم وبحوثهم العلمية

٣ - توصي الحلقة أن تعنى المراكز بالآتي

أ - اجراء مسح بيولوجي للاسماك والاحياء البحرية في الخليج العربي

ب - مسح الثروة السمكية كغذاء ومصدر من مصادر الدخل القومي

جـ - اجراء الدراسات المؤدية الى تلوث البيئة وتأثير ذلك على الثروات القومية في المنطقة .

د - اعداد دراسة ميدانية لمجموعة الطيور والحيوانات البرية المتواجدة في الجزر الصغيرة من قبل مراكز دراسات الخليج العربي والجزيرة العربية

## (٢) الاجتماع الثاني :

عقد في الكويت بمقر مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية في ٣٠ نوفمبر ١٩٧٧م

## (٣) الاجتماع الثالث :

عقد في صنعاء في الفترة من ٣١/١٠ الى ٣/١١/١٩٧٨

وقد تم تشكيل الامانة العامة للمراكز العلمية خلال هذا الاجتماع وتتكون من

١ ـ مدير مركز دراسات الخليج العربي أمينا عاما
٢ ـ رئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عضوا
٣ ـ مدير مركز الوثائق والدراسات ـ الامارات العربية عضوا
٤ ـ ممثل دارة الملك عبدالعزيز ـ السعودية عضوا

وقد اوصى المجتمعون بأن تعمل كل الهيئات المشتركة فيها على استصدار قرار رسمي في كل دولة يقضي بالمحافظة على المخطوطات والآثار باعتبارها تراثا وطنيا وقوميا

## (٤) الاجتماع الرابع :

عقد في ابوظبي في الفترة من ١٩ ـ ٢٢ نوفمبر ١٩٧٩م .
وأهم التوصيات

١ ـ تبادل الخبرة في مجال ترجمة الوثائق ودراستها
٢ ـ الاعلان عن الوثائق الموجودة في كل مركز وتبادلها من خلال عمل فهارس لها وتسهيل حصول الباحثين على صور منها
٣ ـ اصدار كتاب سنوى تساهم المراكز في مادته العلمية ويطبعه المركز المضيف للحلقة .

## (٥) الاجتماع الخامس :

عقد في الرياض في الفترة من ٢٠ ـ ٢٢ ابريل ١٩٨١م
واهم التوصيات

١ ـ تبادل القوائم الببليوجرافية بمقتنيات مكتبات المراكز من مصادر ووثائق ومخطوطات ومطبوعات عربية وأجنبية ودوريات ، كخطوة أولى لاعداد دليل ببليوجرافي موحد
٢ ـ تبادل الخرائط والصور الجوية من كل دولة من دول المنطقة من أجل اعداد دليل كارتوجرافي موحد
٣ ـ تبادل المصادر الاحصائية في المجالات السكانية والبترولية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، تمهيدا لاصدار الكتاب السنوى الاحصائي الموحد لكي يمثل تجسيدا علميا للتعاون العلمي
٤ ـ أن تقوم الامانة العامة بمعاونة المراكز الاعضاء وذلك باتاحة فرص التدريب للكوادر المحلية

## (٦) الاجتماع السادس :

عقد في الدوحة في الفترة من ٢٤ ـ ٢٨ ابريل ١٩٨٢م .
وأهم التوصيات

١ ـ تقوم الامانة العامة باصدار نشرة دورية تتضمن أنشطتها وانجازاتها لتتمكن عن طريقها ابلاغ رسالتها الى المؤسسات العلمية الاجنبية ولتكون بمثابة الاعلام الخارجي عن جهود الامانة

## (٧) الاجتماع السابع :

عقد في البحرين في الفترة من ٢٨ ـ ٣٠ نوفمبر ١٩٨٣
وأهم التوصيات

١ ـ توثيق التعاون العلمي مع أجهزة مجلس التعاون لدول الخليج العربية

٢ ـ تبادل فهارس الوثائق بين المراكز والهيئات وضرورة تعميق التعاون فيما بينها وخاصة في مجال تبادل الكتب والمنشورات العلمية

٣ ـ الاهتمام بكتب الرحلات في العصر الحديث في الخليج والجزيرة العربية

## (٨) الاجتماع الثامن :

عقد في صنعاء في الفترة من ٦ ـ ٧ يوليو ١٩٨٥م
وأهم التوصيات

١ ـ ضرورة وضع خطط علمية قابلة للتنفيذ لمعالجة أوجه النقص في المكتبة العربية عن منطقة الخليج والجزيرة العربية

## (٩) الاجتماع التاسع :

عقد في أبوظبي في الفترة من ١٨ ـ ٢٠ نوفمبر ١٩٨٦
وأهم التوصيات

١ ـ الموافقة على اصدار سجل سنوى للمراكز حول فهرسة الوثائق المتيسرة والجديدة في كل مركز على أساس أن يكون حجمه في حوالى خمسين صفحة لكل مركز

٢ ـ تأكيد الاهتمام بفكرة الكتاب السنوى حيث أنه مظهر لنشاط المراكز والامانة العامة

٣ ـ الموافقة على خطة العمل الطموحة لفهرسة الوثائق العثمانية بالتعاون بين الامانة العامة والمسئولين في الدولة التركية ، والموافقة على تشكيل لجنة برئاسة الامين العام وعضوية كل من

١ ـ مركز الوثائق والدراسات ـ ابوظبي .

٢ ـ مركز الوثائق والدراسات الانسانية ـ جامعة قطر .

٣ ـ مركز الوثائق ـ الديوان الاميرى بالكويت .

٤ ـ دارة الملك عبدالعزيز ـ الرياض .

٥ ـ مركز الدراسات والبحوث اليمنى ـ صنعاء .

Hameed Bin Rashid of Ajman and Shaikh Abdullah Bin Rashid of Ummal Quwain. For the clauses of the treaty see. Syed Nofal: The Arab Gulf, P. 411 & subsequent pages. Beirut 1969.

163. Kelly, Britain ... Op. Cit. p. 359
164. Lorimer Vol 3 p. 1301.
165. Ibid, pp. 1302, 1303, 1313.

150 "Historical Sketch ... Wahabis". Op Cit. p. 382.
151. "Historical Sketch .. Utoobis" Op Cit. pp. 441-442.
152. This Amir had been detained in Egypt but was able to effect an escape in 1825.
153. Among the attendants of Amir Faisal was one called Abdulla Bin Al Rasheed from Hayil who was able to murder Mushari Amir Faisal gifted to him the emirate of Hayil wherein was installed the House of Al Rasheed which played a role in the history of the Arabian peninsula.
154. Lorimer, Vol 3, pp. 1435-1436.
155. "Historical Sketch . Utoobis", Op Cit. p. 385.,
156. Lorimer, Vol 3, p. 1298.
157. Ibid, p. 1435.
158 Ibid, p. 1302
159. Dr. Al Khusoosi: Op Cit. p. 222 & subsequent pages.
160. Lorimer. Vol 2 p 1044 & subsequent pages.
161. Ibid, p. 1054 & subsequent pages.
162. Dr. Al Khusoosi, Op Cit. p 230.
The treaty of peace on the seas was first imposed in 1835 It was renewed on 13 April 1836 The truce was extended by eight months and again renewed in April 1837 All parties agreed that the truce shall be annual and that was on 18 April 1838. It remained renewable annually which was done in 1839, 1840, 1841, 1842 and 1 June 1843. Then the Arab Shaikhs agreed to maintain the truce for ten years ending in May 1853. Thereafter the truce was converted into a permanent treaty called "The Permanent Treaty of Peace on the Seas" which was signed by Shaikh Sultan Bin Saqr of Ras al Khaima, Shaikh Saeed Bin Tahnoon of Abu Dhabi, Shaikh Saeed bin Butei of Dubai, Shaikh

136. "Historical Sketch ... Utoobis". Op Cit. p380.
137. "Historical Sketch ...", Op Cit. pp. 197-198. Lorimer Vol 3 p. 1295.
138. Lorimer, Vol 3, p. 1279.
139. Ibid p. 1295.
140. "Historical Sketch .. Utoobis", Op Cit p. 381
141. It should be noted that the First Saudi State fell politically as a consequence of the fall of Dar'iyya. However the Salafiyya Call on which the State had been founded remained hidden in the minds of the people and it was passed on by the scholars and jurists in Nejd and Hijaz from one to another. In fact the mission and its teachings found a ready echo in Islamic circles outside the Arabian peninsula in Egypt, Iraq, Syria, Morocco and India. The scholars held seminars and discussions over it. One result of it was that an intellectual awakening among the Muslims surged up which was sorely needed.
142. "Historical Sketch .. Wahabis", Op Cit. pp 437-439
143. For more information see: Adurrahman Al Rafe'i, The Age of Mohammed Ali, Cairo 1951.
144. The British, French and Russian forces allied against the Ottoman-Egyptian-Algerian fleet and inflicted defeat on it decisively. The result was that Greece gained independence from the Ottoman State and a serious confrontation started between Mohammed Ali and the Ottoman Sultan.
145. Lorimer, Vol 3, p. 1433.
146. "Historical Sketch, Wahabis", Op Cit, pp. 439-440.
147. Lorimer, Vol 3, p. 1296.
148. "Historical Sketch ... Utoobis". Op Cit. p. 381.
149. Lorimer Vol 3p. 1434.

118. Perhaps the noninclusion of the Al Khalifa in the "Treaty of Peace on the Seas" of 1835 was due to their disinclination to indulge in piratical acts.
119. England did not rest from then on until it imposed its protection over the Arab Gulf countries formally and completed the occupation of Egypt
120 Dr. Ahmed Izzat Abdul Karim: "The Forerunner of Colonialism in the Gulf" p. 9 Cairo 1956.
121 Lorimer, Vol 3 p. 1283
122. Kelly, "Britain . " Op Cit pp 164-165.
123. After he ruled for a period of 27 years See "Al Watheeka" No. 8 p 12 & subsequent pages.
124. Lorimer Vol 3 p. 129
125 "Historical Sketch . Muscat" Op Cit p. 191.
126. Ahmed Mahmood Sobhi Op Cit. pp 99-100.
127. The clause about the banning of slave-trade in the General Peace Treaty was never implemented in the case the Sultan of Muscat & his people. See Molly Izzard Op Cit. p 163
128. Dr. Shauqi Al Jamal "History of the Discovery of Africa & Its Colonisation". p. 181 & subsequent pages Cairo 1971
129. Dr. Salah al Aqqad & Dr Jamal Zakaria. Zanzibar. p. 43 & subsequent pages (Cairo 1959)
130. "Historical Sketch . Utoobis", Op Cit. pp. 378-379.
131. Nab'hani, Op Cit. pp. 142-144.
132. "Historical Sketch . Muscat". Op Cit. pp. 196-197.
133. This clause states that the Trucial Arabs will not go to war against one another.
134. Lorimer Vol 3 pp 1290-1293.
135. "Historical Sketch .. Utoobis", Op Cit p. 380 & Lorimer Vol 3 pp. 1293-1294.

102. Further see: Dr. Badruddin Abbas Al Khusoosı: Studies in the Modern & Contemporary History of the Arab Gulf.
103. Dr. Salah al Aqqad; Op Cıt p. 103.
104. Fuad Khuri: Op Cit p. 20.
105. Molly Izzard, Op Cit p. 159 & subsequent pages.
106. Text of the Agreement in Aıtchıson .. Op Cit 245-248.
107. Dr. Salah al Aqqad Op Cıt, p. 105 & subsequent pages.
108. Lorimer, Vol 3, p/1284.
109. "Historical Sketch . Utoobis", Op Cit p. 373.
110. Ibid
111. Kelly, "Britaın ..." Op Cıt 163-164.
112. Ibıd p. 182
113. Lorimer, Vol 3 pp. 1286-1288.
114. Lorimer Vol Ibid.
Actually this step of the Brıtish was neıther new nor the last in the implementation of ıts policies. The British Government applıed thıs policy ıf it felt that the action of any of its representatives abroad or his presence in that country was undesirable or if it felt that such a person or act created an ınımical feeling against the British. It hastened in such cases to remove such a person and replace hım with another to please that country. Such an act absorbed the sense of grievance of that country or their people. There are several examples of ıt in contemporary and recent history.
115. Lorimer Vol 3 pp. 1286-1288.
116. Abbas Faroughy: "The Bahrain Islands": "750-1951: pp 181-182 New York. 1951.
117. Dr. Jamal Zakaria: Iranian Claims. Op Cit. p. 197.

mentions Syed Ahmed as having been killed. vol 3, p. 1279.

85. The writer has observed that the flag of Bahrain combines red and white colours, the white representing peace and the red indicating the defence of peace with force.
86. Jointly ruled Bahrain with his brother Shaikh Salman.
87. 'Historical Sketch ... Utoobis". Op Cit. pp. 369-370.
88. Kelly, J.B.:"Britain' .. Op Cit pp. 146-160.
89. Dr Abu Hakima: "History of Kuwait" Vol 1, Part 2 p. 170 & subsequent pages.
90. Fuad, I. Khuri, Op Cit p. 20.
91. India Office, Factory Records, Persia & Persian Gulf, Vol 32 Court of Directors, London to Bombay Government. 26 Feb 1817.
92 Kelly, "Britain ..." Op Cit. pp. 134 — 140.
93. Lorimer Vol 3 p. 1280 & "Historical Sketch ... Utoob". Op Cit p. 372
94. Salih Mohammed Al Abid· Ibid p. 300 & subsequent pages.
95. See further. Dr. Abdur Rahim Abdur Rahman Abdur Rahim: Op Cit p. 343 & subsequent pages.
96. Miles Op Cit p. 324.
97. Al Abid Op Cit p 302 & subsequent pages.
98. Dr. Abdul Hameed Al Batrique: "Ibrahim Pasha in Arab Lands". p. 36 & subsequent pages. (Commemoration volume on the Conquering Hero Ibrahim Pasha Cairo 1948).
99. Shelf No 6. Document No 115, Bahr Bara, Al Madina in 21 Zil Qada 1234 H. (National Archives-Fort Cairo).
100. Kelly: Britain ... Op Cit p. 142.
101. Historical Sketch ... Muscat - Op Cit pp. 188-189.

68. Mohammed Khalifa" Al Nab'hani: Op. Cit, pp 131-132.
69. "Historical Sketch ... Wahabis.".. Op Cit PP. 432/433
70 Ibid. p. 434.
71 "Al Watheeka." No 8 p. 26.
72. Dr Abdul Rahim Abdul Rahman Abdur Rahim. The First Saudi State 1745 A D -1818 A D./1158-1233 H.p.100. Institute of Arab Studies & Research. 1975.
73. Nab'hani, Op Cit. pp 133-134
74 "Al Watheeka," No 8, P. 27 & subsequent pages.
75. Historical Sketch ... Wahabis. Op Cit. pp. 432-436.
76. Hafiz Wahba, "The Arabian Peninsula in the Twentieth Century" - p.118 & subsequent pages. Cairo. 1946
77. Fuad, I Khuri. "Tribe & State in Bahrain " p. 26, London 1980
78 Dr. Jamal Zakaria Qasim: "The Historical Roots of the Problem of Oman". p 186. Egyptian Historical Magazine. Vol 12-Cairo 1964.
79. Arabian Gulf Intelligence, Selections from the Records of Bombay Government, New Series, No 24, 1856, "Historical Sketch of the Rise & Progress of the Government of Muscat", pp. 186-187
80. Hoskins, H.G., Op Cit p. 31.
81. Historical Sketch ... Muscat Op Cit p 186.
82. Ahmed Mahmood Sobhi: "Bahrain & Iran's Claim", pp. 99-100 Alexandria.
83. Historical Sketch ... Op Cit. pp. 368-369.
84. Arhama Bin Jabir participated in this battle in which two important leaders of the Imam of Muscat were killed; one of them was his younger brother Salim according to Nabhani Op Cit. pp. 141-144. Lorimer

57. Belgrave, The Pirate Coast, pp 29-31, Beirut 1972.
58. Saleh Mohammed Al Abid: Op Cit, p. 214 & subsequent pages.
59. Dr Salah Al Aqqad: Op Cit. p. 93.
60 The Moon Islands surrendered to the British Forces led by Abu Crombe in Dec 1810 and thus put an end to French violations in the Eastern seas. See: Wilson: "History of the Gulf." Arabic Translation. Op Cit. pp. 165 166.
61 It is observed that since ancient times Arab and Persian ships used to visit the Indian shores, the Gulf and East Africa in complete peace and security and trade prospered during the Abbasid priod in the eastern waters. The situation remained so until the Europeans arrived on the scene in the late fifteenth century. This vitiated the balance of trade and the scales weighted in favour of the Europeans as against the Muslims by virtue of their invasions, colonisation of many regions of Asia and Africa and monopolisation of their economic resources. These were diverted from Arab-Islamic routes to the Cape of Good Hope in South Africa and from there to the Atlantic.
62. Historical Sketch ... Wahabis, Op Cit. p. 432.
63. Ibid, p. 431.
64. Molly Izzard, Op Cit, p. 158.
65. For more information about Arhama Bin Jabir Al Jalahima, see Dr. Jamal Zakaria Qasim. "Houliyyat kulliat il Adab," Ein Shams University, Vol 9 1964, pp. 76-98.
66 Lorimer Vol 1 p. 293 & subsequent pages.
67 Ibid, pp. 294-295.

to depart in that year, i.e. 1801. They mounted an expedition the following year against Bahrain with the assistance of Bushire. The manuscript "Uqad Jayyid il Durar Fi Ma'rifat Hisab Nau Rooz Ahl il Bahr" by Jabir Bin Abdul Khidar Bin Hilal Bin Mohammed Bin Badr who was an eyewitness, recorded these events which occurred in 1802 A.D. down to details of days and hours.

See "Al Watheeka," No. 8 p. 12 and subsequent pages.

46. "Al Watheeka," Op. Cit. No. 8 p. 22 & subsequent pages.
47. Mohammed Khalifa Al Nab'hani: Op. Cit. pp 129-131
49 Kelly, J.B. "Britain & the Gulf," 1795-1880, pp 110-134 London 1968.
50. See Dr. Mustafa Abu Hakima: "The History of Kuwait'. Vol 1, Part 2, P. 162 and subsequent pages. "A Brief Historical Note on the Qawasim Tribe": 1747-1819, prepared by Francis Warden, Member Bombay Legislative Council & Assistant Political Resident in the Gulf in 1819
51. Lorimer: Op Cit. Vol 1, p. 258 and subsequent pages.
52. Dr. Salah Al Aqqad: Op Cit. P. 94.
    Sultan Badr was on good terms with Amir Saud Bin Abdul Aziz during that period. As a result he was assassinated in 1806. Thereafter Syed Saeed Bin Sultan occupied the throne.
53. Lorimer, Vol 2 p. 977 and subsequent pages.
54. Aitchison, Op Cit 197-198.
55. Arabian Gulf Intelligence, "Selections From the Records of the Bombay Government Series, No. 24, 1865," "Historical Sketch of the Wahabi Tribe of Arabs." P. 431.
56. Lorimer, Vol 1, p. 290 and subsequent pages.

dated 30 May 1799.
Governor of Bombay to Syed Sultan pp. Sultan pp. 381-383. Quoted by Samir Abu Yasin. Op. Cit. pp. 32, 138.

43. See the report sent by Malcolm to Wellesley in 1800 A.D., while on deputation to the court of the Shah of Iran. India Office: Factory Records, Persia & the Persian Gulf. Vol 22, pp. 53-120.

44 Arabian Gulf Intelligence, Selections from the Records of the Bombay Government, New Series, No. 24, 1856, "Historical Sketch of the Utoobi Tribe of the Arabs": Bahrain, p. 366.

45. The writer acknowledges the fact that he had to revise his opinion about the subject after reading the article on Shaikh Salman Bin Ahmed Al Khalifa by Shaikh Abdullah bin Khalid Al Khalifa published in Al Watheeka No 8. The writer did so out of his conviction that it was not safe to rely on foreign sources exclusively and that discrimination should be applied alongwith an analytical yardstick in assessing these writings for their acceptability, a procedure which has been followed in the study on Shaikh Salman Bin Ahmed. Hence the writer finds it logical to fix the date of invasion as 1802 after comparing the foreign sources and the British documents themselves which state that the Sultan attacked three Bahraini ships which were returning from India. He then descended on Bahrain in 1800 leaving his son Syed Salim in charge thereof. He also positioned a reliable adviser who would protect his interests. However the Al Khalifa recoverd their Island. Not long afterwards the Sultan attacked Bahrain once again. Lorimer states in Vol III pp. 1275-1276 that the Utoob forced the Sultan of Muscat

ments & Sanads" Relating to India & the neighbouring Countries, Vol XI, 1933 pp. 207-208.

35. Robert G Landen. "Oman Since 1856 "-The Path & the Consequence. Translated by Mohammed Amin Abdullah. p. 61 & subsequent pages. Sultanate of Oman.
36. By the Writer. "Slaves & Soldiering in the View of Mohammed Ali " The Egyptian Historical Magazine. 1983. p. 133 & subsequent pages.
37. Miles, S.B.: "The Countries & Tribes of the Persian Gulf." pp. 290-292. London 1919.
38. It should be noted that after the departure of Napoleon from Egypt and the murder of his successor at the hands of Suleiman al Halabi of Syria it was proved that strong links existed between the Arabs and the Muslims Whatever happened to either of them reflected on the other in some manner. Perhaps this matter engaged the attention of Mohammed Ali Pasha, the Ruler of Egypt actively when he contemplated a political unit for all Arab peoples deriving their strength from their natural and civilisational affinities.
39. This agreement was the harbinger of intimate political relations with Oman. See: Wilson· "History of the Gulf"; Arabic Translation Op. Cit. pp. 162-163.
40. Bombay, Political & Secret Proceedings. No. 3057-70, dated 8 April 1799, from the Imam of Muscat to Governor of Bombay. pp. 381-383.
Quoted by Samir Mohammed Ali Abu Yasin: "Omani-British Relations" (1796-1856), p. 31, 138, Basra 1981.
41. G George, H.B.: "Historical Geography of the British Empire." p. 124.
42. Bombay Political & Secret Proceedings No 3071-73

23. "Lam" a Shihab fi Seerat Mohammed Ibn al Wahab." Dr. Ahmed Mustafa Abu Hakima, p. 76 & subsequent pages, Beirut 1967.
24. Further see Salih Mohammed al Abid: "The Role of Qawasim in the Arab Gulf," Baghdad 1976.
25. Ahmed Qasim al Burini: "The Seven Emirates on the Green Coast," p. 140 & subsequent pages, Beirut 1957.
26. Dr. Salah al Aqqad: "Political Currents in the Arab Gulf," p. 97 Cairo 1974.
It is to be noticed that a majority of foreign writers and historians use the word 'pirates' for those who fought an Islamic Jihad but do not apply this term to the Europeans who intercepted Muslim ships.
27. Shaikh Abdulla Bin Khalid al-Khalifa: "Shaikh Slamn Bin Ahmed Al Khalifa," Al Watheeka, No. 8, Fourth Year 1406 H. Jan 1986, p 12 & subsequent pages
28. Jamal Zakaria: Op Cit P. 84 & subsequent pages.
29. For further information see: Dr. Yunan Labib Rizq & others:
"Europe in the Age of Captalism: p. 211 & subsequent pages. Cairo 1983.
30. Ghorbal Shafik. "The Beginnings of the Egyptian Question & the Rise of Mohemet Ali": 1928.
31. The American War of Independence lasted from 1776 to 1783. See: Dr. Rafat Ghoneimi al Shaikh: "America-International Relations." p. 35 & subsequent pages. Cairo 1979
32. Dr. Salah al Aqqad Op. Cit. p. 68 & subsequent pages.
33. Britain did not rest until the French invasion was finally vacated from Egypt in 1801.
34. Aitchison, C.U. "A Collection of Treaties, Engage-

See "Al Watheeka," No 1, First Year, Ramadan 1402-July 1982, p 78 & subsequent pages, Historical Documents centre, Bahrain.

10. Dr. Jamal Zakaria Qasim: "Iranian Claims in the Arabian Gulf," p 179, Magazine of Egyptian History, No 20 1973.
11. Though the modern history of the Arabs generally begins from the 16th Century, in the case of Bahrain one may take it to be 1783, as it marks a distinct point of departure from the past.
12. Lorimer J.G.:"Gazetteer of the Gulf, Historical," Vol III pp 1271-1272.
13. Molly Izzard: "The Gulf," Western Attempts to Get Closer to the Arabian Peninsula. p 153. General Egyptian Organisation for Information. Cairo 1980.
14. Lorimer, Op Cit Vol 3 p. 1274.
15. From hereafter we shall use the term Island instead of Islands.
16. Wilson· "History of the Gulf," Translated by Mohammed Amin Abdullah, p. 143 & subsequent pages. Sultanate of Oman 1981.
17. Dr. Mustafa Abu Hakima: "History of Kuwait', Vol 1, Part 1. p. 16 & subsequent pages, Kuwait 1970.
18. Lorimer, Op Cit Vol 3, pp. 1273-1274
19. Ruled from 1792 to 1804
20. See further: Dr. Jamal Zakaria; "The Bu-Saeed State in Oman & East Africa." 1741-1856, Cairo 1967.
21. Amin Saeed: "Arab Gulf in Its Political History & Renaissance," p. 49 & subsequent pages. Beirut 1965.
22. Aramco, Bahrain-American Oil Company in Dahran: "Oman & The Southern Coast of the Gulf," p. 2 & subsequent pages, Cairo 1952.

# NOTES AND REFERENCES


1. Information office: "Bahrain Antiquities." Manama 1971. The Sumerian legends speak of the Paradise of Tilmon by which the Islands of Bahrain are meant. See: Dr Ahmed Fakhri: "Studies in the History of the Ancient Orient." Page 28, Cairo 1983.
2. Mahmood Bahjat Sinnan: "Bahrain, the Pearl of the Gulf." pp 13-14 Baghdad 1963
3. Yaqoot al Hamawi: "Mo'jam al Buldan": Vol 3. pp 72-73 Cairo 1906
4. Al Hydari, Ibrahim Bin Fasseeh Bin Syed Sabghat Allah: "Unwan al Majd fi Bayan Ahwal Baghdad wal Basra wa Nejd" Baghdad.
5. Wilson Sir A. The Persian Gulf, pp 2-3 London 1954.
6. Ministry of Information: "Bahrain on the Road to Progress," p 12 & subsequent pages, State of Bahrain
7. Mohammed Bin Khalifa Al Nab'hani: "Al Tohfat al Nabhaniyya Fi Tareekh il Jazirat il Arabiyya," p 13 & subsequent pages, II Edn Cairo 1342 H.
8. Hoskins, H.G., "British Routes to India," p. 20, London 1964.
9. "A study of the History of Utoob": Dr. Ali Aba Hussain. He has relied on an Ottoman Document taken from the Ottoman Prime Minister's Archives bearing Serial 111. It confirms the existence of the Utoob in Bahrain since 1700 A.D.

5. Between the Muslims and the British, sometimes against the Persians and sometimes against the Qawasim Arabs and their allies who constituted an Arab naval power and were opposed to British presence in the Gulf region.

These were conflicts occurring with periodic regularity from which Bahrain was not safe because of her location and resources which evoked avarice and hankering for it.

Hence we are in a position to say that the conflicts which raged in the Gulf with their repercussions on Bahrain were disastrous for all countries of the region. The result was that the British power ran riot in the Gulf, stepped up its interference and political influence in its constituents taking advantage of the absence of a unified Arab or Islamic force until Mohammed Ali's forces reached the Gulf at the end of the third decade of the nineteenth century bringing about changes in the political equations of the region.

did not violate the Red Line.

It appears that the Shaikh of Abu Dhabi felt annoyed over the behaviour of Isa Bin Tareef and asked him to leave his country unless he undertook not to indulge in military adventures or aggressive actions against the shaikhs of Bahrain and others.

It should be noted that very friendly correspondence was exchanged between the Shaikh of Bahrain and the Shaikh of Abu Dhabi for removing any cobwebs affecting their relations. The result was the conclusion of an offensive-defensive agreement between the two Shaikhs, and Isa Bin Tareef agreeing to freeze all offensive action and quit Abu Dhabi at the end of the pearling season of 1839. [165] The purpose behind it was to resume his activity against Bahrain.

In the light of what we have stated we find that the Arab Gulf was submerged in continuous wars eversince the beginning of the nineteenth century until the emergence of Mohammed Ali, the Ruler of Egypt at the close of the thirties of that century. We may circumscribe these conflicts within the ambit of the following:

1. Inter-Arab conflicts such as were witnessed between Muscat and the Qawasim Arabs or between the people of Oman and the Qawasim and their allies, or betwen Muscat and Bahrain, the Integrationists and Oman or the Intergrationists and Bahrain.

2. Between the Arabs and Persians and as we see it, between the Omanis and Persians or between the Persians and Bahrain or between the Qawasim Arabs and Persians.

3. Between the Arabs and the Ottoman States, and as we see it, between the Integrationists and the Turks or between the Omanis and Turks in Basra.

4. Between the Persians and the Ottoman State as we see it in Iraq.

the Shaikh of Linga came to nought, they responded to the initiative of Hennel. A meeting was held in Bushire resulting in an agreement which was signed by the Shaikhs of Sharjah, Dubai, Ajman, and Abu Dhabi for the maintenance of maritime peace for six months starting from 21 May 1835 After the conclusion of this agreement Hennel proposed the delineation of a stop line or a red line indicating nonpermissibility of any kind of aggressive action beyond that line. The Shaikhs concurred with this proposal and agreed to abide by it. [162]

However soon after that another agreement was concluded with the Shaikh of Bahrain laying down a new route. The people of Huwaila, particularly Isa Bin Tareef, who had migrated from Qatar to Abu Dhabi, however, constituted an obstacle in the path of the general policy framework of the Rulers of Bahrain which aimed at preserving and strengthening peace and security in the Gulf, to set the pace for trade and commerce. The Shaikh of Bahrain hoped for the following:

1. Concluding a peace agreement with the British Government's guarantee for it.
2. That these migrants would return to Bahrain.
3. Non-involvement in war against the Shaikh of Abu Dhabi.

However, in accordance with the British policy of nonintervention in local conflicts involving the Gulf Arabs except when absolutely necessary, the British Political Resident in the Gulf refused to give any type of a guarantee by the British Government for the peace treaty signed by the Shaikh of Bahrain with his adversaries who had migrated to Abu Dhabi.

When the situation worsened and fighting broke out between Bahrain and the migrants the British authorities hastened to convey to both parties the need to ensure that the naval operations

Although these conflicts were local, inspired as they were by tribal groupism, the British authorities in India and the Gulf did nothing to stop the internal fighting by the Arab tribes, yet they feared lest these conflicts should spill over to the high seas of the Gulf which could have revived the Arab naval power in one way or another and that it should subject British ships to piracy, as termed by the British.

It seems that captain John McLeod, the new Political Resident in Bushire took stock of this issue and in the course of a report which he sent to his Government on 10 Feb 1823 at the end of his tour of the Gulf countries mooted the proposal of banning all naval contests between the Arab Shaikhs under a British guarantee. [159]

Local wars continued among those tribes, sometimes heating up and sometimes slowing down costing all of them material and manpower losses. [160] Quite clearly their power weakened in the face of the British in the Gulf.

This is when the British saw an opportune moment to intervene while pretending that they were acting in the interests of the Shaikhs themselves. At the same time it was a message to them that they were the main power in the Gulf who had the reins in their hands.

When the British Resident, Samuel Hennel saw that the various Arab parties were desirous of ending their strife, he acted by sending an invitation to the contesting Arab shaikhs or their representatives to attend a meeting at Basidu on the Island of Qishm for the purpose of finding a solution to their disputes and for arriving at a settlement for maritime peace during the diving season. [161]

In the light of the situation of intransigence reached by these Shaikhs in the past when all mediation attempts by the Sultan of Muscat or of

was incumbent on the Saudi Amir to enlist the alliance or at least the tacit support of the Shaikh of Bahrain. The dangers posed by the forces of Mohammed Ali, the Government of Fars and the Government of Oman from different directions helped in the forging of an alliance between the Al Khalifa and the Saudis leading to the opening of communication lines between Bahrain and the Al Hasa coast. [156]

The Bani Khalid lived through these developments and saw in the murder of Amir Turki Bin Abdullah Al Saud a good opportunity to recover their position of influence in Al Hasa So they attacked the Integrationists in Hofuf and Qatif but the Saudi agent in Hofuf, Umro Bin Ofaisan, was able to contain the assaults of Bani Khalid and inflict serious losses on them. The Bani Khalid were forced to repair to the Island of Tarut under the protection of the garrison of the Bahraini shaikhs there. [157]

Soon after, the Amair tribes (from Bani Khalid) along with some Hawajir who had settled down in Dammam and were nominally at least considered the subjects of the Shaikh of Bahrain, launched piratical attacks on the ships of the Qatif port and aggressed against some Bahraini boats as well. The Shaikh of Bahrain moved fast and subdued them and captured two of their boats. These skirmishes resulted in the death of five persons from these tribes. [158]

## THE EXTENSION OF THE RED LINE TO BAHRAIN

Peace did not last long in the Gulf after the signing of the General Treaty of Peace between the Shaikhs of the Arab Gulf and the British in 1820. Very soon thereafter conflicts started between the Qawasim under the leadership of Shaikh Sultan Bin Saqr and Bani Yas led by Shaikh Tahnun Bin Shakabut of Abu Dhabi.

st started raiding the mer-
ınt ships and the Bahraini
,ɔs *too were not spared.*
ɘlve Bahraini sailors were
led which forced the
aikh of Bahrain to mount
expedition and lay siege to
coasts of Qatıf an Ojair
keeping vigil on the sea-
.rances to these two
ts. [151] This led to friction
ween the two countries
ce the Saudis consıdered
area including Bahrain
ng under their protection.
hraini control over entry
ıtes to the eastern coast
seen as a breach of the
ıce Agreement sıgned ın
1 by the two partıes as
ntioned earlier

This hapened at a time
en Amir Turki Bın Abdul-
Al Saud was embroıled ın
onflıct with Mushari Bin
dul Rahman Bın Saud [152]
› believed that he had a
ter tıtle to Nejd than hıs
ɘ Amir Turki. The con-
t ended when Musharı
hed a plot and got Amir
ki murdered in 1833. His
, Amir Faisal, who was
fighting in Qatif and the

eastern coast was forced to return to Riyadh to avenge *his father's murder.* [153]

These developments helped the Ruler of Bahrain in annexing the Island of Tarut ın 1834 and reınforcıng the blockade of the ports of Qatıf and Ojaır. The matter ended when the Al Khalifa gaıned control of Dammam in 1835. [154] The Shaikh of Bahraın agreed to pay to Amır Faisal Bin Turki Al saud a modest amount of about 2000 rupees. The justification for the payment of this amount was to guarantee the Saudi Amır's support to the Ruler of Bahraın in case the Sultan of Muscat made common cause with the Government of Fars [155] The Saudı Amır on his part was happy with this arrangement because the encırclement by the Bahraini fleet of Saudı coast had ınflıcted a great loss on the Saudı population of Al Hasa and there were fresh developments on the western front represented by the forces of Mohammed Ali. Under these circumstances it

in regard to Bahrain what stood in the way was his agreement with the Shaikhs of Bahrain promising them his protection and accepting from them an annual tribute in the style of other states located on the Arab coast of the Gulf from Ras al Hadd to Jaran with the sole exception of Abu Dhabi whose ruler Shaikh Tahnoon Bin Shakabut had announced his allegiance to the Intergrationists. [146]

The Shaikhs of Bahrain understood this political game as the Al Saud had gone too far in pressing their claims for the surrender of their fort in Dammam on the Al Hasa coast. This problem had not escaped their notice as it was at the instance of Bashar Bin Arhama Al Jalahima.

They tried to spoil this game by making peace with the Integrationists and agreed to pay to them 40,000 German crowns annually [147] as payment for the horses which the Saudis had left behind during the period of rule of Shaikh Abdullah since several years. They also agreed to pay zakat in return for their help against the Sultan of Muscat. [148]

No sooner had this rapprochement between the Bahrainis and Saudis resulted in the resolution of problems between them in 1831 and the Dammam fort remained in the hands of Al Khalifa that the Sultan of Oman's dream of conquering Bahrain with the aid of Bashar Bin Arhama faded although the Saudis had agreed to establish Bashar in the Island of Tarut facing Qatif. [149]

Bashar Bin Rahma did not remain in Tarut very long. He quarrelled with the people of Qatif who subdued him and destroyed his fort. He had no choice but to escape to Muscat so that he could be close to Sultan Saeed. [150]

Soon enough the conditions deteriorated in Al Hasa when the 'Amair tribes on the Qatif

Greek wars whereby the Greeks wanted to break away from the Ottoman State, the development of relations between Mohammed Ali and the Ottoman Sultan Mahmud II in the wake of the Battle of Nawareen of 20 Oct 1827, the revolt of Mohammed Ali against the Ottoman State and his campaign to merge Syria into his nascent state. [144]

In the light of all this the Saudis appreciated that Mohammed Ali will never think of switching over his forces to the eastern front of the Arabian peninsula. Accordingly they cast their glance across the Gulf towards Bahrain from their base in Al Hasa.

Perhaps the Ruler of Bahrain was waiting for the Sultan of Oman to implement the agreement signed on 2 Dec 1829, particularly the oral commitment to rush to the rescue of each other in the event of aggression from a third party. However what actually happened was as follows in regard to the Sultan of Muscat:

1. Bashar Bin Arhama Bin Jabir Al Jalahama continued to be close to Sultan after the death of his father despite the enmity which existed between the Rulers of Bahrain and Arhama and his son Bashar
2. The Sultan did not come in the way of the Saudi plan of rehabilitating Bashar in Dammam so that he could be a thorn in the flesh of Al Khalifa rulers. He hoped that in due course there would be a closer link up between him and Bashar which would open up a way for the invasion of Bahrain once again. [145]
3. The Sultan sent word to Riyadh that he desired to impose his authority over Bahrian and expressed his readiness to pay 'zakat' to Al Saud but the Imam of the Integrationists replied to him diplomatically that while he had nothing against the Imam's desire

other Shaikhdoms and tribes inimical to the rule of either of them? or was it any foreign power in an emergency? What was the extent of their verbal commitment? Was this agreement as such effective by itself or was it subject to exigencies of a developing situation? We shall prefer to let the subsequent developments speak for themselves in answer to these questions.

We have mentioned that the Saudi aspirations for Bahrain were greatly subdued and in fact totally subsided becasue of their involvement with the wars of Mohammed Ali, the Ruler of Egypt in the west of the Arabian peninsula. These ended in the capture of Dar'iyya by Ibrahim Pasha, the commander of the Egyptian forces in Sep 1818. Dar'iyya was the capital of the Saudi Intergrationists. [141]

Once the forces of Mohammed Ali withdrew from the eastern front in 1819 leaving behind Al Hasa under the rule of Bani Khalid on behalf of the Government of Mohammed Ali in Cairo, the Saudis availed of the opportunity to commence hostilities against thè Bani Khalid which lasted six years. Ultimately the Al Saud were able to get the better of the Bani Khalid and spread their domination over Al Hasa in 1830. [142]

It appears that the Ottoman Sultan was not a little worried over the events in Nejd. The Government of the High Porte was anxious about the Integrationists regaining power It would have meant the revival of their raids against the Ottoman effects in their Asian wing as was wont before the wars of Mohammed Ali against them. So the Sultan asked Mohammed Ali to reconquer Nejd, and do away with Saudi activity altogether. However Mohammed Ali was busy at that time with his wars in Al Mora and hence did not respond to the Sutlan's call. [143]

It seems that the Saudis were aware of the circumstances as to how the Egyptian fleet got involved with the

welcomed the continuance of inter-Arab conflicts to weaken them as a whole as long as it did not involve their interests. A proof thereof lies in the Resident informing the Bahraini Ruler that he was free to wage war against the ruler of Oman as long as the nature of the operations did not assume the character of piratical operations. When the British apprehended the possibility of the conflict extending to other Shaikhdoms and affecting their interests they moved quickly to threaten the use of force if the conflict betwen the two parties did not end. Moreover, the refusal of the resident to guarantee any agreemnt which could possibly conclude between the rulers of Bahrain and Oman showed their anxiety not to involve themselves directly in the conflict If the Ruler of Bahrain were to bear any responsibility and had there been a fresh aggression by Muscat against Bahrain it would have been perfectly in order for him to act in defence of his interests even if it meant affecting British interests in the Gulf.

In any case, although the British resident withdrew from the negotiations Shaikh Moahmmed Bin Nasser, the ruler of Bushire stepped into his shoes and brought about reconciliation between the Sultan of Oman and the Ruler of Bahrain who signed an agreement on 2 Dec 1929 after the Al Khalifa paid to the Sultan of Muscat blood-money for the death of his brother Syed Hamad. [138]

This agreement provided that neither should interfere in the affairs of the other. They also entered into a verbal understanding that they would come to each-other's rescue if attacked by a third party. [139] Shaikh Tahnun Bin Shakabut of Abu Dhabi also acceded to this agreement. [140]

Actually this verbal undertaking requires a little explanation. Who was meant by the third party? the Persians? - the Saudis? - or some of the

adventure did not put 'paid' to the dispute between Oman and Bahrain. [135]

The Government of Bombay was closely watching this conflict. It did not expect that it would spread to engulf other Shaikhdoms in its flames such as Asaloo etc It was concerned lest it should extend to the open seas in the Gulf along the routes followed by mercantile ships. In such an eventuality some tribes would have resumed their attacks on British ships in the confusion attending this conflict. When it learnt that the Sultan of Oman was contemplating a fresh expedition against Bahrain and that the Al Khalifa were refitting their fleet with wargear and posting battlescarred veterans to it, it hastened to warn the Ruler of Oman that any military move would revive disturbances in the Gulf and would be put down by the British authorities in India with a heavy hand. It issued orders to Wilson, the Political Resident in Busire in April 1829 that he should offer his mediation to the rulers of Muscat and Bahrain to end the conflict and usher in peace between them

When Wilson broached the subject with the Ruler of Bahrain the latter put forward the condition that England should accept responsibility and provide guarantee for any agreement that may be concluded between him and the Sutan of Muscat. He doubted Muscat's intentions towards Bahrain. [136]

The British Resident refused this condition totally. The negotiations dragged on for several months without any agreement emerging therefrom satisfactory to both parties. The British Resident then formally ended his mediation. [137]

In fact the refusal of the Political Resident to accept any British responsibility for the implementation of any projected agreement and his ending the mediation does not take away from our earlier observation that Britain

tainees and prisoners. [131]

It seems that there were other reasons too which made Sultan Saeed hurry back to his country. Apart from the huge loss in men and material which he suffered the following other factors could be relevant.

1. He was apprehensive of revolt in his East African possessions. A revolt actually broke out in Mombasa.
2. He could not rule out betrayal by the Bani Yas tribes who had abandoned him and returned to their country. [132]

Apparently this victory encouraged the Ruler of Bahrain to put an end to the greed of the Sultan of Muscat in respect of Bahrain in particular. The Political Resident in Bushire informed him that article 4 of the General Treaty of Peace [133] meant non-belligerency between the trucial tribes if such belligerency assumed the character of piracy as against open and declared war. [134]

This known fact requires to be pondered because it is incapable of any other interpretation than that the British Government did not mind if the Arabs slaughtered one another. Such an interpretation by the Political Resident was an open encouragement to war among the Arabs leaders which would sap their energies and strength and it would be easy for the British to impose their will on them whenever needed.

In any case, when the Shaikhs of Bahrain learnt that involvement in regular wars did not constitute a breach of the General Treaty of Peace they thought it best to carry the war to the waters of Muscat itself. So Shaikh Abdullah bin Ahmed led a fleet consisting of seven large ships and set sail on 21 Mar 1829 for Oman to confront two frigates which the Sutlan (Syed Saeed Bin Sutlan) had deployed to challenge the Bahraini fleet. However, this

leave them alone to pursue their commercial avocations without let or hindrance. Nevertheless the Ruler of Muscat never gave up his hankering for Bahrain in the same way as was the case later with Zanzibar.[129]

In June 1828 there was talk of the Sultan having sounded an alert in his armed forces for invading Bahrain. He sent a letter to the Ruler of Bahrain in August threatening war against him before the end of the month. This advance warning directly helped the Ruler of Bahrain who set about collecting men and material to meet the eventuality.

When the Omani fleet arrived at the end of September 1828 led by Sultan Saeed himself and laid anchor around the Island of Sitra the Bahraini Force was ready to meet the Omani landings. Bitter battles broke out between the two sides resulitng in a crushing defeat to the Omanis. Sultan Saeed himself was wounded by a spear in his foot and would have found a watery grave but for the timely rescue of his Nubian soldiers. He returned to Muscat with the remaining soldiers on 21 Nov 1928 broken and defeated, having lost 500 of his men.[130]

Sultan Saeed had detained some Bahrainis prior to his launching his expedition. These were the people who were returning from India in their mercantile ships and had halted in Muscat. Among these were Abdul Rahman Bin Rashid Al Fadhil and his ship Al Jabiri, Mohammed Bin Muqrin Bin Mohammed Al Khalifa, Mohammed bin Saqr al Mo'awada and his ship 'Al Tawakkuli' and Sayyar Bin Qasim al Moawada and his ship 'Al Sultani'. He had held them in the Moza Tower of the Jalali Fort. Sultan Saeed wanted to put them to death to quench his buring thirst to avenge his defeat in Bahrain. However he abstained from it at the intervention of his sister Princess Moza who advised that it was no chivalry to kill de-

the Ruler of Muscat asked his fleet to get ready to attack Bahrain. The Government of India wanted peace in the Gulf then so that commercial activity could pick up. It feared that the attack on Bahrain may revive 'Jihad', a term used by the pirates while attacking the ships. So the Government of Bombay sent two letters in Aug 1822 addressed to both the Imam of Muscat and the Ruler of Bahrain, dealing with the problem of 'zakat' and suggesting coming to an understanding over the issue.[124] It asked the Political Resident Robert Bruce to tender advice to the two parties to abstain from war.[125]

When the British authorities saw that Sultan Saeed insisted on the Ruler of Bahrain paying him the 'zakat', the British Ambassador in Teheran Mr. Willock sent a letter to the Political Resident in the Gulf in 1823 asking him to inform Saeed Bin Sultan not to launch any aggression against the Ruler of Bahrain.[126]

In fact Bahrain continued to allure Sultan Saeed and he hungered to impose his hegemony over it since it was a naval location with a role in establishing and expanding his coastal possessions in the Gulf as well as in East Africa.

This is a historical fact. Zanzibar in East Africa was rich in cloves and was an important centre for trade in ivory and slaves.[127] It had ancient political and commercial relations with the people of Oman.[128] Similarly Bahrain had other characteristics in agricultural and sea-products not to be found in other places in the Gulf at that time. Moreover its central location in the Gulf enabled one to reach Kuwait and Basra easily and exercised a measure of control over the sea-traffic in the Gulf.

This is why Sultan Saeed never took his eyes off Bahrain inspite of the fact that the Shaikhs of Bahrain constantly endeavoured to induce him to sober down and

tain or in India did not mind internal feuds between these leaders of various descriptions tending to weaken them and keeping them divided. Their coming together would no doubt create difficulties for the pursuit of their interests in the region. [120]

The British authorities never tarried in interfering with or reconciling the feuding factions in the region if it found such a procedure useful and served its policies.

For instance, when General Keir saw that the Al Khalfia were inclined to making peace with the Ruler of Muscat after signing the General Treaty of Peace, as mentioned earlier, he welcomed the consummation of their desire. He knew beforehand that the Sultan of Muscat had his mind set on Bahrain and wanted to mount an invasion by himself without waiting for any other forces except his own. [121] The General acordingly wrote to the Sultan saying that the Government of India did not favour any disturbance of peace in the Gulf once again and that although he was an independent Sultan with freedom of action, nevertheless it was better that he faced the Saudi danger since the Egyptian forces had withdrawn from Al Hasa. The Sultan of Muscat saw the point and felt that he better shelve the issue of Bahrain now that he knew the British attitude. The Political Resident, William Bruce, played a prominent role in bringing together the Sultan of Muscat and Al Khalifa to sign the General Treaty of Peace in the following month. [122]

However, relations between Sultan Saeed Bin Sultan and Shaikh Abdullah Bin Ahmed once again touched a new low when Shaikh Salman died in 1821 [123] and his brother Shaikh Abdullah took his place. The dispute arose over the Sultan's demand that Bahrain should pay 'zakat' to him and Shaikh Abdullah refused to oblige. Matters came to a head and

ground that the Governor of Fars was not authorised to negotiate with a foreign power without a mandate from Tehran. Such a conduct could set a dangerous precedent.[116] Perhaps the Shah was afraid that other provincial governors would act likewise and fissiparous tendencies would be encouraged in the state.

Dr. Jamal Zakaria has opined that Captain Bruce had imagined his action would lead to peace and stability on the Arab side of the Gulf and that it would put an end to vengeful acts on the seas by those who were opposed to the authority of the Utoob [117]

It seems that the accession of the Shaikhs of Bahrain to the General Traty of Peace carried conviction with the British authorities in India that the Al Khalifa were desirous of giving a push to rightful commercial activity and did not want to be dragged into wars as long as they did not have to confront foreign aggression on their soil or on their ships.[118] This evoked a kind of sympathy among the British for their stand. From thèn on the British changed their past attitude towards Bahrain and felt that it would be preferable not to permit aggression on her or allow foreign intervention in her affairs.

It should be observed that until the end of the second decade of the nineteenth century the British interest in the Gulf centred more on the commercial than political. It had not yet formulated a detailed general policy for this region although it had taken note of the Gulf eversince the French expedition against Egypt and considered it one of the forward defence lines to protect her position in Día. It started toppling any foreign power trying for hegemony over the Gulf. It tried to bind the leaders of various countries therein to itself by means of agreements of one kind or the other.[119]

At the same time the British authorities whether in Bri-

guarding the freedom of navigation of mercantile ships in the Gulf.[111]

The treaty already contained these clauses but it appears that General Keir wanted to emphasise their observance and implementation.

William Bruce completed the success achieved by General Keir by brining about a rapprochement between the Al Khalifa and Syed Saeed Bin Sultan, the Ruler of Muscat.[112] We shall refer to it a little later. No sooner he had done that, that Bruce, without the knowledge of his government signed another agreement with Miraz Zaki Khan, a minister of the Ruler in the district of Fars, who also signed without reference to his government on 30 Aug 1822. This latter agreement provided for assistance to Iran in the attack on Bahrain which would lead to the cancellation of all privileges enjoyed by Al Khalifa in terms of the Genereal Peace treaty. It provided for extending aid to Iran in the shape of one or two warships for fighting the Utoob.[113]

When all this information reached the Government of India it hastened to inform the Government of Iran that it condemned the actions of William Bruce, the Political Agent. It also took positive action by transferring him from his post and ordering him to report to India forthwith. He was replaced by Mc Lloyd who paid a visit to Bahrain on 27 Jan 1823 with a view to softening the disastrous consequences of this agreement, banishing the cloud which had come over the traditional relationship between Britain and Al Khalifa and to reiterate that nothing had happened to alter this policy towards them.[114]

It is worthy of mention that the Shah of Iran also did not approve of this agreement. On the contrary he blamed the Governor of Fars for the same according to the report of Major Willock the British ambassador in Iran[115] on the

5. These ships may enter British and other friendly ports for purposes of trade.
6. The treaty recognised the independence of these shaikhs while it safeguarded the right of the British to interfere politically and militarily in their countries.
7. The doors were kept open for other Arab states to sign the Treaty if they agreed with its provisions.[106] Despite the criticism of the Treaty and the expression of differing opinions on it, the Treaty became the basis on which rested the British influence in the Gulf.[107]

## BAHRAIN'S ACCESSION TO THE GENERAL PEACE TREATY

When the news of this treaty reached the rulers of Bahrain they sent a representative (Abdul Jalil) to meet General Keir to arrive at an understanding with him and to express their desire to accede to the Treaty and abjure any dealings with the Qawasim.[108]

The British fleet in the Gulf had seizd the Qawasim ships which had taken shelter in Bahraini ports after subjecting them to attack for destroying them.[109]

General Keir agreed to the Al Khalifa request and permitted their representative Abdul Jalil to sign the Treaty on their behalf on 25 Jan 1820 in Sharjah. It was subsequently signed by Shaikh Salman, the Ruler of Bahrain and his brother Shaikh Abdullah Bin Ahmed Al Khalifa who shared rule with him, on 5 Feb 1820 in Bahrain.

General Keir had obtained a commitment from both that they would never permit any Qawasim ship to anchor (in Bahraini ports) except with the permission of the British[110] and that they would release the Indians imprisoned in Bahrain if any and would participate in safe-

forthwith bombarding Ras Al Khaima, etc.[102] Thanks to its superiority in weapons and the support it received from some Arabs it was able to inflict defeat on the opposing Arab naval force which abhorred British presence in the Gulf. [103] Once the basic military mission was completed by destorying their fortifications and their ships which were dispersed all over the ports of the Gulf [104] thus weakening them generally, General Keir was able to dictate to the Qawasim leaders his terms for concluding an agreement with him. The main terms of the agreement which was concluded between 6-8 Jan 1820 were as follows:

1. Demolition of all Qawasim fortifications.
2. Handing over of all Qasimi ships to the British.
3. All captured Indian prisoners to be released.
4. British forces to occupy the ports of Ras Al Khaima & Fujaira.
5. In return the British will not enter the Qawasim areas to loot and plunder them.

Subsequently the agreement was converted into a 'General Treaty of Peace' binding on all coastal Shaikhs. One Captain Baronet played a prominent role in these operations. He was an Arabist and on him devolved the responsibiliy for conducting parleys with the various Shaikhs and drafting the terms of the agreement both in English and Arabic. [105] They signed the agreement one after another until 15 March 1820. The essential points in the treatry consisting of eleven articles were as follows:

1. The signatories will abjure piracy.
2. They will not conduct slave-trade.
3. They will fly a red flag with a white border on their ships for differentiation with others.
4. The signatories will give proof of their nationality when demanded by British ships.

proves it better than among other things, the expedition they sent under General Fraser in 1807 A.D. to capture Alexandria.

Hence we see that England was practically afraid even if its fear was concealed then, of the presence of a strong unit in the Gulf. There is no doubt that it felt greatly relieved when Dar'iyya fell in 1818 A.D. While it felt happy over the defeat of the Integrationists it also worked to vitiate the Egyptian presence in the Arabian peninsula by embroiling Mohammed Ali in wars against the Qawasim although that was not the Ottoman aim at that time. Thus the British succeeded in pitching the Arabs against one another to ensure the breakup of the region into small states which were easy to deal with.

In any case Sadlier did not succeed in his mission and did not receive any reply from the Government of Cairo. Mohammed Ali's instructions at that time were noninvolvement with the British possibly because of the Ottoman pressure against him or because of his preoccupations with the campaign to conquer the Sudan.

While the British authorities in India despaired of Sadlier's mission they still considered it worthwhile to go it alone in conjunction with Sultan Saeed, the Ruler of Muscat. They wanted to mount an expedition to strike at the Qawasim, burn their ships and fortifications and punish them for their repeated displays of insult to the British flag flown on their mercantile ships passing through the Gulf [10] by taking advantage of the absence of the Saudis from that region.

Before Sadlier reached India the expedition had already been rigged up under General Sir William Grant Keir who had been issued military instructions by the Governor of Bombay, Napean on 27 October 1819. It set out from Bombay for the Gulf on 3 Nov. and started

Syed Saeed, the Imam of Muscat's participation in the projected operations.[97] He then proceeded to meet Ibrahim Pasha and sailed for Bushire and from there to Qatif which he made on 21 June. There he learnt that Ibrahim Pasha had proceeded to Medina and that the Egyptian forces were withdrawing from Nejd. After an arduous journey involving much discomfort and loss of face Sadlier reached Ibrahim Pasha's camp in Medina on 8 Sep 1819 and put forward his proposal. He conveyed to Ibrahim Pasha the congratulations of the British over his success in Dar'iyya and presented to him the letter of the Governor of Bombay the following day.[98]

Ibrahim Pasha realised that the British wanted his cooperation in destroying the Qawasim ships and disrupting their ports in the Gulf. He replied that in his capacity as the commander of the Egyptian forces he had to place the matter before his father in Cairo. Ibrahim sent the letter of the Governor of Bombay to the Governor of Egypt. Captain Sadlier attached along with it a letter from himself addressed to Mr. Henry Salt, the British Consul in Cairo asking him to expedite a reply by Mohammed Ali on this question.[99]

It sounds really strange that British authorities in India should ask the Egyptian forces in Nejd to strike at the Qawasim in the Gulf to thwart the Saudis getting close to them[100] out of fear that the constitution of a strong Arab force will doubtless be a danger to British existence in that region. Is it logical to suppose that the British wanted an alliance with Mohammed Ali or is it that the British had a plan for Egyptian existence in the Arabian peninsula?

It is well known that the British looked at Mohammed Ali with hatred and enmity eversince he undertook to rule Egypt. They apprehended his ambitions and plans since then. Nothing

Thence it became the topic of discussion in responsible British circles in Inida. There were some who favoured the merger of Bahrain with Muscat. Napean thought differently and his opinion differed all the way down the line which was adopted by Francis Warden and others who saw that the hegemony of the Sultan of Muscat over Bahrain would only push her further into the laps of Qawasım. [94]

In the light of all this, the Al Khalifa realised that the Bntish could not be relied upon and that they would resort to any means to serve their ends even though they had not overtly displayed any enmity towards the Shaikhs. This had a great bearing on the attitude of the Shaikhs of Bahrain towards the British thereafter.

In any case the fall of Dar'iyya on 9 September 1818 A.D. and the dominance of Ibrahim Pasha over Nejd [95] offered a good opportunity to the Government of Bombay which was long-awaited. It moved to prevent any help reaching the Qawasim from the integrationists and then deal a heavy blow to them as chastisement for their repeated insults to the British flag in the waters of the Arab Gulf. [96]

This was when the thinking of the Governor General of India bared itself in his plan whereby the forces of Ibrahim Pasha and the Sultan of Muscat would join the British forces to deal the coup de grace to the Qawasim.

On 13 April 1819, Captian George Forster Sadlier proceeded from the Royal 47 Corps to Ibrahım Pasha in Nejd with a letter and another for the Imam of Muscat with the intent of co-ordinating the effort to liquidate the Qasimi power, the ally of the Integrationists and the enemy of both the Imam of Muscat and the Bntish.

Sadlier reached Muscat on 7 May 1819 and collected intelligence about the Qawasim forces and the extent of

warlike activity. The Qawasim renewed their activity against British shipping and pursued them not only in the Gulf waters but also in the Red Sea and along the Indian shores. [89]

The British were facing a bitter situation in India with the Marathas and Pindaris since 1817 A.D. on the one hand and on the other, they were watching the development in Nejd resulting from the wars between the forces of Mohammed Ali under the command of Ibrahm Pasha and the Integrationists. I shall return to this subject a little later.

While the East India Company felt comforted by the success of the Egyptian forces in Nejd in breaking Saudi power, particularly because of its religious stamp, it felt disturbed by the activity of the Qawasim against its shipping [90] as it resulted in a slump in its trade in the Gulf as well as the Red Sea. The Board of directors in London held a meeting and issued instructions to Napean, the Governor of Bombay to organise a strong military expedition against the Qawasim in Ras Al Khaima and destroy their ships and fortifications. [91]

Forthwith the Governor of Bombay contacted the Viceroy of India, Marquis of Hastings to convey to him the instructions received from the Company in London and to plan a campaign to break the back of the Qawasim. [92]

Here rose the question of Bahrain which, besides its location and resources, had some of the Qawasim ships anchored on its shores. These ships visited its ports for replenishment of food stocks such as rice and dates. There was an understanding between the Qawasim and the Shaikhs of Bahrain. Bruce had since changed his opinion of the Shaikhs. In his report for the year 1817 he stated that Bahrain had become the main market for pirated goods. [93]

adding that even the Indian ports were open to Bahraini ships [87] as long as they respected the British flag flown on ships passing through the Gulf and abstained from any dealings with the Qawasim Arabs. Thereafter Bruce sent a report to the Bombay Government about the agreement signed with the Shaikhs of Bahrain stating that the Al Khalifa were exceedingly anxious about preserving peace and that they were devoted to pursuing free and honorable trade than to any other calling. [88]

In fact, the policy of the Shaikhs of Bahrain, as evident from the sequence of historical events was singularly free from any expansionist designs and generally speaking it was essentially based on the following tenets:

1. Free trade, its encouragement and protection.
2. Exploitation of sea-wealth through fishing and pearl-fishing.
3. Accent on agriculture and orchards.
4. Settling thorny problems with cool consideration, patience and wisdom.
5. Flexibility, calm and unhurried deliberation and forethought in decision-making.
6. Holding fast to the independence of the country and never bartering away its freedom to subserve any power even if it meant a violent confrontation.

Perhaps it was this policy which made Bahrain, despite its limited physical dimensions and with its important location between Hormuz and Shatt-al Arab, hold out steadfast in the midst of several conflicts which plagued the region.

## THE RETURN OF TENSION TO THE ARAB GULF AND ITS EFFECT ON BAHRAIN

Before the end of the second decade of the nineteenth century the Gulf region witnessed a revival of

It appears that this was the plank on which the Al Khalifa policy rested. As a commercial community they needed stability in the Gulf as an encouragement to trade activity. They wanted that trade should flourish by recourse to honorable means and were disdainful of any foreign power imposing itself on them They disliked that even a friendly power should use pressure on them to enlist support. In such a case they did not hesitate to inform the friend that they would deal with them, however powerful they may be, on the basis of tit for tat[85].

In any case the Ruler of Bahrain welcomed Bruce's visit since its purpose was ostensibly to give a boost to trade and ensure its security in the Gulf As long as the British Government did not encourage the Sultan of Muscat in attacking their country they did not particularly show any antipathy to them.

Actually the Government of India was a little perplexed about the Shaikhs of Bahrain and it was so until 1819 A.D. The Shaikhs were careful not to disclose their political trumps and never bared their chests to the British authorities. So the latter were never sure of the essence of their policies like most others. Sometimes they expressed their friendship for the British if the British were solicitous about respecting their independence and sometimes it was the reverse when they opposed the Shaikhs. The Shaikhs never hesitated in posing questions and seeking clarifications particularly when the matter concerned their country and its future.

For instance, the Ruler of Bahrain asked Bruce point-blank whether the British were his friends or foes. Bruce was constrained to protest British friendship even by concluding an unofficial agreement with Shaikh Abdullah Bin Ahmed Al Khalifa [86] even without reference to his Government. He wanted to assert British friendship and appreciation for the Shaikhs of Bahrain

ing the security of maritime and overland trade communications in the interest, of the East India Company. They wanted to keep out any other competing power which threatened their policies in India[80].

This is a historical fact which characterised British policy throughout their exixtence in the Gulf. Although the British were on good terms with the Imam of Muscat they never tolerated and even opposed any power whether Arab or Arab-Islamic, which tried to dominate all other local powers in the Gulf lest it should become strong enough to pose a threat to their interests, nay, to their very existence in the area.

Once the Imam of Muscat failed to enlist the assistance of Fars in occupying Bahrain he attacked it alone in June 1816 A.D. and suffered defeat at her hands[81]. In the meantime the British authorities in Bombay assured the Ruler of Bahrain that he would receive every help and encouragement from the British Government as long as he abjured piratical acts. At the same time they warned him that should he venture into this field the same measures would be adopted against him which were adopted against the Qawasim[82].

William Bruce, the representative of the East India Company and the Political Resident in Bushire, made a visit to Bahrain and told Shaikh Abdullah Bin Ahmed that the British-Indian Government desired friendly cooperation with Bahrain in the interests of peace and commercial activity in the Gulf[83].

When the conversation turned to Bahrain's relations with the Imam of Muscat and his defeat in that year (1816 A.D.) the reply of the Ruler of Bahrain was quite plain. He said that Syed Saeed wanted to help Bahrain against the Qawasim Arabs but this was something outside the scope of Al Khalifa's policy who did not want to get involved in wars against others as long as they were not subjected to aggression themselves[84].

developing threat from the Ottoman State represented by the forces of Mohammed Ali and the stalemate obtaining on the eastern coasts of the Arabian Peninsula[75].

This was how the Al Khalifa recovered their rule over Bahrain and the Saudis no longer aspired for it in view of their preoccupations with wars against the forces of Mohammed Ali in Hijaz.

## THE POSITION OF MUSCAT OVER BAHRAIN AFTER THE RETURN OF AL KHALIFA RULE

Syed Saeed Bin Sultan, the Ruler of Muscat, expected that Al Khalifa would pay him the tax (zakat) which they previously paid to the Integrationists in view of the fact that he had paid to them money for liberating their country[76]. However the rulers of Bahrain refused to oblige him and announced their independence of the Ruler of Oman[77]. The result was that the Sultan negotiated with the authorities of Fars for help in subduing Bahrain by force as had happened before when it had participated in the ejection of Al Saud from Bahrain in one way or the other and throwing out the Saudi Agent from there[78].

However, the authorities of Fars were engulfed in their own internal problems and in their relations with the British. At the same time they did not approve, for some reason, that either Muscat or Dar'iyya should dominate Bahrain although the Imam of Muscat was prepared to pay 10,000 Tomans annually to the Government of Shiraz if it gave the required help for his plans[79].

In view of the Imam of Muscat's repeated longings to grab Bahrain and his problems with the Qawasim and other Gulf Arabs, the question of Bahrain acquired considerable importance in the political activity of the British in the Gulf.

In fact the British realised its important position ever since the Portuguese were turned out in co-operation with the Persians. They continued their vigil in safeguard-

:stablish his authority over [illegible]ab lands.

In any case the Sultan of Muscat welcomed this initia-ive and presented to Shaikh Abdul Rahman Al Fadhil a sword named Al-Salmoni and some funds for enlisting men and purchasing weapons. Af-er due mobilisation he attacked Bahrain and turned out the Saudi Agent from here. The Saudi Agency along with some of his men are said to have fled to Arha-na Bin Jabir Al Jalahima at Al Khuwair, east of Zubara[73].

Arhama Bin Jabir and Ibn Ofaisan tried to snatch back Bahrain but could not suc-ceed because of the plans atched by Al Khalifa in col-aboration with their cousin Abdul Rahman Al Fadhil. It was made to appear that Bahrain was now in the hands of Al Fadhil and not Al Kha-ifa.

This is when the political acumen of Shaikh Abdullah Bin Ahmed Al Khalifa was employed with success with Imam Saud Bin Abdul Aziz. It was put to Imam Saud that a delegation of the scholars of Nejd should be sent with Shaikh Abdullah Bin Ahmed to negotiate with Abdul Rah-man Al Fadhil. It did not occur to Imam Saud that it was a plot managed before hand between Al Khalifa and their cousin. The delegation returned to Dar'iyya to report to Imam Saud saying that Abdul Rahman Al Fadhil had usurped Bahrain for himself. Thereupon Imam Saud re-leased Al Khalifa from cus-tody to enable the latter to recover Bahrain. The plot was revealed to Imam Saud by Arhama Bin Jabir but by then the Al Khalifa had reached Bahrain. Arhama Bin Jabir and Ibn Ofaisan tried to attack them in Bahrain but the sagacious statesman and warrior, Shaikh Abdullah Bin Ahmed inflicted a crushing defeat on them in the Battle of Akhki-kira towards the end of 1225 H[74].

At this stage Al Saud thought that it would be wise, logical and good policy to concentrate all his military effort in Hijaz to confront the

of the Arabian Peninsula.

It appears that Ibn Ofaisan dealt harshly with the people of Bahrain while collecting Zakat which so incensed the Al Khalifa that it almost led to open conflict between them. The Integrationist Forces imposed themselves not only on Bahrain but also on Zubara wherein dwelt the Al Khalifa. The commander of the Saudi Column Suleiman Bin Saif Bin Tauq, deceitfully prevailed upon some Al Khalifa leaders such as Shaikh Salman, his brother Shaikh Abdullah, his cousin Shaikh Abdullah Bin Khalifa Al Khalifa and some other leading personalities to proceed to Dar'iyya to meet Imam Saud Bin Abdul Aziz and arrive at an understanding with him about their country. When in Dar'iyya, Imam Saud asked the Al Khallfa to stay on there and returned the others to Zubara[71].

The author of the "First Saudi State" has opined that this behaviour meted out to the Al Khalifa and Bahrain showed that their intention was to occupy Bahrain and this predisposition was there when the Al Khalifa asked for their assistance[72].

In the light of the developments mentioned earlier the Al Khalifa thought of seeking the help of their kinsmen cousins from Kuwait (Al Sabah) on the one hand and on the other, sent word to their nephew in Bahrain Abdul Rahman Bin Rashid Al Fadhil to think of ways and means of getting rid of the Saudi garrison there. Ibn Al Fadhil rode his boat (Al Jabiri) and headed for Muscat to seek the help of the Sultan in driving out the Saudi garrison from Bahrain. This was a godsend for the Sultan who grabbed the opportunity eagerly as he was enraged against the Integrationists for imposing the tax (zakat) on Oman. Their influence at that time had spread far and wide in the lands of the Ottoman State which was not strong enough to confront them. There was also talk of the Ottoman Sultan asking Mohammed Ali, the ruler of Egypt to launch military operations against them and re-

tile acts against British shipping in future[67].

## THE INTEGRATIONIST SWAY OVER BAHRAIN

The Al Khalifa lived those days of utter confusion in the Gulf closely following the developments. They knew very well the enmity which existed between the Integrationists and the ruler of Muscat who had imposed his hold on Bahrain at that time. They did not rest in peace in Zubara particularly after the death of Shaikh Mohammed in 1808 who had been a hostage with the Sultan of Muscat. After considerable thought they saw that here was an opportunity to take advantage of the situation in the Gulf and get rid of the influence of Muscat by striking an alliance with Imam Saud Bin Abdul Aziz, the chief of the Integrationists and the Ruler of Dar'iyya and the sworn enemy of both the Imam of Muscat and the British[68].

In the middle of this disturbed situation in the Gulf, the Ruler of Dar'iyya saw in all this an opportunity for striking a decisive blow against the Sultan of Muscat, neutralising his influence in the Gulf[69] and ejecting him from Bahrain. So he sent an army under the command of Ibrahim Bin Ofaisan to help the Al Khalifa in liberating their country.

The Al Khalifa hardly had a breather after ridding Bahrain of Muscat overlordship when they confronted the Integrationists who appointed Abdullah Bin Ofaisan as their Agent in Bahrain to collect the tax (Zakat). The Al Khalifa were free only in respect of running their internal administration. Moreover this Agent announced that Bahrain had since been merged into Saudi territory and a new territorial unit had been formed out of the merger of Bahrain, Ahsa and Qatar which was to be known as Qatif[70].

This stirred the Al Khalifa who had hoped that they would wholly possess Bahrain since they posed no threat to the Integrationists in the east

as it was called, gripped the British which was directed against their commercial ships which sailed to Bushire and Basra. They were afraid lest the Sultan of Muscat should join the ranks of the Mujahids like most leaders of the Gulf if they did not act in time to prevent it[62].

The Sultan of Muscat failed in his attempt to obtain British support against the Saudis and was left all alone in the field whereas the Qawasim openly joined them[63].

Here lay a common interest between the Sultan of Oman and the East India Company. It was in the British interest to strengthen their bonds with Oman to prevent French entry into the region and it was in Oman's interest to get closer to the British for liquidating the power of the Qawasims who supported the Integrationists[64].

The Government of India launched another naval expedition in September 1809 in coordination with Sultan Saeed, the Ruler of Muscat. The expedition left Bombay under the command of Captain John Winright and Colonel D. Smith of the Royal Navy with the task of destroying all ships of the Mujahids which intercepted the British commercial ships and imposing a treaty on the tribes which had participated in the Jihad such as the tribes of Qawasim and Arhama Bin Jabir Al Jalahama[65]. By avoiding friction with the forces of the Integrationists they also ensured peace in the waters of the Gulf in future[66].

But when the British opened up their guns on Ras Al Khaima on 11 November 1809 the Integrationist Forces advanced from Buraimi under the command of Mutlaq Al Matiri to aid the Qawasim. This sent a wave of fear and distress in the ranks of the British who, more than anything else feared provoking the fundamentalist forces rallying under the banner of Islamic Jihad. Hence the attacking force hastily withdrew after suffering casualties of 11 dead and 55 wounded. It also failed in obtaining from the Arab tribes a formal commitment to abstain from hos-

and took possession of them not only in the Gulf but also in the Indian waters themselves. [56] Thus a kind of peace which had prevailed in the Gulf for two years in the wake of the signing of the agreement gave way to a strong and prolonged outburst of activity.

Apparently there were other factors encouraging the Qawasim in resuming their activity. One of these could be the bridging of the gulf between the British and the Ottomans in 1808 A.D. This led, on the one hand, to British confidence in the safety of her interests in the Gulf from Iraq and, on the other, of their friendship with the Sultan of Muscat, viz., Saeed Bin Sultan. One result of all this was that the British were encouraged to withdraw some of their naval forces from the Gulf to reinforce their front against France. [58]

We cannot rule out the Integrationists being behind this activity who helped the Qawasim in one way or the other and as we have pointed out earlier, they considered it a kind of religious war against the ships of the infidels. The Qawasim also considered their naval adventures as a part of Jihad and looked at their piratical gains as war booty, onefifth of which was to be given to the legal ruler according to Islamic jurisprudence and the rules of Jihad. [59]

In any case, as a result of the revival of the Qawasim activity, the British revised their calculations in that region particularly because of the French proximity to them in East Africa. French ships used to launch themselves from the Moon Islands and pursue British ships in the eastern seas and the Gulf. [60]

The merchants of Bombay started shouting for help from Governor (Duncan) against the attacks of the Mujahids in the Indian waters although these were directed against British ships which had come to dominate the eastern trade. [61]

Consequently the fear of the revival of Jihad or piracy

who were contesting the British ships in the Gulf [49] received the support of the Saudi Integrationists [50] who were at loggerheads with both the ruler of Muscat and the British and considered the action of the Qawasim against foreign ships in the Gulf as a kind of Jihad or holy war.

Actually, ever since the staging of the French Revolution in 1789 A.D. the wars in Europe left their imprint on it. These wars spilt over the boundaries of Europe for instance and engulfed Britain and France in its flames. Bonaparte arrived in Egypt with his actual and visionary projects for the Ottoman State, Fars, Afghanistan and the Arabian peninsula. The Arab Gulf was undergoing convulsions because of increasing Qawasim activity against British commercial shipping and even their capture which led to [51] the Government of India to move in the matter. It established contact with the Sultan of Muscat, Badr Bin Saif for mounting a punitive expedition against the Qawasim Arabs in 1805 A.D. [52] while avoidin any brush with the Saudis. The expedition ended with the signing of an agreement between the British and the Qawasim on 6 Feb 1986 A.D. in Bandar Abbas for the maintenance of peace in the Gulf and this was without recourse to the Saudis. [54]

Both the Persians and the Ottomans were closely watching the growing Saudi power in the Gulf during that period in particular. The influence which Muscat had during the time of the previous Imam, Syed Sultan started weakening and Oman's ties with the independent Shaikhdoms shrank. [55]

For these reasons, despite the agreement which had been concluded, the Qawasim promptly resumed their attacks against foreign shipping.

It seems that they exploited the Anglo-French conflict in Europe and the embarrassment of the Government of India when they launched their attacks on British ships

strongarm tactics of the Sultan's officials appointed over tnem in Bahrain. This made the Al Khalifa pay back in the same coin which necessitated another attack on Bahrain resulting in the imposition of the following terms on the Utoob this time:

1. That Shaikh Salman will divest himself totally of the rulership of Bahrain
2. Shaikh Salman will deliver his brother Shaikh Mohammed to Muscat as a hostage.
3. In return Shaikh Salman's properties and assets will be guaranteed.

The purpose behind holding Shaikh Mohammed as a hostage was to ensure against Bahrain's revolt and reconcile it to the new rule under Muscat's sovereignty.

The Sultan's brother Sayed Salim, arrived in Moharruq and constructed a fortress on the coast to act as his headquarters from where he could rule over the island and protect it.

In this situation Al Khalifa were forced once again to migrate to their old base of Zubara alongwith their families and followers where they were safe from Al Saud. [47]

It appears that the Al Khalifa were reconciled to this new situation which lasted six painful years particularly because of their political clout in Bahrain along with their economic activity which was mainly based on trade [48] started suffering an eclipse day by day. In spite of these circumstances the Al Khalifa did not give up and set thinking about how to rid Bahrain of Muscati overlordship.

## THE SITUATION IN THE GULF DURING MUSCAT'S OCCUPATION OF BAHRAIN

During this period the Gulf witnessed a military confrontation between the British forces and the Qawasim. The Sultan of Muscat helped the British in one way or the other. The Qawasim Arabs

fat Hisab Nau Rooz Ahl 'il Bahr" written by one who was an eyewitness to the events confirms that the attack was actually delivered in 1802 A.D. This raises doubt about the memoranda of Warden if we take into consideration the fact that the British officers mostly depended on hearsay without much thought about the authenticity of the individual. This was particularly so if the events occurred before they arrived in the region.

In any case the implementation of the Omani invasion of Bahrain commenced in the beginning of September 1802 when the siege was laid and a truce was signed between the Imam of Muscat and Al Khalifa on 2 October with the following stipulations:- [46]

1. The rulers of Bahrain would pay to the Sultan of Muscat a sum of 1,500 Tomans) currency then prevailing in Bahrain) annually.
2. Properties of some persons which had been confiscated because of their collaboration with the Sultan would be restored.
3. The residents of Fars, Bandar Rig, Kabandi and from Za'ab to Qishm since the time of Shaikh Salman Bin Ahmed would be considered the coastal population.
4. Whatever the losses in men and material would be considered lost.
5. Those who left Zubara to fight the Wahabis will not be called upon to pay any Dirhams as stipulated. (Perhaps the reference is to the enemies of the Sultan.).
6. (If they were subjected to any attack in Bahrain the Sultan would come to their rescue with men and material.) Perhaps the reference is to the supporters of the Sultan.

It will be seen from these terms that they were favourable to the Sultan of Muscat and annoyed the rulers of Bahrain. What increased their annoyance was the

# MUSCAT'S ATTACK ON BAHRAIN

The British sources state that the Sultan of Muscat attacked Bahraini ships while they were returning from India in 1799 A.D. and invaded the Island itself in 1800 A.D. The Al Khalifa recovered it in 1801 A.D. and the Muscat forces retired in the same year, but these forces landed in Bahrain once again in 1802 A.D. [44]

Hardly had the writer completed the study of this matter in the light of these sources and other Arab sources bearing on it and despite the fact that there was a contradiction regarding the timeframe, the writer tarried a while when a new study of this subject was presented by Shaikh Abdullah Bin Khalid Al Khalifa under the heading "Shaikh Salman Bin Ahmed Al Khalifa" wherein he proved by means of a manuscript which he quoted in the text that the Sultan of Muscat had captured Bahrain in 1802 A.D. [45]

In the light of this study the writer is of the opinion that it is more logical for this date to be 1802 A.D. for the following reasons among others:

1. The available British sources do not mention this date and if Lorimer refers to it in passing without emphasis on it, it appears that he was not sure of its accuracy.
2. Francis Warden (a member of the Bombay Council) who has recorded the dates for this period was far away from the scene of the happenings and as Shaikh Abdullah's study shows, he wrote his memoranda in 1819 A.D while in india. His memoranda are the sole source of reference for British writers whose writings are taken to be the basic source-material for the recent history of the Gulf and on which other historians depend.
3. The discovery of a manuscript in Arabic, "Uqad Jayyid al Durar Fi Ma'ri-

Sultan for victory over Bahrain. [42]

In fact, commercial rivalry had a clear role in the determination of relations between the Imam of Muscat and Al Khalifa. Ever since the Al Khalifa conquered Bahrain their ships started plying in the Gulf and the eastern waters thus competing with the people of Oman Omani ships used to participate in sea transportation alongwith British and Indian ships

The port of Muscat acted as a distribution-centre for the merchandise of the British East India Company arriving in the Gulf such as English woollens, Bengal silk, spices, indigo, pharmaceuticals, porcelain and cotton textiles while the port of Basra acted as a distribution point for European merchandise arriving from Syria and the desert. The Gulf in turn used to export pearls and date. Bahrain's export of pearls reached a figure of about a million rupees in the year 1800 A.D. when the total imports of [illegible] Bahrain and Oman were [illegible] ie or [illegible] r of a million rupees [43]

The policy of Al Khalifa aimed at making Bahrain an entrepot par excellence in the whole of the Gulf situated as it was at almost the centre of the Gulf as mentioned earlier. This could lead to the economic prosperity of its people and save them the payment of transit dues to Muscat.

This did not hurt the British authorities who looked at it in the overall framework of their interests in the Gulf. The Sultan of Muscat had a totally different view of it who saw in the Utoob not only participants in trade and maritime transportation but also dangerous rivals to him in these fields. Moreover Bahrain was close to the Qawasim and the Integrationists and hence the Sultan was determined to attack Bahrain and merge her into his territories.

□

such as to benefit his country.

3. The Sultan made it known to the British authorities though indirectly that it was possible for him to strengthen his relations with the French.
4. If the British authorities did not give him war material the French were quite willing to meet all his military needs.
5. As he was preparing then to invade Bahrain it was a matter of concern to him that Bahrain was not supplied any warships.

Until then England was not concerned with the Gulf except in terms of trade so that this route was safe and did not pass into the hands of any other regional or foreign power. But the French invasion of Egypt cast a shadow on its influence and interests in the eastern sea generally and posed a threat to it just like the action of the Sultan of Muscat had done. Hence it linked up with the Sultan by means of an agreement to thwart French designs and confront the remnants of Dutch competition in trade in the region. So it occupied the rocky Perim Island in the year 1799 [41]

Whereas the British policy until then followed a pattern of noninterference in the internal squabbles of the Gulf States as long as they did not adversely affect its commercial interests or the safety of its communications in the Gulf, now they sagaciously withheld displaying their cares in those critical times so as not to lose the friendship of the Sultan of Muscat in view of the importance of that country to them. They even blocked the escape route for the Imam to restore his links with the French The Governor of Bombay wrote in reply to the Sultan's letter mentioned earlier in May 1799 that the Government of India would never extend any facilities to the Utoob of Bahrain nor would it permit their purchase of any warships in Bombay. To cap it all the Governor of Bombay added his good wishes to the

towards Inida and to know the extent of their assistance to the French. [37]

It appears that Bonaparte ignored the religious susceptibilities which linked the Muslim nations and perhaps did not realise that the fall of Muslim Egypt into French hands was at least a stab in the back of the Arab people. [38]

The agreement of the Imàm of Muscat with the British did not mean his insusceptibility to Muslim sentiment running against the French, but that it was an evidence of his unbridled ambition, in wanting to utilise the international situation for the benefit of his country. He wanted to realise his aims in Bahrain by exploiting the agreement to his benefit although the terms were patently favourable to the British. [39]

He wanted to gauge the pulse of the British authorities in India to know the extent of help he could get since he knew that the Utoob of Bahrain had one of their agents sent to Bombay for the purchase of some ships. The Imam wrote to the Governor of Bombay in April 1799 A.D. to say that he had refused to meet a French military representative on the Hormuz island and that the French had offered him military ware for use against the Utoob of Bahrain. He asked the Governor, on the basis of the friendly relations existing between him and the British Government of Bombay, to refuse to sell any ships to the Utoob. [40]

If we analyse this letter we are led to the following conclusions:—

1. The Sultan of Muscat started setting his own conditions to the British as otherwise he averred that the agreement between them would be no more than ink on paper.
2. The agreement would be altered or at least its implementation would be

viding for a commitment by the Imam not to establish any contact with the French nor to allow them or their ships access to ports where British ships were anchored in the event of war breaking out between France and Britain, and that the Imam would treat the French as enemy in the territorial waters of Oman in such a situation of war. He would also permit the British to establish a Trade Agency in Bandar Abbas, its fortification, stationing therein a British garrison and equipping it with guns should the British desire to implement such a plan. [34]

It should be noted that this agreement is considered the first political and defensive agreement entered into by Britain with an independnet Arab state. Landen has observed that the alliance between the British and Oman was the result of the attacks launched by the Arab integrationists in the waters of the Gulf. [35]

We see that the main reason for the conclusion of the agreement was the enveloping threat to India by the French as is evident from the following:—

1. The despatch by the Government of India of an emissary to the Sultan of Muscat for reaching an agreement with him.
2. The agreement was concluded five months after the French invasion of Egypt.
3. The British attempted since then to scuttle all French efforts and strengthen the British influence in the eastern seas generally and at the entrances of the Red Sea and the Arab Gulf in particular.

While England concluded this agreement with the Imam of Muscat Napoleon Bonaparte did not divest himself of his eastern projects. He started contacts with some Muslim leaders of Western Sudan, [36], Hejaz, Bengal and the Gulf itself adverting to the possibility of a French thrust

hands, one way or the other. Thus commenced British activity in the Gulf region wereby there was a switch from the hitherto commercial activity to political action on the one hand and on the other, priority was accorded in defence planning to placing the Gulf in the frontline for the protection of its Indian possessions. An attempt was also made to strike at French presence in Egypt and paralyse her moves in East Africa and the Arab Gulf in a threepronged drive. The following measures were adopted to implement this policy:—

1. A closer relationship with the Ottoman State. London exploited the anger of the Ottoman Sultan against the occupation of Egypt by Napoleon on grounds of it being a part of his State. He feared that this occupation heralded the fall of other provinces or promoted general European design against the Ottoman State. The British Government of India was able to open a Residency in Baghdad in 1798 A.D. [33]

2. It saw that French relations with Muscat were gaining in strength in the Gulf desptie the fact that the government of Oman preferred, until then, to remain neutral over the British and French positions in East Africa. However, the Governor General of India Wellesley opined that the Arab Gulf was of great importance to him from the point of view of India. He ordered an employee of the East India Company, Mirza Mehdi Ali Khan, to proceed to Muscat to convince the Sultan against cooperating with the French and instead enter into an agreement with the British. Accordingly Mehdi Ali Khan sailed from Bombay and reached Muscat on 2 October 1798 A.D. Negotiations started with the Sultan lasting ten days after which the British emissary succeeded in finalising a political-cum-defence agreement with the Imam of Muscat (Sultan Bin Ahmed) on 12 October consisting of seven articles pro-

led by Napoleon Bonaparte was to be the nucleus of a French empire carved out of Ottoman-owned territories. This was also to be the harbinger of the expulsion of the British from the Indian soil.

It should be noted that France turned its attention to Egypt before that, i.e., during the Crusades at the end of the Seventeenth century. Egypt was an important staging post on the route to India. Some French statesmen wrote to King Louis IVX recommending the occupation of Egypt as an intermediate post on the route to India. But this idea remained on paper and was relegated to the French archives until it was resurrected by the French Revolution. [30]

This caused serious concern in Britain. What imparted an added edge to this concern was the existence of commercial relations between the French island of Mauritius located east of Africa and Omanese merchants. England calculated that any nexus between Muscat and the French would throttle its interests and perhaps even lead to its expulsion from both the Red Sea and the Arab Gulf. Those were the two sealanes leading to their most important colony at that time, namely, India. After the loss of her influence in North America India was the hen which laid golden eggs for the emprire. [31]

It appears that Mr. Smith, the Agent of the East India Company in Bushire noticed this growing intimacy between them and wrote to the Government of Bombay on 24 May 1798 foreboding that Muscat would soon become a spycentre for French espionage on India. Five or six Arab ships regularly plied between Mauritius, Muscat and the Malabar Coast regularly and no doubt exchange of information would have been to the advantage of Arab traders. [32]

In the light of this appreciation England increased its vigil over the Arab Gulf so that it did not fall into French

quenting the Bahrain ports.

2. Relations between the Al Khalifa and Aal Saud improved.
3. Once again Al Khalifa returned to Zubara. [27]

Reconciliation between the Saudis, the Qasimis and the Al Khalifa resulted in several important consequences the chief among them being:-

1. Displeasure in the ranks of the Sutlan of Muscat, the Shah of Iran and the Ottoman State.
2. A measure of understanding was reached between the Sultan of Muscat and the Government of the Ottoman Sultan.
3. The Sultan of Muscat tended to seek the help of the governments of the Shah, the Ottoman State, Britain and France. [28]
4. The Sultan of Muscat was determined to invade Bahrain to benefit from its location and its economic resources.

## SECONDLY: INTERNATIONAL FACTORS:

By international factors we mean the relationships and conflicts in Europe which reflected in one way or the other on the Asian and African wings of the Islamic world at that period of time.

It is well known that relations between France and Britain were traditionally sour. France never forgot the loss of its possessions and influence in Canada and the Caribbean in the wake of the seven-year war (1756 A.D.-1763 A.D.) and finally the islands in the Indian Ocean which England occupied.

When France witnessed its revolution in 1789 A.D. it had repercussions on Europe itself. [29] This, in turn, had its reflection on the region of the Islamic east. One of these consequences was the invasion of Egypt in 1789 A.D. launched by Napoleon with his Eastern Army. This army

regional and international, to try to merge Bahrain into his nascent Sultanate. Perhaps more important among them are:-

## FIRSTLY: REGIONAL FACTORS

During that period the first Saudi state was actively trying to unify the various regions of the Arabian peninsula. It was able to assimilate The Buraimi Oasis into its territory in 1795 A.D. after inducting into it certain Arab tribes such as Bani Naeem and Bani Yas. [21] Its forces had turned their attention to Oman treating the Buraimi as a launching pad against it. [22] Really speaking, the Integrationists aspired not merely for Oman but also for Zubara which was under the rule of the Al Khalifa then. This is what forced the Al Khalifa to migrate to Bahrain in 1797 A.D. while matters quietened down and the situation imporved. [23] That period of time also witnessed a bitter confrontation between the authorities of Muscat and the Qawasim Arabs. [24] The Qawasim made common cause with the Saudis. [25] Thence the Qawasim increased their attacks on British shipping on a large scale. [26]

The Al Khalifa of Bahrain contacted the Ottoman State with a view to recovering Zubara. So the Saudis got on to the Qawasim in Ras al Khaima to induce them to attack Bahrain since they had no naval fleet of their own. But the Qawasim refused to oblige on the ground that they did not have the power to confront the Al Khalifa at sea. They replied instead that it would be far better to enlist the cooperation of Al khalifa to join their ranks. Perhaps the Qawasim wanted to benefit from the Bahraini fleet and the experience of its sailors. The matter ended by the conclusion of peace between the two sides which resulted in the following:-

1. The Qawasim started fre-

If we considered the economic resources of Bahrain in addition to its commercial rehabilitation in the context of its unique geographical position in the Gulf we would instantly realise [15] the reason for these islands to have become the centre of attention of the covetous competing powers in the Gulf whether these be regional or foreign powers.

## THE POSITION OF FARS

While the Persian influence was eliminated from Bahrain by the Utoob and Fars got involved thereafter in its internal squabbles and its relations with the British and others such as the Ottomans in Iraq, one result of all this was that its political activity vis-a-vis Bahrain subsided. [16] It does not mean that it accepted the realities as they were altogether. It did try a little to restore Bushire's influence on those Islands. [17]

For instance, the ships on the eastern coast of the Gulf made a move in the year 17[illegible] A.D. to achieve this aim bu[t] could not succeed due, on th[e] one hand, to the powerful A[l] Khalifa fleet and the ci[r]cumstances of Fars itself o[n] the other. [18]

## MUSCAT CONTEMPLATES BAHRAIN

Bahrain never was saf[e] from the covetous glances o[f] the Imam (Sultan Bi[n] Ahmed) of Muscat. [1[illegible]] Although the Imam extende[d] his domain to include the south-eastern coast of the Gulf and forced Fars to recognise his sovereignty over Bandar Abbas and its vast adjuncts on the Makran coast and similarly over the Qishm, Hormuz and other islands which Oman had captured from the Iranians and made attempts to recover Omanese possessions in East Africa [20] nevertheless, he never lost sight of Bahrain.

In fact, besides his personal ambition, he was driven by a number of other factors, both

its islands. It became a part of their State whose capital at that time was Zubara overlooking the western coast of Qatar. [9]

Eversince the conquest of Bahrain the Al Khalifa family constituted the ruling dynasty of the country. From then on a new historical era commenced which may be regarded as the harbinger of the modern history of Bahrain. [10]

## CONDITIONS IN BAHRAIN

We have already mentioned that the Al Khalifa were able to conquer Bahrain in 1783 A.D. and lay the foundation for an independent Arab rule in that country [11] in the wake of commotion and disturbances resulting from the murder of Karim Khan Zand, the King of Fars. [12]

The Al Khalifa were a sagacious people who from the very beginning saw the advantages accruing to them if they made their seaports attractive enough from the commercial angle by reducing the tariff therein compared to the rates prevailing elsewhere in the Gulf. This policy brought prosperity to these ports as free commercial ports compared to the ports of Qatif and Ojair controlled at that time by the Khawalid, which imposed a duty of 10 per cent on all imported material with the exception of foodstuff. Muscat used to impose a duty of 6.5 per cent on all imports including foodstuff. [13]

Moreover, the Al Khalifa bestowed their solicitude for the interests of the traders themselves which induced them to use Bahrain as a transfer point for merchandise transiting between Muscat, which then was the main local commercial centre, and Basra and other ports of the western coast of the Gulf. In this manner the people of Bahrain exercised an almost total control over pearl trade in particular in the Gulf region. [14]

Bahrain. Other islands are Sitra, Umm Na'san, Jidda, Mohammadiyya, Nabih Saleh, and Hawar Island being the biggest in the Hawar Archipelago comprising about 19 islands besides many other islands. In all there are about 33 islands which lie in the basin of the Arab Gulf between the latitudes 35,32,20 and 26,17,10 N and longitudes 50,22,45 and 50,49,45, E at a distance of about 15 miles from the eastern coast of the Arabian peninsula and about 150 miles from the Iranian coast. Distancewise these Islands are located midway between the Straits of Hormuz in the south controlling entry into East Africa, the Red Sea and the Far East on the one hand and the delta of Shatt al Arab in the north on the other. [6]

Thus Bahrain was and continues to be an important strategic point in the Gulf. In addition to its distinguished geographical position Bahrain achieved fame for its economic prosperity with its plentiful sweet-water resources represented in its under-sea as well as subterranean springs contributing to its flourishing orchards, datepalm and agriculture. Moreover it had its wealth in its fisheries and pearl-diving industry in natural pearls and experts agree that these pearls surpass all others in their lustre and fineness. [7]

There is no doubt that the position of Bahrain secured for it a great strategic importance in sea communications and commercial exchanges after the Indian subcontinent became the main British colony in its empire. [8]

Its vital location and economic resources rendered Bahrain a coveted prize worth competing and fighting for by regional powers on the one hand and foreign powers on the other.

This pattern continued until the Al Khalifa of the Utoob appeared on the scene in the year 1783 A.D. and restored to Bahrain its Arab character after conquering all

## THE POSITION OF BAHRAIN AND ITS IMPORTANCE

Before delving into the subject proper it is desirable to make a quick and general survey of the situation of Bahrain to appreciate its importance in relation to the other countries of the Arab Gulf.

It is known that in the olden days Bahrain was referred to by the name of Dilmun. [1] Greek and Roman geographers knew it as 'Tylos'. Then it was referred to as 'Awal' in relation to the name of a deity worshipped by the tribe of Wayil, an Arab tribe of that period. [2]

It is worthy of mention that Arab geographers applied the name Bahrain to the whole coastline extending from Kazima in the north to Oman in the south. This area retained this appellation for a long time during the early period of Islamic conquest. [3]

Qalfashandi has asserted that Oman and Bahrain were a single province during the reign of the Abbassid State. Oman was the maritime base of Bahrain in a wider geographical sense. This pattern continued until Abu Saeed Al Jannabi staged a revolution and attacked its capital Hajar. In the year 317 H., 929 A D., Abu Tahir founded another town in the vicinity of Hajar and named it Al Hasa. Hydari had described Hajar as one of the biggest and the most famous of Bahraini towns. It was the base of Bahrain in recent times. When the Carmathians captured Bahrain they struck at Hajar and raised the town of Al Hasa and inhabited it which then became the base of Bahrain. [4]

Lately the name of Bahrain has come to mean the group of islands which constitute the present State of Bahrain.

The biggest of the group areawise is the Island of Bahrain. Then comes the Island of Moharruq in the northeast of the Island of

These writings conclude by laying the blame at the doors of those who held the reins at that time. It is quite likely that they were not blameworthy and the conditions which they faced were overwhelming which prevented them from coming to grips with those issues in a manner which appropriately served the interests of their country. Then there are several historians and writers who look at these problems from an angle which may be faulty and contrary to facts or at least from an attitude of doubt and suspicion. This is either because they do not understand the psyche of eastern societies in general or because they have a vested interest in presenting a particular viewpoint.

In the course of his studies of the Gulf Region, the writer has noticed that the history of this region beside being complicated hides in its folds many facets requiring study and research so that they may be interpreted historically free from bigotry or egoism and within the frame-work of scientific historical research.

The issue which evoked the particular concern of the writer was the question of Bahrain itself. Why did it, in particular attract the covetous glances of outsiders and what was the attitude of its rulers and its people towards them? Such and similar questions arose in the mind of the writer. Are the contents of the various foreign books and publications, in fact, of British documents themselves about Bahrain infallible and beyond the pale of doubt?

The writer opined through his use of the analytical method of conducting a historical study generally that one owed it to a scientific study to investigate deeply, compare and contrast and analyse to be able to uncover historical facts free from egoism, and sentimentality. This would be the beginning for him and other scholars so that reliance is not placed on a single point of view.

# THE HISTORICAL BACKGROUND OF BAHRAIN BEFORE THE EMERGENCE OF MUHAMMAD ALI IN THE ARAB GULF.

## An Analytical Study Based on Documents.

**by**

**Dr. Tammam Hammam Tammam**

**Associate Professor of Modern & Contemporary History at the University of Cairo on Deputation to the University College of Bahrain.**

***Speaking generally, the modern history of the Arab world requires further study. There are several vital historical issues involved in it which may seem very ordinary to some without much consequence.***

***We, the Arabs, are casual about them and do not bestow on them the importance they deserve. We tend to accept them uncritically without a discussion or comment. We almost rely on what is contained in books and publications about these issues written by foreigners.***

the new scribe or the new writing should have assembled scores of references and sources. What is important is not the quantity but quality. Reliance on unimpeachable sources even if they are few is a thousand times better than merely cluttering up the text with scores of references of doubtful authenticity and credibility.

The mere age of a book is not enough to impart authenticity to its contents. Some scholars approach ancient books with a great deal of awe and look upon their yellow and moth-eaten pages as a certificate of their dependabiltiy or better credit-worthiness. This is a faulty notion. In spite of the fact that the ancients spent a great deal of effort in various fields and there is no denying of their enormous contribution to the human heritage yet one cannot ignore the gigantic strides made in the field of modern gadgetry, their vastly expanded horizons, the marshalling of many ideas, experiences and information and their accessibility in a way which was not available in days of yore. This imparts to the scholar of today a wider and deeper dimension and brings within his reach tools of research which were not available to any of the ancients.

These are the various landmarks on the highway which a scholar should take note of in the study of history in general and of the Gulf in particular. It is imperative that we refer to these while we witness a welcome trend in a great number of scholars taking a plunge into this field i.e., the field of historiography.

(Abdullah Bin Khalid Al Khalifa)

vision and analyse them in the light of the prevailing circumstances then to determine the general trend or the strategical compulsions which weighed with the individual and shaped his objectives.

A historian should be cool and calm because a sense of indignation can only vitiate his neutrality. As we have said, even more than a sense of indignation, a preconceived and prejudiced stand is more perilous when a historian forms an opinion about a person or an event and goes on to make a study of them after having already pronounced a verdict on them. He thus passes a sentence not only on the person or the event but also on his own self as succeeding generations will rectify the imbalance readily and put the record straight. How many history books fill up the racks of libraries and yet none thinks of having recourse to them in view of their sullied reputation with the readers concerned. Their writers stand refuted by the scholars. How great are those books whose writers scrupulously adhere to the yardsticks of neutrality. These remain standard books of reference over the years bringing credit to their authors! These are the books which form the backbone of source material for students and scholars.

As long as the historian is constrained to refer to the earlier writings of his predecessors he should not solely rely on their judgement. He should first look for known facts and then postpone his adoption of judgement on them until he forms a comprehensive view within the framework of sound judgement. Before he takes up his pen to write he should get to know something about the author. It is not important that

historian's pen functions as a scale of justice and not as a piercing sword. Even as he judges others before him so will he be judged by those who follow him. To the extent that he does justice to others, others will do justice to him. Time and tide wait for no man. Generations follow one another in succession and a book of history remains an open record which knows no end.

While these are some of the prohibitions and precautions which attend the work of any historian, the simplest of the rules of neutrality require that the historian should insulate himself against the current influences and transfer himself heart and soul into the period about which he is writing. He should rid himself of any preconceived notions as otherwise his verdict would not be fair to the person or event he is describing. He is likely to paint a hero as a traitor or victory as defeat. A person or an event is a mobile entity in a fluid situation. The universe is in a flux; that is the law. If such be the universal law it is obvious that a person or an event are ever subject to the operation of several variables which leave their imprint on them, the positions taken, measures adopted or decisions arrived at. Thus the historian should realise that history does not or should not have sharp positions. History is one thing and principles are another. Principles relate to knowledge and morals but history is politics and politics is not governed merely by black and white. It is the art of adaptation to attendant circumstances and developing situations.

No verdict should be passed on an individual from a single viewpoint. The historian should investigate various angles of

*IN THE NAME OF GOD THE BENEFICENT, THE MERCIFUL*

# A WORD ABOUT THIS ISSUE

By

**H.E. SHAIKH ABDULLAH BIN KHALID AL KHALIFA**

A historian is a tribunal. He is sometimes referred to as a tribunal of history. He is the judge; he represents prosecution as well as defence and at the same time he is a recorder of the court. This explains the importance attached to the quality of neutrality in his case because neutrality is not only the basis of justice but that from the date he assumes the role of a court and passes judgement on others, he himself becomes liable to be judged by others over what he has recorded. His writings are debated and scrutinised and a verdict is passed in favour of him or against him. The verdict will pronounce his neutrality or fairness or brand him with partality here and there. Hence it is imperative that a

## THE ENGLISH SECTION

# CONTENTS

## Magazine Committee

**Shaikh Abdulla Bin Khalid Al-Khalifa**

**Shaikh Khalid Bin Mohammed Al-Khalifa**

**Shaikh Isa Bin Mohammed Al-Khalifa**

**Dr. Ali Abdel Rahman Aba Hussain**

Editorial Supervision

Syed Ahmed Hejazi
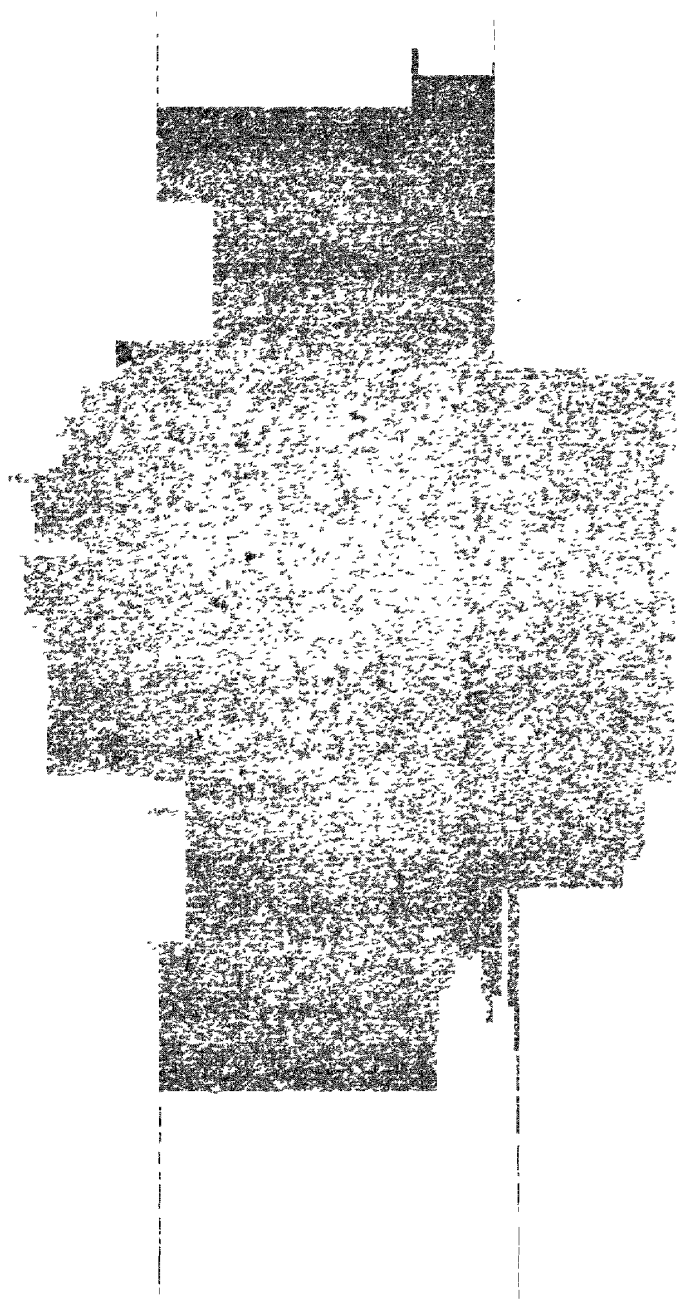
# AL WATHEEKAH

*A Half-Yearly Journal Published by*

**The Historical Documents Centre**

**The State of Bahrain**

Devoted to The Heritage, Thought and History of

Bahrain And The Gulf

Editor-in-Chief

**Shaikh Abdullah Bin Khalid Al-Khalifa**

**Issue No. 12 — 6th Year**

**Jamada Al Ula 1408 A.H. — January 1988 A.D.**



Bahrain P.B. 28882

Telephone — Historical Documents Centre — **664854**

*All Correspondence to be Addressed to The Editor-in-Chief*
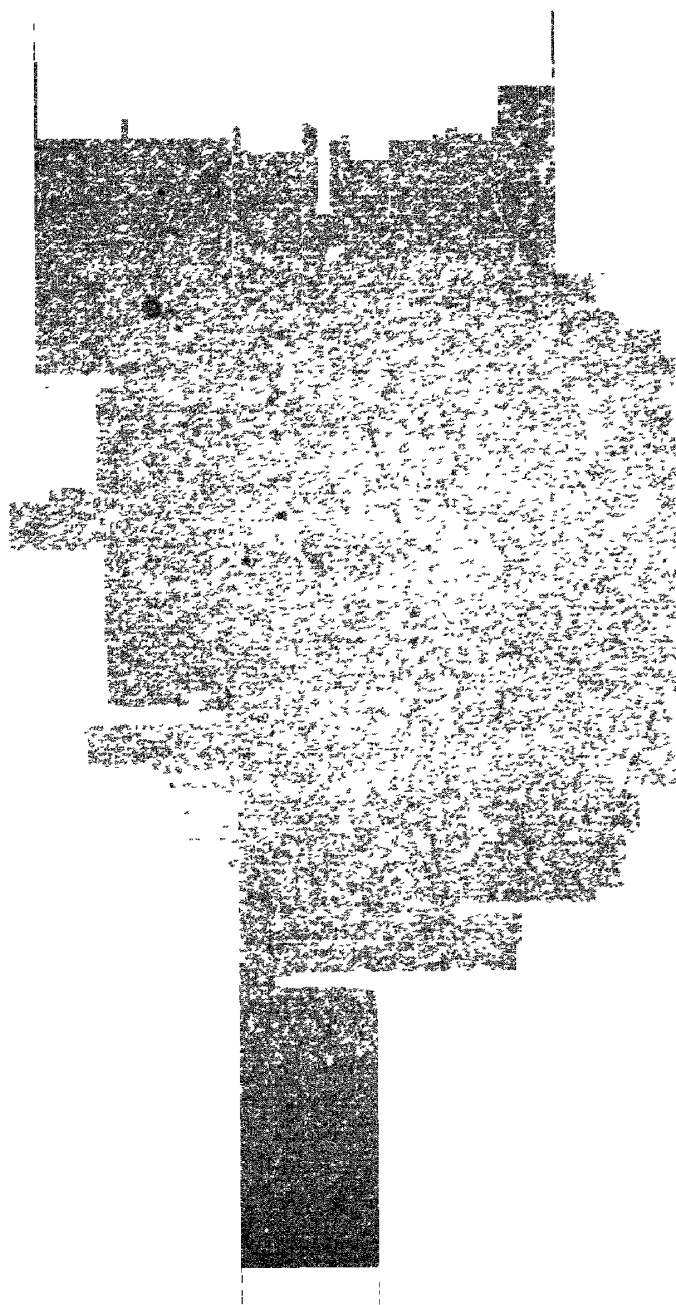
**IN THE NAME OF GOD,**

**THE BENEFICENT,**

**THE MERCIFUL**

بسم الله الرحمن الرحيم
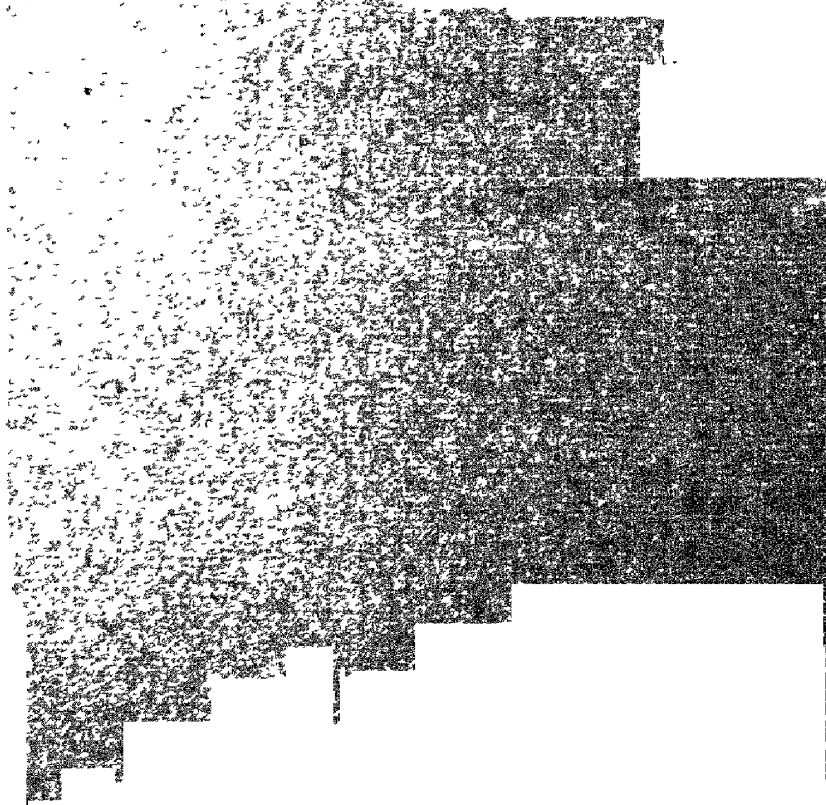
# الوثيقة

دورية نصف سنوية

تصدر عن

مركز الوثائق التاريخية

بدولة البحرين

رئيس التحرير

الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

العدد الثالث عشر - السنة السابعة

ذو القعدة ١٤٠٨ هـ - يوليو ١٩٨٨ م

## اللجنة المجلة

الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

الشيخ خالد بن محمد آل خليفة

الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة

الدكتور علي أبا حسين

الإشراف الصحفي

**السيد أحمد حجازي**

العنوان : مركز الوثائق التاريخية ص . ب ٢٨٨٨٢

تليفون : ٦٦٤٨٥٤

جميع المكاتبات ترسل باسم رئيس التحرير

## صورة الغلاف :

حي شعبي
للفنان السعودي : عبدالحليم رضوي

# الفهرس

الموضوع — صفحة

## القسم الانجليزي



جميع الابحاث المنشورة في هذا العدد تمثل وجهة نظر كاتبها

(الوثيقة)

# كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

تلاحظ عزيزي القارىء في هذا العدد والعدد القادم بإذن الله تركيزا في نشر الابحاث الخاصة بفترة الاستعمار البرتغالي . وقد دفعنا الى ذلك عدة اسباب منها

اولا أن مركز الدراسات والوثائق بالديوان الاميري برأس الخيمة بدولة الامارات العربية المتحدة نظم بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ندوة في ٢٩ اغسطس ١٩٨٧ دُعي اليها مجموعة كبيرة من الاساتذة والمؤرخين العرب وخصصت لمناقشة مجموعة الابحاث التي اعدها هؤلاء الاساتذة والمؤرخون ودارت كلها حول موضوع حدد سلفا وهو فترة الاستعمار البرتغالي وقد استهدف منظمو الدورة بهذا التحديد حشد أكبر عدد ممكن من الابحاث حول فترة محدودة ومعالجة القضية الواحدة من شتى جوانبها ومختلف زواياها . حتى يتم تناول كل ما دار فيها ، وحتى يجد الباحثون بعد ذلك المعلومات التاريخية الكافية عن فترة بعينها مما يوفر عليهم جهدا كبيرا في الرجوع الى شتى المصادر بالاضافة الى عرض لكل الآراء ووجهات النظر حول أحداث وشخصيات تلك الفترة لتصبح بعد ذلك سجلا سهل التناول لمن أراد وهو اتجاه محمود كان محور اهتمام الامانة العامة لمركز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية في دورتها العاشرة التي عقدت بعد ذلك بالكويت الشقيقة في الفترة من ٢١ الى ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧م . حيث أوصت بالاتجاه الى اقامة الندوات ذات الموضوع الواحد لما ثبت من فائدتها في تغطية الاحداث المتعلقة بكل

فترة من الفترات التي مرت بالمنطقة نظرا لنقص المادة التاريخية وللماخذ التي برزت حول بعض المصادر التاريخية التي كانت متاحة في السابق والتي اعتمد معظمها على مصادر اوروبية ليست سليمة من الماخذ ، او خالصة من الشوائب او بريئة من سوء النية

ثانيا : إتجاه المراكز في المنطقة الى تعميق روح الأخوة وترسيخها وتنسيق العمل فيما بينها في مسيرتها الواحدة لتحقيق الهدف الذي تصبو اليه وفي هذا الاطار فإن اي جهد هو ملك للجميع واذا كانت «الوثيقة» تصدر في البحرين الا انها وغيرها من الدوريات التي تصدر عن المراكز الشقيقة تفتح صفحاتها لأي جهد يصدر عن أي مركز توفيرا للفائدة المرجوة ونشرا لأي عمل جيد على نطاق المنطقة كلها انطلاقا من امر يؤمن به كل المتصدين للعمل التاريخي في هذه المراكز وهو أن الابحاث أو الدراسات مهما بلغت من الدقة والموضوعية وعظم الفائدة تصبح عديمة الجدوى اذا لم تنشر حتى يستفيد منها أكبر عدد من الطلاب والدارسين والمهتمين . وان دراسة عظيمة أو بحثا ممتازا يصبح لا قيمة له ولا فائدة منه اذا ظل حبيس الملفات أو الأدراج

هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى فإن روح التعاون الذي يربط بين المراكز في المنطقة ـ كما ذكرنا من قبل ـ والاحساس بالاخوة العميقة والتنسيق الكامل الذي يتحرك على اساسه كل جهد يبذله الاخوة سواء عن طريق الاتصالات المباشرة والدائمة أو عن طريق التنسيق عبر الامانة العامة والذي حول كل جهد يبذل في كل مركز الى اضافة رائعة لعمل كل المراكز الشقيقة مما يدفع بالعمل خطوات ملموسة دائما ويحقق الكثير من طموحات الهدف المنشود من اقامة المراكز على الساحة التي نحيا على ارضها . هذا الروح الاخوي دفع «الوثيقة» الى ان تفتح صدرها وصفحاتها لجهد بذل في مركز شقيق ناقلة ثمار هذا الجهد الى القراء في كل دول المنطقة جاعلة من نفسها جسرا يدعم أواصر التعاون والتآزر والتآخي القائم بالفعل .

ثالثا : لقد جاءت الهجمة البرتغالية امتدادا للحروب الصليبية التي تبلور فيها الصراع التاريخي بين الشرق والغرب والتي تحطمت في مدها

الأول عند الشام . وان كانت أشد منها ضراوة ووحشية فلم يكتف البرتغاليون بتدمير المدن وقتل الابرياء والتمثيل بهم وانما سلبوا ابناء المنطقة الكثير من مصادر الرزق بعد ان سيطروا على طرق التجارة الى الهند واستنزفوا الموارد وسلبوا الثروات ووزعوا قلاعهم الشهيرة التي انشأوها أو التي استولوا عليها على السواحل التي عاشت آمنة . بالاضافة الى ان الاستعمار البرتغالي فتح الباب امام الوان اخرى من الاستعمار سواء الهولندي أو الانجليزي مع اطلالات لبعض النفوذ الفرنسي والالماني واطماع لمختلف القوى الدولية بعد ذلك . وقد استفاد المستعمرون الجدد من الاخطاء التي وقع فيها الاستعمار البرتغالي فلجأوا الى اساليب أكثر خبثا وأكثر دهاء . واذا كانت فترة الاستعمار البرتغالي لم تستمر طويلا اذ سرعان ما لفظته المنطقة الا ان هذه الفترة كانت ولا شك احدى الفترات الهامة اذ تعكس صور الصراع المرير الذي دار بين ابناء المنطقة والأساطيل الدخيلة وتقدم دروسا يمكن الاستفادة منها في كيف أمكن التخلص من هذا الاستعمار البغيض ومحو آثاره .

رابعا . لقد نحت مجموعة الأبحاث التي قدمت والتي سوف تقدم بإذن الله منحىً طيبا . اذ لم تقتصر جهود العلماء فيها على الجانب السياسي فقط وانما تناولت الموضوع من جوانبه السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية بل واللغوية في بعض الأبحاث مما يقدم للباحثين باقة مختارة من جهود نخبة مختارة ايضا . ومما يمثل أساسا طيبا لأي أبحاث قادمة حول الموضوع وهو خط سليم نأمل أن يتحقق في المستقبل عبر جهد مماثل يخصص لفترة الاستعمار الهولندي والاستعمار الانجليزي ويعرض لظروف المنطقة اثناء التواجد العثماني وهكذا .

ذلك ما أردنا ان نلفت النظر اليه راجين ان تكون «الوثيقة» دائما عند حسن الظن وأن يحقق ما بذل ويبذل فيها من جهد هدفا نسعى جميعا لتحقيقه .

والله من وراء القصد ،،

عبدالله بن خالد آل خليفة

# العوامل المؤثرة في الخليج

يرجع تاريخ اهتمام الانجليز بالخليج العربي الى ١٦١٥ م حين حاولوا كشف أسواق لمنتجاتهم الفائضة فقد أبحرت سفينة جيمس في عام ١٦١٦ م الى ايران وعلى متنها البضائع التجارية من المخازن الواقعة في ميناء (سورت) بالهند وكان رئيس البعثة الانجليزية هو ادوار كونوك ونتيجة محاولاته فتح الانجليز مكتبا لهم في بندر عباس في عام ١٦٢٤ م هكذا اقتصر اهتمام الانجليز بالخليج على المصالح الاقتصادية آنذاك ولمدة قرن ونصف قرن فيما بعد تداخلت الحروب مع الأعمال التجارية وتورط فيها كل من البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين وان المكاتب التجارية الانجليزية التى أنشئت في البصرة في ١٦٤٣ وفي بوشهر في ١٧٦٣ حرسها الحراس كما حولت السفن الى سفن مسلحة وأبحرت في قوافل منتظمة من أجل سلامتها

وقد أقامت شركة الهند الشرقية علاقات مع الخليج العربي في عام ١٦١٦ م وذلك عندما أرسل وكيل الشركة في سورت (بالهند) حملة استطلاعية الى (جسك) الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي بقصد استكشاف أسواق جديدة هناك وخلال بضع سنوات فقد فتحت مكاتب تجارية في كل من شيراز واصفهان في ١٦١٧ م وفي بندر عباس في عام ١٦٢٣ م وامتد نطاق هذه المكاتب ليشمل الموانىء العربية كالبصرة في عام ١٦٣٥ م . وقام مجلس الشركة في بومباي بادارة هذه المكاتب وأصبح قاعدة لأنشطة بريطانيا الاقتصادية في الخليج لمدة

# على المصالح الاقتصادية لبريطانية

# العربي عام ١٩٠٧ م

قرن ونصف قرن [١] ولا شك ان لهذه الشركة أهدافا سياسية أخذت تتضح تدريجيا بمرور الزمن

وفي عام ١٧٦٣ م نقل المكتب الانجليزي من ميناء جمبرون (بندر عباس) الى (بوشهر) وذلك لتدهور التجارة في جمبرون وقد أدى ذلك الى ازدهار التجارة في مسقط التي استفادت كثيرا من موقعها الجغرافي المتوسط بين الهند والبحر الأحمر من جهة وبلدان الخليج العربي من جهة أخرى وزاد عدد السفن التجارية فيها وكان إمام مسقط يفتخر بكثرة اسطوله البحري الذي صنع في الهند وفي ميناء مسقط هذا بالاضافة الى السفن الأوربية التى تزور مسقط بصورة متزايدة [٢]

واحتلت البصرة مكانا مرموقا في تجارة الخليج العربي وقد كانت ميناء تجاريا هاما ومقراً لشركة الهند الشرقية حتى عام ١٧٧٣ م اذ كان يأتيها التجار من القسطنطينية ودمشق وحلب وديار بكر والموصل وبغداد ومعهم السلع المتنوعة حيث يتعاملون بالسلع الهندية وكانت ترسو فيها السفن الانجليزية علاوة على السفن الأوربية الأخرى كما ان التجار المسلمين كانوا يأتونها من (سورت) في الهند وفيها تتم الصفقات التجارية بالمقارنة بسلع الأساس إلا ان انتشار مرض الطاعون حوالى عام

١٧٧٣ م أدى الى ضعف النشاط التجاري وتدهوره [٣]

و لما انتهى التهديد الأوربي للمصالح الانجليزية تجسد الخطر القواسمي الذى حل محل الأوروبيين المنافسين في الخليج العربي مما أدى الى جلب القوات البحرية الهندية الى مياه الخليج للدفاع عن السفن الانجليزية

وكتب السير الفنستون في ١٨٢٠ - ١٨٢١ ما يأتي

( يرى جميع الضباط العسكريين والبحريين والسياسيين المستخدمين في الخليج بأنه لا يمكن كبح القرصنة دون ان تقام محطة في تلك المياه )

وهكذا أنشىء مركز للانجليز في (باسيدو) عل الساحل الشرقي للخليج العربي ولكن تم اخلاؤه والانسحاب منه فيما بعد بسبب رداءة الطقس هناك

وكانت سياسة بريطانيا ما بين عامي ١٨٢٠ و١٨٦٩ م ترتكز على حجة كبح القرصنة والحروب التى أدت اليها متخذة إياها ذريعة للوصول الى أهدافها الأخرى فأبرمت بريطانيا معاهدات لهذا الغرض مع شيوخ كل من ساحل المهادنة وقطر والبحرين بحجة أن القرصنة قامت بتهديد التجارة

وأبلغت بريطانيا حكومة ايران في عام ١٨٦٩ م أن الهدف الوحيد لحكومة بريطانيا في ابرام الاتفاقيات مع الشيوخ هو الاحتفاظ بالأمن في مياه الخليج

وفي أواخر القرن الثامن عشر حلت المقيميات والمعتمديات محل مكاتب الشركة وكانت لها مسئوليات سياسية أكثر من المسئوليات الاقتصادية وأهمها حماية الطرق المؤدية الى الهند بحرا وبرا في وجه تدخل متزايد من الدول الأوروبية وفي فترة بين ١٧٦٣ و١٩٤٧ أقيمت مقيميات أو وكالات بريطانية في كل من (بوشهر ومسقط والبصرة وبغداد والبحرين والكويت والشارقة) وكانت مسئولة أمام دائرة الهند فيما بعد وشركة الهند الشرقية سابقا ومارست حكومة الهند سلطتها عليها مباشرة أو عن طريق حكومة بومباى بصورة غير مباشرة حتى نالت الهند استقلالها في ١٩٤٧ [٤]

و بعد عام ١٨٧٣ م نقلت مسئولية ادارة شئون الخليج من بومباي الى حكومة الهند وبدأت المقيميات والوكالات البريطانية بارسال تقارير ادارية سنوية لها وفي البداية كانت هذه التقارير مجرد احصائيات تجارية مع خلاصة للأحداث الأخرى الا انه في عام ١٩٠٥ قسمت التقارير السنوية الى قسمين سياسي وتجاري [٥]

وفي ١٢ ابريل ١٧٦٣ م عقدت شركة الهند الشرقية اتفاقية مع شيخ بوشهر وحصلت بوجبها على تصريح مطلق لاقامة مكتب تجاري فيها. وبعد ثلاثة شهور أكد كريم خان الحاكم الايراني هذه الاتفاقية بل مد مدتها واعطاها امتيازات عديدة بما فيها الاعفاء من الجمرك لكافة صادراتها وواراداتها وحماية لأفرادها وأموالها.

واحتكرت الشركة وفقا للاتفاقية تجارة المنسوجات الصوفية وتصديرها لايران ودون شك ساعدت هذه الاتفاقية في تدارك الانحطاط الاقتصادي الذي نتج عن اعلاق مكتب جمبرون (بندر عباس) قبل عدة شهور تم اصبحت البصرة مقرا رئيسيا لتجارة الخليج [٦]

وبعد ست سنوات أي في فبراير ١٧٦٩ ، تخلت الشركة عن بندر عباس أيضا بسبب تدهور آخر في التجارة وبروز مشاكل سياسية بين المقيم من جهة والسلطات التركية والايرانية من جهة أخرى تم تأسس مكتب للشركة من جديد في (بندر عباس) في عام ١٧٧٥ الا أن الأوضاع التجارية في الخليج ظلت متدهورة ولم تتخذ الشركة أية خطوات لمواجهة التدهور التجاري في الخليج لأن الأوضاع تحسنت في البنغال ووجدت الشركة أسواقا جديدة في الصين في السبعيات والتمانينات من القرن التامن عشر في حين واجه الخليج آنذاك موجة من عدم الاستقرار السياسي

فقد ورد في مذكرة مؤرخة في أول مارس ١٨٧٢ م من حكومة الهند «ان المواصلات تيسرت ونشطت التجارة وتقاربت الدول الآسيوية الى الدول الأوروبية فنظرا لهده التطورات اتخذت علاقاتنا السياسية مع البلدان الآسيوية أهمية بالغة» .

ومنذ يناير عام ١٨٧٣ م خولت الهند السلطة التامة لادارة الخليج

ان تاريخ سيطرة الانجليز على الخليج في الحقيقة يرتبط بتاريخ الهند منذ احتلال هرمز من قبل البرتغاليين ومع انحطاط نفوذ البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين في الخليج نححت شركة الهند الشرقية الانجليرية في تثبيت أقدامها عقب انشاء مكتبها في بوشهر حيث أبرمت بريطانيا اتفاقيتين مع الشاه عباس لوضع سفينتين حربيتين في الخليج للدفاع عنه وكانت الشركة آنداك قد احتلت بعض الأراضي في الهند وبدأت في ممارسة السلطة كحكومة ذات سيادة وكانت لديها قوة مسلحة أيضا

ولمدة حوالي قرنين من ١٦١٦ حتى نهاية القرن التامن عشر تركزت أنشطة بريطانيا على الشئون الاقتصادية وتجنب التورط في النزاعات السياسية وقام التجار الانجلير بزيارة كل من العراق وايران وآسيا الوسطى من الموانيء الهندية لتقدير الموقف التجاري وكان اهتمامهم بالخليج مرتبطا بمصالحهم في الهند وتمت ادارة الشئون الخليجية من قبل الحكومة الهندية وليس من قبل لندن وكانت مراكزهم التجارية مثلما كان في جمبرون (بوشهر) مراكز مهتمة بالشئون الاقتصادية ولم يكن لديهم أي اهتمام بالساحل العربي آنذاك على الرغم من زيارة سفنهم أحيانا للقرين (الكويت) ومسقط

ثم بدأت سياسة بريطانيا نحو الخليج تتخذ بعدا سياسيا في أواخر القرن الثامن عشر وسجل معدل تجارة

الانجليز مع ايران والعراق هبوطا حادا وقد أسفر توطيد وتمديد علاقات الانجليز مع الخليج العربي عن نتيجتين أولاهما توسعة ممتلكاتهم في الهند والثانية عزم شركة الهند الشرقية على ضمان طرقها التجارية للهند خاصة في بداية القرن التاسع عشر وفي عام ١٧٩٨ م حصل عزو نابليون لمصر واكتشف الانجليز خطته لغزو الهند مما حثهم على التأكد من ضمان مصالحهم الاستراتيجية في الخليج وابقائه في أيد أمينة بالنسبة لهم، وفي أواحر القرن الثامن عشر مارس الانجلير حملة دبلوماسية لاحباط مخططات مرنسية في غرب أسيا وتم توقيع اتفاقية بينهم وبين سلطان بن احمد حاكم مسقط في ١٧٩٨م وزال خطر نابليون لغرو الهند في ١٨١٠ بعد ان انتزع الانحلير موريشيوس من فرنسا

وبدأت الإضطرابات تزداد في مياه الخليج من ١٧٨٠ م حين حاولت عمان بسط سيطرتها على الخليج لاحتكار تجارته كما حاولت مناطق عربية أخرى أيضا كالبحرين وقطر والكويت تثبيت أقدامها في مجال حرية التجارة . فثبت الانجليز نفوذهم في القرن التاسع عشر من عدن الى الكويت . بواسطة ابرام اتفاقيات مع الشيوخ العرب في الخليج [٧] .

## المصالح الاقتصادية البريطانية :

على الرغم من ان حجم تجارة شركة الهند الشرقية في الخليج كان محدودا فقد حقق أرباحا متواضعة واصبح الخليج سوقا ملائمة لصادرات بريطانيا نافست فيه المنتجات الفرنسية كما زودت بريطانيا بالمواد الخام التى تصنع في بريطانيا كالحرير والصوف الكرماني

ومن جهة أخرى فإن تجارة شركة الهند الشرقية مع الحليج كانت عنصرا سلبيا في تنمية القوة الاقتصادية الخليجية لأن المنتجات البريطانية كانت تنافس الصناعات المحلية وقد ألحقت بها أضرارا بالغة وان تصدير المواد الخام الى بريطانيا من منطقة الخليج لم يسمح بالنمو الاقتصادي لمنطقة الخليج . كما ان النقص في الميزان التجاري بين بريطانيا والخليج لصالح بريطانيا أدى الى نقص حاد حتى في توافر العملة في الخليج [٨] .

لقد أعدت المقيمية البريطانية في الخليج مذكرة في ٢٧ نوفمبر ١٩٠٧ ركزت فيها على المصالح التجارية البريطانية في الخليج العربي وعلى ضرورة توطيد دعائمها

أما النشاط الألماني في الخليج فقد بلغ درجة جعلته يهدد النفوذ البريطاني بصورة خطيرة أولا تجاريا ثم سياسيا وحان الوقت لاتباع سياسة ايجابية تتطلب عملا جادا بدلا من السياسة الدفاعية وتتكون من اعلان صريح تعلنه بريطانيا توضح فيه بأنها تعارض بالقوة أية محاولة أجنبية لتأسيس قاعدة محصنة في الخليج .

( وأصدر اللورد لانس داون اعلانا في مايو ١٩٠٣ م ينذر فيه روسيا التى كانت تتطلع الى احتلال (شاربار) كما

استهدف منع تشييد محطة محصنة على خط سكة حديد بغداد وربما لم ترد المانيا خلق مشاكل نظرا لعزم بريطانيا معارضة خططها بشأن سكة حديد بغداد

واستطرد قائلا فمن المرجح لألمانيا ان تستوعب الخليج بالامتصاص التدريجي اقتصاديا مما لا يثير احتجاج بريطانيا ويشهد تاريخ الخليج أيام البرتغاليين والهولنديين والانجليز بأن الازدهار التجارى يؤدى الى السيطرة السياسية فيجب علينا ان نفكر في اتخاذ اجراءات استثنائية لتشجيع المشاريع الانجليزية في الخليج لتخدم المصالح السياسية)

( وان أحسن وسيلة لادراك هذا الهدف هي توطيد دعائمنا في البحرين المستقلة التى تقع في وسط مغاصات اللؤلؤ داخل خليج عميق مواز لولاية القطيف التركية فى الغرب وشبه جزيرة قطر شرقا حيث لا نعترف فيها بالسيادة التركية ) .

وفي عام ١٨٩٢ أبرمت بريطانيا اتفاقية مع البحرين وقد صادق عليها الحاكم العام الهندى اللورد لانس داون وبموجبها يتعهد حاكم البحرين بعدم مراسلة أية قوة أجنبية أو يسمح لأي وكيل لأية حكومة أخرى أن يتخذ مقرا له في أقاليمه

( وعلى الرغم من موقف بريطانيا فقد برزت شركة وونك هاوس (الألمانية) مع انه كانت توجد شركة انجليزية كبيرة (كرى باول) في البحرين وقد حاولت شركة وونك هاوس رفع العلم الألماني على مبناها)

وقد علق شخص امريكي في عام ١٩٠٠ على النفوذ البريطاني في البحرين قائلا بأن الحماية البريطانية للبحرين لم تسفر عن أية نتائج مفيدة لها (أي للبحرين) ولا تعني كلمة الحماية الا ممارسة الحياد في الشئون الداخلية واملاء السياسة تجاه الدول الأخرى كلية .

( وحاول المقيم البريطاني في أغسطس ١٩٠٦ إقناع حاكم البحرين باعطاء حق جمع الضرائب الجمركية لحكومة الهند مقابل مبلغ محدد بدلا من منح هذا الحق لمقاول ما وقد رفض الشيخ قبول هذه التوصية وكان رفض الشيخ أمرا محزنا للغاية بالنسبة لبريطانيا نظرا لأهمية البحرين المتزايدة كمركز تجارى هام واستطرد المقيم يقول وعلينا ان نبحث خطوات أخرى لاقناع الشيخ لتعديل موقفه الرافض)

واذا تم تعيين موظف بريطاني مديرا للجمرك ولديه المام بالشئون التجارية فيمكن له ان يؤسس مستودعا تجاريا في سوق حرة في البحرين مما يساعد في خدمة المصالح التجارية البريطانية . وتجلب هذه الخطوة عددا كبيرا من التجار من لنجه وأماكن أخرى لأن تعيين مدير جمرك بلجيكيا هناك قد سبب سخطا وغضبا بين التجار . وان البحرين ملائمة لانشاء محطة بحرية فيها من الناحية الجغرافية لموقعها المتوسط بين رأس مسندم ومدخل شط العرب

وارضها خصبة ومناخها يلائم الأوروبيين اكثر من جزيرة قشم أو مسقط ورغم ترددنا في اقامة محطة بحرية فيها نظرا لكونها جزيرة مستقلة الا انه لا مبرر لاعفال فرص متاحة لنا لنخدم مصالحنا التجارية . ويجب علينا ان نعرض للبحرين مبلغا مغريا مقابل ادارتنا للجمارك مما يعود علينا بأرباح طائلة . ويمكن لنا ان ندرك حجم تجارة البحرين من تصدير اللؤلؤ في عام ١٩٠١ إذ بلغ ٤٧٥٠٠٠ جنيه وقد سجل حجم التجارة الكلي ارتفاعا قدره ٣٠٪ ما بين ١٩٠٥ و١٩٠٦ وبلغ ١,٤٥٤,٠٠٠ جنيه عدا اللؤلؤ

وبلغت شحنات السفن في ميناء البحرين في عام ١٩٠٦ ما يلي

المراكب البريطانية نقلت ٥٧٥٨٣ طنا وشحنت السفن الامريكية ٣٩٤٣ طنا والسفن الالمانية حملت ٣٤٤٤ طنا والسفن الروسية نقلت ٢٠٠٠ طن .

ويجب علينا ان نناقش هذه المذكرة مع دائرة الهند ولجنة التجارة (البريطانية) لمواجهة المنافسة الالمانية فانه رغم صغر حجمها فهى تكاد تتضخم بمرور الوقت بسبب الدعم الذى تتلقاه من حكومة المانيا كما تتلقى الخطوط الملاحية أيضا مساعدة الحكومة [٩]

## معارضة الشيخ عيسى للضغط الانجليزي

قدم اللورد كرزون في ٢١ سبتمبر ١٨٩٩ مذكرة لدائرة الهند طلب فيها أيضاح حكومة بريطانيا لموقفها تجاه الاحتفاظ بمصالح بريطانيا في الخليج وجاء ذكر هذه المصالح في الحقول المختلفة في وثيقة لحكومة الهند مؤرخة في ٢١ سبتمبر ١٨٩٩ م ولقد شعر كرزون بأن هذه المصالح كانت مهددة بسبب تدخلات كل من روسيا وفرنسا والمانيا وتركيا وطلب اتخاذ الشدة في تنفيذ التزامات الشيخ عيسى المترتبة عن الاتفاقيات المبرمة بينه وبين بريطانيا

ونظرت حكومة الهند الى الوضع في البحرين والذى كان مماثلا لما حدث في مسقط حيث كانت فرنسا تحاول ان تحصل على موطىء قدم لها في الخليج فأرسل المقيم تقريرا ذكر فيه حجم التجارة الخارجية للبحرين والذى سجل ارتفاعا من ٢,٢٢٩,١٧٧ روبية في ١٨٧٨ الى ٨,٨٢٧,٦٥٠ روبية كما زادت الصادرات من ٢,١٨١,٩٩٥ روبية الى ٧,٩٤٠,٨٨٠ روبية واعتمدت تجارتها الخارجية على بريطانيا تماما

ورأى الكولونيل (ميد) ان الشيخ عيسى بن علي آل خليفة لا يأخذ بنصيحة الضباط البريطانيين ويعطى إهتماما اكثر للأتراك والفرنسيين فأوصى بتعيين مقيم جديد في البحرين بمسئوليات أوسع بما فيها اعطاء المشورة لحاكم البحرين في الشئون التجارية وعلى الرغم من التزام الكولونيل (ميد) في مارس ١٨٩٩

للشيخ عيسى بن علي بأن بريطانيا لن تتدخل في شئون البحرين الداخلية فقد كره الشيخ عيسى بن علي التدخل البريطاني في شئون الجمارك ورفض رفضا متواصلا تعيين مدير انجليزي للجمارك خشية ان يفتح الطريق الى التدخل أكثر فأكثر [١]

أما بخصوص انشاء محطة لاسلكية ومحطة فحم بالقرب من رأس مسندم في ١٨٦٢ فقد اوصى الكولونيل (بيلي) في مذكرة للحكومة البريطانية جاء فيها

١ ـ ان الأهداف الرئيسية في اقامة مقيمية في الخليج هي كبح القرصنة وتجارة الرقيق وتطوير التجارة فقد نجح الانجليز في تدارك هذه الأنشطة

٢ ـ وفي البداية كانت توقعاتنا بشأن التجارة في الخليج متواضعة لكن حجم التجارة يزداد يوميا وتدخل البضائع التجارية في الخليج من أوروبا والهند ومسقط وشرق افريقيا وساحل عدن بواسطة السفن أو القوافل البرية القادمة من طهران واصفهان وشيراز الى بوشهر أو بواسطة البواخر من البصرة بالاضافة الى تجارة اللؤلؤ داخل الخليج نفسه ونقل وتبادل البضائع المختلفة بين كل من موانىء الساحل الغربي للخليج العربي من الكويت (القرين) شمالا الى رأس الخيمة جنوبا .

٣ ـ ومن المفضل تأسيس محطة للفحم عند مدخل الخليج نظرا لهبوب الرياح الموسمية ولموقع هذه المحطة في الوسط بين غرب الهند والبصرة مما يجعل هذا الوقود يكفي لقيام السفينة بجولات داخل الخليج من جهتين دون صعوبة وفي نفس الوقت يمكن للسفن ان تحمل شحناتها من الموانىء الخليجية على طول خط سيرها

٤ ـ يجب ان نختار مكانا مناسبا في الخليج يتصف بالمزايا التالية (أ) أن يكون مركزيا وصالحا لنقل البضائع كأنه ميناء حر ، (ب) أن يكون في الوسط من ناحية الاتصال اللاسلكي في حالة عطب (الأسلاك) ، (ج) صالح لغرض انضباط بحري بسهولة مع الاقتصاد في اجتياز المسافات ، (د) وأن يكون بالقرب من مراكز المدن ، (هـ) وخاليا من المشاكل السياسية ، (و) وملائما للصحة ويتوفر فيه الماء الصالح للاستخدام ، (ز) وأن يعطينا مركزا قويا في حالة نشوب حرب ، (ح) واختيارنا لبوشهر خطأ بينما رأس مسندم يفي بالمزايا المطلوبة

٥ ـ ان الكويت نهاية خط طبيعي للمواصلات مقارنة بالبصرة وتوفر لنا مسافة ٧٠ ميلا عبر النهر وهي مكان أنسب من حيث انشاء محطة للفحم ومن السهل ان نربط الكويت بأية نقطة على شط العرب بواسطة القوارب وكانت الكويت مركزا للبضائع التجارية بين الشرق والغرب على السواء منذ زمن بعيد .

# جدول تقريبى للصادرات والواردات في بوشهر

| الصادرات | روبية | الواردات | روبية |
|---|---|---|---|
| الى بومباى | ١,٠٠٠,٠٠٠ | من بومباى | ٣,٧٠٠,٠٠٠ |
| الى جاوا | ٣٥٠,٠٠٠ | من جاوا | ١,٠٠٠,٠٠٠ |
| الى جـدة | ١٨٠,٠٠٠ | من جـدة | ـــــــ |
| المجمــوع | ١,٥٣٠,٠٠٠ | ٤,٧٠٠,٠٠٠ | |

نص قرار صادر من لحنة مدراء شركة الهند الشرقية مؤرخ في ١٣ مايو ١٨٦٣ م

تعرب اللحنة عن تقديرها لما قدمه الكولونيل (بيلي) من توصيات قيمة كالعادة وعلى الرغم من انها تتفق معه في توصياته الا أن هناك عوامل أخرى في اتخاذ قرار نقل المقيمية من (بوشهر) الى احد الموانىء في ساحل مسقط فقد تنظر ايران الى هذه الخطوة نظرة الحقد والحسد لدا نرسل توصيات الكولونيل بيلي لحكومة الهند لدراستها واتخاذ القرار حولها

## الحفاظ على المصالح البريطانية في الخليج - ١٨٨٥ - ١٨٨٦ م

خلاصة توصيات قدمها (جورج ماكنزي) في ديسمبر ١٨٨٥ لدائرة الهند

١ ـ لنا قنصل عام في بوشهر وفيها وال يخدمه عدد كبير من المواطنين ورغم دلك ليس هذا الوالي الا تاجرا محليا . وفي اصفهان حيث يوجد مقر للحكومة لا يمثلنا الا كاتب أنباء أرمني وليس له ثقل لدى الأوروبيين أو المحليين .

٢ ـ فيجب على القنصل العام البريطاني ان يختار اصفهان مقرا له بدلا من بوشهر حيث يوجد حاكم يحكم كلا من لورستان وعربستان وفارس وكرمان أي جنوب ايران بأكمله

٣ ـ ليست لبوشهر أية أهمية الا كميناء شحن ويكفي تعيين وكيل محلي هناك

٤ ـ ونظرا لتوفر البواخر والمواصلات اللاسلكية يمكن للقنصل البريطاني في كل من مسقط والبحرين بالتعاون مع الوكيل المحلى فى بوشهر مراقبة

السواحل الخليجية كلها ولا داعي لتوزيع السفن الحربية لهذا الغرض كما كان في السابق

لم تقبل الحكومة البريطانية التوصيات المذكورة أعلاه لأسباب شتى سياسية وعسكرية كما عارض الكولونيل (روس) هده التوصيات كتوصيات غير جادة ومبنية على افتراضات خاطئة . ومن أهم هذه الاعتراضات ان سحب السفن الحربية من الخليج يؤدى الى فقد الثقة في قدرة بريطانيا في الخليج مما يدعم نشاط كل من روسيا وتركيا

## التنافس الدولي بين ١٨٩٦ و١٩٠٤ م

### روسيا

بدأت روسيا تتطلع الى ايران والخليج منذ القرن السادس عشر وكسبت أراضي في القفقاس وآسيا الوسطى ولم يحل بين روسيا والهند الا أفغانستان وايران في عام ١٨٨٤ م وخاف الانجليز من وصول روسيا الى الموانيء الدافئة في الخليج وممارسة ضغطها على المستعمرات الهندية

وقد أقامت روسيا قنصلية عامة في بغداد في عام ١٨٨٠ وعينت الكولونيل (أيبرهارد) قنصلا عاما لها الا انه غادر بغداد في يناير ١٨٨٦ قائلا بأن فرنسا تحافظ على مصالح الروس هناك وبدأت شركة روسية (بوجنهوف) عام ١٨٨٦ م أعمالها التجارية في بندر عباس وفي نفس العام أرسلت روسيا مهندسا باسم سابينزا Sapienza الى طهران ومعه مشروع لاقامة سكة حديد بين بحر قزوين والخليج العربي لكنه لم يحقق أية نتيجة .

أكدت ايران لبريطانيا بأنها لن تتنازل عن أي ميناء لها في الخليج لصالح روسيا . وقد وصل مندوب روسي الى قارون في مارس ١٨٨٩ م لمراقبة التحركات البريطانية في نهر قارون ونظرا لاحتمال فتح نهر قارون للملاحة عينت روسيا قنصلا عاما في ١٨٨٩ م مرة أخرى في بغداد وفي ضوء المنافسة القائمة بين بريطانيا وروسيا بخصوص انشاء سكة حديد ابرم شاه ايران اتفاقية مع روسيا بعدم انشاء أي خط حديدى في ايران من قبل أي طرف خلال الـ١٠ سنوات التالية وترددت عدة شائعات حول موضوع سكة حديد بين سنتي ١٨٩٠ و١٨٩٢ م وتبودلت البرقيات التالية بين لندن وطهران في ابريل ١٨٩٢ م ومنها

من المندوب البريطاني في طهران الى (السير فرانك لاسل)
الى الحاكم العام ١٩ ابريل ١٨٩٢

قد أرسلت البرقية التالية الى لندن رقم ٥٩ يقال بأنه تم التوصل الى اتفاق بين مواطن روسي وشركة انجليزية لانشاء خط حديدى بين قزوين والخليج ومن المحتمل في الظروف السائدة ان تميل ايران الى الموافقة على المشروع . أرجوكم افادتي اذا كان هناك أي مانع من قبل الحكومة البريطانية لارساء الامتياز على مواطن روسي على شرط ان يكون الجزء الأكبر من رأس المال انجليزيا .

من الناحية التجارية ان المشروع المقترح يفيد انجلترا ويساعد في تنمية ايران

وبرقية من لندن الى المندوب البريطاني في طهران

رقم ٣٠ ، ٢٥ ابريل في ١٨٩٢

بالاشارة الى برقيتكم المرقمه ٥٩ بخصوص مشروع اقامة سكة حديد من قزوين الى الخليج العربي أود أن أقول بأنه لا مانع من إرساء العقد على مواطن روسي مبدئيا اذا كان معظم راس المال انجليزيا وكان للانجليز حظ كبير في ادارة المشروع واذا تم تنفيذه بحسن النية لكنني أود أن أطمئن أولا على الشروط المذكورة والا يكون الامتياز أداة لمارسة مكيدة سياسية أو بعد اكمال سكة حديد طهران يمكن ان يأخذ المشروع اتجاها معاديا لمصالح الانجلير أو قد تنتهي السكة في عاصمة ايران

وقد قامت سفينة سوفياتية بزيارة مسقط في سبتمبر ١٨٩٣ وعقد بعض ضباطها اجتماعا سريا مع السلطان وشاعت أنباء عن مؤامرات روسية وتواجد عميل سري دبرها كما قام ضابط روسي في ١٨٩٥ بزيارة هرمز ومسحها .

وفي عام ١٨٩٧ م ارسل قنصل روسي لبغداد لغرض الحصول على تصريح لروسيا في اقامة محطة فحم في الخليج ولكن دون جدوى وكانت لروسيا مصالح تجارية في كل من بوشهر وبندر عباس كما جاء طبيبان روسيان لبوشهر في ١٨٩٧ م لدراسة أسباب انتشار الطاعون وكان برفقتهما ضابط في المدفعية

حاول كونت كابنست Count Kapnist ابن أخ السفير الروسي في فيينا الحصول على امتياز من الباب العالي لبناء سكة حديد من طرابلس في سوريا الى الخليج العربي وعلى الرغم من ان السفير الروسي في القسطنطينية أيد المشروع الا انه لم يكن متحمسا في تنفيذه وفضل ان يمد الخط من ساحل بحر قزوين الى الخليج بدلا من طرابلس لأن مشروع طرابلس لم يكن تنفيذه ممكنا دون رأسمال انجليزي ولقد تمت دراسة المشروع واقترح ان يمد الخط من الاسكندرونه وليس من طرابلس ويمر بحلب وبغداد والبصرة ومحطة في الخليج

وحين قام القنصل الروسي في اصفهان بزيارة بوشهر في يونيو عام ١٨٩٩ م اقترح اقامة قنصليات في كل من بندر عباس ومسقط والمحمرة وكذلك اقترح تأسيس محطة للفحم في هرمز ولكن أخبرت روسيا المندوب البريطاني في سان بيترس بورج بأنها لا ترغب على الاطلاق في مزيد من المسئوليات بالحصول على موانىء بعيدة أو محطات قد تحتاج الى دفاع بحرى عنها في أيام الحرب

ووردت الأنباء في مارس وابريل ١٨٩٩ م بأن وزيرا روسيا في طهران خول شركة روسية لأصحاب رؤوس الأموال إنشاء خط حديدي من اسكندربول الى شوكتون Chocton في الأراضي الايرانية وامتداده لكل من تبريز وطهران واصفهان ومن ثم الى

الخليج العربي ، وسأل سلطان مسقط في عام ١٩٠٠ م المعتمد السياسي عن رأيه عما ورد في الصحف الروسية عن طموحات روسيا في (جوادر) لكنه لم يكن على علم بالموضوع .

وقد اعتمدت روسيا قرضا لايران قدره ٢٢ ١/٢ مليون روبل في ١٩٠٠ م بالشروط التالية

١ ـ توفير ضمان تسديد المبلغ في مدة ٧٥ سنة مرتبطا بالعائد الجمركي الايراني ما عدا ولاية فارس وموانيء الخليج

٢ ـ تتعهد ايران بعدم اقتراض أي مبلغ من أية جهة ثانية مادام لم يتم تسديد القرض الروسي .

وفي نفس العام وصلت جماعة من المهندسين الروس الى جنوب ايران حيث قاموا بمسح الأراضي والموانيء من حيث ملائمتها لانشاء شبكة من السكك الحديدية

قدم ضابط روسي في عام ١٩٠١ التوصيات التالية

(١) اقامة خطوط ملاحية ممولة من حكومة روسيا للاتجار في المنتجات الروسية في الموانيء الجنوبية لايران

(٢) اقامة مصرف روسي في احد الموانيء الخليجية مع قنصلية قوية يحرسها حرس روسي مدعمة بسفينة حربية واقامة محطة فحم في بوشهر

قررت السلطات الروسية اقامة قنصلية في بوشهر وخط حديدي بين أوديسا وبندر عباس وتشجيع التبادل التجاري بين الشركات الروسية وجنوب ايران

كما قامت باخرة روسية كورنيلوف بزيارة كل من مسقط وحسك وبندر عباس ولنجه في مارس ١٩٠١ م واجتمع قائد الباخرة بسلطان مسقط . وكانت الباخرة محملة ببضائع ثقيلة ولم تستطع ان تدخل الى المياه الداخلية في بوشهر الا بعد ان افرغت ١٢,٥٠٠ طرد مكونة من الكيروسين والسكر والقطن والحرير والأواني الخزفية الخ حاول الروس بيع البضائع الى المحليين دون جدوى فخسروا الصفقة وكان عدد الركاب على الباخرة (كورنيلوف) ١٠ منهم روس وفرنسيون بما فيهم المستر موزمان مندوب شركة (هوتز) في بوشهر وهي شركة هولندية تمتعت بحماية بريطانيا لكنها كانت قد اعلنت عن وضع نفسها تحت حماية روسيا عادت الباخرة الى بوشهر في ٢٢ ابريل ومعها ٢٥٠ طنا من البضائع من البصرة و٢٠٠ بالة قطن اشتراها الروس في بوشهر و١٤٠ كيسا من التبغ لشركة (هوتز)

أما بخصوص النشاط الفرنسي فقد أرسلت دائرة الهند رسالة للخارجية في عام ١٨٩٤ م بتاريخ ١٧ يوليو جاء فيها ما يلي

ان الهدف من تعيين نائب قنصل فرنسي في مسقط معروف لدى الحكومة البريطانية قد رأت الحكومة آنذاك انه يصعب عليها معارضة حق الحكومة الفرنسية في تعيين قنصل لها في مسقط مادام قد بقى الاعلان الانجلوفرنسي لعام ١٨٦٢ سارى المفعول لكن الظروف الحالية تختلف بخصوص روسيا لأنه لا يوجد أي اتفاق بين

روسيا وسلطان مسقط يلزمه قبول قنصل روسي ونعتقد بأن السلطان لا يرغب فيه لذا نقترح بأنه اذا استشار السلطان الكابتن كوكس في الموضوع عليه ان ينصحه بعدم قبول قنصل روسي على أساس ضآلة حجم التجارة بين روسيا ومسقط حيث لا يزيد عن ١٠,٠٠٠ دولار فقط لعام ١٩٠٠ م ـ ١٩٠١ م كما ورد في التقرير الاداري للمقيمية

وفي اكتوبر ١٩٠١ م وصلت سفينة كورنلوف الروسية الى لنجه بعد ان زارت كلا من مسقط وبندر عباس حيث افرغت فيهما ٥٠٠ عبوة من الكيروسين وطلب القنصل الروسي من مدير الجمرك في لنجه احصائيات عن ايرادات لنجه من السجاجيد والصدف والسكر واللؤلؤ لكنه فشل في الحصول على هذه المعلومات

وقد اشترت السفينة من بندر عباس ولنجة التبغ والنسيج والسجاجيد والصمغ

### مغبة احتلال روسيا لميناء في الخليج

وهذه مذكرة صادرة للقوات البحرية حول مغبة احتلال روسيا لميناء في الخليج وآثاره على موقف القوات البحرية البريطانية (تتعلق المذكرة بخطاب السير هاردنج المؤرخ ٢٧ أغسطس ١٩٠٢ م) وقد جاء فيها نظرا للتفوق الذى تتمتع به القوات البحرية البريطانية يجب ان يكون الميناء الذى تختاره روسيا في موقع يمكن الدفاع عنه والا تتعرض حركة السفن والبضائع للمصادرة والتدمير على يد سرب من الاسطول البريطاني

ان أمن وكفاءة المواصلات البرية للمناطق التى تجلب منها كميات كبيرة من المؤن العسكرية وكذا المواصلات البحرية تكتسب أهمية كبرى الا أن المواصلات البحرية تكون غير آمنة في وجه الاسطول البريطاني ذى الكفاءة العالية فيجب ان يقع الميناء الذى تختاره روسيا على البر الرئيسى أو على جزيرة مجاورة له ويبدو ان أحسن موقع استراتيجي يكون في مدخل الخليج من حيث القوات البحرية أو على الساحل الفارسي ومن حيث الأفضلية الاستراتيجية للقوات البحرية من المرجح ان يكون الميناء في مدخل الخليج في موقع متقدم وان يتوقف اختياره على المناخ والأوضاع المحلية وهذا الموقع مفيد جدا لأن الاسطول الروسي في هذه الحالة يكون قريبا من خطوط المواصلات لأية قوة بحرية بريطانية قد تعمل في الخليج ويلزم تغطية الحركة قبل ان تحرز تقدما ملموسا في الخليج وفصلا عن ذلك يكون الاسطول الروسي بالقرب من خطوط المواصلات البحرية البريطانية بين البحر الاحمر والشرق وهكذا يكون في موقع افضل ليهاجم التجارة البريطانية على ذلك الطريق

ويجب على روسيا ان تنشىء شبكة سكة حديدية كي تتمكن من نقل البضائع والرجال الى السفن ونظرا لان الفحم لا يوجد الا في جنوب روسيا وأقرب مصدر للنفط يقع في (باكو) فيمكن نقل الكميات المطلوبة لاسطول كبير عبر سكة حديدية عبر مسافة طويلة لذا يجب ان يكون الموقع مناسبا لمكان وجود الفحم او النفط ان انشاء وتطوير قاعدة بحرية روسية في الخليج يكتنفه صعوبات جمة وأهمها الحر الشديد في المنطقة ورداءة الطقس وحتى اذا افترضنا تذليل هذه الصعوبات فان تواجد اسطول روسي في الخليج يعتمد على وجود ميناء محصن ومرتبط بمصدر للتموين بسكة حديدية مما يكون له تأثير على الموقف البحري لكل من روسيا وبريطانيا، فإذا تم توزيع القوات البحرية الروسية على أربع مناطق منفصلة كبحر الصين والخليج والبحر الاسود وبحر البلطيق ـ بدلا من ثلاث مناطق كما هو حادث الآن فتصبح القوات البحرية الروسية ضعيفة في العمليات التي تحتاج الى التركيز ففي هذه الحالة تستطيع القوات البريطانية عبر خطوط مواصلاتها ان تكبح هذه الاجزاء المنقسمة

**فرنسا**

وكان اهتمام فرنسا يرتكز على مصالحها الاقتصادية من جهة وتوطيد دعائم الاستعمار في المحيط الهندي من جهة اخرى قدمت فرنسا وبريطانيا ضمانات بشأن الحفاظ على استقلال عمان في ١٨٦٢م واستهدفت الاتفاقية المبرمة بين بريطانيا وحكام ساحل المهادنة في ١٨٩٢ احتواء الطموحات الفرنسية في الخليج وقد انشأت فرنسا وكالة قنصلية في مسقط في عام ١٨٩٤

قام يخت بلجيكي يدعى (سليكه) في ٢٧ فبراير ١٩٠١م بزيارة كل من مسقط وبندر عباس وبوشهر ووصل الى مسقط في ٧ مارس وفي اليوم التالي طلب القنصل الفرنسي موعداً مع السلطان لنفسه ولجماعة من اليخت قال القنصل اثناء لقائه مع السلطان بأن قائد اليخت موظف فرنسي ويريد ان يزور صحار ثم الموانىء الاخرى على الساحل المهادن وقال كمبال في برقيته في ٢ ابريل ١٩٠١ بان زيارة سليكة تستهدف البحث عن منطقة ملائمة لصيد اللؤلؤ ووصل اليخت الى البحرين في ١١ ابريل ١٩٠١ فقامت جماعة منه بزيارة شيخ البحرين في ١٢ ابريل ١٩٠١ واستفسرت عن تجارة الاقمشة والسكر والاواني الزجاجية وحصلت على عينات منها. سأل احدهم ان كان مسموحا للبلجيكيين بممارسة التجارة في البحرين فقيل له بأنه ليس هناك ما يمنعهم من ذلك فطلب من الحاكم تاكيدا كتابيا في هذا الشأن لكن الحاكم رفض ذلك

اما الكابتن جرلاش قائد سليكة الذى زار الخليج في ابريل ١٩٠١ فقد عاد الى البحرين في اكتوبر ١٩٠١ واخبر جاسكن نائب المقيم بأنه اشترى اللآلىء الصغيرة من البحرين بـ ٣٠٠٠ فرنك وذلك فى زيارته السابقة وكسب ربحا ١٠٠٪ في اوروبا وجاء مرة أخرى ليساوم على صفقة اكبر لكنه وجد الاسعار هذه المرة مرتفعة جدا لذلك فإن مهمته باءت بالفشل

ومن مكتب الهند ـ لندن في ٦ يوليو ١٩٠٠م الى الحاكم العام الهندى من جورج هاملتون وردت هذه المذكرة

لقد أخذت بعين الاعتبار موضوع حماية المصالح البريطانية في ايران وقد علمت بانكم عينتم معتمدا سياسيا مساعدا في البحرين مؤقتا وكذلك ضابطا مؤقتا فى بندر عباس

أرجو معرفة رايكم حول اقتراح انشاء سكة حديدية من (كويتا) الى (نشكى). ان نهر قارون وموقع المحمرة ذو اهمية لحكومة الهند أرجو تعليقكم حول انشاء طريق يربط بين الأهواز واصفهان ونحن مهتمون بالدفاع عن الهند ضد اى هجوم محتمل من حدود بلوشستان أو جنوب ايران أو من موانىء الخليج وان بريطانيا تعتمد على القوات البحرية في حين تحتل روسيا بعض الأماكن على أرض ايران والتى تعطى لها السيطرة على ايران كلها تحت ستار الامتيازات والاتفاقات

أما في الخليج فان بريطانيا تواجه تحديات لاحتكارها التجارة ولسيادتها على المنطقة وقد اكدت فرنسا أخيرا حقها في مسقط وترغب المانيا في مد شبكة سكة الحديد كما زار الخبراء الالمان الكويت بهذا الصدد. وزارت السفن الروسية بندر عباس والموانىء الخليجية الاخرى. وهكذا بدأ ينخفض نفوذنا في الخليج لقد طرأت هذه التطورات بسبب تطوير المواصلات ووسائل النقل مما يفرض علينا مراقبة الاوضاع في ايران بدقة تامة كي نحتفظ بأمن الهند وهل هناك مجال للوصول الى التفاهم بين بريطانيا وروسيا بالنسبة الى مناطق النفوذ للبلدين في ايران ؟ اذا قدمنا مثل هذا الاقتراح الى روسيا ربما تشعر ايران باننا نقسم ايران بين بريطانيا وروسيا فلا داعى لذلك في الوقت الحاضر

وفي رسالة موجهة من الكابتن كوكس المعتمد السياسي في مسقط الى المستر بارنس في وزارة الخارجية في ١٥/٦/١٩٠١م وقد إرفق بها رسالة في نفس التاريخ منه الى كمبال وفيها يقول «رجعت الى مسقط بموافقة صاحب السمو السلطان في ٢٥/٥/١٩٠١م وفي هذه الرسالة مسألة النفوذ الفرنسي في عمان بالاضافة الى وجود معدن الفحم في صور التي تسكنها قبيلة (المشارفة) وعدد افرادها حوالى ٥٠٠ نسمة

وتسيطر عليها قبيلة بني ابو حسن لانها اقوى عددا. وتنتسب القبيلتان الى فرع الحناوى سياسيا مقابل فرع الغفيرى وحسبنا اولا بأنه ليس علينا الا أن نحصل على تأييد قبيلة صغيرة فى المقاطعة في جمع المعلومات عن تواجد الفحم فيها ولكن الفرنسيين سببوا قلقا لنا بأثارتهم شكوك القبليين في عملياتنا على الرغم من تأييد السلطان لنا ولكن وصول سفينة حربية بريطانية الى صور سهل علينا الامور فقد وجدنا القبليين راضين عن عملياتنا في استكشاف الفحم.(١١)

وهذا نص رسالة (ماركويس أوف لانس داون) الى السير هاردنج في مكتب الخارجية مؤرخة في يناير ١٩٠٢م ان التقرير الذى بعثت به الى الحكومة البريطانية عن الوضع السياسى والمالي في ايران قد لقى عناية الحكومة حيث تشعر بالارتياح لان ايران ترغب في تطوير علاقات الصداقة مع بريطانيا وعليك ان تؤكد من جديد لحكومة ايران مبادىء السياسة البريطانية نحو ايران اذ تهدف الحكومة البريطانية للاحتفاظ بسيادة شاه ايران واستقلال بلاده لان ايران تقع خارج مستعمراتنا في الهند بين امبراطوريتنا والقوى العسكرية الكبرى كما نعترف بمصالح روسيا في شمال ايران نظرا لحدودهما المشتركة الطويلة وان السياسة التى اتخذناها تجاه شمال ايران تخدم مصالحنا ومصالح ايران معا وفي جنوب ايران لدينا مصالح تجارية ضخمة وعلى هذا الاساس لدينا مصالح سياسية أيضا فيه وقد استفادت ايران من سياستنا لاننا قمنا بتطهير السواحل الخليجية من خطر القراصنة وقمنا بدور الشرطي فى مياه الخليج وهذا هو ما أدى الى ازدهار بوشهر وبندر عباس. كذلك ان امتداد نظام التلغراف عبر البلاد ساعد في تدعيم سلطة شاه ايران في وسط وجنوب ايران بالاضافة الى التقدم الصناعي والرقي التجارى في المنطقة

وعلى الرغم من ان بريطانيا لا تعارض مصالح روسيا التجارية في الخليج الا اننا لا نحب ان تتخذ روسيا هذا مبررا لتمد نفوذها العسكرى فى الخليج وتحتل أماكن استراتيجية فيه. واذا اعطت ايران امتيازات لروسيا كتأسيس محطة للتموين في الخليج أو محطة للتزويد بالفحم للجيش الروسى أو للاسطول البحرى الروسى فإن بريطانيا تعتبر ذلك تحديا لها وتأخذ الاجراءات اللازمة لمواجهة هذا التطور لانه يهدد أمن المستعمرات الهندية كذلك لا تسمح بريطانيا لروسيا ان تتمتع بحقوق سياسية خاصة في جنوب ايران أو في سيستان وقد أعطت حكومة ايران نفسها في اكتوبر ١٨٩٧م ضمانا لبريطانيا بأنها لن تسمح لاية قوة خارجية ان تتولى ادارة الجمارك في

جنوب ايران. كما أكدت بريطانيا بأن لها مصالح في موانىء المحمرة وبوشهر وبندر عباس ولابد لحكومة ايران ان تستشير بريطانيا قبل ان تنفذ أية تعديلات في الاجراءات الجمركية فيها كما تحرص بريطانيا على ان تبقى ايران دولة مستقلة ذات سيادة كاملة دون ان تتعرض لاى ضغط أو سلطة او نفوذ من الخارج[١٢]

وبخصوص فرنسا فان شركة فرنسية تدعى (ايزورد) استأجرت باخرة سيفين لكي تقوم بزيارة استطلاعية للخليج في ١٨٨١م وحملتها بالبضائع الفرنسية فزارت السفينة مسقط والبصرة لكن المهمة لم تنجح وخسرت الشركة خسائر فادحة

ثم بدات شركة فرنسية خطا بحريا من البصرة الى الموانىء الخليجية في ١٨٨٢م وكان لديها عشر سفن لكن الشركة لم تواصل اعمالها وفي ١٨٨٩م انشئت قنصلية فرنسية في بوشهر ولكن لم تستمر طويلا وفي ١٨٩٧ أرسل نائب للقنصل واسمه (فران) الى بوشهر واقامت فرنسا وكالة قنصلية في لنجة فنزل القنصل الفرنسي في سفينة تركية يرفرف عليها علم فرنسي ورفعت السلطات الايرانية العلم الفرنسى عن السفينة لكنهم رفعوه ثانيا بعد بضعة ايام بصورة رسمية

وعاش مواطن فرنسى اسمه شابوى في الخليج حوالى ١٨٩١م وكان شبه مغامر وشبه تاجر ولكنه متآمر وورد في رسالة الكولونيل روس قوله جاء شابوى الى مسقط في ١٨٨١ وادعى بانه مندوب لشركة فرنسية كبيرة في مارسيليا وجمع معلومات تجارية من أجل غرفة التجارة بباريس عن عمان والخليج. وعلى الرغم من انه قام بدعاية واسعة حول اعماله التجارية الا انه فقد ثقة الناس واضطر الى اغلاق مكتبه في ١٨٨٦م ورجع شابوى لفرنسا في أواخر ١٨٨٦م ولكنه عاد الى مسقط كما جاء في العام القادم وفتح حانوتا لبيع الخمور فى (جسك) لكنه لم يفلح في ذلك واضطر لاغلاقه بعد ٤ شهور وفي عام ١٨٨٨م ترك التجارة وعمل على سفينة حربية ايرانية (برسيبولى) لكنه طرد من منصبه بسبب سوء تصرفاته واستوطن بندر عباس ثم مارس شابوى اخيرا تجارة الاسلحة في الخليج في ١٨٩٣م

**المانيا :**

أسست قنصلية المانية عامة في بغداد في عام ١٨٩٤ وقنصلية في بوشهر في نوفمبر ١٨٩٧ وحاولت كل من المانيا وتركيا فرض سيطرتها على الكويت عن طريق امتياز لانشاء سكة حديدية من بغداد الى الخليج كما انشئت شركة المانية في البحرين في يونيو ١٩٠١ باسم (وانك هاوس) وهو عضو لشركة كبيرة في هامبورج

وقد اتبعت المانيا منذ زمن قديم سياسة تجارية استهدفت فرض سيطرتها على شبكات السكك الحديدية في آسيا الصغرى وامتداد هذه الشبكة الى كل من حدود ايران والخليج الى وادي الرافدين وقد ناقشت الأوساط الالمانية مشاريع امتداد السكك الحديدية من المانيا وتركيا الى بعداد والحليج وكذلك حصلت المانيا على بعض المصالح في المواصلات التركية البرية تم اتخذت المانيا خطوات سريعة في ترويج مصالحها في الخليج مما بعث موجة من القلق في الاوساط البريطانية التي اعتبرت اهتمام الالمان بشئون الخليج تدخلا في منطقة ذات اهمية خاصة لها ودات نفوذ فيها(١٢)

## تجارة الإسلحة في الخليج

على الرغم من ان حكومة ايران حاربت استيراد وتصدير وبيع الاسلحة والدخائر في ١٨٨١ الا انها لم تستطع ان تنفد قرارها بسبب ضعفها وقد زاد الاهتمام بالأحوال الأمنية منذ بداية ديسمبر ١٨٩٧ وطلبت ايران من مسقط تعاونها في منع تجارة الاسلحة فلبى سلطان مسقط دعوة ايران ووعد بتنفيذ القانون بشدة ، كما وافقت بريطانيا على فرض رقابة على السفن البريطانية التي تمارس التجارة في الاسلحة سرا . وأصدر الشيخ عيسى بن علي آل خليفة مرسوما في ٦ فبراير ١٨٩٨ اعلن فيه حظر الاتجار في الاسلحة واعطاء الحق للسلطات الرسمية في تفتيش السفن المشتبه فيها

## المصلحة البريطانية وتجارة الإسلحة

تعاونت بريطانيا مع ايران في منع تجارة الاسلحة نظرا لان مسقط اصبحت مركزا لتجارة الاسلحة والذخائر وكان سلطان مسقط خائفا مما تعود عليه به هذه التجارة من المخاطر فالقبائل المتمردة في ظفار ومطرح كانت مسلحة بالاسلحة النارية ولم يكن فرض الحظر على تجارة الاسلحة سهلا نظرا للاتفاقيات القائمة على التحارة بين مسقط والولايات المتحدة الامريكية في ١٩ مارس ١٨٩١ ومع بريطانيا في ١٧ نوفمبر ١٨٤٤ ولم يعتبر فرض حظر على تصدير الاسلحة من بريطانيا الى الخليج خطة عملية فتقرر اخيرا القيام بتفتيش السفن المشتبه فيها ومصادرة شحنات الاسلحة والدخائر

وكانت بريطانيا تخاف من الهجوم على السفن التجارية الهندية الانجليزية حينما تعرضت بعض المحطات اللاسلكية داخل ايران للهجوم المسلح

. وكانت معظم الاسلحة من صنع بلجيكا وخسرت بريطانيا في هذه الناحية ايضا . وقد بلغ حجم تجارة الاسلحة البلجيكية المسجلة رسميا في ١٨٩٣/٩٢ ، ١٣٢١٠ روبيات وفي

١٨٩٧/٩٦ ، ٢٢٨٧١٩٥ روبية وعندما نظمت حملات التفتيش والمصادرة في كل من بوشهر ومسقط والبحرين تم مصادرة ١٦,٠٠٠ بندقية وحوالي مليونين ونصف مليون طلقة من الذخائر

وأصدر سلطان مسقط مرسوما في ١٢ يناير ١٨٩٨ يعطي حقا للسفن البريطانية ان تصادر شحنات السفن المكونة من الاسلحة اذا رأت انها موجهة الى الهند أو ايران على شرط ان يتم العثور عليها داخل مسافة ٣ كيلومترات من ميناء مسقط

وطبقا لهذا المرسوم صادرت البحرية البريطانية شحنة اسلحة في ميناء مسقط في ديسمبر ١٨٩٨ وطبقا لمستندات السفينة كانت الشحنة موجهة لبوشهر عن طريق البحرين مع ذكر ميناء مسقط كميناء اختياري للزيارة واكتشف فيما بعد أن الشحنة في الحقيقة كانت موجهة الى مسقط

وقد رفعت الدعوى امام المحكمة في لندن ضد مصادرة الشحنة وأثارت المحكمة عدة نقاط

١ - هل يعتبر المرسوم السلطاني لمسقط قانونا لدولة ذات سيادة يجب العمل به ؟

٢ - هل يمكن لقائد بريطاني بحري ان يعتمد على هذا المرسوم لعملية المصادرة ؟ هل يتمشى هذا القانون مع القانون البريطاني ؟

٣ - هل اقتصرت عملية المصادرة على البضائع الممنوعة فقط أو شملت اشياء اخرى ؟

٤ - اذا قضت محكمة في مسقط في القضية هل يكون للحكم ثقل قانوني ؟

٥ - هل يكون لحكم محكمة مسقط الذي صدر بعد الحادث ثقل قانوني ؟

٦ - هل يكون المدعي ملزما بحكم محكمة مسقط ؟

وهكذا قضت المحكمة في لندن بالآتي

١ - يتمتع سلطان مسقط بصلاحيات كاملة ليشرح القانون .

٢ - ان القائد البريطاني البحري على حق في الاعتماد على المرسوم السلطاني

٣ - وجدت المحكمة البريطانية بأنه تمت مصادرة اشياء اخرى بالاضافة الى الاشياء المحرمة

٤ - اذا حكمت المحكمة في مسقط في القضية كانت على حق فيه

٥ - يكون لأي حكم يصدر من المحاكم المسقطية في هذا الشأن ثقل قانوني

٦ - يطبق الحكم على المدعى على اساس ان المدعي كان عنده فرصة المرافعة امام القضاء في مسقط لكنه لم يمارس هذا الحق على الرغم من انه كان على الم بما يدور حوله بشأن القضية(١٤) .

# الهوامش

١ ـ سجلات الخليج ـ توسون ـ أئي أو آر لندن ١٩٧٩ ص ١
٢ ـ آ ئي او آر جي ٢٩/٢٥ من رسالة المقيم لوفيت المؤرخة ١٨٠٣ ـ ١٨٠٤
٣ ـ المصدر السابق لوفيت
٤ ـ تو سون ـ المصدر السابق
٥ ـ آ ئي او آر ـ سي او ٢٥/٧٣٢ رقم ١٩٢٧/٣٠٦ ، ١٠ سبتمبر ١٩٢٧ رسالة من الكولونيل هاورث المقيم في بوشهر الى خارجية حكومة الهند .
٦ ـ توسون ـ المصدر السابق .
٧ ـ التطور السياسي والاقتصادي في الدول الخليجية سيف الوادي رماحي ، نيويورك ١٩٧٣
٨ ـ اف او ٣١٣/٣٧١ ، نوفمبر ١٩٠٧
٩ ـ الحماية والسياسة في البحرين ١٨٦٩ ـ ١٩١٥ ـ طلال توفيق فرح ، جامعة بيروت الامريكية ص ٩١ ـ ٩٢
١٠ـ ال بي اس/٢٠/سي ٢٤٦ ص ١ ـ ١٣
١١ـ نفس المصدر السابق ص ٤ ، ٥
١٢ـ اف او ٣١٣/٣٧١ ، ٢٧ نوفمبر ١٩٠٧
١٣ـ ال بي اس/ ٢٠/ سي ٢٤٦
١٤ـ اف او ٦٠/٦٦٠، ٦٧٠ ، ١٨٩٨

غزو البرتغالي للبحار العربية في الشرق بعد [illegible]
[illegible] الصالح وايجاد صلة مباشرة بـ
المحيط الهندي واوربا، في اعقاب رحلة فاسكوديكاما الشهيرة
١٤٩٧ ـ ١٤٩٨ وتركزت المراحل الاولى للغزو، في إخضاع موانى
شرق افريقيا، وانشاء قاعدة قوية على الساحل الغربي للهند
وشهدت سنوات ١٥٠٢ ـ ١٥٠٧، اخضاع كلوة وزنجبار وسوفالا
وممباسا، والتقدم الى الموانيء الشمالية لامو واوجا وبراوة [١]
وبحلول سنة ١٥٠٩، أي بعد مرور حوالى عشر سنوات على دخو
البرتغاليين الى المحيط الهندي، تم اخضاع ساحل شرق افريقد
وايقاع الدمار بالمستوطنات العربية الممتدة من سوفالة
الجنوب، الى براوة في الشمال، مع جزر زنجبار وبمبا ومافد
وبنجاح البرتغاليين في ايقاع هزيمة كبرى باسطول المماليك
معركة ديو [٢]، تمكنوا من تأسيس قاعدة قوية في غوا،

الساحل الغربي للهند في ١٥١٠ أصبحت مركز ممتلكاتهم في آسيا واندفع البرتغاليون اكثر نحو الشرق، الى جزر التوابل (اندونسيا) والملايو واستولوا على مالقا[٣] في ١٥١٣[٤] وكان الهدف الاستراتيجي للبرتغال التحكم المطلق بالتجارة الشرقية عن طريق السيطرة على مخارجها التقليدية، ومن ثم محق اقتصاديات العالم الاسلامي المهيمن على هذه التجارة وهذا يفسر عدم اكتفاء البرتغاليين بالتحكم بالنقاط الاستراتيجية لممرات هذه التجارة، وتبنيهم اسلوب القرصنة والهجمات في البحار العالية ومحاصرة الموانىء لمنع السفن الاسلامية من ممارسة اى نشاط ملاحي او تجارى [٥] ويتبع ذلك، تأسيس امبراطورية استعمارية تضم شرق افريقيا والهند والخليج العربي والساحل الجنوبي للجزيرة العربية، في المرحلة الاولى، تعقبها مراحل اخرى، باحتلال عدن واختراق البحر الاحمر والتحكم بساحليه[٦]

ويعود الفضل فى تنفيذ ذلك المخطط الى الكابتن افونسو البوكيرك[٧] الذى اخذ على عاتقه بناء امبراطورية قائمة على اساس متين لا يمكن تحديه فى المحيط الهندى. فكان احتلاله لجزيرة سوقطرا فى ١٥٠٧، ودخوله الخليج العربي بعدها مباشرة للاستيلاء على موانئه المهمة تطبيقا عمليا للسياسة التى رسمتها البرتغال وبالسيطرة على سوقطرا والهيمنة على هرمز ومالقا، ثم تأسيس نظام للتحكم يستمد بقاءه وقوته من استمرار تفوق البحرية البرتغالية وعدم تعرضها لاى ضعف طارىء[٨].

اتسمت عمليات البوكيرك فى خليج عمان والخليج العربي باقصى درجات الوحشية والحقد والتدمير، واسفر عنها احتلال معظم موانىء الساحل العمانى من رأس الحد الى خورفكان [٩]، ثم اجبار هرمز [١٠]، على الخضوع واقتضى الامر حملة برتغالية كبرى اخرى بقيادة البوكيرك لتثبيت احتلال هرمز فى ١٥١٥ التى اصبحت الى جانب مسقط والبحرين، قواعد الارتكاز البرتغالية الرئيسه فى الخليج العربي. ولحقبة تزيد على القرن، عانى سكان الخليج العربي مرارة الاضطهاد الشرس من جانب البرتغاليين الذين جعلوا انفسهم سادة الموانىء الرئيسه على جانبي الخليج، واستخدموا مركزهم، بقدر امكانهم، لمنع اية سفينة اخرى من التجارة. فكانت سفنهم تسيطر على مياهه، وحكامهم ينظمون تجارته باجازات تصدر منهم، والقلعة العظيمة فى هرمز تتحكم بمدخله ولم تتمكن اى من دول المنطقة ان تكسر القبضة البرتغالية لانه لم يكن بمقدور احداها تحدى البرتغاليين فى البحر [١١]. كما لم تؤد الثورات التى قام بها العرب فى الموانىء المختلفة الى زعزعة تلك السيطرة [١٢]

تعرضت الهيمنة البرتغالية الى الاهتزاز منذ اوائل القرن السابع عشر بتأثير عوامل متشابكة، منها اتحاد العرشين الاسبانى والبرتغالي سنة ١٥٨٠[١٣]، فاصبحت البرتغال تابعة لاسبانيا حتى عام ١٦٤٠، عندما استعادت استقلالها، اذ توجه اهتمام اسبانيا على نحو بين تجاه مستعمراتها فى العالم الجديد [١٤] ومنها تعصب البرتغاليين وقسوتهم، الى جانب ما اتصف به حكامهم وموظفوهم من جشع وفساد مما جعل سكان الخليج يمقتونهم[١٥] هذا، بالاضافة الى ظهور قوى اوروبية اخرى منافسة لهم ولاسيما الانجليز والهولنديون [١٦] ولكن اهم عوامل تفكك وانهيار السيطرة البرتغالية فى رايي هو تنامى قوة العرب العمانيين فى عهد سلالة اليعاربة التى قدر لها ان تحسم الصراع لصالح العرب، وتقضى

على الامبراطورية البرتغالية لا فى الخليج العربي وحسب، وانما فى غرب المحيط الهندي كذلك.

شكل انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي اماما فى نهاية ١٦٢٤ منعطف تحول مهما فى تاريخ عمان، دخلت فيه عصرا جديدا مجيدا «والامبراطورية البحرية التى سيبنيها اليعاربه ستكون ندا للقوى الاوروبية، وبفضل تروتها اصبحت عمان من جديد قرابة قرن قطرا مردهرا» [١٧] وكان تحرير سواحل عمان من الهيمنة البرتغالية، هدفا مركزيا للامام ناصر لان ترصين الامامة وتباتها لا يمكن ان يتحقق دون تحرير الموانىء، فاذا لم يتم التحكم بها، والحصول على الدخل الذى تقدمه، فان ذلك سيؤدى الى نتائج وخيمة[١٨] ولكن الامام كان يدرك ان تحقيق ذلك الهدف لن يتم بدون وحدة وطنية تجمع ما بين القبائل العمانية كافة، وان ذلك الهدف سيكون له، دون شك دور حاسم فى قوة القبائل وتلاحمها ولهذا فما ان تحقق له توحيد البلاد [١٩] حتى وجه القائد مسعود بن رمضان على رأس جيش كبير، فى نهاية ١٦٣٢ الى قاعدة الوجود البرتغالى فى مسقط [٢٠] التقى الجيش العمانى بالقوات البرتغالية فى الدويح، قرب مطرح، وفى القتال الذى تلا ذلك، تم تدمير حصون المراقبة المشرفة على مسقط، وقتل عدد كبير من البرتغاليين، وهرب الباقون الى الحصون الداخلية، ولم يكن بمقدور القائد العمانى ان يحقق نتيجة حاسمة، بسبب الضعف الذى اصاب قواته، وقوة تحصينات مسقط، ولهذا وافق على طلب الهدنة الذى تقدم به القائد البرتغالى، متعهدا بعدم التعرض للعمانيين، ومن ثم، لم تسفر الحملة عن نتيجة حاسمة [٢١] ولهذا وضع الامام خطة بعيدة المدى تستند الى تجريد البرتغاليين من قواعدهم على طول الساحل، قبل شن الهجوم الكبير على قاعدة ارتكازهم الرئيسية فى مسقط فوجه اهتمامه اولا الى تحرير جلفار (رأس الخيمة) من السيطرة البرتغالية ـ الفارسية المتمثلة بقلعتين احداهما برتغالية، تعززها عند الساحل سفينتان حربيتان، اما الاخرى ففارسية يقود حاميتها المدعو ناصر الدين

تقدم جيش الامام يقوده على بن احمد، يساعده عدد من قادة اليعاربة، فحاصر القلعة الفارسية وكانت الحامية تتلقى الدعم من السفينتين الحربيتين البرتغاليتين، ولهذا فقد كان من المتعذر شن هجوم مباشر. ودفع هذا بالقائد العمانى الى ان يأمر بالهجوم ليلا على برج مرتبط بالقلعة وتمكنت القوة المهاجمة من الاستيلاء على البرج، واندفعت مقتحمة القلعة، وبعد قتال لم يستغرق طويلا

استسلمت الحامية الفارسية[٢٢] وفى خلال ذلك، وصلت تعزيزات عسكرية جديدة لقوات الامام، تتألف من قوة من قبيلة الدهامش يقودها خميس بن رمضان. فاحكم حصار القلعة البرتغالية، التى اضطر قائدها الى طلب الصلح مقابل اخلاء القلعة وبذلك، تم تحرير ساحل السر باكملة فى تموز ١٦٢٣[٢٣] وقد دفع اندحار الفرس وطردهم من جلفار الى لجوئهم للانجليز طلبا للمساعدة، ولكن المشروع فشل حينما اعدم الشاه صفي حاكم شيراز فى العام نفسه[٢٤]

شجع هذا الانتصار الامام على مواصلة الجهاد لتحرير صحار ففى السنة نفسها، اصدر امره الى والي ليوا، حافظ بن سيف، لحشد قوة لهذا الغرض وتقدمت القوة الى صحار حيث واجهت مقاومة ضارية من البرتغاليين الذين تحصنوا داخل قلعتها القوية ومن اجل احكام الحصار على المدافعين، بنى القائد العمانى قلعة قريبة من القلعة البرتغالية[٢٥] وتم التوصل الى هدنة وافق البرتغاليون بموجبها على وقف القتال وتسليم مراكزهم المحصنة فى مطرح والسماح للعمانيين بالتجارة الحرة من مسقط[٢٦].

وباشر الامام فى مطلع السنة التالية ١٦٢٤، عملياته لتحرير مينائى صور وقريات، وتمكن من تخليصهما من قبضة البرتغاليين[٢٧]

وهكذا، خلال عشر سنوات من وصوله الى الإمامة تمكن ناصر بن مرتشد من طرد الغزاة من الساحل العمانى كله عدا نقطتين فقط، أدت هجماته المتواصلة على المراكز البرتغالية الى تدهور معنوى كبير فى نفوس البرتغاليين كان بالامكان استغلاله بمواصلة الضغط على بقية قواعد ارتكازهم فى الساحل ولا سيما مسقط إلا أن تطور الأوضاع الداخلية، عرقل خطة الامام، وأجبره على توجيه اهتمامه للقضاء على حركة التمرد التى قادها شيخ بنى هلال ناصر بن قطن، تعاونه بعض القبائل ووقعت سلسلة من المعارك بين الطرفين استغرقت بضع سنين، استغلها البرتغاليون فأعادوا سيطرتهم على صور وقريات وتمكن الامام بعد جهود مضنية أن يقضى على التمرد، وفر ناصر بن قطن الى الاحساء[٢٨]، وبذل البرتغاليون جهودهم لتشجيع الانشقاقات الداخلية، ففى ١٦٤٣ دعموا حركة تمرد قام بها الشيخ سيف بن محمد حاكم ليوا وساعدوه بقوة عسكرية، ولكن الامام سارع على رأس قوته فسحق التمرد، وأوقع هزيمة منكرةبالقوة البرتغالية وأسر أفرادها كافة . واتبع ذلك بتطويق الحامية البرتغالية فى صحار وبعد مقاومة غير مجدية أمام إصرار القوات العمانية

التى يقودها الامام بنفسه، استسلمت الحامية فى ٧ تشرين الثانى ١٦٤٣ (٢٩) ففتح ذلك الطريق الى طرد البرتغاليين من السواحل العمانية

وشهدت سنة ١٦٤٨ بداية المرحلة الحاسمة فى حرب التحرير، وتتويجا للخطة الأولى بانتزاع قاعدة الارتكار البرتغالية فى مسقط، تحرك جيش كبير بقيادة مسعود بن رمضان الى الهدف ووصل هذا الجيش الى مسقط فى ١٦ آب، وباشر بعملية التطويق وتواصل القتال حتى ١١ أيلول، ونجح العرب خلاله من انتزاع معظم تحصينات الميناء، مما أجبر الحامية البرتغالية على طلب الصلح، وتضمنت الشروط التى عرضها القائد العربى استلام قلعتى صور وقريات، اعفاء العرب من دفع الضرائب على البضائع فى مسقط التى يجب إزالة أسوارها، أن يدفع البرتغاليون جزية الى الامام (٣) وعد القائد البرتغالى دوم جولياو دانورنها (Dom Juliao da Noronha) هذه الشروط ثقيلة جدا، ولهذا استؤنف القتال وتمكنت القوات العربية من الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على القلعتين الكبيرتين فورت كابتن ومكلا، واستمر الضغط بإصرار متزايد على البرتغاليين ستة أسابيع أخرى، مما ولد اليأس فى نفوسهم ووجد دانورنها نفسه مجبرا على التماس الصلح محددا موافقا على الشروط العربية، وتم توقيع اتفاقية فى ٣١ تشرين الأول ١٦٤٨ تضمنت تدمير قلاع صور وقريات، إزالة القلعتين البرتغالية والعربية فى مطرح، وانسحاب القوات المتحاربة منهما، واعلان حيادهما، اعفاء العرب من دفع الضرائب وضمان حرية التجارة، امتناع البرتغاليين عن اقامة تحصينات خارج مسقط[٣١] ويمكننا القول أن هذه الاتفاقية حددت بداية النهاية للوجود البرتغالي فى مسقط ولم يعد الأمر يتطلب إلا محاولة موحدة وقوية لتأمين طردهم منها

أثارت أنباء الحصار العربى للحامية البرتغالية قلقا كبيرا فى الأوساط البرتغالية فى كل من مستعمرتها فى الهند، وفى العاصمة لشبونة، وسارع نائب الملك فى الهند الدوم فيلبي ماسكارنياس (Mas-carenhas) الى إرسال جزء من الأسطول لنجدة الحامية ووصل الأسطول الى مسقط فى منتصف تشرين الثانى ١٦٤٨ ليفاجأ بالتسوية التى تمت بين قائد الحامية والقيادة العربية وتغلبت روح العنجهية الاستعمارية على قائد الأسطول، فوجه الاتهام الى دوم جولياو لعدم صموده أمام الحصار العربى، وأرسله الى غوا حيث ألقى فى السجن[٣٢] وحينما وصل نبأ حصار مسقط الى لشبونه، أرسل الملك دوم جوا الرابع (Dom Joao) أوامره فى ٤ كانون الثانى طالبا بذل كل جهد من أجل التمسك بمسقط، وزيادة عدد

السفن الحربية فى الميناء، ومنع العرب من البقاء فى المدينة وتقوية حصن خصب [٣٣]. ولكن فى الوقت الذى وصلت فيه تلك الأوامر الى غوا، كان الأمر قد خرج عن إرادة القادة البرتغاليين، وكان العلم العمانى يرتفع بشموخ على طول الساحل المحرر

توفى الامام ناصر بن مرشد فى ١٠ ربيــع الاخــر ١٠٥٩ هـ/٢٣ نيسان ١٦٤٩، بعد أن حقق الاستقرار وعمق الوحدة الوطنية وأنجز المرحلة الأصعب من مراحل طرد الغزاة ومع أنه توفى بدون أن يعين خليفة له، فان القضاة وكبار الشيوخ الذين اجتمعوا فى الرستاق يوم وفاته، اجمعوا على انتخاب ابن عمه وقائده العسكرى سلطان بن سيف اماما وأيدت القبائل كافة هذا الاختيار وشهد عهد الامام الجديد المرحلة الأخيرة من عملية التحرير وطرد الغزاة نهائيا من البلاد فما أن أعلنت بيعته بالامامة، حتى تقدم بنفسه لقيادة العمليات الحربية التى تكللت بنهاية مجيدة خلال تسعة أشهر [٣٤] وسارعت القبائل بابتهاج مستجيبة لدعوة الامام بحمل السلاح واحتشدت فى (سيح الرمل) خارج مطرح [٣٥] وكانت سنة ١٦٤٩ تقترب من نهايتها حينما تحرك سلطان بن سيف ليباشر العملية الحاسمة التى خطط لها لاستئصال الوجود البرتغالى الذى هيمن على الموانىء المهمة من ساحل عمان، متحديا مشاعر السكان مدة مائة وأربعين عاما

فى مطلع سنة ١٦٥٠ قامت قوة فدائية صغيرة بهجوم ليلى مباغت فعبرت السور واندفعت الى شوارع مسقط مجندلة كل من وقف أمامها من الغزاة وأصيب البرتغاليون بانهيار معنوى تام، فتدافعوا الى السفن الراسية فى الميناء والى المركز (مخزن السلاح والذخيرة) طلبا للنجاة واندفع العرب نحو أعدائهم ونجحوا فى الاستيلاء على سفينتين واحاطوا بالمركز ولم يتمكن المدافعون ـ وعلى رأسهم الحاكم العام فرانسسكو دى تافونا من الصمود طويلا، فانسحبوا الى القلعة الحصينة (فورت كابتن ـ الجلالى) تاركين الحرس البلوش لمصيرهم وفى يوم ٢٣ كانون الثانى استسلمت القلعة، وبعد ثلاثة أيام استسلم المركز [٣٦] وتراجع الاسطول الذى يقوده براز كلدارا داماتوس الى ديو، بعد أن فقد اثنتين من سفنه ونجد من المناسب ان نقتبس أقوال شاهد عيان لعملية الهجوم على مسقط أوردها مايلر [٣٧]

**«بلغت الحماسة لدى العرب درجة قصوى بحيث هددوا بالتمرد اذا لم يقدهم ضباطهم على الفور الى الهجوم على أسوار المدينة. وحينما لم يجد الملك (الامام) حجة يمكن أن تهدىء ثائرتهم على الرغم من اقتراب الليل، أصدر أمره بالهجوم وجوبه المهاجمون بنيران كثيفة أطلقها البرتغاليون عليهم من**

قلاعهم على المرتفعات، ولكن العرب تقدموا الى الامام ولم يكن بحسبانهم أن يتراجعوا ولم يبالوا بالأعداد الكبيرة من رفاقهم الذين تساقطوا قتلى وواصلوا تسلق الأسوار على أشلاء من سقطوا وعند غياب الشمس تمكنوا من السيطرة على بابين من أبواب المدينة، مجبرين المدافعين على الفرار واندفعوا خلف أعدائهم باصرار بحيث لم ينج منهم أحد بالرغم من فرارهم بأقصى سرعة باتجاه القلعة العظيمة حيث مقر الحاكم وهذه القلعة مبنية على صخرة عظيمة تحيط بها المياه من كل جهاتها تقريبا، والطريق الوحيد المؤدى اليها لا يسمح لأكثر من شخصين أو ثلاثة بارتقائه سوية وأدرك العرب أن اقتحامها أمر مستحيل بدون تضحية جسيمة،

ولهذا فرضوا عليها الحصار الكامل وخسر العرب في الهجوم ما بين أربعة الى خمسة آلاف من رجالهم... وأجبروا المتحصنين في الحصون الصغيرة على الاستسلام ثم استسلم رجال الحصن بدون قيد أو شرط»

وفي الوقت الذى تم فيه تحرير مسقط، نجحت قوة عمانية أحرى في الاستيلاء على حصن خصب [٣٨]. وهكذا جاءت نهاية ورثة افونسو البوكيرك في الخليج العربى .

ادرك الامام سلطان بن سيف ان معركة مسقط لن تكون نهاية الصراع مع البرتغال، ولهذا كان امتلاك قوة بحرية قوية موازية لقوة العدو امرأ حاسما لتأمين السواحل من الهجمات التدميرية وصيانة تجارة البلاد من تعرضها للتخريب وبعد ان نظم اوضاع مسقط ، وعين عليها ابن بلعرب حاكما وامر بترميم اجراء السور الذى تعرض للتخريب خلال المعارك، ركز اهتمامه على قوته البحرية فالصراع مع العدو سيكون صراعا بحريا بالدرجة الاولى. ولتحقيق نتيجة حاسمة، كان على العمانيين تطوير بناء سفنهم، وتبني طرار جديد من السفن الحربية وقد شكلت السفن البرتغالية التى اسرها العرب خلال معارك التحرير، نواة الاسطول الحديث[٣٩] وخلال وقت قياسي، تحرر العمانيون من الاسلوب التقليدى في بناء السفن ذات الهيكل الذى تشد الواحة بالحبال، واخذوا ببناء سفن على الطرار الاوروبى من ذوات الاشرعة المربعة المزودة بمدفعية حديثة وحتى المراكب المبنية على الاسلوب القديم اخذت تبنى بالواح متبتة بالمسامير[٤] . وتمكن أئمة اليعاربة المتعاقبون[٤١] وحتى عام ١٧١٨، من جعل عمان اعظم قوة بحرية غير اوروبية في غرب المحيط الهندى، وبلغ اسطولهم اوج عظمته خلال العقدين الاول والثانى من القرن الثامن عشر .

وصف الكابتن تشارلس لوكير الذى زار مسقط فى ١٧٠٦ المدينة واسطولها بقوله[٤٢] . «تطور هذا الميناء كثيرا على ايدى العرب الذين انتزعوه من القبضة البرتغالية ويمتلك العمانيون اربعا وعشرين سفينة حربية وعشرين سفينة تجارية واحدى سفنهم تحمل ٧٠ مدفعا، وليس فى اسطولهم سفينة تحمل اقل من ٢٠ مدفعا ومع صعوبة الحصول على البارود، فان العرب اكثر الناس سخاء به فى كل المناسبات وتحدهم يرفعون راياتهم الحمر بحيلاء على كل صوارى سفنهم» اما هاملتون، فقد قدر الاسطول العماني في سنة ١٧١٥ بانه يتألف من «سفينة واحدة ذات ٧٤ مدفعا واثنتين بـ ٦٠ مدفعا، وواحدة ذات ٥٠ مدفعا، وثماني عشرة سفينة اصغر حجما تحمل ما بين ١٢ الى ٣٢ مدفعا لكل منها، وبعض سفن الترانكي او السفن ذات المجاديف تحمل من ٤ الى ٨ مدافع لكل منها»[٤٣] اما السالمي، فقدر قوة الاسطول فى الحقبة نفسها ما بين اربع وعشرين الى ثمان وعشرين سفينة حربية تحمل اكبرها وتدعى (الملك) ثمانين مدفعا ضخما[٤٤]

جاء رد الفعل البرتغالى على الاندحار فى مسقط سريعا، فما ان وصلت انباء الهزيمة الى نائب الملك دوم فيلبي، حتى ارسل اسطولا من سبع سفن الى الخليج العربى، واصدر تعليماته الى قائد الاسطول بالسعى للحصول على مساعدة الفرس ضد العمانيين[٤٥] وبعد ان توقف الاسطول فى ميناء كونك، اتجه الى القطيف وهناك التقى اسطولا عمانيا، فنشبت معركة بحرية اسفرت عن تراجع البرتغاليين بعد ان فقدوا سفينة حربية اسرها العرب الى جانب ست سفن تجارية برتغالية[٤٦]

وفشل اسطول برتغالي اخر اكثر قوة ارسله نائب الملك في آذار ١٦٥٠ في استعادة حصن او اي ميناء اخر على ساحل عمان، امام مقاومة الاسطول العمانى[٤٧] وقد ولد النمو السريع للقوة البحرية العمانية اقصى درجات القلق لدى البرتغاليين، فكتب نائب الملك الى حكومته «اصبح العرب على ثقة كبرى بانفسهم بحيث تتطلب مواجهتهم ارسال اسطول كبير، لا من اجل تدميرهم فقط، وانما للحيلولة دون توجههم الى ممباسا، وهو امر اصبح بمقدورهم تحقيقه[٤٨] وفشل اسطول كبير ثالث ارسل فى مايس ١٦٥٢ في تحقيق نتيجة حاسمة[٤٩]

الهبت هذه الانتصارات الكبيرة التى حققها العمانيون حماستهم فلم يكتف الامام سلطان برد حملات الاغارة البرتغالية على سواحل عمان، بل عمد الى نقل الحرب الى مناطق وجود العدو في المحيط الهندى ففي ١٦٥٢ هاجمت قطعة من الاسطول العماني الحامية البرتغالية فى زنجبار وابادت معظم افرادها ومن بينهم قائد الحامية[٥] وتعرضت المواقع

البرتغالية في الهند الى الهجمات التالية بومباى فى ١٦٥٥ و ١٦٦١ ، وديو فى ١٦٦٨ ، و١٦٧٠ و١٦٧٦ ، وباسين فى ١٦٧٤ ، وسالست فى ١٦٩٤ و ١٦٩٩، وباسلور ومانغلور فى ١٦٩٥ و ١٦٩٦ وشمل ميدان المعارك عرض المحيط الهندى، وخاض العمانيون صراعا طويلا لتحرير موانىء شرق افريقيا[٥١] ونجح الامام سيف بن سلطان الاول ١٦٩٢ ـ ١٧١١ فى تحرير ممباسا بعد حصار متواصل للقاعدة البرتغالية دام اكثر من سنتين[٥٢] وتقدم الاسطول العماني على طول ساحل شرق افريقيا محرراً الحاميات البرتغالية على الاستسلام، فتحررت ممبا وزنجبار وباتا وكلوه «واستقبل السكان بسعادة غامرة تحررهم من السيطرة البرتغالية»[٥٣]

وشجعت الهزائم المتوالية التى اوقعها العرب بالبرتغاليين سكان شرق افريقيا على القيام بثورة شاملة، وتمكن الثوار من تدمير المواقع البرتغالية الاخرى، واصاب الانهيار النفوذ البرتغالي من رأس غوار دافو الى رأس دلغادو[٥٤]

وادت الضربات التى وجهها العرب للمواقع والاساطيل البرتغالية الى اضعاف البرتغاليين عسكريا وشل تجارتهم مما اتاح الفرصة لمنافسيهم الاوروبيين لتحقيق المكاسب على حسابهم فى الهند وجنوب شرق آسيا وانتزاع ممتلكاتهم فقد شنت هولندا حرب استنزاف على الوجود البرتغالي فى جنوب شرق اسيا وتمكنت في ١٦٤١ من انتزاع مالقا، وفى ١٦٥٦ استولت على كاليكوت، وفى ١٦٥٨ على سيلان، وتعاقب سقوط القواعد البرتغالية على طول ساحل كورماندل وارخبيل الملايو[٥٥]

ويتجلى الضعف الذى اصاب البرتغاليين فى لجوئهم الى الانجليز طلبا للدعم وتعبر المعاهدة المعقودة بين الملك الفونسو السادس وتشارلس الثانى فى ٢١ حزيران ١٦٦١، وكانت ثمرة الزواج بين كاترين ابنة ملك البرتغال وملك انجلترا عن ذلك الضعف، اذ تنازلت البرتغال فيها لانجلترا عن جزيرة بومباى ذات الاهمية الاستراتيجية ونصت مادتها الحادية عشرة «من اجل تمكين ملك انجلترا من الدفاع عن رعايا ملك البرتغال ومساعدتهم وحمايتهم فى تلك الانحاء، فان ملك البرتغال ينقل الى ملك انجلترا وورثته، الى الابد ميناء وجزيرة بومباى بجميع حقوقها وثرواتها ومقاطعاتها»[٥٦]

وهكذا فقد ادت الضربات العمانية للبرتغاليين فى البر والبحر الى بلوغهم درجة الاعياء «وما ان انتهى القرن السابع عشر، حتى لم يعد البرتغاليون منافسين خطرين فى اى حقل من حقول التجارة الشرقية»[٥٧] ولم يبق لهم من قواعدهم المنبثة فى الشرق الا جيوب قليلة اهمها غوا ودامان[٥٨]

# تحرير سواحل عمان

## ١٦٣٢ - ١٦٥٠

مضيق هرمز
الخليج العربي
جلفار
رأس الخيمة
دبا
خورفكان
صحار
الباطنة
برقة
مطرح
مسقط
قريات
صور
رأس الحد
الظاهرة
الجبال
الرستاق
الجبل الأخضر
نزوة
الجبال
الشرقية

١ ـ R.B. Serjeant, The Portuguese off South Arabian Coast, Beirut, 1974, PP. 13 – 14 .

٢ ـ لتفاصيل تصدى المماليك للبرتغاليين في البحر الاحمر والبحر العربي، يراجع د عبدالعزيز محمد الشناوى، المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرقي جزيرة العرب، بحوث مؤتمر تاريخ الجزيرة العربية، الدوحة ، ١٩٧٦ ، جـ ٢ ، ص٦٤٣ ـ ٦٦١

٣ ـ تقع مالقا على الساحل الغربي لشبه جزيرة الملايو، وكانت ذات اهمية كبرى لنظام التجارة الاسلامي لكونها الميناء المؤدى الى الصين وجزر الهند الشرقية ، ينظر – Boies Penrose Travel and Discovery in the Renaissance 1420 - 1620 Cambridge 1967,P.62

٤ ـ K. R. Singh, The Indian Ocean, Columbia, 1978, pp. 5 – 6 .

٥ ـ ibid, p.6

٦ ـ الشناوى ، ص ٦١٦

٧ ـ نائب الملك البرتغالي في الهند ١٥٠٩ ـ ١٥١٥

٨ ـ Singh, p. 7, K.M. Panikar, Asia and Western Dominance, London, 1959, P. 41

٩ ـ S.B. Miles, Countries and Tribes of the Gulf London, 1966, PP. 143 – 150 .

١٠ ـ كانت هرمز دولة غنية تسيطر على البحرين وجميع الجزر الواقعة في مضيق هرمز وساحل عمان، وكانت لها تجارة واسعة مع الخارج، ينظر
Tome Pires, Summa Oriental, An Account of The East From the Red Sea to Japan London, Hak, Soc. 1944 , Vol . I. PP. 19 – 21 .

١١ ـ ينظر للمؤلف دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠ ، بغداد ١٩٧٦، ص ٢٣، في الوقت الذى وقفت فيه الدولة الصفوية موقفا سلبيا بتحالفها مع البرتغاليين وعقدها معاهدة ١٥١٥ ، بين الشاه اسماعيل والبوكيرك (ينظر الشناوى، ص ٦٣٩ ـ ٦٤١ ، حاولت الدولة العثمانية مجابهة البرتغاليين وطردهم من الخليج العربي، ولكن تلك المحاولات لم تسفر عن زعزعة السيطرة البرتغالية ينظر

الميرالاى اسماعيل سرهنك، حقائق الاخبار عن دول البحار، القاهرة، ١٣١٢ هـ جـ ١، ص ٥٤٧ ـ ٥٥٠
J. G. Lorimer, Gazetteer of the Gulf, Oman and Central Arabia, Holland, rep.. 1970. Vol I A, PP. 6 – 7

١٢ـ للتفاصيل عن الثورات العربية ، يراجع نوال حمزة الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، الرياض، ١٩٨٣ ، ص ١٤٠ ـ ١٤٤

١٣ـ سقط الملك البرتغالي سباستيان قتيلا في معركة القصر الكبير في مراكش سنة ١٥٧٨ ، فخلفه الامير هنرى الابله الذى توفي بعد اقل من سنتين، وبذلك جاءت نهاية سلالة افيس البرتغالية التي اسسها جون الاول ومن ثم وجد البرتغاليون انفسهم رعايا لفيليب ملك اسبانيا انظر
Penrose, p.75.

١٤ـ Frederick C. Danvers, The Portuguese in India, A History of the Rise and Decline of their Empire, London, 1894, Vol. II, pp. 35 – 40 .

١٥ـ Abdul Amir Amin, British Interests in the Gulf Leiden, 1967, p. 2.

١٦ـ العابد ، ص، ٢٥ ـ ٢٩

١٧ـ J.C. Wilkinson, The Origins of the Oman State, in The Arabian Peninsula, ed. D. Hopwood, London, 1972, p. 82 .

١٨ـ R.D. Bathurst, The Ya'Rubi Dynasty of Oman (Ph. D Thesis, Oxford University) March, 1967. pp. 85, 108 – 9.

١٩ـ حول جهود الامام ناصر بن مرشد لتوحيد عمان، يراجع المصدر المعاصر لتلك الاحداث عبدالله بن خلفان بن قصير، سيرة الامام ناصر بن مرشد، تحقيق، عبدالمجيد القيسي، عمان ١٩٧٧ ص ١٦ ـ ٨٧

٢٠ـ Bathurst, The Ya'Rubi, pp. 82 – 4.

٢١ـ Ibid, p. 85.

٢٢ـ Ibid, pp. 85 – 6.

٢٣ـ Ibid, p. 86 .

٢٤ـ Bathurst, Maritime, Trade and Imamate Government Two principal Themes in the History of Oman to 1798, in The Arabian peninsula, pp. 98

٢٥ـ Miles, pp. 193– 204.
عائشة السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٥٥ — ٥٦

٢٦ـ Bathurst, Maritime, p. 98.

٢٧ـ Miles, p. 204.

٢٨ـ عبدالله حميد السالمي، تحفه الاعيان بسيرة اهل عمان، ط ٥ ، ١٩٧٤ ، ص ١٠٠ ـ ١٠٢ ، Bathurst, The Ya'Rubi, pp.97 – 100

٢٩ـ Miles, p. 194, Bathurst, Maritime, pp. 98– 9 —

٣٠ـ سرحان بن سعيد الازكوي، كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبدالمجيد القيسي ص ١٠١ .Miles p. 194

٣١ـ Ibid, pp. 195 – 210.

٣٢ـ Ibid, p. 195

٣٣ـ Ibid,

٣٤ـ . Bathurst, Maritime, pp. 98– 9

٣٥ـ G. P. Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman, by Sali. Ibn Razik, London, 1871

٣٦ـ Bathurst, The Ya'Rubi, pp. 106– 7

ومن الجدير بالذكر ان هناك اختلافا بسيطا في تاريخ استسلام الحاكم العام في كتاب (Miles)، ففي الصفحة ١٩٦ يرد التاريخ المذكور في المتن، وفي ص ٢١١ يحدد يوم ٢٨ كانون الثاني

٣٧ـ Miles, pp. 196 – 7.

انظر ايضا

W. Phillips, Oman, a History, London 1967. pp. 46 – 47

٣٨ـ Bathurst, The YaRubi, p. 111, Miles, p. 198

٣٩ـ Bathurst, Maritime, p. 99

٤٠ـ . Robert Landen, Oman Since 1856, Princeton, 1967, p. 54

٤١ـ سلطان بن سيف ١٦٤٩ ـ ١٦٧٩ ، بلعرب بن سلطان ١٦٧٩ ـ ١٦٩٢ سيف بن سلطان الاول ١٦٩٢ ـ ١٧١١ ، سلطان بن سيف الثاني ١٧١١ ـ ١٧١٨

٤٢ـ Charles Lockyer, An Account of Trade in India, London, 1711, pp. 206 – 7.

٤٣ـ Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies, ed. by : W. Fosger, London, rep 1930, Vol. I. P. 51.

٤٤ـ حدد السالمي طول المدفع بـ (٣٠٠ شبر) ما يقارب سبعة امتار السالمي ص ١٠٠

٤٥ ـ Bathurst, The Ya'Rubi, p. 112.

٤٦ـ . Miles, p. 198

٤٧ـ Ibid, Bathurst, Maritime, p. 99.

٤٨ـ Quoted in: Bathurst, The Ya'Rubi, p.113.

٤٩ـ Ibid, pp. 114 - 5.

٥٠ـ Phillips, p. 47.

٥١ـ Miles, p. 214-215, R. Coupland, East Africa and Its Invaders, Oxford, 1938, pp. 65 - 6; Charles Law, History of the Indian Navy 1613 - 1862, London, 1877, Vol. I, pp. 311 - 312.

٥٢ـ Freeman Grenvile, The Coast 1498 - 1840, in: History of East Africa, Oxford, 1963, PP. 141 - 2.

٥٣ـ Miles, pp. 220 - 1.

٥٤ـ Ibid, p. 222; Phillips, p. 49.

٥٥ـ William Milbrun, Oriental Commerce, or the East India Traders Complete Guide, London, 1813, Vol. I, p. 308 - 9.

٥٦ـ R.H. Thomas, Treaties, Agreements and Engagements Between the H.E.I.C and the Native Princes. Bombay, 1851, pp. 563 - 4.

٥٧ـ Coupland, p. 53.

٥٨ـ Singh p. 7 - 8.

★★★★★

# العربُ أسّسوا مُدن شـ

# وحوّلوها لمراكز تجاريّة

لعب العرب دورا هاما فى تاريخ القارة الافريقية، وتاريخها الحضارى بصفةخاصة. وكان هذا الدور اكثر وضوحا فى شرق القارة، وفى شمالها وفى شمالها الغربى

وسنقصر الحديث هنا على دور العرب الحضارى فى شرق القارة وقبل التعرض لهذا الدور ومظاهره لابد من الاشارة بسرعة للمصادر الهامة التى أمدتنا بمعلومات عن هذه العلاقة بين العرب وشرق القارة، كما اننا سنشير فى عجالة الى تطور علاقات العرب بسكان شرق القارة حيث اننا سنركز على الاثار الحضارية للعرب فى هذه المنطقة فى الفترة بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر.

يرجع الفضل فى القاء الاضواء على علاقة العرب بشرق أفريقيا الى ما كتبه الرحالة العرب وغيرهم ممن زاروا هذه الجهات وكتبوا عنها - قبل ان تبدأ

الابحاث الحديثة التى استطاعت على اساس ما كشفت عنه من آثار، وبقايا، ومن دراسات انثروبولوجية وغيرها - الكشف عن بعض الجوانب الغامضة

رق أفريقيا
هامّة

# دور العرب الحضاري في شرق أفريقيا في القرنين الـ ١٦ - ١٧

بقلم الدكتور
شوقى عطا الله الجمل

فى العلاقات العربية الافريقية المبكرة.

ومن الرحالة العرب الذين كتبوا عن شرق افريقيا ـ المسعودى وقد زار الهند، والصين وزنجبار والصومال، ومدغشقر، وسجل مشاهداته فى هذه البلاد فى ثلاثين جزءاً وكانت زيارته لشرق افريقيا فى صحبة بعض التجار العرب من عمان، وساحل الخليج العربى، وجاءت آخر رحلاته لهذه المناطق فى عام ٣٠٤هـ (٩١٦م) ووصل فيها الى سفالة وتحدث بتفصيل عن حياة سكانها(١)

اما الادريسى فانه لم يزر ساحل افريقيا الشرقى كما فعل المسعودى ـ لكن اهميته فيما نحن بصدده ترجع الى انه قضى معظم حياته فى بلاط الملك روجر الثانى (Roger II) ملك صقلية فاستفاد من ثراء هذا الملك، ومن الاخبار التى كانت تتناقلها السفن التجارية المترددة على سواحل جزيرة

صقلية فتحدث مثلا حديثا شائقاً عن مدينة مالندى بشرق افريقيا ومناجم الحديد بها، وعن مدن ممبسة، وكلوة، وبراوه، وبركة ونشاطها التجارى كما تحدث عن غيرها من المدن الساحلية الاخرى بشرق افريقيا، وعن جزر المحيط الهندى مثل زنجبار.

ومن أشهر الرحالة العرب الذين زاروا مدن شرق افريقيا ابن بطوطة - فقد اشتهر بكثرة التجوال - إذ زار الهند والصين فى عام ٧٣٢هـ (١٣٣١م) وزار مدن الساحل الشرقى لافريقيا وكتب معلومات مفصلة عن الحياة فى هذه المدن وما كانت تتمتع به من ثراء وفى مقدمة المدن التى زارها وقدم وصفا لها - مقديشيو، وممبسة، وكلوة، وقد وصف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بها معتمدا على مشاهداته هو حين زارها، وكذلك عما سمعه ممن قابلهم اثناء هذه الزيارة من الشخصيات البارزة فى هذه البلاد[٢]

أما عن المصادر الهامة التى تعرضت لتاريخ العرب بشرق افريقيا - خلاف كتابات هؤلاء الرحالة - ففى مقدمتها المخطوطة المعروفة (بالسلوة فى اخبار كلوة) وهى لمؤلف مجهول تعرض فيها لتاريخ مدينة كلوة منذ تأسيسها فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الى وصول البرتغال الى هذه البلاد فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى).

وأصل هذه الوثيقة مفقود لكن النسخة المعروفة لنا ترجع الى عهد السلطان برغش بن سعيد - سلطان زنجبار وهى بخط عبدالله بن مصبح الصوافى وقد أهداها السلطان للسير جون كيرك (Sir John Kirk) الذى اهداها بدورة للمتحف البريطانى وهى محفوظة هناك تحت رقم ٦٦٦، وقد قام بتحقيقها ارثر سترونج (Arthur Strong) ونشرها فى عام ١٨٩٥[٣]

ورغم أنه يتضح مما ذكره المؤلف فى مقدمته - انها من مقدمة وعشرة أبواب اورد محتوياتها وذكر انه سيختم كتابة بولاية الملك العادل السلطان محمد بن حسن بن السلطان سليمان بن السلطان محمد، وأنه صنف هذه المخطوطه بناء على طلب هذا السلطان - فـان المخطوطـة المنشورة تتوقف عند نهاية الباب السابع وقد كثرت الأقـوال حول الابواب الثلاثة الباقية فمن قائل ان المؤلف قد اضطر للتوقف عند نهاية الباب السابع لأن الابواب الثلاثة التالية كانت تتناول فترة السيطرة البرتغالية، وهى فترة حرجة لم يستطع المؤلف معالجتها بصراحة ودقة، ومن قائل ان الامر يرجع لعدم عثورنا على

النسخة الاصلية الكاملة للمخطوطة(٤)

ولابد من الاشارة هنا وقبل ختام المصادر العربية الى انه من أوفى وأبعد ما كتب عن المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا ما كتبه الدكتور جمال زكريا قاسم تحت عنوان المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا (المجلة التاريخية المصرية - المجلد الرابع عشر ١٩٦٨ ص ١٦٩ - ٢٣٠)

اما عن المؤرخين الاجانب الذين تعرضوا للعلاقات العربية الافريقية - فلعل ما كتبه المؤرخ الانجليزى تشيتيك (Chittick) رئيس المعهد البريطانى للتاريخ والأثار بشرق أفريقيا عن كلوة من احسن ماكتب عن هذه البلاد - فقد استند فى كتاباته على ما اسفرت عنه عمليات التنقيب الاثرية فى هذه البلاد كما انه تعرض لبعض ما كتبه الرحالة والمؤرخون الآخرون من العرب وغيرهم عن شرق افريقيا فى دراسة مقارنة طيبة (٥)

وقد تعرض غيره من الكتاب والمؤرخين الأجانب لدراسة تاريخ شرق أفريقيا وعلاقة العرب بهذه البلاد وتأثيرهم الحضارى فيها - لكن يؤخذ على أغلب الكتاب عدم التزامهم بالموضوعية فى دراساتهم وفى عرضهم للاحداث وتحليلها.

فالمؤرخ الانجليزى جرانفيل فريمان (Freeman - Granville) مثلا الف اكثر من كتاب عن شرق افريقيا - ابرز دور الهنود فى هذه الجهات وقلل من شأن العرب رغم مخالفة ذلك للامر الواقع(٦)

كذلك شأن المؤرخ اوليفر رولاند (Oliver, Roland) فى كتابه عن تاريخ شرق افريقيا وفجر التاريخ الافريقى حيث وصل الامر الى انه رجح ان الاسلام وصل الى شرق القارة عن طريق الهند بعد ان انتشر هناك، وتجاهل تماما جهود عرب شبه الجزيرة العربية فى هذا المجال رغم ان المنطق على الاقل يشير الى غير ذلك(٧)

وقد ركز بعض هؤلاء المؤرخين الاجانب على دور الفرس فى شرق افريقيا وغلبوه على الدور الذى قام به العرب هناك - ومن هؤلاء المؤرخ المعروف كوبلاند(٨)

هذه بعض المراجع والمصادر التى تعرضت لتاريخ شرق افريقيا ودور العرب فى هذه المنطقة فى هذه الفترة وان كنا لا نقلل من اهمية هذه المراجع فى دراسة تاريخ هذه المنطقة فاننا يجبُ ان نأخذ اقوالها بشيىء غير قليل من الحذر.

وقد افاض الاستاذ الدكتور جمال

زكريا فى بحث وتقييم المصادر العربية بالذات فى بحثه السابق الاشارة اليه والمنشور فى المجلد الرابع عشر من المجلة التاريخية المصرية (١٩٦٨) فليرجع اليه من اراد المزيد من المعلومات فى هذا الشأن .

## ثانياً / علاقات العرب المبكرة بشرق أفريقيا قبل الإسلام

تجمع المراجع المختلفة على ان علاقة عرب شبه الجريرة بشرق افريقيا بدأت في وقت مبكر وبعرض التجارة ويصعب تحديد زمن بعينه كبداية لهذه العلاقات

وقد ساعدت عدة عوامل على هذه الاتصالات المبكرة بين العرب وسكان شرق القارة في مقدمة هذه العوامل عامل جغرافي هام ـ ففي ديسمبر من كل عام تهب الرياح التجارية من الشمال الشرقي ويستمر هبوبها بانتظام في هدا الاتجاه حتى نهاية فبراير ، ومن ابريل الى ستمبر ينعكس اتجاه الرياح فتهب من الجنوب العربي الى الشمال الشرقي ـ من زنجبار الى مدخل خليج عدن تم الى خليج عمان ـ فلقد أصبح في امكان التجار الذين يبدأون رحلتهم التجارية في سفنهم الشراعية الصغيرة ـ التي كان يطلق عليها اسم الداو (Dhows) من الشاطىء العربي في الشتاء ـ الاستعانة بقوة الرياح الذاتية في سفرهم جنوبا صوب الساحل الافريقي ، وفي اثناء عودتهم ـ الى اوطانهم في الربيع ـ وبعد ان يكونوا قد قضوا بضعة شهور في التجارة ـ يجدون ايضا الرياح مواتية للاتجاه صوب الوطن الاصلي محملين بسلع افريقية متنوعة وبمضى الوقت اصبحت للتجار والبحارة العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها ، وأصبحت رحلاتهم بين شبه الجزيرة العربية والساحل الافريقي ومدة استقرارهم بهذا الساحل تنظم تنظيما دقيقا تبعا لمواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم[٩]

كذلك من الاسباب الرئيسية التي دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم ـ العمانيون والحضارمة على وجه الخصوص ـ انهم نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب الجزيرة العربية ظهيرها طارد فكان طبيعيا ان يتسللوا الى شرق افريقيا في مجموعات

صغيرة انتشرت في البداية في بعض الجزر الساحلية مثل مافيا Mafia وزنجبار Zanzibar وبمبا Pemba ، وفي المراكز الساحلية مثل سفالة Sofala ومالندي Malindi وكلوه Kilwa وممبسة Mombassa ، ودار السلام واستطاعت هذه المجموعات ان تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وحضارتها وان تندمج مع السكان الوطنيين[١٠]

وأشير الى ما ذهب اليه بعض الجيولوجيين من أن شبه جزيرة العرب كانت في العصور الجيولوجية القديمة متصلة بالقارة الافريقية ومهما يكن فمن المرجح ان مضيق باب المندب كان في العهود القديمة أصغر مساحة مما هو عليه الآن ، وكانت القارتان اشد تقاربا فلم يكن يفصل بينهما أكثر من خمسة وعشرين ميلا - ولذا كان هذا الباب منذ اقدم العصور - طريقا لدخول موجات بشرية متتالية من شبه جزيرة العرب وبالذات لشرق افريقيا[١١]

وهكذا اصبحت السفن العربية تحمل بين الحين والحين بعض الذين طاب لهم الاستقرار بالساحل الافريقي ليكونوا حلقة اتصال بين اخوانهم في الجزيرة العربية وبين سكان السواحل الافريقية والجهات الداخلية فيها ، وبمضي الزمن زاد عدد الوافدين للاستقرار وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه

وتشعبت المصالح وأصبحت للعرب امارات عربية في هذه السواحل الافريقية لها اتصال بالجماعات أو الشركات التجارية العربية - اذا صح التعبير - في الجزيرة العربية نفسها ، وبالتجار في القارة الافريقية ونحن نجد وجوه شبه كثيرة بين هذه العمليات العربية وبعض العمليات الاوروبية في القرن التاسع عشر وما قبل القرن التاسع عشر في انها كانت عمليات تجارية تدار وتنظم بواسطة جماعات مالية تجارية وفيما يتعلق بالشركات الاوروبية كانت الادارة تستمر مدة في يد الشركة ثم بعد ذلك تتنازل الشركة عن الامتيازات التي حصلت عليها للحكومة ، واشهر مثال لذلك شركة الهند الشرقية البريطانية (British East India Company) التي استطاعت ان تحصل على امتيازات وحقوق في مناطق واسعة من الهند ثم انتقل الامر كله للحكومة الانجليزية ، وبالطبع لم تبلغ الشركات أو الجماعات التجارية العربية هذا القدر من التنظيم الذي بلغته هذه الشركات الاستعمارية الاجنبية لكنها كانت على كل حال تتمثل في مجموعات من التجار يساهمون ويشتركون في هذا النشاط لكن لم تكن وراءهم حكومة مركزية واحدة - فكان الامر ينتقل في النهاية لاحد الرؤساء يطلق على نفسه لقب سلطان أو أمير فتصبح له الكلمة كما ان الغرض التجاري كان

هو الغالب على هذه الجماعة العربية فلم تكن الفكرة كما كانت عند الكثير من الشركات الاوربية - فكرة استعمارية أي استغلال الارض تم الانتشار منها للداحل ، ولهدا كان الاستقرار غالبا مقصورا على الساحل فحسب ، وفي نقط محتارة تحدم هدا الهدف التجاري ، ولذا كانت تختار هده النقط بحيث تكون لها مزاياها التجارية ، كثغر من الثغور سهل الاتصال بداخل القارة ، ويسهل ايضا الوصول اليه من الجزيرة العربية المقابلة

فالغرض الاساسي من الاستقرار العربي بالساحل الافريقي المقابل لشبه الجزيرة العربية هو استغلال الحاصلات الداخلية ونقلها للثغور الساحلية للاتجار فيها ، وكذلك استيراد ما يمكن تصريفه من البضائع داخل القارة - ولهدا لم تهتم هذه الجماعات العربية بامتلاك الارض الا بالقدر الضروري لحماية الثغر

التجاري ومن ثم كانت رقعة المالك العربية على الساحل الافريقي ضيقة . ولا شك في ان عوامل طبيعية اخرى أملت الى حد ما عدم الانتشار للداخل ، منها عوائق تتمثل في التضاريس ، والمناخ ، والنبات ، لكن لا شك ايضا في ان الاغراض التجارية حتمت في كثير من الاحيان ارسال حملات للداخل لحماية القوافل وضمان وصولها ، ولعقد اتفاقات تجارية مع امراء افريقيين في الداخل ، ولذا فقد انتقل النفوذ العربي في ظروف كثيرة نحو باطن القارة وترتب على هدا معرفة العرب ببعض الجهات الداحلية في القارة الافريقية قبل ان يتجه اليها نشاط المستكتشفين الاوربيين

ويمكن ان نتصور ان التوسع العربي في ساحل شرق افريقيا قد مر بمرحلتين(١٢)

١ - اقتصر الامر في البداية على الجزر الساحلية «زنجبار وممباسة وبمبا ، ولامو» وعلى بعض الاقاليم الساحلية

٢ - انتشر النفوذ العربي بعد ذلك في شرق القارة في المناطق المواجهة للجزر تم أخد يتوغل في الداخل وأدى هدا لظهور المدن ثم الامارات العربية بشرق القارة وبظهور الاسلام برزت عناصر اخرى جديدة دفعت لهجرة العرب لشرق افريقيا

## ثالثاً تطور علاقات عرب شبه الجزيرة بشرق أفريقيا في ظل الإسلام

بظهور الاسلام دخلت علاقات عرب شبه الجزيرة العربية بشرق افريقيا في مرحلة جديدة فقد حدثت اسباب ودوافع أدت لهجرة جماعات من عرب شبه الحزيرة العربية لشرق افريقيا لا للتجارة فحسب بل للاقامة الدائمة والاستقرار في هذه المناطق .

وكانت اولى الهجرات العربية المعروفة الى شرق القارة في فجر الاسلام ـ الى ارض الحبشة فقد اختارها الرسول عليه الصلاة والسلام دون غيرها من البلاد لهجرة اصحابه عدما اتجهت قريش الى تعذيبهم وسجنهم وذلك لأن ملك الحبشة اشتهر بعدم التعصب لفريق دون فريق أو مذهب أو ديانة دون ديانة[١٣]

وكانت بلاد الحبشة معروفة للعرب فقد كانت لقريش بها صلات وثيقة ومصالح متبادلة ، وزيارات منتظمة وكان التجار العرب يستعينون بالاحباش بكثرة في حروبهم القبلية وفي حراسة قوافلهم كما كان بمكة عدد غير قليل من العبيد الاحباش ـ ادرك بعضهم الاسلام وأسلم[١٤]

وقد اشار الطبري الى ذلك فقال «ان ارض الحبشة كانت متجرا لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا»[١٥]

ونشير الى ان الهجرة الى ارض الحبشة كانت أول هجرة في الاسلام وأنها تمت في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة المحمدية (٦١٥م) حيث خرج أحد عشر رجلا واربع نسوة من المسلمين متسللين فوصلوا الى ميناء الشعيبة ومنها حملتهم سفينتان للتجار الى ارض الحبشة[١٦]

وتوالت بعد ذلك هجرات العرب المسلمين الى ارض الحبشة وبقي المهاجرون المسلمون بأرض الحبشة حتى استقرت الامور للمسلمين في المدينة المنورة ، ويبدو ان المسلمين الذين استقر بعضهم بالحبشة ما يقرب من ستة عشر عاما لقوا من النجاشي معاملة طيبة ، واستمرت العلاقات الودية بين العرب والحبشة بعد عودة المهاجرين العرب لشبه الجزيرة العربية[١٧]

على ان الاوضاع السياسية في شبه جزيرة العرب كان لها آثارها على هجرة العرب للساحل الافريقي المقابل فحين اشتد النزاع بين احزاب المسلمين كانت بعض الاحزاب المغلوبة على أمرها تهاجر الى شرق افريقيا وتتخذ هذه الجهات موطنا لها ، فأثناء حكم عبد الملك بن مروان مثلا هاجر عدد من العرب الى لامو واستقروا بها[١٨] .

وأدت سياسة البطش التي اتبعها الحجاج بن يوسف الثقفي عامل عبدالملك بن مروان على العراق الى هجرة عدد كبير من المعارضين لهذه السياسة الى شرق افريقيا

وقد أسهمت امارة عمان التي تشغل الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة ويحدها المحيط الهندي من ناحيتين والصحراء العربية من الداخل بالنصيب الاكبر في تزويد الساحل الافريقي الشرقي بعناصر جديدة من العرب باستمرار

فقد كانت هذه الامارة كالجزيرة المنعزلة ، وكان لهذا الموقع أثره في طباع السكان وميولهم فلم يقبلوا الخضوع لاية قوة بل ظلوا يناضلون ضد النفوذ الفارسي ثم العثماني ، بل ان خلفاء المسلمين انفسهم لم يكن لهم الا نفوذ أسمي على عمان

وفي القرن الثامن الميلادي انتخب حاكم لعمان يلقب بالامام ، وظل يتعاقب على الحكم في عمان عدد من الأئمة المنتخبين لمدة عشرة قرون

والعرب في عمان عبارة عن خليط من عدة قبائل عربية لكن اهمها قبيلة أسد وكانت مدينة مسقط هي المنفذ البحري للامارة وكانت هذه المدينة هي النافذة التي أطل منها أهل عمان على العالم الخارجي فخرجوا لعرض البحر وساهموا في التجارة العربية في المحيط الهندي ، وذاعت شهرتهم في بناء السفن فكانوا يبحرون لجزيرة زنجبار وغيرها من الجزر التي اشتهرت بأشجار جوز الهند الضخمة التي تصلح لصناعة السفن فيقطعون الاخشاب ويصنعون منها السفن ويحملونها بثمار جوز الهند لتسويقها في الجهات البعيدة

وان كانت مسقط تعتبر بابا للخروج لكنها لم تكن كالبصرة مثلا تعتبر ميناء للخروج كما تتحكم ايضا في الطريق البري المؤدي لاوربا ومنها ، فكان طبيعيا ان يخرج اهلها للبحار وان يبحث هؤلاء البحارة المهرة من أهل عمان عن وسيلة للثراء لا تعتمد على البر بل يستغلون فيها مهارتهم البحرية ومن ثم فقد اندفعوا بكامل قوتهم للبحر وأصبحت لهم السطوة في الخليج العربي والمحيط الهندي وانتهى المطاف بجموع منهم بالاستقرار على الشاطىء الشرقي لافريقيا لخدمة الاغراض التجارية بها وأدى ذلك لتكوين امارات عربية في هذه الجهات[١٩]

ويعتقد ان العمانيين يرجع اليهم الفضل في تكوين أقدم امارة اسلامية في شرق افريقيا فعندما هاجروا الى لامو كما ذكرنا سابقا واستقروا في المناطق الواقعة شمال ممبسة نجحوا في مستهل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) في تكوين حكومة تعتنق مذهب الخوارج الذي كان منتشرا في عمان في ذلك الوقت[٢]

واستطاع العمانيون ايضا عن طريق المصاهرة بين الاسرة النبهانية صاحبة النفوذ في عمان وبين حاكم جزيرة بات Pate بالساحل الافريقي مد نفوذهم الى هذه الجزيرة ففى اوائل القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) تزوج سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني امير عمان

بابية حاكم بات وآلت السلطة بعد ذلك الى الاسرة النبهانية التي ظلت تحكم هده المنطقة حتى القرن التاسع عشر الميلادي[٢١]

وقد نجح أئمة عمان في ان يمدوا سلطانهم على ساحل امريقيا الشرقي من ارض الصومال حتى نهر روفوما Rovuma وان يقيموا في هذه المناطق امارات تابعة لهم ، وضعوا على رأسها رؤساء من العائلات العربية في ممبسة وزنجبار وغيرهما من المناطق الهامة وظل سلطان أئمة عمان قويا ومعترفا به في كلوة ، ومافيا ، وبمبا ، وزنجبار حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين بدأت الدول الاوربية تلتهم املاك سلطان زنجبار

هدا فيما يتعلق بالعمانيين ودورهم في شرق افريقيا على اننا نشير بوجه عام الى ان ما تعرضت له الدولة الاسلامية في تاريخها من صراعات وأزمات ادى لهجرات مستمرة من المسلمين لساحل افريقيا الشرقية ، فحدث حين شدد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك قبضته على الشيعة الزيدية باليمن ان هاجر عدد منهم الى شرق افريقيا حيث استقر بهم المقام هناك وأصبح لهم نفود على ما عرف باسم ساحل البنادر[٢٢]

وحدث مثل هذا ايضا حين اشتد النزاع بين الأمويين والعباسيين وانتهى بالقضاء على الدولة الاموية وفرار مروان الثاني آخر خلفاء الامويين الى مصر وتوغله مع عدد من أتباعه الى صعيد مصر ووصولهم الى النوبة ، بينما توجه بعضهم الى مصوع ، كما حدث حين احتدم النزاع بين العباسيين والشيعة واستمر هذا الصراع حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وما بعد دلك وادى لهجرة المغلوبين على أمرهم من وجه قوات اعدائهم ، وكان ساحل شرق افريقيا بموقعه الجغرافي ولمعرفة العرب السابقة به ملجأ لهؤلاء الفارين الراغبين في الاستقرار في اماكن بعيدة عن متناول ايدي اعدائهم[٢٣]

## رابعاً الآثار الحضارية للعرب في شرق أفريقيا

استقر العرب كما رأينا في شرق افريقيا من وقت مبكر وساعدت الاحداث المتتابعة في بلاد العرب على المزيد من الهجرة العربية والاستقرار بشرق افريقيا ، وكانت للعرب الذين استقروا بشرق القارة ومازالت آثار عميقة في حضارة هذه البلاد وسكانها يمكن ان نجملها فيما يلي

## ١ ـ تأسيس المدن والحواضر الهامة وتعميرها وادارتها :

ترتب على استقرار العرب بشرق امريقيا قيام تجمعات سكانية لم تلبث ان نمت وأدت لقيام عدد من المدن الهامة ، وقد قامت هذه المدن في البداية كمراكز تجارية لخدمة التبادل التجاري تم بالتدريج اردهرت وتطورت واصبحت نواة لامارات عربية هامة وامتدت هده المدن بطول الساحل الامريقي من سواكن شمالا الى سفاله جنوبا[٢٤]

كما استقر العرب في حرر المحيط الهندي متل جزر بمبا ، وزنجبار ، وماقيا ، وكلوه ، وحزر القمر وعيرها[٢٥]

ونلاحظ ان بعض هذه الحرر كان قريبا من الساحل لا يفصلها عنه سوى خور بحري ضيق بينما كان البعض الآخر بعيدا عن الساحل وقد عمرت هذه الحزر بقدوم العرب واصبحت هي الاخرى مراكز تجارية هامة

وقد شبه البعض هذه المراكز العربية بالساحل الشرقي للقارة أو الجرر القريبة منه بالمدن اليونانية (City States) حيث ان استمرار الهجرة الى هذه المناطق ترتب عليه وجود مجتمعات مكتملة منظمة وكان الشيوخ يؤلعون ما يمكن ان نشبهه بمجلس المستشارين يشارك الحكام في المسئولية وكان الافراد يلجأون لهذه المجالس طالبين رد الظلم أو الانصاف من جور اعدائهم[٢٦]

ولا يتسع المجال هنا لتتبع تاريخ كل مدينة من المدن التي أسسها العرب في شرق القارة وتطور نموها خلال القرون المتعاقبة لكن نشير لأهم هده المدن

فبعض المؤرخين يرجعون تأسيس مدينة مقديشيو (Magadishu) عاصمة جمهورية الصومال حاليا الى هجرة جماعة من الحميريين الى الساحل الافريقي حيث استقروا وأسسوا المدينة ، وقيل انه تم انشاؤها قبل مولد الرسول عليه الصلاة والسلام بمائتي عام ، بينما يرجع آخرون تأسيسها الى وقت متأخر حين اشتد الصراع بين العباسيين والقرامطة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ففر بعض افراد من القرامطة ونزلوا ساحل الصومال وشيدوا مدينة مقديشيو ، ثم جاء في اعقابهم تجار من شيراز يعزى اليهم بناء مسجد الاحقاف ثم جاء بعدهم تجار من العراق استقروا بهذه البلاد للتجارة ايضا ، واستمرت مقديشيو في النمو والازدهار واصبحت قبلة الوافدين من الجزيرة العربية وغيرها من البلاد الاخرى[٢٧] .

وهناك روايات مماثلة تروى عن تأسيس مدينة كلوه ، فالبعض يذكر ان بعض المسلمين هاجروا لهذه المنطقة من جزيرة العرب واستقروا فيها وأسسوا مسجدا ، والبعض

يربط بين هذه المدينة وبين الحسن بن علي الشيرازي من الأسرة الحاكمة في شيراز وانه واتباعه اضطروا للهجرة من وجه السلاجقة ويرجعون هذه الهجرة الى ما بين ١٠٥٥ ، ١١٠٠

وقد زار ابن بطوطة مدينتي مقديشيو وكلوه خلال رحلته التي قام بها بشرق افريقيا وتحدث عن مشاهداته بهذه المدن ومظاهر الحضارة بها

وترتب على غارات المغول ودخولهم بغداد في عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨) دفع مزيد من المسلمين للهجرة الى الساحل الشرقي لافريقيا[٢٨]

ويرتبط تأسيس مدينة سفاله بالتجارة في الذهب ويرجح ان العرب قد جاءوا الى المنطقة الواقعة قبالة جزيرة مدغشقر في عام ٣٠٣هـ (٩١٥م) بهدف التجارة في الذهب المستخرج من المناطق الداخلية والتي اطلقت عليها بعض المصادر العربية اسم (ظفار ـ الزنج)[٢٩]

وسفاله هي أقصى منطقة في الساحل الشرقي لافريقيا وصل اليها العرب ، وقد ظلت سفاله مركزا تجاريا هاما للعرب حتى اوائل القرن السادس عشر . وقد تحدث ابن ماجد عن سفالة ووصف مناخها وسكانها وطبيعة ارضها ومعادنها وذلك في الارجوزه التي أطلق عليها اسم الارجوزة السفالية[٣٠]

ويرجع البعض تأسيس براوة الى جماعة قدمت من الاحساء في اوائل العام الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وأخذت المدينة تنمو وتزدهر منذ ذلك الوقت

وترجع هجرة العرب بأعداد غفيرة الى لامو الى فترة حكم الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ، وفي اثناء اشتداد الصراع بين الامويين والعباسيين

وقد تتابعت هجرة العرب الى لامو في السنوات التالية حتى عمرت المدينة وازدهرت

ومن الموانىء الهامة التي أسسها العرب في الساحل الشرقي للقارة مدينة مالندي

ويقال ان اول من وفد اليها جماعة من العراق ، لكن خربت المدينة التي أسسها العراقيون في حوالي عام ٣٦٥هـ الى ان جاءت جماعات اخرى من شيراز ومن شبه جريرة العرب فأعادت بناء المدينة

ومن المدن الهامة في الساحل الافريقي الشرقي مدينة ممبسة ويرجح أن جماعة من عمان رحلت للساحل الافريقي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث أسست هذه المدينة وأطلقت عليها هذا الاسم وهو اسم مدينة في عمان[٣١]

وقد كانت هناك منافسة شديدة بين مالندي وممبسة على السيادة في هذه المنطقة بالساحل الافريقي ، وقد زار ابن بطوطة ممبسة في عام ١٣٣١ وتحدث عن المدينة ومساجدها وسكانها[٣٢] .

وقد وقفت ممبسة في وجه البرتغال ورفضت الخضوع لهم سلما وقد انتقم البرتغال من المدينة وسكانها فخربوها وسلبوا ما استطاعوا سلبه واشعلوا النار في الباقي منها كما سنشير اليه بتفصيل أكثر فيما بعد

وبالاضافة لهذه المدن والموانىء الهامة التي انشأها العرب في شرق افريقيا والتي عرفنا عن تاريخها وحضارتها مما كتبه الرحالة عنها نشير الى انه كما يبدو كان هناك عدد كبير آخر من المدن والمواقع العربية بالساحل الافريقي لكنها اندثرت فلم تلق من الشهرة ما لقيه غيرها من المدن التي بقيت حتى مجيء البرتغال في نهاية القرن الخامس عشر وكانت لهم معهم مواقف محددة ، وقد اوردت بعض المراجع بيانات عن بعض هذه المواقع العربية التي اندثرت[٣٣]

## أما عن نظام الحكم والادارة في هذه المدن :

فلا توجد لدينا صورة كاملة تفصيلية عن نظام الحكم في المدن العربية لشرق افريقيا ، لكن نستطيع من كتابات الرحالة الذين زاروا هذه المناطق خاصة في الفترة السابقة لوصول البرتغاليين لشرق القارة ، وكذلك مما كتبه البرتغاليون انفسهم ، ان نكوّن صورة قريبة من الواقع عن النظام الذي ساد هذه المدن

وبالاجمال يمكن القول ان العرب الذين جاءوا لساحل شرق افريقيا جاءوا بتقاليدهم القبلية وعاداتهم وان تأثرت بالطبع بما كان سائدا في هذه المناطق من تقاليد افريقية ، لكن على العموم لم يشهد الساحل قيام وحدة سياسية كاملة ولا وجدت امبراطورية عربية تجمع شتات المدن وان كانت هناك محاولات قامت بها بعض المدن من أجل فرض نوع من السيطرة على المدن الاخرى والاشراف على اوجه النشاط الرئيسية كالتجارة في الموانىء ، وباستثناء فترات قصيرة استطاعت فيها سلطة اسلامية ان تفرض نفوذها على معظم مدن الساحل وتطالبها بدفع الجزية رمزا للتبعية[٣٤]

وكما قلنا ان المدن العربية التي قامت في شرق القارة كانت تتمتع بنظام خاص للحكم فقد كانت كل منها تحت حكم حاكم يصل للسلطة اما عن طريق الوراثة أو القوة ، ويعاون الحاكم مجلس من الشيوخ المحليين وكان في بعض الاحيان الى جانب الحاكم وزير اول وسكرتير دولة ، وقاض أو أكثر بالاضافة الى المحتسب وخطيب المسجد وعدد من الموظفين والمعاونين[٣٥]

فمدينة كلوه مثلا بلغت منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) درجة كبيرة من السطوة والنفوذ وزاد نفوذها وامتد الى موانىء الجنوب وعند وصول البرتغال الى موزامبيق كان بها ممثل لسلطان كلوه[٣٦]

كذلك أصبحت مدينة بات في القرن الرابع عشر تمثل قوة كبرى تحت حكم أسرة النبهان ، وقد مدت هذه الاسرة نفوذها على براوة ومقديشيو ولامو ومالندي وبافست كلوه السيادة في هده المناطق

وهكذا نستطيع ان نقول ان هذه المدن أو المراكز العربية بساحل افريقيا كانت في أغلب فترات تاريخها مدنا مستقلة فلم تكن هناك امبراطورية عربية واحدة تضم هذه المدن باستثناء فترات ليست طويلة استطاعت فيها سلطة واحدة ان تبسط سلطانها على مساحة من الساحل ، ومن هذه المحاولات التي نجحت في ربط المدن الساحلية الهامة بعضها بالبعض الآخر ما قامت به الاسرة الشيرازية التي ظلت تحكم كلوه وما تبعها من مدن الساحل مدة طويلة امتدت لثلاثة اجيال متتالية تم تلتها في نهاية القرن الثالث عشر اسرة المهدي وهي اسرة من الزيديين جاءت من اليمن ، كذلك الدولة الاسلامية التي عرفت باسم (دولة الزنج) والتي نجحت في اواخر القرن الخامس عشرالميلادي في توحيد معظم المراكز الاسلامية على ساحل شرق افريقيا وظلت قائمة حتى سقطت على يد البرتغال في اوائل القرن السادس عشر[٣٧]

ولا بد من الاشارة الى ان معظم معلوماتنا عن نظام الحكم في هده الامارات العربية نستقيه مما كتبه بعض الرحالة العرب مثل ابن بطوطة[٣٨] عن مشاهداتهم اثناء رحلاتهم ، كذلك الرحالة أو المكتشفون البرتغال فقد ذكروا بعض ما شاهدوه عندما وطأت اقدامهم هده البلاد ، فقد ذكر الرحالة فاسكو داجاما Vasco da Gama الذي اشتهر برحلته حول افريقيا في اواخر القرن الخامس عشر ما شاهده في موزامبيق من مظاهر حضارية ، كذلك دوراث ساربوسا Duarte Barbosa تحدث عن أوضاع كلوه وممبسه ومالندي ، وبمبا وزنجبار وقت زيارته لها

ويعلق كوبلاند على ما اشار اليه البرتغاليون الذين وصلوا لاول مرة لشرق افريقيا فدهشوا للمظاهر الحضارية التي لمسوها بهذه الجهات التي لم يكونوا يعرفونها فعلق على ذلك بقوله «اننا يجب الا نندهش لما يذكره هؤلاء الرحالة عن مظاهر الحضارة التي نقلها العرب لشرق افريقيا فان العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة في الغالب فلا شك في ان مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التي في اكسفورد أو في أي مدينة مسيحية اخرى[٣٩]

وتُغنينا هذه الشهادة من أجنبي استعمارى عن كل تعليق آخر .

ورغم ان كوبلاند ذكر ان العرب كانوا في السواحل الافريقية يكونون ارستقراطية تمثل الطبقة الحاكمة

صاحبة السيادة لكن مما لا ريب فيه انهم لم يكونوا بعيدين عن السكان أو متباعدين عنهم ، فقد كان هناك تقارب وتجانس ، وكانت هناك مصالح مشتركة ، وأدى هذا للاختلاط والتزاوج ، وقد عاد الكاتب فناقض نفسه واعترف في اكثر من موضع في كتابه بروح المحبة التي سادت بين السكان الاصليين وبين المهاجرين العرب وترتب عليها تزاوجهم ، وكانت نتيجة ذلك جنس تميزت فيه الصفات الزنجية المعتدلة كما أثرت فيه كثير من العادات والصفات العربية(٤٠)

وقد ابرز جميع الكتاب والرحالة الحقيقة التي ذكرناها سابقا وهي ان العرب في شرق افريقيا كونوا امارات متفرقة فلم تكن لهم امبراطورية متحدة فعلا ولو انه في فترات متقطعة كانت لامارة منها سيادة على منطقة واسعة تشمل عدة امارات ، فحين جاء البرتغال مثلا لشرق افريقيا في القرن الخامس عشر كانت لامارة كلوة السيادة على الجزء الجنوبي من الساحل ، ولما وصل فاسكو داجاما الى موزامبيق وجد ان حاكم المدينة كان نائبا عن سلطان كلوه وكان يجبي الضرائب لحسابه على كل السفن التجارية التي ترد للمدينة ، وكانت هناك علاقة مصاهرة بين سلطاني كلوه وممبسه ، وهكذا ـ كما ذكر هؤلاء الرحالة ـ كان لامراء كلوه شيء من السيادة سواء عن طريق القوة أو عن طريق السياسة والمصاهرة ـ على جزء كبير من ساحل افريقيا الشرقي وان لم تكن لهم السيادة الكاملة بالمعنى الذي نعرفه اليوم .

على انه يستفاد ايضا من كتابات هؤلاء الرحالة ان الامارات العربية كان قيامها على الساحل وان تعمقها للداخل كان فقط بالقدر الذي يخدم الغرض التجاري فكل ما كان يهم هده الامارات هو تسويق منتجاتها الواردة من الجزيرة العربية وجهات آسيا الاخرى ومبادلتها بالعاج والذهب الروديسي والعبيد وغير ذلك من منتجات هذه الجهات فلم يتعمقوا الى الداخل الا بقدر ما تطلبه عملية المبادلة هده

## ٢ـ الآثار الاقتصادية للعرب في شرق افريقيا :

لقد كان التبادل التجاري في مقدمة الدوافع التي دفعت العرب للخروج من شبه الجزيرة العربية لشرق القارة ، وأدى هذا كما رأينا لاستقرار جماعات عربية شرق القارة وتكوين المدن والامارات العربية هناك .

والحقيقة ان وجود العرب بهده المناطق أدى لنهضة اقتصادية شاملة ولتطوير في المعاملات وفي أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة

وقد أشار الرحالة العرب والاجانب الى ازدهار الحركة التجارية بين شرق افريقيا وشبه جزيرة العرب ـ اشار لذلك المسعودي وابن بطوطة كما اشار

دورات باربوسا (Duarte Barbosa) وغيرهم وليس هذا بغريب فقد كان العرب في الفترة من القرن الاول الهجري حتى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) سادة المحيط الهندي والمتحكمين في التجارة بين اوربا واسيا عبر هذا الطريق ، وقد اتسعت حركة هذه التجارة فشملت تجارة التوابل وأدوات الترف الشرقية التي يحضرونها من الهند وسيام والفلبين والصين بالاضافة الى سن الفيل والعاج والذهب والحديد ، والرقيق وغيرها من واردات شرق افريقيا ، وبذا أصبح شرق افريقيا حلقة هامة في شبكة هذا التبادل التجاري واصبحت هناك مراكز مهمة على امتداد هذا الطريق من الصين شرقا الى اوربا[٤١]

وفيما يتعلق بصادرات شرق افريقيا يأتي الرقيق في مقدمتها ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان تجارة الرقيق كانت معروفة قبل مجيء العرب الى شرق القارة كما انه حتى وصول البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر لم تكن لهذه التجارة صورتها البشعة وتطوراتها التي تطورت اليها بعد ذلك حين ادخل الاوربيون الاسلحة النارية في عمليات القنص وتوسعوا في استخدام الرقيق الافريقي لسد حاجاتهم المتزايدة للايدي العاملة الرخيصة في العالم الجديد فتضخمت هذه التجارة البشعة واتخذت صورا واساليب اخرى[٤٢]

ويأتى العاج فى مقدمة صادرات شرق أفريقيا وكان يصدر إلى الهند ، والصين وغيرهما ويستخدم فى صناعة مقابض السيوف والخناجر وأدوات الزينة وتطعيم المصنوعات الخشبية وغيرها من المصنوعات العاجية والتماثيل التى اشتهر بها هذا العصر وقد تميز عاج شرق أفريقيا بليونته وسهولة تشكيله[٤٣]

كذلك يأتى فى قائمة صادرات شرق أفريقيا الصمغ العربي وجوز الهند وزيت النخيل ومن المعادن الذهب والفضة

وقد دلت المعلومات التى وصلت إلينا على أن الذهب كان يستخرج بكميات كبيرة من مناجم شرق أفريقيا (منطقة زيمبابوى الحالية) وكان ميناء سفالة هو الميناء الرئيسى لتصدير الذهب ، وقد أدى هذا بالبعض الى الربط بين شهرة شرق أفريقيا فى الذهب ودور العرب فى عمليات التعدين بهذه الجهات وبين كنوز الملك سليمان وقصة مملكة سبأ[٤٤]

وحين وصل البرتغاليون إلى شرق القارة كان نشاط العرب التجاري فى مجال التعدين وتجارة الذهب قد وصل إلى دروته فقرروا الاستيلاء على القواعد العربية الهامة فى شرق القارة والقضاء على نفوذ العرب التجارى ونشاطهم فى مجال التعدين .. وسنشير لهذا بالتفصيل فيما

بعد [٤٥]

كذلك كانت التوابل والبخور من صادرات شرق أفريقيا لأوروبا فقد كانت التوابل كالقرفة والقرنفل وجوزة الطيب واللبان والفلفل تضاف إلى الطعام كما تستخدم في العلاج ، كما أن البخور كان لازما وازداد الطلب على هذه المنتجات وقد فرض المماليك في مصر والحجاز قيودا على نقل هذه البضائع لأوروبا وفرضت المكوس الباهظة على السفن التي تنقلها عبر موانيء الشام ومصر وكان هذا من الدوافع الرئيسية وراء محاولات البرتغاليين للسيطرة على المراكز الرئيسية لهذه المنتجات واكتشاف طريق آخر لنقلها لأوروبا دون المرور بالموانيء التي يسيطر عليها المماليك [٤٦]

هذا ولم يقتصر نشاط العرب الاقتصادي في شرق القارة على التجارة فقط فقد كان لوجودهم واستقرارهم في بعض المناطق بشرق أفريقيا أثره على ازدهار الزراعة وعلى الاهتمام بالثروة الحيوانية وإن كان نشاطهم في هذا المجال أقل من نشاطهم في مجال التجارة والتبادل التجاري

كذلك نشير الى دور العرب في ازدهار بعض الصناعات كصناعة المنسوجات القطنية وبعض الصناعات التعدينية المتصلة باستخراج معادن الحديد والذهب .

وأشير إلى أن النشاط الاقتصادي للعرب بشرق القارة وما ترتب عليه من تبادل تجارى اتسع نطاقه شرقا إلى الهند والصين وغربا الى أوروبا ترتب عليه وجود عملة تستخدم كوسيلة لهذا التبادل بدلا من طريقة المقايضة التي كانت سائدة وقد عثر على العديد من العملات النحاسية الخاصة بامراء كلوة ومافيا وزنجبار وممبسة وغيرها من امارات شرق افريقيا في عصور مختلفة [٤٧]

وتحتفظ المتاحف الخاصة بالبرتغال بالعديد من هذه العملات [٤٨]

هذا كما عثر في شرق افريقيا على بقايا متعددة من الخزف الصيني وغيره من صناعات الصين والهند وأندونيسيا وكلها ترتبط بهذا النشاط العربي والتبادل التجاري بين ما نسميه اليوم بالشرق الأقصى وشرق افريقيا

## ٣ ـ أثر العرب في الحياة الاجتماعية في شرق أفريقيا :

لا تكاد توجد لدينا دراسات وافية عن طبقات المجتمع في شرق أفريقيا وعن حياتهم الاجتماعية ، كما أنه لا توجد لدينا احصاءات وافية عن السكان من حيث العدد والنوع . لكن نستطيع أن نلم ببعض المعلومات عن السكان وعاداتهم وتقاليدهم من خلال كتابات الرحالة العرب والأجانب .

والحقيقة التي نستشفها من هذه

الكتابات أنه فى المدن والامارات العربية بشرق افريقيا وجدت أجناس متعددة فقد كان هناك العرب الذين وفدوا من أجيال واستقروا واستوطنوا هـذه البلاد واختلطـوا بالسكـان الأصليين (الافارقة) وأصبحت هذه الامارات العربية مزيجا تجمع فى أنظمتها بين أشياء افريقية أصيلة وأشياء عربية ولكن مما لا شك فيه أن العرب المهاجرين إلى هذه الجهات قد حملوا معهم تقاليدهم وعاداتهم

وقد لمس ابن بطوطة بنفسه أن العرب فى هذه المناطق التى استقروا فيها لم ينسوا تقاليدهم وعاداتهم كما نوه الرحالة الأوروبيون أيضا الذين زاروا هذه الامارات العربية بشرق أفريقيا بما لمسوه فى هذه المجتمعات من رقى وتحضر

ورغم أن كوبلاند مثلا يذكر أن العرب كانوا فى السواحل الافريقية يكونون ارستقراطية تمثل الطبقة الحاكمة صاحبة السيادة .. لكن مما لاريب فيه أنهم لم يكونوا بعيدين عن باقى السكان (٤٩)

وإلى جانب العرب وجد الهنود الذين وفدوا للساحل بأعداد غفيرة أيضا وكان لهم نشاطهم التجارى ونشـــاطهم فى أوجـــه الاقتصـــاد الاخرى (٥٠)

وقد ترتب على التزاوج بين العرب والأفارقة فى شرق القارة نشأة الشعب السواحيلى بمميزاته اللغوية وصفاته التى هى مزيج من الصفات العربية والصفات التى كان يتميز بها البانتو الافارقة ، واللغة السواحيلية التى انتشرت فى سواحل شرق أفريقيا تمثل هذا المزج بين الحضارتين العربية والتقاليد والعادات الافريقية

ولا شك فى أن التأثيرات العربية لم تكن فى كل مكان بنفس القوة رغم أن الحضارة العربية باعتبارها كانت فى ذلك الوقت متفوقة فقد كان لها الغلبة فى كثير من الحالات على العادات والتقاليـد التى توارثهـا الافارقة وهذا شىء طبيعى ويقسم بعض المؤرخين السواحيليين بشرق القـارة الى سواحيليـين شماليـين وسواحيليين جنوبيين والبعض لا يجد أساسا قويا لهذا التقسيم (٥١)

لا نستطيع أن نقر التقسيمات التى يحاول البعض تقسيم المجتمع بشرق القارة إليها كما هى فقد ذكر كوبلاند العرب باعتبارهم فى قمة هذا المجتمع الذين يمثلون الارستقراطية الحاكمة فيه ثم المولدين نتيجة الاختلاط بين العرب والافارقة فالهنود ، ثم العبيد فى القاعدة (٥٢)

ورغم أن الهنود مثلا تميـزوا بنشاطهم فى التجارة وبعض الأعمال المالية واليدوية بينما كان العبيد يعملون فى أعمال الزراعة التى تحتاج لجهد عضلى وفى خدمة الحريم فإن التمييز والفصل بين هذه الطبقات لم يكن بهذا العنف . هذا وأشير إلى أنه

ليس لدينا تقدير دقيق لعدد السكان فى كل مدينة وتوزيعهم تبعا للطبقات أو الاجناس ، فقد اختلفت التقديرات التى أعطاها الكتاب والرحالة اختلافا كبيرا يدعو لعدم الاطمئنــان لأى منها .(٥٣)

وقد أعطانا ابن بطوطة صورة لا بأس بها للمجتمع فى شرق أفريقيا وقت زيارته لهذه البلاد ، فوصف عادات الناس فى المآكل والملبس وتقاليد الضيافة وبعض العادات وتقاليد ومراسيم السلطنة . ولا شك فى أن الصورة التى رسمها ابن بطوطة لهذا المجتمع قبل وصــول البرتغــاليين للساحل تـدل على مـدى التقدم الحضارى الذى بلغه هذا المجتمع واثر العرب القوى والواضــح فى ذلك (٥٤)

وقــد أكــدت أقــوال الكتــاب البرتغاليــين الأوائل الــذين زاروا الساحل بعد ذلك هذه الحقيقة

ومن الأشياء الهامة التى أبرزها ابن بطوطة تقاليد السلطنة ، وأشار الى معاونى السلطان من الأمراء والقضاة والفقهاء والوزراء وما يتبع من مراسم عند استقبال السلطان لكبار الزوار .. فتدق الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية بما يشبه السلام الوطنى اليوم .

وهنــاك مندوبــون فى المــوانىء لاستقبال الزوار كما أن للسلطان حاشية ، وتوجد بعض السجلات لتسجيل أسماء الزائرين ، كما أن هناك دارا للضيافة وغير ذلك من مظاهر الحضارة التى تعتبر فريدة فى ذلك العصر (٥٥)

أما عن المبانى سواء الأميرية أو المساجد أو المنازل فقد كانت فى كثير من مدن الساحل مبنية بالحجر والملاط وهى جميلــة ومنسقة والشــوارع مرصوفة بالاحجار .(٥٦)

وإذا كانت المنازل الحجرية ـ كما يرجح ـ منازل الطبقة الغنية من المجتمع فإن منازل عامة السكان كانت ـ كما يعتقد ـ مبنية من الطين والبوص والقش على نظام المسكن الأفريقي المعروف فى القارة ، وأثاث المنزل يختلف من طبقة لأخرى . بينما أشاد الرحالة بأثاث منازل الاثرياء التى كانت تحوى الكثير من وسائل الراحة والتى غطيت أرضية بعضها بأنواع من السجاد ولعله من تأثيرات فارسية فإن منازل الفقراء كانت لا تحوى الا عددا من الأسرّة تشبه ما يعرف (بالعنجريب) فى السودان ، وأدوات وأوانى لحفظ الأطعمة والمياه ووجدت بعض وسائل الاضاءة كالمصابيح الفخارية . كما يعتقد أن الشمع كان يستخدم أيضا لهذا الغرض ، وقد وجدت بقايا أوان من البرسلــين الصينى ، كما وجدت صوان وأطباق نحاسية هذا بالاضافة الى أوعية وادوات من الأصداف البحرية .(٥٧)

وقد ذكر ابن بطوطة أن سكان

مقديشيو يستخدمون صحافا من الخشب

وقد أشار الرحالة الى أنواع الأطعمة المنتشرة فى هذه المناطق الساحلية ، فالطعام السائد من الأرز والسمك واللحم وبعض الخبز من الذرة والفاكهة متنوعة ، وبالاضافة إلى الأسماك والحيوانات المائية توجد أعداد كبيرة من الأغنام والأبقار والماشية والخيول (٥٨)

وفيما يتعلق بملابسهم فإنها تختلف تبعا لطبقات المجتمع فالاغنياء يلبسون ملابس حريرية وعمائم بينما لباس الرجل العادى لا يتعدى قميصا وفوطة تشد إلى الوسط وتتدلى حول الجزء الأسفل من الجسم وقد أشار بعض الرحالة إلى وجود صناديق خشبية لحفظ الملابس وتتحلى النساء بقلائد وأساور وأقرطة من ذهب وفضة ، وقد عثر على أدوات للزينة من ذهب وفضة كما عثر على أدوات للزينة لحفظ المساحيق التى تشبه الكحل (٥٩)

وكانت للمرأة فى المجتمع السواحيلى منزلة ولها احترامها ، وكان للتقاليد العربية أثرها فى ذلك ، كما أن الأسلام أضفى على المجتمع فى شرق أفريقيا الكثير من تعاليمه ومبادئه فأصبح للمرأة قيمتها فى هذا المجتمع ومركزها وحقوقها .

هكذا كان أثر العرب على المجتمع فى شرق أفريقيا قويا وعميقا ، وقد لمس جميع الرحالة ذلك فى عادات الناس وتقاليدهم سواء فى حياتهم اليومية المعتادة أو فى المناسبات والمعاملات ، ولا غرابة فى هذا فقد كان أثر العرب واضحا فى جميع المجتمعات التى احتكوا بها خاصة بعد الاسلام والأسس الواضحة المعالم المحددة للمجتمع الاسلامى ، فكان الطابع الاسلامي واضحا فى مختلف المجتمعات التى وجد فيها العرب وانتشر الاسلام .

## ٤ ـ الأثر الثقافى للعرب فى شرق أفريقيا :

لا شك فى أن الأثر الثقافى للعرب فى شرق أفريقيا من أقوى الآثار التى ترتبت على هذه الصلات بين عرب شبه الجزيرة وسكان الساحل الشرقى للقارة . فمنذ بدأ العرب رحلاتهم التجارية للساحل الشرقى وانتشارهم فى السهول واستقرارهم فى المناطق الملائمة لهم ـ ترتب على هذا الاحتكاك انتشار ثقافة العرب وحضارتهم ، وحين جاء الاسلام كان تأثيره قويا وأثره أكبر وأعمق فالاسلام بتعاليمه كما نعلم غير حياة العرب وطبعهم بطابع مميز ، وبالطبع انعكس هذا التأثير المنظم على من اتصل بهم العرب من الشعوب الاخرى ومن يتتبع التيار العربي فى تدفقه من شبه الجزيرة الى شرق القارة يلمس بعمق أثر هذا التيار فى ثقافات هذه الشعوب

الافريقية وعاداتها وتقاليدها

وبالطبع اختلفت هذه الآثار الثقافية قوة وضعفا تبعا لاختلاف فرص وظروف الاتصال بين العرب وسكان شرق القارة وتبعا لقوة الموجة العربية تبعا لظروف انتشار الاسلام وعدد الذين اعتنقوا الدين الجديد من السكان

وهناك روايات عدة عن الظروف التى انتشر فيها الاسلام والثقافة العربية بين سكان المدن الساحلية مثل كلوه ، وممبسة ، ومدن ساحل الصومال الاخرى (٦)

ولعل ما ذكره ابن بطوطة عن سكان ممبسة ، وكلوه يعطى فكرة عن مدى تأثرهم بالثقافة العربية فهو يذكر أنهم شافعيو المذهب ويغلب عليهم التدين والصلاح

وقد أدى الاحتكاك العربى بشعوب شرق افريقيا لتعديل فى كثير من معتقداتهم وعاداتهم فمثلا عبادة السلف وتقديم القرابين والأضحيات والذبائح لاسترضاء الأموات وكشف الغيب وتقديم الصدقات إلى غير ذلك من المبادىء .(٦١)

ولعل اللغة العربية من أقوى مظاهر التأثيرات الثقافية على سكان شرق أفريقيا فنتيجة المعاملات التجارية والامتزاج بين العرب والأفارقة بشرق القارة تولدت لغة هى خليط بين لهجات البانتو واللغة العربية ـ وهى اللغة السواحيلية ـ

وبالإضافة الى العديد من المفردات العربية فى هذه اللغة فإن التأثيرات العربية في التراكيب والمكونات قوية (٦٢)

ولقد أصبحت اللغة السواحيلية من أهم المقومات الحضارية لشرق القارة ، وأصبح لها آدابها وترجمت اليها بعض من أمهات الكتب ولا يتسع المجال للتعرض للنظريات المتعددة عن نشأة هذه اللغة وتطورها وقواعدها ، وآدابها لكن الظاهرة البارزة أن التأثيرات العربية قوية وواضحة فى هذه اللغة وآدابها ، وأن هذه اللغة لعبت ومازالت تلعب دورا هاما فى إبراز الشخصية المتميزة لشرق أفريقيا ولشعوبها ولدولها التى تكونت فيما بعد

ولا شك فى أن الأدب العربى بقصصه وبطولاته وميادينه المختلفة قد أثر تأثيرا عميقا فى تكوين الشعب السواحيلى بمكوناته الثقافية وقد وجدت فى مدن شرق أفريقيا الهامة مدارس لتحفيظ القرآن الكريم ولتعليم المبادىء الاساسية للحساب وألحق بعض هذه المدارس التى تشبه (الكتاتيب) بالجوامع ـ وقد نقل العرب الكثير من معرفتهم فى مجال الملاحة وغيره لهذه البلاد .

وقد اتسع مجال وأفق سكان هذه البلاد ومعرفتهم بما يدور فى أجزاء اخرى من العالم عن طريق احتكاكهم بالعرب وبسبب رحلات العرب

وجولاتهم

وبالطبع لا ننسى فى هذا المجال أثر الثقافة الهندية والصينية فى ثقافة سكان شرق أفريقيا ـ وقد وجد فى الآثار التى عثر عليها ما يدل على تأثير هذه الثقافات الهندية والصينية

ولا شك فى أن التجار العرب لم يكونوا يحملون البضائع بين هذه البلاد فحسب لكن كانوا يسهمون فى تبادل الثقافات بين هذه الأقطار التى يتعاملون معها

ومن يتعمق فى دراسة الأصول الثقافية لشعوب شرق أفريقيا يلمس بوضوح الأثر العربى فى التكوين الثقافى والحضارى لها

## وصول الأوربيين لشرق أفريقيا والنتائج المترتبة على ذلك

ظلت للعرب السيادة فى المدن والامارات التى كونوها فى شرق أفريقيا حتى القرن الخامس عشر الميلادى فقد نجح فاسكو داجاما فى عام ١٤٩٧ فى الوصول إلى نهاية القارة وعبر رأس الرجاء الصالح إلى الساحل الشرقى حيث زار الامارات العربية فى المنطقة وقد وصف هذه الامارات وما بها من حضارة زاهرة ، ونوه داجاما بما لمسه فى دوائر بلاط الأمراء وبين الشعب وفى الأسواق من ارتفاع المستوى الحضارى الذى لا يقل ان لم يزد عن المستوى الحضارى للبرتغال ذاتها .[٦٣]

وتتابعت بعد ذلك رحلات البرتغال عن هذا الطريق الجديد وفى سنة ١٥٠٢ قام داجاما برحلته الثانية ، ونزل فى كلوه وتحت التهديد بإحراق المدينة أجبر سلطانها على الاعتراف بسيادة البرتغال ، وتبع ذلك خضوع زنجبار التى يصفها البرتغال بأنها كانت فى ذلك الوقت عبارة عن جزيرة خضراء ناضرة تعج حدائقها بالخضروات والفواكه .

وفى سنة ١٥٠٥ غادر لشبونة أسطول كبير من ثلاث وعشرين سفينة تحت قيادة فرانسيسكو دى الميدا (Francisco De Almeida) بقصد تثبيت نفوذ البرتغال فى السواحل الشرقية الافريقية ، ولتحقيق هذا الهدف أرسلت البرتغال قوة استولت على سفالة ، وحاصرت كلوه واستولت عليها بعد قتال عنيف ، وتقدموا إلى ممبسة ، وقد قاوم سكانها الذين كانوا يزيدون عن عشرة آلاف الغزاة لكنهم اضطروا للتسليم فاشعل البرتغاليون النار فى المدينة انتقاما من بطولة أهلها

وفى ١٥٠٦ أرسل أسطول برتغالى آخر من أربعين سفينة تحت قيادة البوكيرك (ALbuquerque) استولى على لامو ، وبراوة ، وجزيرة سوقطرة .

وفى ١٥٠٧ سقطت موزمبيق فى يد القائد البرتغالى دوارت داميللو (Duarte De Mello) .

وهكذا مد البرتغاليون نفوذهم على الساحل الشرقى للقارة من سفالة جنوبا الى مالندى شمالا وفى سنة ١٥٠٩ عين البرتغاليون حاكما عاما لمستعمراتهم فى شرق القارة فاتخذوا موزمبيق مركزا لهم ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل اتجهوا لمهاجمة سواحل الجزيرة العربية والخليج العربي معتمدين على مراكزهم وحصونهم فى شرق أفريقيا ، فهاجموا مسقط ، وهرمز ، وعدن وقد امتد هذا الصراع البرتغالى العربى واتسع واشتركت فيه الدولة العثمانية والتى أصبح لها النفوذ فى الشام ومصر والجزيرة العربية بعد القضاء على نفوذ دولة المماليك فى هذه البلاد .(٦٤)

وقد ساعد البرتغاليين فى صراعهم مع الامارات العربية فى شرق افريقيا ان هذه الامارات لم تكن ـ كما أشرنا من قبل ـ مرتبطة بعضها بالبعض الآخر بل بالعكس فقد كان التنافس بينها شديدا فالنزاع بين مالندى وممبسة مثلا والصراع بينهما للسيادة على الساحل ترتب عليه أن صفيت قوة كل منهما وخدم ذلك الغزاة البرتغاليين خاصة وأنهم كانوا يتسلحون بالأسلحة الحديثة (٦٥)

ويذكرنا ذلك بوضع الممالك العربية فى الأندلس (ممالك الطوائف كما يطلق عليها المؤرخ عبدالله عنان) حين تعرضت للبرتغاليين والأسبان فيما أطلقوا عليه حرب الاسترداد (Reconquesta) .

## خاتمــة :

دفعت عدة عوامل بالعرب للخروج من شبه جزيرتهم الى شرق القارة وكان الهدف الأول لهذا الاتجاه هو التجارة لكن انتهى الأمر باستقرار بعض العرب فى شرق أفريقيا ، وبمرور الزمن كثر عدد المستقرين منهم كما دفعت عوامل اخرى بموجات جديدة من العرب استقرت فى شرق القارة واندمجت بالتدريج مع سكانها الأصليين ، وأضاف الاسلام والظروف المختلفة التى مرت بها الدولة الاسلامية الى أسباب ودوافع الهجرة لشرق القارة والاستقرار بها .

وتمكن العرب من تأسيس عدة

مدن ساحلية ، وكان امتدادهم للداحل حسب ما تطلبته الظروف

وترتب على هذا الاحتكاك والاستقرار العربي نتائج هامة فى مختلف المجالات ، فقد كانت له آثار اقتصادية كبيرة فذاعت شهرة المدن والامارات العربية بشرق القارة كموانىء تجارية تصدر أهم غلات القارة الزراعية والحيوانية والمعدنية .

ووصل النشاط التجارى الى الشرق الأقصى إلى الهند والصين كما امتد إلى أوروبا لسد حاجتها من بضائع الشرق والحاصلات الافريقية .

وكان التأثير العربي والاسلامى الثقافى والحضارى فى شرق القارة قويا أيضا وان اختلفت التأثيرات من منطقة لاخرى ، فالقسم الشمالى من الساحل الشرقى تأثر أكثر من القسم الجنوبى الذى تبدو فيه تأثيرات المحيط الهندى وتياراته والتأثيرات الفارسية أكثر وقد اعتنق عدد كبير من سكان الجزء الشمالى من الساحل الشرقى الدين الاسلامي

ويلاحظ انه لم تتم عملية تعريب كاملة للسكان كما حدث فى كثير من البلاد التى استقر فيها العرب لكن كانت محصلة هذا الاختلاط اللغة السواحيلية التى تأثرت باللغة العربية لفظا وأدبا .

وكان تأثير العرب فى المجتمع الافريقي واضحا فى تعديل وتغيير كثير من العادات والتقاليد والسلوكيات .

وظل تأثير العرب قائما وقويا ونفوذهم واضحا إلى أن جاء البرتغاليون فحاولوا الحلول محل العرب فى نشاطهم لكن للأسف صحب هذه الموجة الاستعمارية كثير من التخريب والدمار ، وأدى قدوم البرتغاليين لصراع طويل بين القوة الاسلامية فى العالم العربي كله وبين الاوروبيين الذين تطلعوا لثروات شرق القارة والطرق التجارية التى كان يسيطر عليها العرب ، كما انفتح الطريق أمام النشاط الأوروبي المتعدد الأهداف والوسائل إلى شرق القارة ، بل امتدت الاطماع الاوروبية الى شبه جزيرة العرب نفسها وإلى المناطق العربية الاخرى الواقعة خلف شبه الجزيرة

*****

(١) ولد ابو الحسن على بن الحسين الذى اشتهر باسم المسعودى فى بغداد، ومات فى مصر فى عام ٣٤٦هـ (٩٥٣م) وكتابه المشهور هو (مروج الذهب ومعادن الجوهر) لكن له مؤلفات اخرى ذكرت فى بعض المصادر ولم نعثر عليها منها اخبار الزمان ومن اباده الحدثان (وهو فى ثلاثين جزءا)

(٢) ابن بطوطة ـ هو محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى ـ صاحب كتاب تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار وقد طبع كتابه هذا عدة طبعات منها طبعة بولاق عام ١٩٣٤

(٣) Strong, Arthur: History of Kilwa "Journal of the Royal Asiatic Society April 1895 اما جون كيرك فقد ولد فى عام ١٨٣٢ وكان طبيبا وعالما فى النبات، وقد رافق لفنجستون فى رحلته للكشف عن نهر زمبيزى (١٨٥٨ ـ ١٨٦٣) وقد زكاه لفنجستون للعمل فى زنجبار فعمل اولا كطبيب للوكالة البريطانية بها، ثم قنصلا عاما لبريطانيا بزنجبار

وقد استطاع هذا الرجل بحكمته وسياسته واساليبه الخاصة ان يصبح القوة المحركة لسلطان زنجبار او كما يقول مارش كنجز نورث، كان يلعب دور رئيس وزراء السلطان لكن بصفة غير رسمية، وقد أصبح مديرا لشركة شرق افريقيا البريطانية الامبراطورية حتى صفيت الشركة فى عام ١٨٩٤ ـ لمزيد من التفاصيل انظر Marsh, Z/A.& Kingsnorth, G.: Introduction to the History of East Africa (London 1961) P 158

(٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه المخطوطة انظر ـ جمال زكريا قاسم (دكتور) الاصول التاريخية للعلاقات الافريقية العربية (القاهرة ١٩٧٥)، وكذلك المرجع السابق لنفس الكاتب

(٥) Chittick, Neville: Kilwa and the Arab Settlement of the African Coast (Journal of the African History No.2 1963)

(٦) Free man, Granville: Select documents on the East Africa coast from the first to the earlier nineteenth (Oxford 1962) The Medieval History of the coast of Tanganika (Berlin 1962)

(٧) Roland, O.· The History of East Africa (Oxford 1963) The Dawn of African History (Oxford 1969)

(٨) Coupland Reginald: East Africa and its Invaders, From the, Ealiest Times to the Death of Seyyid Said 1856 (Oxford 1938)

(٩) Hitchman, C.: The Land and peoples of East Africa (London 1960) P. 61

(١٠) صفي الدين ، محمد  افريقيا بين الدول الاوربية (القاهرة ١٩٥٨) ص ٥٢ ، ٦٧

(١١) محمد عوض محمد  الشعوب والسلالات الافريقية (١٩٦٥) ص ٩

(١٢) للمزيد من التفصيلات انظر
شوقي الجمل  تاريخ كشف افريقيا واستعمارها  القاهرة (١٩٨٠) ص ٤٨ ، ٤٩
وصفي الدين ، محمد  مرجع سابق ص ٦٨

(١٣) الطبري  أبو جعفر محمد بن جرير  تاريخ الامم والملوك (القاهرة ١٩٦١) جـ ٢ ص ٣٢٠

(١٤) راهر رياض  الاسلام في اثيوبيا (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٧٠

(١٥) الطبري  المرجع السابق ص ٣٢٨

(١٦) نفس المرجع ونفس الصفحة

(١٧) الواقدي ، ابو عبدالله محمد بن سعيد  الطبقات الكبير جـ ١ (القاهرة ١٩٦٨) ص ٣٩٠

(١٨) عبدالرحمن زكي  الاسلام والمسلمون في شرق افريقيا (القاهرة ١٩٦٥) ص ١٢٠

(١٩) Coupland, R. East Africa and Its Invaders (London 1934) P. 21

(٢٠) حسن احمد محمود (دكتور)  الاسلام والثقافة العربية في افريقيا (١٩٦٣) ص ٤٣٦

(٢١) نفس المرجع ص ٤٣٨

(٢٢) يرجع نسبهم الى زيد بن علي حفيد الحسين بن علي بن ابي طالب ـ انظر حسن احمد محمود (دكتور) مرجع سابق ص ٤٣٧

(٢٤) حسن أحمد محمود  مرجع سابق ص ٤٣٩

(٢٥) Coupland, Op. cit. P. 25

(٢٦) Hichens, W.: Islam in East Africa (1960) P. 110

(٢٧) Coupland, R.: Op. Cit. P. P 21-24

(٢٨) عبدالله بن مصبح الصوافي  اخبار كلوه (نشر وتحقيق ارثر سترونج (لندن ١٨٩٥) ص ٤١١ ، ٤١٢

(٢٩) جمال حمدان (دكتور) جغرافية المدن (القاهرة ١٩٧٠) ص ١٣٠
وحسن احمد محمود مرجع سابق ص ٤٣٨

(٣٠) احمد بن ماجد، شهاب الدين احمد بن ماجد بن عمرو ثلاث ازهار في معرفة البحار تحقيق تيودور شوموفسكي ترجمة محمد منير مرسى (دكتور) القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٠٦ وما بعدها

(٣١) عبدالرحمن زكي (دكتور) مرجع سابق ص ١٢١

(٣٢) ابن بطوطة مرجع سابق ص ١٦٢ ، ١٦٣

(٣٣) يرجع الى Freeman, G.: The Medieval History of the Coast of Tanganika ( Berlin 1962) وكذلك Kirkman, J.: Men and Monuments on the East African Coast (N.Y. 1966)
وكذلك اشار اليها عبدالرحمن زكي بعض المدن العربية على ساحل شرق افريقيا في العصور الوسطى (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ١٩٦٤)

(٣٤) حسن ابراهيم حسن انتشار الاسلام والعروبة فيما وراء الصحراء الكبرى ـ شرقي القارة الافريقية وغربيها (القاهرة ١٩٥١) ص ٣٠

(٣٥) ترمنجهام سبنسر الاسلام في شرق افريقيا ـ ترجمة محمد عاطف النزاوي ـ القاهرة ٧٣

(٣٦) Grevor C.P.: The Planting of Christianity in Africa (London 1948) V. I. P. 112
وابراهيم علي طرخان (دكتور) الاسلام والممالك الاسلامية (مجلة الجمعية التاريخية عدد ٨ ص ٤٣

(٣٧) للمزيد من التفاصيل يرجع الى
جمال زكريا قاسم (دكتور) استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا ـ حولية كلية آداب عين شمس الخامس ١٩٦٧ ص ٢٩٢ وما بعدها

(٣٨) زار ابن بطوطة كلوه وممبسه ومقديشيو عام ١٣٣٣ ودهش لما كانت عليه هذه المدن من تنظيم ورخاء ووصف شوارعها ومنازل العرب المبنية هناك بالحجارة والمونة ونوافذها الخشبية المريبة والمحفورة وحدائقها الغناء ومساجدها التي يبدو فيها تاثير الفن الفارسي ، وذكر ان العرب في هذه البلاد التي زارها لم ينسوا تقاليدهم العربية فهم يستضيفون الغريب ويقدمون له حاجته من ماكل ومشرب

(٣٩) Coupland : Op. Cit. P. 39

(٤٠) Ibid: P. 27

(٤١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الطريق التجاري الطويل انظر

جورج فاضلي حوراني العرب والملاحة في المحيط الهندي ترجمة يعقوب بكر - القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٣٦

وكذلك Marsh, Zoe: An Introduction to the History of East Africa (Cambridge 1961) P. 8

(٤٢) لا يتسع المجال هنا للرد على اتهام الاوربيين للعرب بانهم هم المسئولون عن نشر تجارة الرقيق الافريقي ورواجها - وقد ناقشنا هذه الادعاءات بتفصيل في اماكن متعددة من كتابنا - تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠)

(٤٣) Kenne th, I.: History of East Africa (London 1963) P.P.4-5

(٤٤) لمزيد من التفاصيل خاصة ما يتعلق بمناطق التعدين في الداخل وتطور هذه الصناعة بشرق افريقيا ودور العرب فيها يرجع إلى

شوقي الجمل قضية روديسيا بين الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية - القاهرة ١٩٧٧

(٤٥) Roland, 0.: The Dawn of African History (Oxford 1969) P.47

(٤٦) صبحي لبيب (دكتور) التجارة الكاريبية وتجارة مصر في العصور الوسطى (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) مايو ١٩٥٢

(٤٧) Basil, D.: The African Fast Chronicles, From Antiquity to Modern Times (1963) P.113

(٤٨) عبدالرحمن زكى (دكتور) - مرجع سابق ص ١٢٤

(٤٩) Coupland; Op. Cit. P.39

(٥٠) هولينجزوت ل الآسيويون في شرق افريقيا ترجمة عبدالرحمن صالح (القاهرة - ١٩٦١) ص ١٨ ، ١٩

(٥١) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى Reusch R.: History of East Africa (1963) P.P 222-24

(٥٢) Coupland: Op. Cit/P/31

(٥٣) Freeman, G.: Op. Cit. P 193

(٥٤) الرحلة جـ ١ ص ١٦١٠

(٥٥) نفس المصدر

(٥٦) Freeman, G.: Op. Cit. P. 192

(1963) P.P 222-24

(٥٧) Chittich, N.: Op. Cit. P. 236

(٥٨) ابن بطوطة الرحلة ص ص ١٦١ - ١٦٣ وكذلك Dames, M.L..: The Book of Duarte Barbosa (London 1918) V 0 1. 1 P. P. 17 - 31

(٥٩) Freeman : Op. Cit. P. 195

(٦٠) عبدالرحمن زكى مرجع سابق ص ٧٢

(٦١) Johns, M.: African Religions & Philosophy (1960) P. 240

(٦٢) محمود طه أبو العلا المؤثرات العربية فى شرق افريقيا - (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية مايو ١٩٦٠) ص ١٤٠

(٦٣) Duffy, James: Portuguese Africa (London 1969) P. 26
وكذلك Freeman, G.: Op. Cit. P. 50

(٦٤) لا يتسع المجال لتتبع مراحل هذا الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ثم البحر المتوسط - لكن للمزيد من التفاصيل فى هذا المجال يرجع إلى شوقى الجمل تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠) وكذلك المغرب العربي الكبير فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٧٧)

(٦٥) للدراسة التفصيلية لهذا الصراع - يرجع الى السلوة فى تاريخ كلوه - مرجع سابق ص ٢٢٨ وما بعدها

★★★★★

## أولا ـ مصادر أصلية :

(تشمل كتب الرحالة ، وكتابات المؤرخين المعاصرين )


١ ـ ابن بطوطة ، محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بولاق ١٩٣٤)

٢ ـ ابن الأثير ، أبو الحسن على
الكامل فى التاريخ (١٩٣٢)

٣ ـ أحمد بن ماجد ، شهاب الدين أحمد بن ماجد بن عمرو
ثلاث أزهار فى معرفة البحار
(تحقيق تيودور شوموفسكى ، ترجمة د محمد منير موسى) (١٩٦٩)

٤ ـ الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى
تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ (١٩٦١)

٥ ـ عبدالله بن مصبح الصواف
كتاب السلوه فى أخبار كلوه (نقلا عن أوراق الشيخ محيى الدين الزنجبارى
نشر وتحقيق ارثر ستروبح) (لندن ١٨٩٠)

٦ ـ المسعودى ، أبو عبدالله محمد بن سعيد
مروج الذهب ومعادن الجوهر (١٩٦٤)

٧ ـ الواقدى أبو عبدالله محمد بن سعيد
الطبقات الكبير جـ ١ (١٩٦٨)


## ثانيا ـ مراجع عربية أو معربة :


١ ـ ترمنجهام ، سبنسر
الاسلام فى شرق افريقيا (ترجمة محمد عاطف النزاوى ـ القاهرة ١٩٧٣)

٢ ـ جمال زكريا قاسم (دكتور)

الأصول التاريخية للعلاقات الافريقية العربية (القاهرة ١٩٧٥)
٣ ـ جمال حمدان (دكتور)
جغرافية المدن (القاهرة ١٩٧٠)
٤ ـ جورج فاضل حورانى
العرب والملاحة فى المحيط الهندى (ترجمة يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٥٨)
٥ ـ حسن ابراهيم حسن (دكتور)
انتشار الاسلام والعروبة فيما وراء الصحراء الكبرى ـ شرق القارة الافريقية وغربها (القاهرة ١٩٥١)
٦ ـ حسن احمد محمود (دكتور)
الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا (القاهرة ١٩٦٣)
٧ ـ زاهر رياض (دكتور)
الاسلام فى اثيوبيا ـ (القاهرة ١٩٦٤)
٨ ـ شوقى الجمل (دكتور)
تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ـ (القاهرة ١٩٨٠)
٩ ـ " " قضية روديسيا بين الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية ـ (القاهرة ١٩٧٧)
١٠ـ " " المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ـ (القاهرة ١٩٧٧)
١١ـ عبدالرحمن زكى (دكتور)
الاسلام والمسلمون فى شرق افريقيا (القاهرة ١٩٦٥)
١٢ـ محمد صفى الدين (دكتور)
افريقيا بين الدول العربية ـ (القاهرة ١٩٥٩)
١٣ـ محمد عوض محمد (دكتور)
الشعوب والسلالات الافريقية (القاهرة ١٩٥٦)
١٤ـ هولنجزوث ل
الأسيويون فى شرق افريقيا (ترجمة عبدالرحمن صالح ـ القاهرة ١٩٦١)

## ثالثا . مراجع باللغة الانجليزية :

1 - Basil, D.: The African Past Chronicles, from Antiquity to Modern times (1963)
2 - Coupland, Reginald: East Africa and Its Invaders, From the Earliest Times to the Death of Seyyid Said 1856 (Oxford 1938)

3 - Dames, M.L.: The Book of Duarte Barbosa (London 1918)
4 - Duffy, James: Portuguese Africa (London 1959)
5 - Freeman, Grenville: Select Documents on the East African Coast, From the First to the earlier nineteenth (Oxford 1962)
6 - „ „ „ „ : The Medieval History of the coast of Tanganika (Berlin 1962)
7 - Grevor, C.P.: The Planting of Christianity in Africa V. 1 (London 1945)
8 - Hichens, W.: Islam in East Africa (London 1960)
9 - Hitchman, C.: The Land and Peoples of East Africa (London 1960)
10 - Johns, L.: African Religions and Philosophy. (London 1960)
11 - Kenneth, I.: History of East Africa (London 1963)
12 - Kirkman, J.: Men and Monuments on the East African Coast (N.Y. 1966)
13 - Marsh, Z.A. & Kingsnorth, G.: Introduction to the History of East Africa (London 1961)
14 - Marsh, Zoe: An Introduction to the History of East Africa (Cambridge 1961)
15 - Reusch, R.: History of East Africa (1963)
16 - Rotand, O.: The History of East Africa (Oxford 1963)
17 - „ „ „: The Dawn of African History (Oxford 1969)

## رابعا ـ أبحاث منشورة فى دوريات علمية :

### أ ـ باللغة العربية :

١ ـ ابراهيم على طرخان (دكتور) الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة (مجلة الجمعية التاريخية المصرية العدد الثامن ١٩٥٩) .
٢ ـ جمال زكريا قاسم (دكتور) استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا (حوليات

كلية اداب عين شمس ـ المجلد العاشر ١٩٦٧)
٣ ـ " " " المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا (المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الرابع عشر)
٤ ـ صبحي لبيب (دكتور) التجارة الكاريبية وتجارة مصر في العصور الوسطى (مجلة الجمعية التاريخية المصرية مايو ١٩٥٢)
٥ ـ عبدالرحمن زكي بعض المدن العربية على ساحل شرق أفريقيا في العصور الوسطى (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية مايو ١٩٦٠)
٦ ـ محمود طه ابو العلا
المؤثرات العربية في شرق افريقيا (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية مايو ١٩٦٠)

**ب ـ باللغة الانجليزية :**

1 - Chittick; Neville: Kilwa and the Arab Settlement of the African Coast (Journal of the African History No. 2 1963).
2 - Strong, Arthur: History of Kilwa (Journal of the Royal Asiatic Society — April 1895)

*****

# الصراع البحري العماني في البحار الشرقية

# البرتغالي

# ١٦٥٠ - ١٧٢٠م

بقلم :
غانم محمد رميض
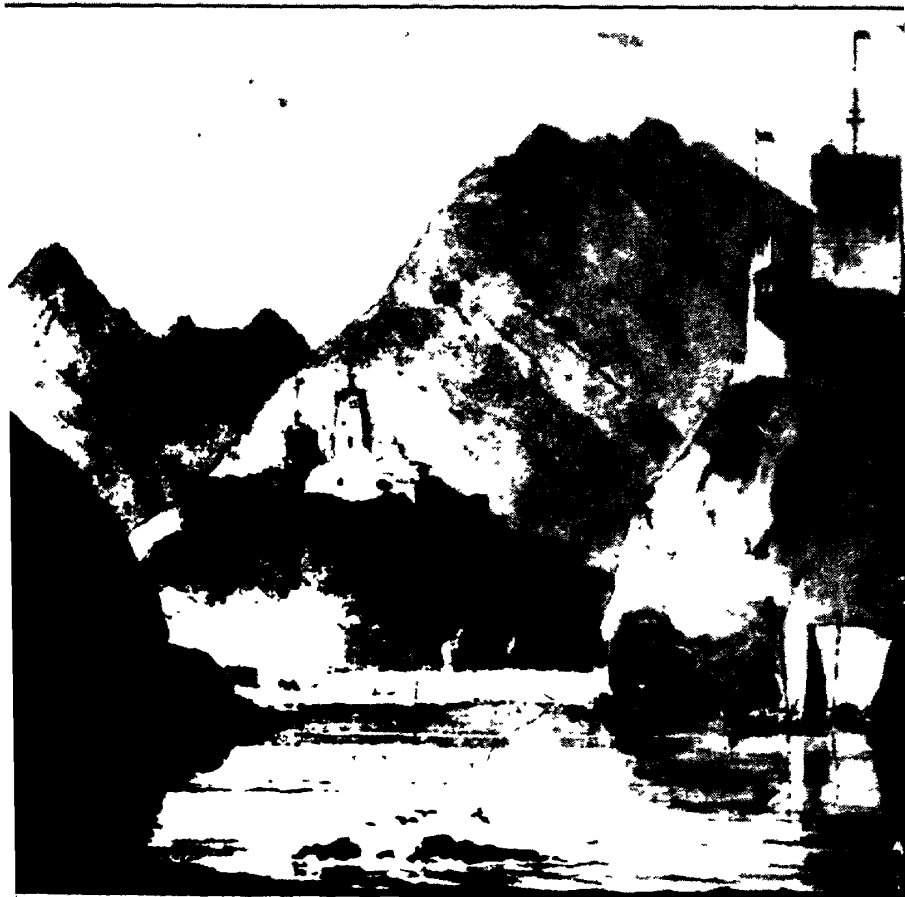
# عجز البرتغاليون عن مواجهة العمانيين

# فتحالفوا مع الإنجليز

نجحت دولة اليعاربة بفضل قوتها البحرية الناشئة في مد نفوذها عبر البحار ، كما استطاعت ان تحول هذه القوة البحرية الى جسر يربطها بسائر مناطق امتداد دولتهم في الخليج وشرق افريقيا . ولما كانت دولة اليعاربة قد نجحت في تحدى الوجود البرتغالي في الخليج العربي ، فقد دفعها هذا النجاح الى تعقب البرتغاليين في مناطق كان لعرب الخليج والعمانيين بالذات ، نفوذ قوى فيها منذ وقت طويل [١] ، وجذورهم لم تكن قد تقطعت فيها بعد ، مما كان باعثا لهم على تخليصها من سيطرة البرتغاليين [٢]

ان طرد البرتغاليين من الساحل العماني كان تمهيدا لحرب بحرية دامت نحو قرن او اكثر ، أغار فيه العمانيون على المواقع البرتغالية ، وأصبح العرب مصدر رعب وقلق للبرتغاليين في البحر ، ويتضح ذلك من تقرير (كمبرون) الى مركز شركة الهند الشرقية البريطانيةفي سورات في ٨ آذار ١٦٥١ حيث جاء فيه «ان عرب مسقط أرهبوا البرتغاليين بواسطة السفن التى استولوا عليها منهم ، وسفنهم الخاصة بحيث اصبحوا يترددون كثيرا في الابحار في الخليج» [٣] وبهدف معالجة الموقف ، تقرر في لشبونه ، ارسال قوة كبيرة ، سعيا وراء استعادة مكانة البرتغاليين ، بتدمير اسطول الامام وبناء قاعدة جديدة بدلا من جزيرة (هنكام) التى اتخذت قاعدة مؤقته بعد هزيمتهم في مسقط .

في الاول من أيار ١٦٥٢ م ، دخل خليج عمان اسطول يقوده انطونيو سوسا ـوتنـهـو [٤] (Antonio De Souse Continho) ورسا خارج (خصب) ، وحاول برتغاليون بناء قاعدة هناك ، الا ان تهديد الاسطول العماني منعهم من ذلك ، وابحرت القوات البرتغالية الى (كنك) حيث طلب القائد البرتغالي عقد اتفاقية مع الفرس [٥] ، ومما تجدر الاشارة اليه ان التهديد العماني للبرتغاليين في هذه المرحلة لا يمكن ان يعزى

لعامل واحد وهو التفوق الملاحي العماني فحسب وانما أيضا لضعف البرتغاليين من جراء مواجهتهم خطر الهولنديين في البحار الشرقية ، مما فرض عليهم موقف الدفاع لمواجهة الاساطيل العمانية والهولندية ، وقد أدت المعارك المستمرة من كانون الأول ١٦٥٣ الى تشرين الأول ١٦٥٥ الى توقف تجارتهم في الخليج [٦] كما ان خسائرهم في الخليج صاحبها تدهور في شرق افريقيا كما ان العلاقات التجارية العريقة والروابط الدينية بين عرب عمان وشرق افريقيا ، جعلت انتقال المجابهة العمانية البرتغالية الى شرق افريقيا أمرا لا بد منه

واعتبارا من عام ١٦٤٥ ، ، عندما كتب ملوك سيو (Siyu) وفارا (Faza) وبمبا (Pemba) الى ملك البرتغال شكوى من الظلم الذى تتعرض له شعوبهم من قبل كابتن(مومباسا) ، وحتى سنة ١٦٥١ ، شنت القبائل المجاورة لمومباسا حربا ضد البرتغاليـين [٧] ، وقد ارسلت البـرتغال الكابتن (فرانسيسكو دى سيكاس كابريرا) (Francisco De Sexas Cabreira) الى شرق افريقيا عام ١٦٥١ لاعادة السيطرة البرتغالية ، ومنع التغلغل العماني هناك [٨]

ان التحدى العماني للوجود البرتغالي في المياه الساحلية لشرق افريقيا ، حث ملوك زنجبار وبمبا على كسر اتفاقاتهم السابقة مع البرتغاليين وطلب المساعدة من الامام [٩] وبسبب تزايد قوة العمانيين ، فقد فشلت مخططات كابريرا . من خلال الهجوم الذى شنته السفن العمانية على الحامية البرتغالية في زنجبار [١٠] ، حيث أبيد معظم أفراد الحامية بما فيهم قائدها عام ١٦٥٢ ، وتم انتـراع فـازا وسـاتـا من السيطـرة البرتغالية [١١] وبسبب هذه الانتصارات فقد أنكر معظم الحكام المحليين مواثيقهم السابقة مع البرتغاليين ، كما انها من ناحية أخرى أتاحت الفرصة أمام منافسيهم الأوربيين لتحقيق المكاسب على حسابهم في الهند وجنوب شرق آسيا ، فقد احتكر الهولنديون التجارة الصينية ، بعد ان نجحوا في اجلاء البرتغاليين من كولومبو عام ١٦٥٦ [١٢] ومن جـزيرة سيـلان عـام ١٦٥٨ [١٣]

شجعت الانتصارات العربية ، ونشوب الثورات المحلية في سواحل شرق افريقيا الامام على مواصلة الهجمات على مواقع البرتغاليين هناك ، فقد وصل اسطول عماني الى الساحل عام ١٦٦٠ وتمت محاصرة الحامية البرتغالية في (مومباسا) [١٤] ، وشن هجمات متتالية على امتداد الساحل حتى (رأس دلجـادو) (CapeDelGado) ، وبحلول آب ١٦٦٢ كانت سفن اليعاربة تمتلك السيطرة على كل الساحل باستثناء

(مومباسا) التي خضعت للحصار . وتلقت قوات الامام الاسناد من القبائل المحلية وبذلك اضطر قائد الحامية البرتغالية هناك (جوزيف بوتلهو داسلفا) Joseph Botelho Silva الى طلب المعونة من (كوا) الا ان الحالة هناك لم تكن تسمح بذلك ، بسبب حاجة الاسطول الحربي في (كوا) اليها (١٥) . وفي ظل هذه الظروف أصبح استسلام الحامية البرتغالية في (مومباسا) أمرا لا مفر منه ففي عام ١٦٦٥ خضعت الحاميةللعرب ، وتم تعيين محمد بن مبارك المزروعي (١٦) واليا عليها من قبل الامام (١٧) الا ان البرتغاليين استعادوا سيطرتهم عليها وأساءوا معاملة سكانها (١٨)

ان قوة الأسطول العماني كانت كبيرة لدرجة ان العمليات الحربية في شرق افريقيا - أثناء حصار مومباسا - لم تؤثر على العمليات ضد البرتغاليين في الهند يتضح ذلك عندما توجه اسطول عماني الى جزيرة (بومبى) Bombay ودمر حاميتها ، ولم يتم اتخاذ أى اجراء لاستعادة الموقع البرتغالي حتى وصول الحاكم الجديد (جاونوس دا كونها) (Joao Nunes Da Cunha) في ايلول ١٦٦٦ الذى حاول البحث عن أية وسيلة للانتقام من العرب ، فجهز اسطولا من ثمان سفن كبيرة و(٤٠ - ٦٠) سفينة صغيرة وأرسله الى مسقط في أواخر ١٦٦٧ ، الا ان هذه الحملة فشلت ولم يكن بمقدورها الوصول الى أهدافها (١٩) وذلك يؤكد بشكل واضح ضعف البرتغاليين ، وقد تجلى ذلك الضعف بشكل واضح بلجوئهم الى الانكليز ، والذى نجم عنه اتفاقية بين ملك انجلترا تشارلس الثانى (Charles II) وأميرة البرتغال كاترينا (Catherina) في ٢٣ حزيران ١٦٦١ ، وعلى ضوئها تمت المصادقة على جميع الاتفاقيات السابقة بين البرتغال وانكلترا ، وبموجبها سلمت قلعة تانجير (Tangier) وميناء بومبي الى ملك انكلترا وولي عهده وخلفائه الى الأبد (٢٠) . وعلى العكس من ذلك فان العمانيين أجادوا قيادة السفن الكبيرة ، وتطورت قدراتهم الحربية في البحر في السنوات التى تلت استعادتهم مسقط

وقد بلغت قوة الامام سلطان البحرية من المكانة بحيث لم ينقطع تفكيره عن القيام بعمليات عسكرية أخرى فقد أبحر اسطول عربي نحو الهند عام ١٦٦٨ (٢١) ، ولديه تعليمات بتدمير القاعدة البرتغالية في (ديو) (٢٢) ، واقترب الاسطول ليلا من الشاطىء بسرية تامة ، وكانت الخطة المرسومة تقضي بشن الهجوم صباحا بعد فتح أبواب أسوار المدينة ، وفي الصباح المبكر وبعد فتح الأبواب ، دخلت المجموعة الأولى من العرب وهم يخفون أسلحتهم ، وبعد اكتشاف أمرهم ، انطلقت صيحات الانذار الى الأهالى ، واطلقت المدفعية البرتغالية نيرانها بشكل عشوائي ، فأمر القائد العربي قواته بالانسحاب الى سفنهم ، وتذكر لنا بعض المصادر ان خسائر العرب بلغت (١٠٠٠ قتيل) (٢٣) ، ويبدو ان حجم الخسائر مبالغ فيه ، الا انه يكشف من ناحية أخرى ضخامة القوات العربية ، ويذكر لنا باترست (Bathurst) ان العرب مكثوا ثلاثة أيام في المدينة (٢٤) وبعد عملية الانسحاب ارسلت ثمان سفن حربية برتغالية لملاحقة القوات العربية ، لكنها عادت الى (كوا) في بداية آذار ١٦٦٩ دون احراز نجاح يذكر ، ما عدا حصولهم على (٣,٠٠٠) تومان من حاكم فارس نصيبهم من مشاركتهم له في الكمارك في

(كنك) [٢٥] وهو المكان الذى أنشأوا فيه مستعمرتهم الرئيسية في فارس ، بعد طردهم من هرمز عام ١٦٢٢ [٢٦]

لقد أصبح للإمام سلطان تأثير مهم في الخليج العربي ، وأصبح العمانيون أسياد الملاحة والتجارة فيه ، وفي عام ١٦٦٩ اتجهوا صوب شرق افريقيا ، حيث أرسلوا اسطولا قويا الى مورمبيق حاصر قلعتها ، غير انها صمدت لحصاره [٢٧]

في صيف عام ١٦٦٩ أرسل اسطول برتغالي مكون من عشر قطع بحرية الى منطقة الخليج بقيادة (دوم كيرونيمو مانويل) Dom Ceronımo Manoell وقد مر الاسطول في (كمبرون) في أواخر حزيران ، وبعد فترة قصيرة وصل اسطول عماني الى (كنك) . وفي اب وايلول التقى الاسطول العماني المكون من خمسة وعشرين قطعة بحرية بالاسطول البرتغالي ، وكانت حاميات (هرمز ولاراك وقشم) قد وضعت على أهبة الاستعداد ، وقد وصف الانكليز تلك المعركة

**« بانها معركة دموية تم فيها قتل ٥٠٠ من العرب ، ولكن البرتغاليين فقدوا معظم رجالهم البيض الأقوياء وقد هوجم القائد البرتغالي ، الا ان العرب انسحبوا في النهاية ، مهددين بمعركة أخرى ، وذهب القائد البرتغالي منتصرا الى (غوا) حيث بدأ بتحضير اسطول آخر أكبر للذهاب نحو مسقط»** [٢٨]

وفي هذا العام هاجم العرب مركز البرتغاليين في جزيرة قشم ، وهرمز التابعة للفرس [٢٩] .

في آب ١٦٧٢، عندما أبحرت قطع برتغالية من (كنك) الى البصرة ، وخلال ابحارهم في الخليج شاهدوا مجموعة من السفن قادمة من مسقط ، محملة ببضائع ثمينة ، فقاموا بمهاجمتها والاستيلاء على بعضها وبعد هذه الحادثة يفرد باثرست (Bathurst) بالاشارة الى ان هدنة عقدت بين الامام سلطان ، والقائد البرتغالي (دى ميلو) في صحار في ٢٤ أيلول من العام نفسه تضمنت ايقاف العمليات العسكرية لمدة ستة أشهر. وعند وصول دى ميلو الى غوا قبض عليه، وارسل الى لشبونة لمحاكمته بتهمة عقد هدنة مع اليعاربة خلافا لتوجيهات الحاكم[٣٠] وصمم الحاكم على ارسال اسطول باسرع وقت ممكن، مع اوامر مشددة بعدم ترك شبر من الارض للعمانيين، وعدم توقيع اى اتفاقية معهم، حتى يتم طردهم من مسقط، وجميع المناطق التى كانت خاضعة للبرتغال وتم ارسال قوة بحرية برتغالية الى الخليج، وامرت سفن اخرى في (باسين)(Bassın)[٣١] باللحاق بها بأسرع ما يمكن لمحاصرة مسقط وبالرغم من هذه الاوامر المشددة، فلم تحقق هده الحملة النجاح المطلوب، ما عدا قيامها في الشتاء باعمال تخريب المناطق المحيطة بمسقط [٣٢] وتم الثأر من هذا العمل في شباط عام ١٦٧٤ بعد ان ارسل الامام اسطولا من عشر سفن الى منطقة (باسين)، ونزل حوالى (٦٠٠) مقاتل عربي الى المدينة[٣٣]، وحصلوا على الغنائم وبقوا فيها خمسة ايام دون ان يجرؤ البرتغاليون على مهاجمتهم. ونتج عن هذا الهجوم هجرة العديد من السكان الى (بومبي)[٣٤]

في بداية نيسان ١٦٧٨ ارسلت خمس عشرة سفينة كبيرة وبعض الزوارق البرتغالية الى الخليج بهدف توجيه ضربات الى الاسطول العمانى الا انها انسحبت

بسبب التحاقها بقوة اخرى الى شرق افريقيا حيث تلقى الحاكم (دوم بدرودى الميدا) (Dom Pedrode Almeida) تعليمات من ملك البرتغال بتوجيه اهتمام اكبر نحو شرق افريقيا، خشية خسارة ما بين الساحل والهند وعدم امكانية المحافظة على الموقع البرتغالي، وفعلا توجه الحاكم بنفسه مع القوات المتوفرة، وقد تم ترك بعض التعزيزات في موزمبيق وممباسا، وفي ١٧ آب اخذت القوة البرتغالية طريقها الى (فازا) (Faza)، ولم يتمكنوا من احتلالها حتى ١٦ كانون الاول عند وصول تعزيزات كافية من (كوا) بعدها استسلمت المدينة المجاورة (سيو) (Siyu) وتم اسر ملكها، ومن ثم اسر ملكا (لامو) (Lamu) و (ماندا) (Manda) بعد هجمات متتالية[٣٥] وقبل ان يتمكن الاسطول البرتغالي من توسيع فعالياته العسكرية قاطعهم وصول اربع سفن عربية في ١١ و١٢ كانون الثاني ١٦٧٩، وبالرغم من نشاط البرتغاليين الا انهم فشلوا في منع العرب من النزول الى البر [٣٦]، وفي غضون ايام قليلة تعرضوا لضغط شديد من العرب وحلفائهم من ابناء هذه المناطق، مما اضطرهم الى الجلاء، والانسحاب بحرا الى موزمبيق[٣٧]، وهناك توفي الحاكم بعد اربعة ايام

في ١٩ كانون الاول ١٦٧٨[٣٨] توفي الامام سلطان بن سيف، بعد ان خاض كفاحا مجيدا ضد البرتغاليين، وانتخب ابنه بلعرب اماما في نفس اليوم الذي توفي فيه والده، وتابع الحرب ضد البرتغاليين بنفس همة والده السابقة[٣٩]

بعد نجاح البرتغاليين في احتلال (ممباسا) مرة اخرى تطلعوا الى مد سيطرتهم على (باتا) (Bata)، التي كانت بمقاطعاتها الثلاث (بات) و(سيو) و(فازا) باستمرار ميدانا لمعارك البرتغاليين مع شعوب الساحل وكان القائد البرتغالي في (ممباسا) يشعر ان ليس بامكانه المحافظة على أمن حاميته دون الاستيلاء على (بات)، وقام بمحاولتين الاولى في اذار ١٦٨٦ عندما قامت سفينتان قدمتا من (كوا) بمهاجمة (سيو)، الا ان وجود سفن عربية في (بات) احبط مهمتهما والحملة، الثانية في نيسان من العام نفسه وقد حملت التيارات السفن المهاجمة بعيدا عن (بات) فتراجعت عائدة الى (كوا)[٤٠] ولابد من الاشارة الى ان السلطات في (كوا) لم تشجع اضعاف القوة العسكرية في (ممباسا) في سبيل السيطرة على (بات)، وانه اذا ما تم السيطرة عليها فيجب اعطاؤها الى امير (فازا) ليحكمها كممثل للبرتغاليين، ولهذا الغرض فقد ابحر(جاوأنتونس) (Joao Antunes) في ايار ١٦٨٧ مع تعزيزات من (كوا) مع امير (فازا) نحو (بات)، وعند وصوله وجد بعض السفن العربية في الميناء، فعاد الى (ممباسا) دون تحقيق اي شيء، وبعد رحيل السفن العربية اعاد محاولاته، التي اسفرت عن احتلال المدينة في ٣ آب من السنة المذكورة[٤١] وفي كانون اول ارسلت تعزيزات الى (بات) الا ان اسطولا عربيا وصل بعد ايام من ارسال هذه التعزيزات من مسقط بدعوة من اهالي (بات) ونجح في استرجاع المدينة، ولم يكن لدى القائد البرتغالي اي خيار سوى العودة باسطوله الى (ممباسا) [٤٢].

ادرك البرتغاليون ان اساليبهم في الهجمات القرصنية في البحر كانت اكثر تأثيرا من خوض المعارك على الساحل،

فعملوا على مضايقة النشاطات التجارية فى الخليج الى الحد الذى ادى الى فتح باب المفاوضات بين ممثل الامام بلعرب وبين مراقب (كنك) ممثلا للحاكم البرتغالي، وكانت مسودة بنود المفاوضات قد بنيت أساسا على الهدنة التى وقعها (دى ميلو) عام ١٦٧٣ والتى اجهضت من البرتغاليين ويبدو ان هذه المفاوضات قد زادت من عنجهية البرتغاليين وغرورهم، ففى اواخر تلك السنة، استطاع اسطول برتغالي بقيادة الكابتن (ديوغودى ميلو)(Dıagodı Mello) مهاجمة سفن عربية خارج (سورات)(٤٣)، وبعد ثلاث سنوات خسر اسطول الامام معركة اخرى، ولكن العمانيين كانوا يردون تلك الهجمات على المواقع البرتغالية فى الهند

ففى عام ١٦٩٤ هاجم اسطول عماني جزيرة (سالست)(٤٤) وجلبوا غنائم كثيرة وحملوا معهم ١٤٠٠ أسير(٤٥)، وتبع ذلك هجوم على (بارسلور) (Barceloar) التى كانت مخزنا للأرز الذى يتم تجهيز (كوا) منه ومنغلور (Mangalore التى كانت اكبر سوق فى تلك المستعمرات، وتوجد فيها وكالة الأرز الخاصة بالبرتغاليين(٤٦) فقد انحدرت السفن العمانية عام ١٦٩٥ مع ساحل كارا، واغارت على المدينتين، وتم تدمير واحراق وكالة الارز واغراق السفن الراسية فى الميناء، وجلبت معها كمية كبيرة من الغنائم (٤٧)

فى منتصف كانون الثانى عام ١٦٩٥، استغل العرب الغياب المؤقت للاسطول البرتغالى فى الخليج العربي، فارسلوا خمس سفن تحمل زهاء (١٥٠٠) رجل لمهاجمة ميناء (كنك)، ونجحوا فى تدمير المستعمرة، واسر سفينة غنية بالحمولة كانت راسية فى الميناء، وكان مجموع ما غنموه (٦٠,٠٠٠) تومان، وبعد تلك الغارة كتب الأمام الى شاه فارس (سلطان حسين) مطالبا بنفس الحقوق التى يتمتع بها البرتغاليون فى كنك مهددا فى حالة عدم الاستجابة لطلبه بمهاجمة وتدمير بندر عباس(٤٨)

لقد دفعت هذه الانتصارات الامام سيف بن سلطان (١٦٩٢ ـ ١٧١١) الى شن هجوم آخر على (مومباسا) وبتشجيع من ملك لامو والامراء الاخرين في شرق افريقيا(٤٩)، ففي ١٣ آذار ١٦٩٦ وصلت سفينتان كبيرتان، وخمس سفن صغيرة، وعشرة زوارق، وبعد ان رست في مرفأ (كليندايني) بدأ الحصار العربي الذي أستمر ٣٣ شهرا (٥٠) وفي اب تلقى البرتغاليون المحاصرون امدادات من موزمبيق وعمل العرب كل ما بوسعهم لقطع طريق الامدادات عن البرتغاليين من الجهة المقابلة للبحر، وفي ٢٢ تشرين الاول توفي قائد الحامية (جاو ردريغر سيهو) (Joao Radrıgus Seho) وحدثت بعد ذلك حالات هروب عديدة بين صفوف البرتغاليين، وفي ٢ تشرين الثاني وصلت تعزيزات عربية، وفي يوم عيد الميلاد وصل اسطول برتغالي مكون من أربع سفن وثلاثة زوارق يحمل (٧٧٠) رجلا معظمهم من الوطنيين الذين تم جمعهم قسرا (٥١)، لقد ثقل الحصار على البرتغاليين بسبب الوباء وقلة الامدادات (٥٢)، وشعرت السلطات البرتغالية في كوا بالحالة اليائسة في مومباسا، وبسبب الحالة المالية المتدهورة، فلم يتم ارسال قوة حتى ٣٠ تشرين الثاني، عندما ارسلت اسطولا صغيرا الى الحامية والذى اكتفى بتوزيع الامدادات، وابحر الى زنجبار ومنها الى كوا، في ١٩ كانون الثاني ١٦٩٨، وبذلك فقد البرتغاليون فرصتهم الاخيرة لانقاذ الحامية، وفي منتصف كانون الاول ١٦٩٨ بعد وصول (٥٠٠) من جنود

الانزال العرب، كان العلم العماني يرتفع فوق الحامية [٥٣]

وبنجاح العمانيين في انتزاع مومباسا كان من الممكن ان يقوم سيف بن سلطان الاول، بتأسيس دولة عربية عمانية على انقاض الامبراطورية البرتغالية الا ان الاوضاع الداخلية حالت دون ذلك، وبذلك تأجل تأسيس هذه الدولة الى ان قام بتأسيسها سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦) [٥٤]

لقد اوضح حصار مومباسا ان البرتغاليين لا يمتلكون الموارد الكافية، وليس بامكانهم قيادة المواجهة وحدهم ضد العمانيين، وبذلك فقد وصل المبعوث البرتغالي (دوم غريغوريو بيريرا) Dom Gregorio Pereira الى اصفهان طالبا من الفرس التحالف مع البرتغال واعلان الحرب ضد عمان[٥٥]

بعد بلوغ انباء النصر العربي في مومباسا الى الامام سيف بن سلطان الاول، اصدر اوامره بتعيين ناصر بن عبدالله المزروعي [٥٦] حاكما لها، كما اوعز باستثمار هذا النصر لطرد كافة الحاميات البرتغالية من شرق افريقيا [٥٧] فاندفعت الوحدات العمانية، تدعمها قوات متطوعين من ابناء الساحل واستطاعت اخضاع بمبا (المعروفة بالجزيرة الخضراء) ورنحبار وباتا وكلوه [٥٨] وبذلك تم طرد البرتغاليين من جميع مواقعهم الى الشمال من رأس ديلغادو (Capa Delgado) [٥٩]، كما هوجمت حامية موزمبيق الا أن الهجوم لم يكن ناجحا [٦٠]، كما وافقت مدينة (مقاديشو) على ان تكون تحت حماية سيف وفي وقت مبكر من ١٦٩٩ ابحر اسطول برتغالي من لشبونة مكون من خمس سفن بهدف انقاذ مومباسا الا انه وصل الى موزمبيق بعد سقوط حاميتها في قلعة يسوع [٦١] واتجه الاسطول الى كوا وفي ليلة ٩ كانون الثاني (١٧٠١م تحطم الجزء الاكبر من اسطول اعده البرتغاليون لاحتلال مومباسا، عندما كان راسيا خارج كوا [٦٢].

ان نهاية القرن السادس عشر كانت من ازهى فترات تطور وازدهار القوة البحرية العمانية، فقد اصبحت في اوقات كثيرة من اقوى الاساطيل في المحيط الهندي، وقد تجلى ذلك في الاقتراح الذي قدمه الحاكم البرتغالي الى لشبونة في كانون الاول ١٧٠٣، بدفع مبلغ نقدي للامام كضمان لنجاح المفاوضات معه للحصول على تسهيلات في مومباسا وقد زعم الحاكم

«ان العرب راغبون بالسلام لانهم يعرفون ان وارداتهم الاساسية من الأرز يمكن قطعها بسهولة من قبل البرتغاليين» [٦٣]

وكان اسطول عماني قبل بضعة اسابيع قد هاجم دامان [٦٤] (Deman) والحق خسائر جسيمة بها [٦٥] وفي سنة ١٧٠٤ هدد العرب بالهجوم على موزمبيق جنوبا ان الهجوم التالي على دامان في اذار ١٧٠٥ قد حطم اية افكار حول قيام علاقات سلمية مع العمانيين

في عام ١٧٠٥ وصلت البرتغاليين شائعات من الامراء المنفيين مفادها ان الشعوب الساحلية في شرق افريقيا سترحب بمجيئهم مرة اخرى، اذا منحوهم حرية اكبر في التجارة ومع ان ابناء الساحل الافريقي رفضوا الاستجابة للبرتغاليين، الا أن اهتمامهم بالعودة الى شرق افريقيا قد ازداد وبذلوا ما بوسعهم للحصول على معلومات حول الظروف هناك [٦٦]

وفي رسالة من الحاكم الى ملك البرتغال في ١٢ كانون الثاني ١٧١٥. تلقي الضوء على معركة دارت في ميناء سورات بين العرب والبرتغاليين في وقت مبكر من السنة المنصرمة ذكر فيها

**«عندما تلقيت انباء ان العرب وصلوا باسطولهم الى سورات، امرت قائد الشمال بالتقدم لمهاجمتهم، حيث كنت واثقا من ان إقرارهم بالسلام هو فقط حجة لترميم سفنهم، ومن ثم مهاجمة الاقاليم الشمالية . وقد اعطانا العدو على اية حال فرصة عندما احتجزوا سفينة تعود الى اقطاعيي جلالتكم. واعطيت التعليمات الى محافظ سورات باعتبار العرب اعداء، ودعمه للجيوش البرتغالية . باشر الجنرال الهجوم على العدو في ١٩ شباط ١٧١٤ وكانت المعركة عنيفة جدا، استمرت من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل وهرب العدو بطريقة عشوائية بحيث ان سفينة القيادة في اسطوله غرقت في الخليج . وتعرضت سفننا لبعض الاضرار . وبلغت خسائرنا ثمان وعشرين قتيلا واربعة وثلاثين جريحا [٦٧] ولرغبة العرب بالثأر دخلوا مضيق هرمز ببعض السفن وامروا محافظ كنك بتسليمهم وكيل جلالتكم وانهم يمتلكون القوة الكافية لاجباره . ونزلوا الى المدينة واحرقوا بعض البيوت ونهبوا اخرى بسهولة. وتمت مهاجمتهم بغضب شديد بحيث انهم انسحبوا الى سفنهم متكبدين خسائر باهظة بضمنها قائدهم» [٦٨]**

ولما وصلت انباء هزيمة الاسطول العربي الى الامام سلطان بن سيف الثاني (١٧١١ ـ ١٧١٨) اصدر تعليماته الى الاسطول بالتوجه نحو جزيرة لاراك وقطع خطوط المواصلات بين الهند والموانيء الفارسية، ونجح العرب في بسط نفوذهم على جزيرتي قشم ولاراك وضربوا حصارا على هرمز[٦٩]

أفسحت الحرب الاهلية في عمان المجال للبرتغاليين لالتقاط انفاسهم فاخذوا يجولون في البحار، ففي شباط سنة ١٧١٩ استدرج الاسطول البرتغالي اسطولا عربيا (عمانيا قاسميا) [٧٠] الى معركة خارج كنك، واستمر القتال من الساعة التاسعة صباحا وحتى الساعة السابعة مساء، وتواصل في اليوم التالي واسفر عن انسحاب الاسطول العربي الى رأس الخيمة وفي آب من نفس العام خسر العرب معركة اخرى امام البرتغاليين، وقد وقع عدد من العرب في الاسر، وقد لاقوا معاملة قاسية، على عكس معاملة العرب لاسراهم من البرتغاليين[٧١]، وقد سجل لنا الكسندر هاملتون تلك المعاملة كما يلي -

**«على الرغم من ان البرتغاليين كانوا يسومون اسراهم سوء العذاب، وكانوا يسخرونهم في الاعمال الشاقة، ويجبرونهم على تنفيذ الاوامر بقوة السياط، فقد كان العرب يعاملون اسراهم بمنتهى الانسانية، وكان غاية ما يفعلونه هو حجز اسراهم في سجن جماعي دون ان يسخروهم في الاعمال الشاقة، وكذلك كانوا يمنحونهم بدل الارزاق كتلك التي يتقاضاها جندهم.. واذا وجد بين**

**البرتغاليين صناع بارعون واصحاب مهن، فانه قد يسمح لهم بحرية ممارسة مهنهم، كي يتسنى لهم جمع المال اللازم لفك اسرهم»** (٧٢)

بلغ الصراع الأسرى اقصاه في عمان فانتهز البرتغاليين هذه الفرصة للتغلغل في شرق افريقيا (٧٣) كما انهم استغلوا فرصة وصول ملك بات الى غوا في نهاية عام ١٧٢٧ - طالبا المساعدة ضد منافسيه - وتوقيع اتفاقية مع البرتغاليين كان من ضمن بنودها أن تقوم قوات بات بإسناد البرتغاليين لإستعادة مومباسا ومنع الصلات البحرية بين العرب والمقاطعات وقد قرر البرتغاليون الابحار في نهاية كانون الأول بثلاث فرقاطات وسفينتين وزورق وعليها (١٦٤٧) رجلا، وأمير فازا المنفي وقاد تلك الحملة (لويس دى ميلو) (Luis de Mello)، وبسبب عاصفة قوية احتفت اثنتان من قطع الاسطول، ووصلت الأربع الباقية إلى بات، وبعد معارك متقطعة مع سفن عمانية، رفع العلم البرتغالي هناك بعد حوالي (٥٠) يوما من وصولهم(٧٤)

استثمر القائد البرتغالي هذا الانتصار فأعد حملة مع (٥٠٠) من المرتزقة المحليين وبدعم من ملك بات وصلت هذه القوة إلى مرفأ كلنديني في آذار ١٧٢٨ وحدث تبادل قصير لاطلاق النار في حامية سانت جوريف (St. Joseph)، وتم إخلاء المعسكر والإستيلاء عليه وبعد يومين من القتال نجح البرتغاليون في احتلال مومباسا، وفي اليوم التالي دخل البرتغاليون وملك بات وأمير فازا حامية يسوع وبخضوع هذه الحامية اعلن لويس دي ميلو عودة الحكم البرتغالي إلى الساحل، وفي غضون اسبوعين جاء سبعة ملوك ساحليين، من ضمنهم ملوك زنجبار وبمبا لاعلان الطاعة للبرتغال(٧٥).

وبعد فترة قصيرة غادر القائد البرتغالي - الذى كانت مسئوليته قيادة العمليات الحربية في البحار الشمالية ومضيق هرمز والبحر الأحمر والمحيط الهندى - شرق أفريقيا وأبحر مع سفينتين إلى فارس وترك سلفادو كايتانودى كاسترو (Silvada Cata-node Castros) كحاكم لمومباسا مع معسكر مكون من ١٢٠ رجلا (٧٦)

في الثاني من كانون الثاني عام ١٧٣٠ أرسل الحاكم البرتغالي أسطولا مع (١٢١٥) رجلا إلى شرق أفريقيا لتعزيز السيطرة البرتغالية هناك، وقبل وصوله التقى في ٢٣ كانون الثاني بزوارق نقلت له أنباء سقوط مومباسا في أيدى العمانيين بعد وصول سفن عمانية تحمل ٧٠٠ رجل بقيادة محمد بن سعيد المعمورى الذى نجح في إستعادة بات(٧٧) واخضاع زنجبار، وقد عين هذا القائد نائبا للامام هناك.

وعند وصول القوة البرتغالية بقيادة لويس دى ميلو نفسه كان العلم العماني الأحمر يرفرف على الحامية، وكانت سفن عمانية كبيرة موجودة في ميناء كلنديني. فاضطر القائد للابحار إلى موزمبيق، وأبحر ثانية في نهاية شباط مع تعريزات من موزمبيق إلى مومباسا في محاولة لاحتلالها، الا ان الرياح والتيارات المعاكسة، اضطرته الى العودة إلى موزمبيق وتم التخلى نهائيا عن أية أفكار باستعادة مومباسا(٧٨). وفي ١٧ مايو من العام نفسه تعرض الاسطول البرتغالي أثناء عودته إلى كوا إلى اعصار مدمر أغرق جميع السفن بما فيها سفينة القيادة التى كانت تقل القائد دى ميلو(٧٩)، وهكذا انتهى أخر احتلال برتغالي لشرق

أفريقيا ، وفقدوا مرصتهم الوحيدة أثناء انشعال العمانيين بالصراعات الداخلية حول منصب الامامة .

ان نجاح العمانيين ف اقصاء البرتغاليين ارتبط بجملة عوامل أهمها تنامي قوتهم البحرية ، واستحدامهم للسفن الأوربية الحديثة التى وقعت في أيديهم . كما ان المعاملة السيئة التى تعامل بها البرتغاليون مع شعوب مستعمراتهم قد أثارت موجة شديدة من السخط والكراهية لهم ، مما كان حافزا لهم لطلب النحدة من العرب لطردهم من أراضيهم ، كما حدث بالسبة للمستعمرات ف شرق أفريقيا

كما ان البحرية العمانية رغم حداثتها كانت تسير على نظام عسكري دقيق لا يقل عما كان متبعا في الدول الاوربية البحرية كبريطانيا وهولندا ، فكان العمانيون يراقبون حركة قوة أعدائهم بدقة وحرص شديد

ومن العوامل المهمة التى أسهمت ف إنهيار نفود البرتغاليين في البحار نراعهم المستمر مع منافسيهم الاوربيين ، وحكام الولايات الهندية المختلفة التي كانت سببا مهما في نقص مواردهم

إعتمدت الهجمات البحرية العمانية ضد البرتغايين على عنصر المفاجأة وسرعة الحركة ، كما ان هذه الهجمات وخاصة في السواحل الهدية لم يكن الغرض منها الاستيلاء على تلك المستعمرات ، وإنما تدمير الوحود البرتغالي فيها

ولابد من الاشارة الى أن معظم المصادر الاوربية وصفت الصراع البحرى العماني باتجاهين

الاتجاه الأول وصفت فيه الجهاد العماني على أنه من أعمال (القرصنة) ف حين حرصت على وصف المآسي التى ألحقها البرتغاليون بشعوب مستعمراتهم ومنها منطقة الخليج العربي على انها من الانجازات القومية الكبرى

الاتجاه الثانى اىها بالغت ف وصفها للمعارك البحرية فصورت لنا أن البرتغاليين انتصروا في معظم معاركهم البحرية ضد العرب ، وقدرت الخسائر العربية تقديرا لا يصدق مقارنة بخسائر البرتغاليين ـ وكما أشرت سابقا ـ ففي واحدة من تلك المعارك كانت خسائر العرب (١٨٠٠) قتيل يقابلها (٢٨) قتيلا من البرتغاليين[٨]

★★★★★

١ ـ إشتهر العرب كملاحين مهرة حيث وصلوا إلى سواحل الخليج والمحيط الهندي وجنوب شرق اسيا وشرق افريقيا ، وإستوطنت مجموعات منهم هذه المناطق منذ فترة سبقت العصور الاسلامية إنظر يوسف فضل حسين ، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، العرب وافريقيا ، بحوث ومناقشات الندوة القطرية لمركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٧

٢ ـ رافت غنيمي ، دور عمان في بناء حضارة شرق افريقيا ، ندوة الدراسات العمانية ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، المجلد الثالث ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩

٣ ـ Quoted in: Bathurst, The Yarubi Dynasty of M Oman unpublished ph. b. Thesis (Oxford, 1967) P. 114.

٤ ـ انطونيو سوسا كوتنهو ، هو احد أعضاء المجلس الثلاثي الذى تولى سلطة البرتغال بعد وفاة الحاكم البرتغالى دوم فيليب Dom Filippe انظر Danvers, The Portuguese in India, Being a History of the Rise and Decline of their Eastern Empire, London, 1894, Vol II, P. 302

٥ ـ Bathurst, Op. Cit. P. 115.

٦ ـ Danvers, Op. Cit. P. 299.

٧ ـ Bathurst, Op. Cit. P. 119.

٨ ـ عامر محمد الحجري ، تاريخ العلاقات العمانية الافريقية ، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شرقى الجزيرة العربية ، الدوحة ، قطر ١٩٧٦ ، ص ٧٨٤ .

٩ ـ جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، القاهرة ، ١٩٧٥ ص ١٦٠ Danvers, Op, Cit. PP. 317-8

١٠ـ الحجرى ، المصدر السابق ، ص ٧٨٤ ، غنيمى ، المصدر السابق ص ١٦١

١١ـ عدنان هرير جودة ، عمان وسياسة نادر شاه ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٢٩

١٢ـ للتعرف على الشروط التى استسلمت بها كولومبو للهولنديين يراجع Danvers, Op, Cit., PP. 317-8

١٣ـ Danvers, Op, Cit., PP. 321

١٤- صلاح العقاد ، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج ، ندوة الدراسات العمانية ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، المجلد الرابع ، ص ١٠٢ .

١٥- Bathurst, Op. Cit. PP. 120-121

١٦- المزروعيون أو المزاريع فرع من قبيلة بني ياس التي لا زالت تقطن الساحل العماني ، وقد حكمت هذه الأسرة في شرق افريقيا قرابة مائة عام ، وإمتد سلطانها في أوائل القرن التاسع عشر على طول ساحل كينيا من لامو شمالا حتى بنجا جنوبا ، وقد نشر وليم أوين (W. Owen) الرحالة الانجليزي الذي زار شرق افريقيا عام ١٨٢٤ ملخصا لكتاب وجده في مومباسا عن تاريخ آل المزروعي ضمن كتابه

Narratives of Voyage to explore the shores of Arabia, Africa and Madagascar, 2 Vols. (London) 1862

إنظر جمال زكريا قاسم ، الدولة العمانية في شرق أفريقيا ، ندوة الدراسات العمانية ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، المجلد الثالث ص ٩٥ .

١٧- العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٤٦

١٨- غنيمي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ ، أحمد حمود المعمرى ، عمان وشرق افريقيا ، ترجمة محمد أمين عبدالله ، سلطنة عمان ، ١٩٧٩ ، ص ٦٦

١٩- Bathurst, Op, Cit., PP. 121-2.

٢٠- Danvers, Op, Cit., Vol.II, P.331

٢١- يقع مايلز في تناقض واضح حيث ذكر ان الحملة على ديو كانت عام ١٦٧٠ بعد عامين من تولية الامام بلعرب بن سلطان ، في حين ان الحملة كانت في زمن والده سلطان الذى توفي عام ١٦٧٩ انظر مايلز ، الخليج بلدانه ، وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبدالله ، سلطنة عمان ، ١٩٨٦ ، ص ٢٠٨ .

٢٢- ديو جزيرة مهمة تقع في الطرف الجنوبي من كوجرات الهندية عند خط عرض ٤٢ - ٢٠ شمالا وخط طول ٥٧ - ٧٠ شرقا

٢٣- فالح حنظل ، المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة ، ابوظبي بلا تاريخ ، جـ ١ ، ص ٨٦ عائشة السيار ، دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا للفترة من ١٦٢٤ - ١٧٤١ ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٧٣ .

٢٤- Bathurst, Op, Cit., P. 123

٢٥- Bathurst, Op. Cit., P. 124

٢٦- لوكهارت ، التهديد العماني ونتائجه في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، ترجمة علاء الدين أحمد حسين ، مجلة الخليج العربي ، العدد العاشر ، جامعة البصرة ، ١٩٧٨ ، ص ٩٠

٢٧ـ الحجرى ، المصدر السابق ، ص ٧٨٥ .
٢٨ـ Quoted in: Bathurst, Op, Cit., PP. 125-6.
٢٩ـ السيار ، المصدر السابق ، ص ٧٢
٣٠ـ Bathurst, Op. Cit., P. 128-9.
٣١ـ باسين ، ميناء يقع على ساحل الهند ، يبعد حوالي واحد وعشرين ميلا عن بومباي
٣٢ـ السيار ، المصدر السابق ، ص ٧٤
٣٣ـ مايلز ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ، صالح محمد العابد ، تحرير ساحل عمان وإنهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق ، مجلة آفاق عربية ، العدد الثالث ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص ٤٣
٣٤ـ Bathurst, Op. Cit., P. 131-2.
٣٥ـ السيار ، المصدر السابق ، ص ٩٨
٣٦ـ Bathurst, Op. Cit., P. 133
٣٧ـ جودة ، المصدر السابق ، ص ٣٠
٣٨ـ اختلفت المصادر العمانية في التاريخ الحقيقي لوفاة الامام سلطان بن سيف ففي الوقت الذي يعطي الأزكوى التاريخ المذكور ، فان بن رزيق يعطي يوم ٢٢ تشرين الثانى عام ١٦٤٩ تاريخا لوفاته ومن الواضح ان المصادر العمانية خلت من تفاصيل هذه الفترة لذلك فان من المنطقي قبول التاريخ الذى تعطيه المصادر المبكرة لذلك إعتمدت على تاريخ (الأزكوى)
الأزكوى تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الأمة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، ص ١١٢
حميد بن محمد رزيق ، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٢٩٢
٣٩ـ الأزكوى ، المصدر السابق ، ص ١١٢
٤٠ـ Bathurst, Op. Cit., PP. 138-9.
٤١ـ السيار ، المصدر السابق ، ص ٩٨ ـ ٩٩
٤٢ـ Bathurst, Op, Cit, P. 140.
٤٣ـ Danvers, Op. Cit, Vol II, P. 370
٤٤ـ سالست جزيرة تقع شمال بومبى مساحتها حوالي ٣٤١ ميلا مربعا، تشتهر بمناطقها الاثرية
٤٥ـ مايلز ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ ، العقاد ، دور العرب والفرس ، ص ١٠١
٤٦ـ السيار ، المصدر السابق ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ، لوكهارت ، المصدر السابق ، ص ٩١ .

٤٧- مايلز ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
٤٨- لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، قطر ، الدوحة ، جـ ٢ ، ص ١١١ . لوكهارت ، التهديد العماني ، ص ٩١ .
٤٩- بعث الامراء في شرق افريقيا وفدا إلى الامام سيف يطلبون فيه العون والمساعدة ضد البرتغاليين وقد تشكل الوفد من .
الشيخ أحمد المليندى ، وتموت بن موترغو الكليندى ، وموشال بن التنجاني ومعهم ممثل لكل قبيلة وطائفة انظر سعيد بن علي المغيرى جهينة الاخبار في تاريخ زنجبار ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٧ - ٨ .
٥٠- المعمرى ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ، المغيرى ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
٥١- Bathurst, Op. Cit, P. 144.
٥٢- السيار ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ .
٥٣- Bathurst, Op. Cit, P. 146.
٥٤- رودلف سعيد روت ، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ - ١٨٥٦ ، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، ١٩٨٣ ، ص ٩٠ - ٩١
٥٥- Bathurst, Op. Cit, P. 147.
٥٦- قام جنود ناصر بن عبدالله باعتقال قائدهم وعينوا احدهم وهو (سيس رمب) قائدا لهم ، غير ان كبار رجال مومباسا اعلنوا الحرب على هذا القائد ، وتلت ذلك فترة من الفوضى والصراع على السلطة بين حكام مومباسا وبات وعمان للمزيد من التفاصيل يراجع وزارة التراث القومي والثقافة ، العمانيون وقلعة مومباسا ، سلسلة تراثنا ، العدد التاسع ، سلطنة عُمان ، ١٩٨٥ ، ص ١٧ - ١٨
٥٧- حنظل ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٦
٥٨- العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، ١٧٤٧ - ١٨٢٠ ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ٤٢ .
٥٩- قاسم ، الأصول التاريخية ، ص ١٠٩ .
٦٠- المعمرى ، المصدر السابق ، ص ٦٦ - ٦٧ ، جودة ، المصدر السابق ص ٣٢ .
٦١- قلعة يسوع انشاها البرتغاليون عام ١٥٩٣ وهي مبنية من الاحجار المرجانية كخط دفاع عن مدخل ميناء مومباسا ولتامين مركزهم على الساحل الشرقي لافريقيا . انظر ، وزارة التراث القومي والثقافة .
العمانيون وقلعة مومباسا ، ص ١٤ .
المعمرى ، المصدر السابق ، ص ٩

٦٢- Bathurst, Op, Cit., P. 261

٦٣- Quoted in: Bathurst, Op. Cit, P. 264.

٦٤- دامان ، هي احدى المستعمرات البرتغالية على خليج كامباي غربي الهند .

٦٥- جودة ، المصدر السابق ، ص ٣١ .

٦٦- وصلت معلومات من جاسوس من موزمبيق للبرتغال تضمنت معلومات تفصيلية عن حجم القوات العربية على الساحل ، انظر
Bathurst, Op. Cit, P. 264-5.

٦٧- تذكر عائشة السيار ، في كتابها (دولة اليعاربة ص ٧٩) ، وكذلك فالح حنظل في كتابه (تاريخ الامارات ، جـ ١ ، ص ١٢٤) أن هذا العدد هو خسائر العرب في حين يبالغ دانفرز (Danvers) بقولة ان انباء موثوقة وردت إلى الحاكم البرتغالي من مسقط تفيد بان خسائر العرب بلغت ١٨٠٠ رجل في هذه المعركة . انظر
Danvers,Op. Cit, P. 379

٦٨- Quoted in: Danvers, Op. Cit, PP. 379-380.

٦٩- لوكهارت ، المصدر السابق ، ص ٩٤

٧٠- حنظل ، المصدر السابق ، ص ١٣١

٧١- السيار ، المصدر السابق ، ص ٨٠ ، حنظل ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣١ .

٧٢- Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies, London, Vol. I. PP. 61-2
وإنظر ايضا ، العابد ، تحرير ساحل عمان ، ص ٤٢

٧٣- حاول البرتغاليون إعادة سيطرتهم على مومباسا منتهزين فرصة نشوب الصراع الأسرى في عمان ، إضافة إلى حدوث صراعات بين زنجبار ومومباسا ، انظر قاسم ، الأصول التاريخية ، ص ١١٠ - ١١١ .

٧٤- Bathurst, Op. Cit. P. 271

٧٥- Bathurst, Op. Cit., P. 272

٧٦- حنظل ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٤ Bathurst, Op. Cit., P. 275

٧٧- Coupland, East Africa and its Invaders from the Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1850, Oxford, 1938, P. 67.

٧٨- السيار ، المصدر السابق ، ص ١٠٣

٧٩- Bathurst, Op. Cit. P. 276

٨٠- Danvers, Op. Cit, P. 379

# نظرة جديدة للإنجازات والتجارية

## دراسة في عوامل تدهور وانحطاط الإمبراطورية البرتغالية

بقلم الدكتور

عبدالأمير محمد أمين

# السّياسية والعسكريّة البرتغاليّة في آسـيا

اعتدنا في الوطن العربي قراءة الشيء الكثير عن الانجازات الكبيرة التي حققها البرتغاليون في المجالات السياسية والعسكرية والتجارية ، خلال القرن السادس عشر في الخليج العربي ، وفي غيره من مناطق الشرق . فقد صار معروفا لدينا ان البرتغال ، وهو ذلك البلد الصغير القابع في زاوية نائية من القارة الاوروبية ، استطاع خلال سنوات قليلة بناء امبراطورية مترامية في الشرق تمتد من شرق افريقيا والخليج العربي والبحر الاحمر غربا الى أرخبيل الملايو وبحر الصين شرقا . والى جانب تلك الانجازات السياسية والعسكرية ، فقد صار معروفا لدينا ايضا ان البرتغاليين استطاعوا السيطرة على طرق التجارة ، وذلك باحكام قبضتهم على المواقع الاستراتيجية والجزر المهمة والممرات المائية ومكنهم ذلك من الهيمنة على التجارة سواء كانت تلك التجارة المباشرة بين اوروبا وآسيا أو تلك التي كانت قائمة بين الموانيء الاسيوية بعضها مع بعض وصار مالوفا ايضا الاعتقاد بان تلك الانجازات قد صاحبها تحول التجارة بين اوروبا وآسيا من طرقها التقليدية البرية عبر الشرق الادنى الى الطريق البحري عبر راس الرجاء الصالح .

لقد صارت المعلومات السابقة شائعة بل اصبحت من الامور المسلم بها . والبحث الحاضر محاولة لتفحص هذه المسلمات فالدراسات الحديثة تلقي اضواء جديدة على طبيعة الوجود البرتغالي في آسيا وتكشف عن نوعية الامبراطورية التي أقامها البرتغاليون في الشرق ، وفي الوقت نفسه تعطي تقييما دقيقا الى حد كبير للمكاسب التجارية والسياسية التي حققوها خلال قيام نفوذهم في القرن السادس عشر

وتكشف تلك الاضواء ايضا عن مدى المبالغة والتهويل في تقدير الانجازات البرتغالية في المجالات السياسية والعسكرية والتجارية وهذه الورقة تمثل محاولة لوضع تلك الانجازات في اطارها الصحيح واعطائها حجمها الحقيقي

حقا لقد نجح البرتغاليون بعد جهود مضنية استغرقت ما يقرب من قرن من ارتياد الساحل العربي لافريقيا كله [1] وتكللت جهودهم الاستكشافية بالنجاح في الوصول الى رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٧ ، ثم وصلوا بعد هذا بسنوات قليلة الى الساحل الغربي للهند وكان ذلك اول اتصال مباشر في التاريخ بين اوروبا وآسيا[2] واكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح هو من غير شك انجاز هائل ، بل من الممكن القول انه انجازهم الرئيسي ، وهو بحق من أعظم الانجازات في مجال الريادة والاستكشاف خلال التاريخ البشري كله

اما خطوتهم التالية في تجاوزهم رأس الرجاء الصالح ووصولهم الى ساحل افريقيا الشرقي ، ثم عبورهم المحيط الهندي ووصولهم ميناء كاليكوت في الهند ، فهذه الانجازات كلها على الرغم من الضجة التي اثيرت حولها ، فإنها لا تقارن من حيث الاهمية باكتشافهم لرأس الرجاء الصالح وذلك ان الساحل الشرقي لافريقيا لم يكن من الامور المجهولة والمحيط الهندي طريق مسلوك منذ أقدم العصور التاريخية والملاحة بين الخليج العربي والبحر الأحمر وشرق افريقيا من جهة والهند وبعيدا منها الى الشرق كلها أمور معروفة ومألوفة ومجرد نجاح البرتغاليين في الانتقال من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي جعل الامر يسيرا بالنسبة لهم للاستفادة من الخبرات الملاحية الواسعة والمعرفة الكبيرة التي كان يمتلكها التجار العرب وغيرهم من التجار الاسيويين في هذه المياه بل انهم لم يجدوا عناء كبيرا في الحصول على شخص عربي يساعدهم في اجتياز المحيط الى ساحل الهند وهكذا بينما صرفوا قرنا من الزمن لارتياد ساحل افريقيا العربي واكتشاف رأس الرجاء الصالح ، لم يتطلب الامر منهم بعد ذلك سوى سنوات قليلة لاجتياز المحيط الهندي الى الهند .

حقا لقد حقق البرتغاليون خلال العقدين الاولين من القرن السادس عشر انجازات عسكرية وسياسية كبيرة . فاحتلوا مواقع استراتيجية مهمة مثل هرمز وكوا وملقا ومواقع اخرى على ساحل الهند في الغرب والشرق من «ديو Diu» الى «جاتاكونك Chittagong» وانتشرت قلاعهم في الخليج العربي وسواحل الهند وأرخبيل الملايو وانتزعوا

حقوقا للاتجار في مناطق كبيرة في تايلاند وبرما وكمبوديا . وصارت لهم قاعدة تجارية مع الصين في مكاو وأبعد من ذلك في ميناء تانكاشيما «Tanegashima» الياباني

واحتفظ البرتغاليون طيلة القرن السادس عشر بامبراطوريتهم الواسعة التي أقاموها خلال العقود الاولى من القرن المذكور ولعله مما يثير الحيرة والاستغراب ان دولة صغيرة كالبرتغال ذات الموارد البشرية والاقتصادية الضئيلة قد استطاعت ان تقيم الامبراطورية الضخمة على أية حال ، فإن معرفة طبيعة تلك الامبراطورية قد تزيل الشيء الكثير من ذلك الاستغراب ، فالامبراطورية البرتغالية ذات صفات خاصة تختلف عما ألفه التاريخ من امبراطوريات في عصوره المختلفة

وبنظرة أولية الى خارطة الامبراطورية البرتغالية في الشرق وتقسيماتها الادارية تظهر ضخامة تلك الامبراطورية البرتغالية واتساعها ، لقد كان نائب الملك يتخذ من «كوا Goa» على الساحل العربي للهند مقرا رئيسيا للامبراطورية البرتغالية ويفترض انه يشرف ـ من ذلك المقر ـ على بقية انحاء الامبراطورية التي قسمت اداريا الى سبعة أجزاء هي[٣]

١ ـ الجزء الأول ويمتد من رأس الرجاء الصالح الى البحر الاحمر وهكذا فإن هذا الجزء يضم جميع ساحل شرق افريقيا

٢ ـ الجزء الثاني ويضم جنوب بلاد العرب ومدخل الخليج العربي

٣ ـ الجزء الثالث ويمتد هذا الجزء من الخليج العربي الى مصب نهر السند .

٤ ـ الجزء الرابع ويشمل هذا الجزء الساحل الغربي للهند حتى رأس «كومورن Comorin»

٥ ـ الجزء الخامس ويشمل هذا الجزء الساحل الشرقي للهند حتى البنغال .

٦ ـ الجزء السادس ويغطي هذا الجزء الساحل الغربي لجنوب شرق آسيا والنصف الغربي لارخبيل الملايو

٧ ـ الجزء السابع ويشمل هذا الجزء كل المناطق التي تقع شرق الجزء السادس ويضم جزر التوابل في «مولاكاس Moluccas» والجزر المنتجة لخشب الصندل وهي «فلورس Flores» وتيمور «Timore» وكانت «مكاو Macao» ضمن هذا الجزء وكذلك الامر بالنسبة لسيلان

ويبدو من هذا الوصف للامبراطورية البرتغالية ان الامر مثير مذهل خاصة اذا أخذ بالاعتبار ، كما ذكر صغر البرتغال وضآلة طاقاتها ، ولكن النظرة المتفحصة قد تزيل الكثير من الاثارة والذهول . فالامبراطورية البرتغالية في الواقع ، لم تزد عن كونها مواقع استراتيجية وموانىء ونقاط ساحلية وجزر صغيرة ، شيدت فيها قلاع كبيرة وفرت لها حماية كافية ولكنها كانت متباعدة ومفصولة ان لم تكن معزولة عن بعضها البعض ولا تكون بمجموعها كيانا سياسيا وعسكريا مترابطا وهي أقرب الى وحدات سياسية اقطاعية منها الى امبراطورية متناسقة التركيب بل ان ما ذهب اليه «فان لير Van Luer» وهو «ان الامبراطورية البرتغالية في الشرق لم تكن لتمثل حتى ذلك النوع البدائي من

الاستعمار»[4] لهو عين الصواب .

ولم يتخط سلطان البرتغاليين تلك الجزر الصغيرة والاماكن الساحلية الى الاماكن الداخلية ولم يكن لهم تأثير يذكر على الكيانات والامبراطوريات الشرقية القوية القائمة فى آسيا آنذاك كالامبراطورية المغولية فى الهند وامبراطورية الصين والامبراطوريتين الصفوية والعثمانية وبعبارة اخرى عاشت الإمبراطورية البرتغالية على هامش تلك الامبراطوريات القوية المتمكنة

كانت الضغوط الخارجية التى تعرضت لها الامبراطورية البرتغالية في آسيا فى اوائل القرن السابع عشر من قبل بقية الاوروبيين خاصة الانجليز والهولنديين ومن قبل القوى المحلية فى الهند وفى ارخبيل الملايو وفى الخليج العربى والبحر الاحمر على يد العرب والعثمانيين والايرانيين من العوامل المهمة ، من غير شك ، فى اضعاف تلك الامبراطورية ولكن عوامل الضعف الاخرى وربما كانت الاهم ـ جاءت من ضغوط داخلية نبعت من طبيعة الوجود البرتغالي فى الشرق بل لقد حملت الامبراطورية البرتغالية بذور ضعفها وانحلالها معها منذ قيامها وتمثلت تلك البذور فى ممارسات البرتغاليين السياسية والعسكرية من ناحية وفى اساليبهم التجارية من ناحية اخرى

كما تمثلت فى البيروقراطية الحاكمة المنحدرة من اصول ارستقراطية والتى كانت نموذجا قل له نظير فى التاريخ الحديث من حيث التفسخ والانحلال والعجز

وعانى البرتغاليون منذ البداية من قلة عددهم فى الشرق ، فلم يزد ذلك العدد فى اية مرحلة من مراحل وجودهم فى آسيا خلال القرن السادس عشر على عشرة الاف رجل[5] واذا اخذ بعين الاعتبار كثرة قلاعهم ومواقعهم وسفنهم وما كانت تحتاجه الامبراطورية من عاملين فى مجال الحرب والملاحة والادارة امكن تصور قصور ذلك العدد وعجزه عن تلبية الاحتياجات المطلوبة وكان لذلك القصور نتائجه الخطيرة فى نواح عديدة

قدم البرتغاليون الى الشرق رجالا دون نساء فالسفن البرتغالية القادمة الى آسيا والتى تحمل ستمائة او ثمانمائه من الرجال ، لم يكن على ظهرها فى اغلب الاحيان الا حوالى عشر من الفتيات المؤهلات للزواج وكان الملك يعطى لكل واحدة من تلك الفتيات مهرا لتشجيعهن على الذهاب الى الشرق والزواج من البرتغاليين هناك ويتمثل ذلك المهر فى ضمان منصب خاص للشخص الذى يتزوج من احداهن [6] ولكن هذا النظام لم يكن يكفى لحل مشكلة البرتغاليين فقد بقى هؤلاء بحاجة الى النساء ولما كان اغلبهم لا يرجعون الى اوروبا مطلقا فقد عمدوا الى الزواج من النساء الشرقيات خاصة من الطبقات الدنيا فى المجتمع الهندى وكانت عملية التزاوج تلك من السعة والانتشار بحيث ، وبعد اجيال قليلة لم يعد فى الامكان تمييز الجنس

البرتغالى الابيض لقد صار جيل جديد من البرتغاليين فى الشرق وكان ذلك الجيل تنقصه شجاعة الاباء البرتغاليين الاوائل واقدامهم، ولكن لم تكن لتعوزه من ناحية اخرى غطرسة اولئك الاباء وتعاليهم »[٧] كما كان هذا الجيل مهيئا اكثر للتفسخ والفساد وعلى استعداد اقل للتضحية والفداء

وظهرت الاثار السلبية لقلة عدد البرتغاليين فى نواح اخرى خطيرة فالحاجة الكبيرة والمتزايدة لتوفير العاملين فى السفن البرتغالية العاملة فى الشرق ، دفع بالسلطات البرتغالية الى استخدام الهنود وكان المسلمون الهنود امهر الملاحين واكثرهم كفاءة ولكن العداء والحقد الذى كان يكنه البرتغاليون والمسلمون لبعضهم البعض حال دون الاستفادة والاستعانة بالمسلمين ، بل لجأ البرتغاليون الى استخدام فئات من الهنود تنقصها الخبرة فى السفن والملاحة [٨] وقد ادى هذا، من بين امور اخرى، الى تدهور الخدمات فى السفن البرتغالية، بل وعجزها فى مواجهة المصاعب والمخاطر الهائلة التى كانت تحيط بها

ودفعت تلك الحاجة بالبرتغاليين ايضا، خاصة فى اواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الذى تلاه، الى استخدام عدد متزايد من الاوروبيين من هولنديين وانجليز وايطاليين وفرنسيين فى مجالات ادارية مهمة .[٩] وبصرف النظر عن مدى اخلاص هؤلاء الاوروبيين لمستخدميهم، فان عملهم وفّرلهم فرصة للوقوف عن كثب على وضع البرتغاليين فى الشرق والتعرف على نواحى الضعف والانحلال التى كانت الامبراطورية البرتغالية تعانى منها[١٠] والمعلومات التى سرّبوها والتقارير الكثيرة التى ارسلوها الى بلادهم عن حالة تلك الامبراطورية، كانت من غير شك، من العوامل المهمة التى شجعت الامم الاوروبية الاخرى على القدوم للشرق ومنافسة البرتغاليين، بل والاجهاز على امبراطوريتهم المنهكة

والأمر الاخر الذى اثر فى وضع البرتغاليين السياسي فى الشرق الى جانب قلة العدد، هو تعصبهم الديني وفقدانهم المرونة ، وعجزهم عن الفصل بين مصالحهم السياسية والتجارية من جهة وحماسهم الديني من جهة اخرى لقد قدم البرتغاليون الى الشرق جنودا صليبيين اكثر من كونهم تجاراً وسياسيين وتعصبهم الديني اثار عداء الشعوب الشرقية التى قدّر للبرتغاليين التعامل معها وكان لذلك العداء اثره الهام فى اضعاف الهيمنة البرتغالية وتمهيد السبل لمنافسيهم الاوروبيين للتغلب عليهم

ولعله لا يغيب عن البال، ان الدافع الديني، كان منذ البداية من العوامل الاساسية لحركة الاستكشافات البرتغالية والحقيقة ان شعور البرتغاليين الوطنى وتحمسهم الديني قد تأججا من خلال حروبهم الطويلة والمريرة مع المسلمين فى اواخر العصور الوسطى . ونظر البرتغاليون الى كل من

يخالفهم في العقيدة على انه عدو للسيد المسيح

والبوكرك، مؤسس الامبراطورية البرتغالية الرئيسى في الشرق على الرغم مما عرف عنه من قسوة وعنف ، ربما كان الوحيد الذى حاول اقتطاف رضى السكان في كوا خاصة بالنسبة الى الهندوس. ولعل هذا هو الذى خلد الذكرى الطيبة له والتى تدفع الهندوس بل وحتى المسلمين كما يقول و و هنتر W.W. Hunter «لان يحجوا الى قبره مستصرخين روحه معبرين لها عن تظلماتهم، مبتهلين الى الله لتخليصهم من جور خلفائه »(١١)

على اية حال، كانت محاربة المسلمين وتحطيم تجارتهم وتدنيس مقدساتهم هى الهدف الرئيسى للحرب الصليبية البرتغالية لقد كان المسلمون في نظر البرتغاليين، هم الاعداء الحقيقيون ان لم يكن الوحيدون ويرى الفرد البرتغالي ولا فرق في ذلك بين الملك والنبيل والشخص العادى، ان محاربة المسلمين ضرورة يحتمها الدين والوطن

ويعقب ك م بانيكار، وهو أحد الباحثين في تاريخ التوسع الاوروبى في أسيا على هذا الأمر قائلا «سيظل الشىء الكثير من تصرفات البرتغاليين في أسيا غامضا لا سبيل الى تفسيره ما لم نتذكر هذه الحقيقة على الدوام(١٢) وعندما نجح فاسكودى جاما في الوصول الى الهند لأول مرة عن طريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ ، ورجع الى اوروبا اثار انجازه هذا موجة عارمة من الفرح والتفاؤل واعتبر ذلك نصرا مبينا للمسيحية على الاسلام وبادر الملك مانوئيل الكتابة الى البابا يزف له البشرى بهذا الفتح المبين ويطلب منه اقرار ادعاءاته بهذا الشأن - واستجاب البابا. واعلن ذلك في مرسوم بابوى جاء فيه قد منحنا الملك افونسو الحق الكامل المطلق في غزو وفتح وقهر جميع البلدان الواقعة تحت حكم اعداء المسيح مسلمين كانوا أم وثنيين» (١٣)

كان شعار البرتغاليين في آسيا ، كما يقول «أر ج جين R.G. Jayne صداقة وود للمسيحيين وحرب لا هوادة فيها مع المسلمين(١٤) هذا وعندما جاء فاسكو دى جاما على رأس الاسطول البرتغالي الثالث الى الهند والذى أبحر من البرتغال في عام ١٥٠٢ وكانت العلاقات قد توترت في هذا الوقت مع حاكم كاليكوت وشرع دى جاما في قصف الميناء تقدم الحاكم بطلب لايقاف القصف والتفاهم واحلال السلام ورد القائد البرتغالي بكل غطرسة وتعال انه لا يقبل من الحاكم شىء اقل من طرده للمسلمين جميعا واخراجه لهم من الميناء (١٥)

لقد كان هذا هو موقف البرتغاليين من المسلمين منذ البداية ولا عجب ان اثار ذلك حقد المسلمين وكرههم لهم في كل انحاء الشرق في الهند وفي الشرق الادنى الاسلامي كله وفي ارخبيل الملايو .

ومع مرور الزمن لم يتوقف التعصب الديني للبرتغاليين عند هذا الحد، ولم يقتصر على المسلمين، بل شمل كل من لم يكن من اتباع عقيدتهم الكاثوليكية ومن

الجدير بالذكر ان موقف البرتغاليين لم يتسم بالعداء تجاه الهندوس في الهند في بداية الامر. بل لم تكن لديهم افكار عدائية مسبقة تجاههم وتجاه دياناتهم وانه من الامور الطريفة ظنهم انهم مسيحيون من فئة اخرى. ويتضح هذا من هذه الرسالة الممتعة التي بعثها الملك مانوئيل الى فردناند واربيلا ملكي اركون وقشتالة وقد جاء فيها ـ [١٦]

**ان المسيحيين الذين اكتشفناهم ووصلنا اليهم هنا ليسوا على درجة كافية من قوة العقيدة ورسوخها ، بل ينقصهم الايمان الكامل الصحيح وعندما يحين الوقت ويتحصنون بالايمان المسيحي السليم ، فسوف تتوفر لنا الفرصة لتدمير المسلمين في هذه البلدان بل ونحن لانزال نأمل بأكثر من هذا. فبعون الله ستقع في ايدينا هذه التجارة الكبيرة التي لا يستمتع بفوائدها الان سوى المسلمين سوف ننتزعها منهم وسوف تعود الفائدة منها الى رعايانا وسفننا**

ولكن هذا الشعور الودي تجاه الهندوس سرعان ما تبدد، وفي عام ١٥٤٠ وصل امر ملكي الى نائب الملك في كوا يقضي بتدمير جميع المعابد الهندوسية في الميناء[١٧] وتلا ذلك امر بطرد جميع الاشخاص غير المسيحيين من الوظائف العامة [١٨] ثم لم يقتصر الاضطهاد على المسلمين والهندوس بل تعداه ايضا الى المسيحيين النساطرة فقد اعتبروا هراطقة مرتدين [١٩] وزادت عمليات الاضطهاد بعد وصول الجزويت من اوروبا الى المستوطنات البرتغالية في آسيا [٢٠] وفي عام ١٥٦٠ جاءت محاكم التفتيش لتعالج امر الهراطقة والكفرة والمرتدين [٢١] وباتحاد العرشين الاسباني والبرتغالي بشخص ملك اسبانيا في عام ١٥٨٠ ازداد الامر تفاقما فقد كان الملوك الاسبان اكثر تطرفا وتعصبا [٢٢] ولم ينج اليهود من عمليات الاضطهاد الديني . وكان البوكرك نفسه يشك في نواياهم ومواقفهم تجاه البرتغاليين وقد كتب في عام ١٥١٥ الى ملك البرتغال يستأذنه «باستئصالهم واحدا واحداً حيثما وقع احد منهم بين يدي» [٢٣] على اية حال فان تحمس البرتغاليين الديني ، بل بالاحرى تعصبهم ، وجهود بعثاتهم التبشيرية ونشاط الجزويت، لم تفشل في القضاء على المسلمين والهندوس والنساطرة واليهود ولم تعجز عن تحويلهم الى الكثلكة فحسب ، بل زادت من كره هذه الشعوب ومن بغضها للبرتغاليين

واذا كان تعصب البرتغاليين الديني المقيت قد اكسبهم تلك السمعة السيئة ، فان قسوتهم ووحشيتهم في معاملة اعدائهم قد زادت من عتمة تلك السمعة

مارس البرتغاليون وحشيتهم وقسوتهم في كل بقعة من بقاع الشرق التي شاء لها سوء الحظ ان تقع بين ايديهم والامثلة على الممارسات البرتغالية في هذا المجال كثيرة جدا لا يتسع المجال للاطالة بها بل الاكتفاء بأمثلة منها . ففي منطقة الخليج العربي احرقوا ودمروا تدميرا كاملا كثيرا من

الاماكن والموانىء عند بداية وصولهم للخليج (٢٤)

وهذا ما فعله البوكرك في مدينة مسقط في عام ١٥٠٦ وبعد القتل والنهب والحرق والتدمير والأسر، اطلق سراح بعض الرجال والنساء ولكن لم يفعل ذلك الا بعد ان قطع انوفهم وآذانهم (٢٥)

ولعل ما حدث للسفينة «مريم» خير مثال على القسوة البرتغالية وكانت هذه السفينة عائدة من الحج الى الهند عندما اعترضها الاسطول البرتغالي قرب ساحل الملبار وكانت تحمل على ظهرها ٣٨٠ راكبا بينهم عدد كبير من النساء والاطفال وقصفت سفن الاسطول البرتغالي السفينة ويصف أحد رجال الاسطول البرتغالي وضع السفينة «مريم» فيقول لقد أحدث النيران تلتهم مريم ومن على ظهرها من الركاب وكانت النساء وهن يحملن اطفالهن يصرخن ويستغثن ولكن دون جدوى ويصف برتغالي آخر شهد المأساة الوضع بشكل أوضح (٢٦)

**«لقد استولينا على السفينة مريم العائدة من مكة والتي كان على ظهرها ٣٨٠ راكبا وكان بينهم كثير من النساء والاطفال واستطعنا سلب ١٢,٠٠٠ دكات** ducat منها نقدا كما سلبنا ما قيمته ١٠,٠٠٠ دكات من السلع ثم حرقنا السفينة مع جميع من كان على ظهرها وكان ذلك في اليوم الاول من شهر تشرين الاول»

وفي الهند قام فاسكودي جاما في عام ١٥٠٢ بتدمير وحرق عدد كبير من سفن المسلمين التي كانت بالقرب من ميناء كاليكوت تم اسر ثمانمائة من رجال تلك السفن وعمد الى قطع انوفهم وآذانهم وايديهم وأرسلهم الى حاكم كاليكوت مقترحا عليه عرضهم في مدينته وقام «فنسنت سودر» Vincente Sodre أحد ربابنة السفن في اسطول دي جاما بجلد كبير التجار في كانانور حتى أغمي عليه تم ملأ فمه بالاوساخ وغطاه بشرائح من لحم الخنزير (٢٧) وقد لا يكون هناك حدود لامثلة من هذا النوع

واذا كانت قسوة البرتغاليين وتعصبهم الديني قد حالا دون خلق جو من المحبة والوئام بينهم وبين الشرقيين، فان جهلهم بالمجتمعات الشرقية وتقاليدها وعاداتها قد باعد الشقة بين الطرفين لم يتفهم البرتغاليون ابدا طبيعة المجتمعات العربية والايرانية والهندية والاندونيسية التي كان يتحتم عليهم التعامل معها (٢٨) وعلى سبيل المثال لا الحصر لم يستوعب البرتغاليون «نظام الطبقات The caste System» عند الهندوس في الهند وقد استشاط البوكرك مرة غضبا عندما رفض راجاكوجين طلبه في رفع احد اصدقائه من الهندوس من الطبقة الدنيا التي كان ينتمي اليها الى طبقة أعلى دون ان يدور في خلده ان مثل هذا الطلب لا يمكن تلبيته، وانه لا يقع في نطاق صلاحيات الراجا المذكور وليس في قدرته هذا وكثيرا ما امتعض ربابنة السفن البرتغالية من رفض البراهمة تناول الطعام معهم على ظهر سفنهم معللين ذلك بخشية اولئك البراهمة من وضع البرتغاليين السم لهم في الطعام (٢٩).

دون ان يدركوا ان ليس فى استطاعة تلك الفئة من المجتمع تناول الطعام مع الاخرين بذلك التشكل

ولعل الامر الاكثر خطورة بالنسبة الى مصير البرتغاليين فى الشرق، والذى قد يفوق فى آثاره السلبية كل ما ذكر عن تعصبهم وقسوتهم وجهلهم، هو قصورهم فى المجال الدبلوماسي وفقدانهم الحس السياسي السليم فقد كان مثل ذلك الحس يتطلب ادراكا افضل للاوضاع السياسية فى الساحة الاسيوية واستيعابا احسن لموقف القوى الشرقية المختلفة والادراك والاستيعاب السليمين كان بامكانهما خدمة المصالح البرتغالية وذلك بالتحالف مع هذا الفريق او ذاك، بل واستغلال الخلافات والصراعات بين القوى الشرقية عوضا عن التورط فى نزاع شامل مع كل قوى الشرق تقريبا. وهذا الذى حدث للبرتغاليين فى الخليج العربى وفى شبه القارة الهندية وفى ارخبيل الملايو

ولما كان البرتغاليون قد اعتبروا المسلمين منذ البداية، اعداءهم الرئيسيين فى آسيا فكان يترتب عليهم التعاون مع القوى الاخرى المناهضة للمسلمين وكان الوضع فى الهند مهيئا لمثل هذه السياسة طالما كان هناك صراع مستمر طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر بين الامارات الاسلامية والامارات الهندوسية

لم يستفد البرتغاليون من تلك الظروف فبعد سنوات قليلة من وصولهم الى الهند اشتبكوا فى صراع مع حاكم كاليكوت الهندوسي وبعد سنوات قليلة اخرى تورطوا فى نزاع مع راجاكوجين وهو حاكم هندوسي آخر وكان خصما ومنافسا لحاكم كاليكوت ( ٣ ) ولعل الامر الاكثر خطورة بالنسبة لكل ما سبق هو عجز البرتغاليين عن التحالف مع القوى الهندوسية الكبيرة فى شبه القارة الهندية بل انهم لم يبذلوا جهودا جادة للتحالف ولاقامة علاقات جيدة ووطيدة مع الدولة الهندوسية القوية والمهمة جدا وهى امبراطورية «فيجاياناكار Vijayanagar» فى الوقت الذى كانت هذه تخوض صراعا مصيريا مع عدد من الامارات الاسلامية القوية خلال القرن السادس عشر ثم جاءت معركة «تاليكوت Talikot» فى عام ١٥٦٥ التى انهت امبراطورية فيجاياناكار كقوة سياسية فعالة، واخذ مكانتها فى هذا المجال عدد من الامراء المسلمين الذين صارت لهم سيادة لا منازع لها فى أغلب الجزء الجنوبى للهند وكان من النتائج المباشرة لذلك النصر الاسلامى اتفاق اولئك الامراء المسلمين على محاربة البرتغاليين بل ومحاولتهم الاستيلاء على كوا عاصمتهم فى الشرق (٣١)

سبق القول ان البرتغاليين حملوا معهم منذ البداية بذور ضعفهم وانحلالهم واذا وضعت الجوانب السياسية والعسكرية التي عولجت فى الصفحات السابقة جانبا فان مثل هذا القول يتمثل ايضا الى حد كبير فى ممارساتهم التجارية فمن ناحية لم ينجح البرتغاليون فى احداث تغيير جدير بالذكر فى العلاقات التجارية الاوروبية ـ

الاسيوية [٣٢] فلم يزيدوا من حجم التجارة بين القارتين ولم يقدموا سلعا آسيوية الى الاوروبيين لم يكن يعرفها هؤلاء من قبل. وفى الوقت نفسه لم يحملوا معهم من اوروبا سلعا جديدة الى الاسيويين كما انهم لم يوفقوا فى ايقاف نزيف الاموال الذى كانت تعانى منه اوروبا من جراء التجارة مع آسيا ثم ان البرتغاليين لم يحدثوا اى اثر فعال فى التجارة الاسيوية نفسها لقد احتفظت كلا التجارتين - التجارة الاوروبية - الاسيوية والتجارة الاسيوية بطابعهما التقليدى الاساسي ولم يحولوا اى منهما الى مشروع استثمارى ذى صفة متميزة عما كان مألوفا من قبل والخلاصة ان البرتغاليين فشلوا فى خلق مؤسسات اقتصادية ذات طابع رأسمالي استثمارى يستند الى أسس اقتصادية راسخة وفوائد دائمة ومضمونة وبقيت التجارة البرتغالية حتى النهاية تمثل، كما يصفها بعض الباحثين، «تجارة الباعة المتجولين The Peddlers» ولعل فان لر كان موفقا الى حد كبير فيما ذهب اليه فى وصفه للتجارة البرتغالية اذ يقول [٣٣]

**«ان الانماط التجارية والاقتصادية خلال عهد السيطرة البرتغالية هى نفس الانماط التجارية التقليدية المألوفة دون ان يطرأ عليها تغيير جذرى او ابتكار فهى صغيرة نسبيا فى حجمها. وهى بجملتها مشروع ملكى سخرت فيه كل العناصر الملاحة والسفن والموانىء والضرائب للاستغلال الغاشم ولتوفير الفائدة المباشرة والسريعة»**

بل ان فان لر يذهب الى ابعد من ذلك عندما يؤكد «ان البرتغاليين لم يقدموا عنصرا جديدا واحدا لتجارة جنوب شرق آسيا خلال عهدهم الاستعمارى» [٣٤] وما قاله فان لر عن جنوب شرق آسيا لا يمكن الا ان يقال عن التجارة البرتغالية فى بقية انحاء القارة الاسيوية التى مارس فيها البرتغاليون تجارتهم

لقد اتسمت التجارة البرتغالية فى آسيا منذ بدايتها بطابع القسر والعنف والاحتكار الغاشم لقد صارت قصة ذلك الحرء من الحوار بين بعض التجار المسلمين وفاسكودى جاما شائعة ومعروفة فعندما سأله اولئك التجار ما الذى جاء به الى هذه البلاد النائية ؟ أجابهم «المسيحية والتوابل» ولكن هناك تتمة لما دار بين الطرفين من حوار قد لا تكون جلبت اهتمام الكثيرين على رغم اهميتها فقد واصل التجار السؤال «لماذا لم يحاول ذلك ملك قشتالة ولماذا لم يحاول ذلك ملك فرنسا؟ بل لماذا لم يحاول ذلك حاكم البندقية ؟ «فكان الجواب ان ملك البرتغال لا يوافق على ذلك وسوف لن يسمح لهم به» [٣٥] وهكذا ومنذ فجر وجودهم لم يفكر البرتغاليون الا فى الاحتكار المطلق وفى تلك الفترة المبكرة من تاريخ البرتغاليين فى آسيا، قدم احد تجار البندقية النصح لهم قائلا «اذا كنتم ترغبون حقا فى تجارة ناجحة فعليكم ان لا تنهبوا وتدمروا سفن منافسيكم» [٣٦]

وهذا الطابع القهرى للتجارة وللفعاليات البرتغالية فى آسيا يبدو واضحا فى كل خطوة من خطواتهم، وفى كل التفاتة منهم ويكفى ان نشير هنا الى ذلك اللقب الكبير الذى أطلقه ملك البرتغال على نفسه «سيد الفتوحات

والملاحة والتجارة مع الحبشة وبلاد العرب والهند وايران» (٢٧) كان ذلك في عام ١٤٩٩ قبل ان يحقق البرتغاليون اى وجود سياسي او عسكرى ذى شأن لهم في آسيا وبعد سنوات قليلة عندما توفر لهم مثل ذلك الوجود بادروا بسرعة الى محاصرة البحر الاحمر لضرب خصومهم سياسيا وعسكريا واقتصاديا ولضمان نجاح الاحتكار لتجارة الشرق التى كانوا يخططون لها

ويرى كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين ان ذلك الحصار كان ضرورة تاريخية. ويعقب البروفسور «نيلز ستينزكارد Niels Steensgaard» على هذا الرأى قائلا «انه قد تكون هناك ضرورة تاريخية كما يقول اولئك المؤرخون ولكن لم تكن أمام البرتغاليين فرصة للاستفادة من ذلك» (٣٨) لقد عمد البرتغاليون الى حصار البحر الاحمر والى ابعاد بقية الاوروبيين عن رأس الرجاء الصالح قبل ان يحاولوا الاستفادة من اكتشافهم عن طريق المنافسة النافعة ويعرض «اف. سي لين F Lane» الامر بشكل اوضح اذ يقول «لم يعتبر البرتغاليون رأس الرجاء الصالح اكتشافا فنيا يمكنهم الاستفادة منه ويعطيهم ميزة على منافسيهم، ولكنهم اعتبروه احتكارا لا يستند الا على القوة الغاشمة(٣٩)

حقا مرت لحظات في تاريخ البرتغاليين في الشرق بدا فيها ان امام البرتغاليين خيارين اولهما المنافسة الحرة والتجارة المسالمة، وثانيهما الاحتكار والربح السريع والمباشر والتمعن في نوعية الفئات البرتغالية التى قدمت الى الشرق والخلفيات الاجتماعية التى انحدرت منها تلك الفئات لا يترك مجالا للشك ان الاختيار الثاني كان مناسبا للبرتغاليين اكثر من الاختيار الاول لم يأت البرتغاليون الى آسيا كتجار وكمستثمرين، بل جاءوا فرسانا صليبيين وسادة اقطاعيين ومغامرين جريئين وهم من قادة وضباط ورهبان وحكام ينتمون بجملتهم الى الطبقة الارستقراطية البرتغالية وهم بهذا غير مؤهلين مطلقا للخوض في منافسة تجارية حرة مع التجار الاسيويين في القارة الاسيوية ولا مع التجار الايطاليين وغيرهم من التجار الاوروبيين في اوروبا لم تكن المشاريع التجارية موضعا لاهتماماتهم لقد كانت اهدافهم تتمثل في السلطة والنفوذ وفي الوظائف العالية والالقاب الكبيرة وبعد كل هذا وذاك الربح الكبير والسريع والمباشر

والقت الاوضاع الاجتماعية في البرتغال بظلالها على الوجود البرتغالي في آسيا فالاراضي الزراعية في البرتغال قليلة ومحدودة وهى مملوكة بطبيعة الحال من قبل فئة ارستقراطية صغيرة وكانت هذه الفئة تستخدم الرقيق المستوردين من افريقيا للعمل في اراضيها وتبقى هناك فئة ارستقراطية اكبر واكثر عددا محرومة من امتلاك الارض ولمنزلتها الاجتماعية واصولها النبيلة لم تكن على استعداد للعمل التجارى او غيره من الاعمال لقد كانت المناصب الحكومية هى الشيء الوحيد الذى يلائمها ويرضى طموحاتها ولكن تلك المناصب كانت قليلة ومحدودة ولم تكن على اية حال كافية للجميع وجاءت

الامبراطورية البرتغالية الى الشرق لتحل جزءا من هده المعضلة فقد افسحت المجال امام عدد كبير من أبناء الطبقة الارستقراطية لتولي المناصب التى كانوا يتشوقون اليها وبقى هناك عدد اخر لم يسعفهم الحظ ق الحصول على شىء ومثل هؤلاء شدوا الرحال الى الشرق بمبادراتهم الفردية مغامرين وطلاب حظ وق سنة واحدة توجه ٢٤٠ من هؤلاء الى آسيا ولم يكن هناك من رادع امام هؤلاء يمنعهم من اقتراف اى عمل مادام يوفر لهم الربح لقد مارسوا القرصنة والسلب والنهب واستخدم قسم منهم من قبل السلطات الملكية لجمع الضرائب ومنح فريق آخر منهم امتيازا ملكيا خاصا لمزاولة التجارة لحسابهم الخاص

وبمرور الزمن لم يعد هناك حط واضح بين اولئك الذين شغلوا المناصب بتكليف ملكى وبين هؤلاء الدين فرضوا انفسهم على الساحة الاسيوية لقد كان هدف الكل الربح السريع وصفة الجميع التفسخ والفساد. لقد كون اولئك وهؤلاء الطبقة البيروقراطية التى تولت شئون الامبراطورية البرتغالية فى آسيا» . وق مثل هذا الجو، الذى نجد فيه كل فرد سواء كان يشغل أعلى المناصب او ادناها، وهمه الوحيد الحصول على المال فان فرص الابتزاز والفساد لا حدود لها »(٤) وكان وجود مسئول برتغالى نزيه من الامور النادرة جدا ولعل رئيس قضاء كوا ق الخمسينات كان من تلك الشخصيات النادرة ق هذا المجال. وقد كتب للملك ق عام ١٥٥٢ قائلا

**«لا توجد عدالة ق الهند فهى لا تتوفر عند نائب الملك. ولا عند الذين هم أدنى منه الهدف الوحيد للجميع هو جمع المال بكل السبل ليس هناك احد ق الشرق يثق بالبرتغاليين مد لنا يد العون ياصاحب الجلالة فاننا غارقون»**(٤١)

والحديث عن الفساد والتفسخ ق الاجهزة البرتغالية ق الشرق حديث طويل جدا (٤٢)ويعقب ستيركارد على البيروقراطية ق الشرق قائلا «انها افضل الامثلة واوضحها للفساد الدستورى المصمم Constitutionally determined Corruption» (٤٣) وبالاضافة الى الفساد الذى اتسم به البرتغاليون ق الشرق فقد نقلت معها تلك الفئة من المجتمع البرتغالى غطرسة الارستقراطية الاوروبية وتعاليها وتقاليدها

وحيثما اجتمع ستة او سبعة من الضباط البرتغاليين ق كنيسة او ق شارع او ق اى محل عام آخر اتخذ جمعهم مظهرا رسميا كحفلة راقصة او سباق، وأى خرق من احدهم لقواعد ذلك الحفل الارستقراطى سوف لا ينظر اليه على انه تصرف غير مهذب فحسب بل اهانة لا يمكن التغاضى عنها الا بامتشاق الحسام (٤٤)

هده هى الفئة البرتغالية الحاكمة ق الشرق ولا نتوقع منها بطبيعة الحال حكومة صالحة ولا تجارة مثمرة ونافعة خاصة اذا عرفنا ان التجارة البرتغالية مع آسيا هى احتكار ملكى يشرف على القيام به تلك الفئة البيروقراطية التى سبق الكلام عنها. ولم يكن الملك البرتغالى نفسه اقل رغبة ق الحصول على الربح السريع والمباشر من اتباعه ق الشرق ولم يكن اقل منهم حماسا لجمع المال بأية

صورة ممكنة ومنذ البداية كانت مصادر دخله تأتى من المصادر التالية

١ـ نهب سفن المسلمين واموالهم وبمرور السنين امتد هذا النهب ليشمل المسلمين وسواهم

٢ـ جباية الضرائب والرسوم من السفن الاسيوية وفى الموانىء والمواقع البرتغالية

٣ـ الفوائد من التجارة الاسيوية الداخلية

٤ـ الفوائد من التجارة الاوروبية ـ الاسيوية

وحسب تقديرات ج ن فونسكو «J.N.Fonseco» فان المصادر الانفة الذكر كانت توفر للخزانة الملكية مليونى ريال سنويا كان نصفها يأتى من السلب والنهب والقرصنة ونصفها الاخر من الضرائب والرسوم والتجارة (٤٥) وتكون الضرائب جزءا اساسيا من الدخل الملكي وليس من المبالغة فى شىء عندما وصف ملك البرتغال بأنه اكبر جامع ضرائب فى العالم

جمعت الضرائب بوسائل عديدة منها تلك التى كانت تجىء من المواقع والموانىء البرتغالية التى يهيمن عليها البرتغاليون وفى مقدمتها كوا وهرمز. ولعل نظام الجوازات«Cartaze system» كان من اهم مصادر الدخل وبموجب هذا النظام تحتم على كل سفينة آسيوية الحصول على جواز عن طريق دفع ضريبة معينة فى احد الموانىء او المواقع البرتغالية. ويحدد فى كل جواز الموانىء التى يحق للسفينة دخولها والسلع التى يسمح لها بحملها وجميع السفن الاسيوية عرضة للتفتيش فى عرض البحار. وأية سفينة لا تحمل مثل ذلك الجواز او تتخطى الحدود المرسومة لها فيه يكون مصيرها المصادرة او التدمير.

والحقيقة انه لم تكن تلك الجوازات مجرد وسيلة للحصول على الدخل للخزانة الملكية فحسب بل لتوجيه التجار الى الموانىء البرتغالية. وقد أعطى فى حينه مبررا ايدولوجيا لتلك الجوازات، فقيل انها استخدمت لعرض الهيمنة على التجار وقطع خطوط مواصلات المسلمين فى الشرق واضعاف القدرات الاقتصادية والعسكرية للامبراطورية العثمانية خاصة تلك الامبراطورية التى كانت تهدد فى ذلك الوقت قلب العالم المسيحى. ولا يبدو لهذا التبرير اساس كبير من الصحة فالمصادر البرتغالية المعاصرة نفسها تشير الى اهتمام السلطات البرتغالية بالدخل الذي توفره تلك الجوازات مباشرة اوغير مباشرة وذلك اكثر من اهتمامها بأية ايدلوجية معينة في هذا الشأن . هذا وبمرور السنين منحت تلك الجوازات للهندوس والمسلمين والارمن واليهود طالما دفع الجميع الاجور المطلوبة لها

ويبقى السؤال وهو الى أي مدى نجح البرتغاليون في تطبيق نظام الجوازات وفي تحقيق الفوائد المرغوبة منه ؟ لقد أفلح كثير من التجار الآسيويين في تجنب المسالك البحرية المألوفة وبهذا تحاشوا الرقابة البرتغالية ولم يضطروا الى حمل تلك الجوازات ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى لم يكن باستطاعة البرتغاليين مراقبة وحراسة آلاف الاميال من السواحل والبحار والممرات المائية الممتدة من الخليج العربي والبحر الاحمر وشرق

افريقيا غربا والى ارخبيل الملايو شرقا وبعد كل هذا وذاك ، فان السلطات البرتغالية وما عرف عنها من تفسخ وفساد لم تكن تتردد في منح الجوارات لمن يرغب فيها لقاء شيء بسيط من المال وكما وصف احد الملاحين الفرنسيين موقف البرتغاليين من هذا الامر بقوله «في سبيل المال يمكن التجاوز عن اي شيء» (٤٦)

والاساس في التجارة البرتغالية في الشرق انها احتكار ملكي وينطبق هذا على التجارة الاوروبية - الاسيوية وعلى تجارة آسيا الداخلية ، وفي المراحل الاولى من الغزو البرتغالي للشرق سمح الملك ما نوئيل بفتح ابواب التجارة الاوروبية - الاسيوية للتجارة الخاصة على ان يكون القائمون بها من البرتغاليين وعلى ان يكون هناك ترخيص خاص لكل رحلة ، وللملك ٣٠٪ من جملة الحمولة واشترط على التجار تخصيص حيز من السفينة لملاحيها لحمل بضائعهم الخاصة (٤٧) ولم تكن هذه شروطا مشجعة ومع هذا وبمرور السنين وتناقص دخل الملك من تجارته مع الشرق ألغيت التجارة الخاصة وصارت التجارة الاوروبية - الاسيوية كلها احتكارا ملكيا وأبقى الحق للملاحين في الاحتفاظ بذلك الحيز من السفينة لسلعهم الخاصة . واشترط عليهم دفع ضرائب على تلك السلع في لزبن . واتضح انه من الصعوبة السيطرة على مثل هذا الوضع فقد تجاوز ربابنة السفن الملكية والملاحون البرتغاليون فيها ذلك الحيز المخصص لهم وتم ذلك على حساب التجارة الملكية اضافة الى هذا فقد استطاع اولئك الربابنة والملاحون التهرب من دفع الضريبة وكانت لزبن مليئة بالسفن والتجار الاوروبيين من ايطاليين وانجليز وفرنسيين وكان هؤلاء على استعداد لتلقف السلع الشرقية (٤٨) من الربابنة والملاحين قبل ان تصل هذه الى مراكز دفع الضرائب في لزبن

لقد كان مبدأ السماح للربابنة والملاحين بحمل سلعهم الخاصة على ظهر السفن الملكية من اهم مظاهر الفساد في التجارة البرتغالية وكان من العوامل المهمة التى أدت الى تدنى الارباح التى كان يحصل عليها الملك من تجارة آسيا وفسر النظام على انه تعويض لما كان يتقاضاه اولئك العاملون فى السفن الملكية من أجور ضئيلة (٤٩) كما قدم تفسير اكثر طرافة وهو ان المسئولين عن تلك السفن سوف يحاربون ويدافعون عن السفن الملكية بشكل افضل اذا ما تعرضت للخطر وذلك لانهم اذ يفعلون ذلك فانهم لا يدافعون عن اموال الملك بل عن اموالهم الخاصة كذلك (٥٠)

وتفاقم الوضع فى اوائل القرن السابع عشر وتدنى دخل الملك من تجارته الى حد كبير بسبب الممارسات الآنفة الذكر وحاول الملك اصلاح الامر فالغى النظام القديم وأبدله فى عام ١٦٤٧ بنظام جديد للخدمة فى السفن الملكية تضمن نقاطا مهمة اهمها ان الحصول على رتبة الربان يتوقف على الخبرة والكفاءة ولا يتطلب المنزلة الاجتماعية الارستقراطية والنسب

ورفعت اجور الربابنة والملاحين وحرموا فى الوقت نفسه من حقهم فى نقل

اي سلع لحسابهم الخاص من آسيا، لقد تعرض هذا الاصلاح للنقد الشديد والاعتراض عليه من اصحاب المصالح الخاصة واضطر الملك الى تعديله فى عام ١٦٤٩ ثم الى الغائه فى عام ١٦٥٢ (٥١)

واعتبرت التجارة الاسيوية الداخلية هى الاخرى احتكارا ملكيا، ولكن الفساد الذى اتسم به الاحتكار الملكي للتجارة الاوروبية - الاسيوية كان له ما يمثله بالنسبة للاحتكار الملكي للتجارة الاسيوية الداخلية وقبل الافاضة فى الحديث عن دور البرتغاليين فى هذا المجال يمكن القول ان البرتغاليين لم يستطيعوا التأثير تأثيرا يذكر فى طبيعة التجارة الاسيوية الداخلية وفى مقوماتها فقد بقيت فى جوهرها تبادلا للسلع بين الموانىء الاسيوية نفسها ترتكز فى حملتها على السفن الاسيوية والتجار الاسيويين. ولم تمثل التجارة الاوروبية - الاسيوية سوى جزء ضئيل بالمقارنة بها

ولعله من المفيد جدا اعطاء فكرة عن حجم التجارتين ولكن هذا ليس بالامر اليسير ولحسن الحظ عمد بعض الباحثين الى وضع دراسات وتقديرات لتجارة الهند وبعض بلدان آسيا الاخرى خلال القرن السادس عشر، اى فترة النفوذ البرتغالي.(٥٢) وتظهر تلك الدراسات والتقديرات استمرار السمات الاساسية القديمة دون تغيير للتجارة الاسيوية وهناك تقدير جدير بالذكر هام للغاية على الرغم من كونه لا يتناول الا جانبا محددا من تجارة الهند خاصة باقليم «كوجرات» وضعه موظف برتغالى هو «توم برس Tome Pires» فى اوائل القرن السادس عشر

لقد ذكر توم برس بشيء من التفصيل صادرات كوجرات الى البلدان الواقعة الى الغرب والى الشرق من ذلك الاقليم الهندى الهام وجاءت تقديراته كما هى مبينة فى الجدول التالى.(٥٣)

## جدول رقم (١)

| الغرب | طن | الشرق | طن |
|---|---|---|---|
| اوروبا | ٦٠٠٠ | بيجوا الخ | ٥٠٠٠ |
| شرق افريقيا | ١٠٠٠ | مالقا | ١٠٠٠٠ |
| البحر الاحمر - سفن الحجاج | ٥٠٠٠ | سومطرة | ٣٠٠٠ |
| سفن اخرى | ٤٠٠٠ | جلوه | ٢٠٠٠ |
| الخليج العربى وبلاد العرب | ١٠٠٠٠ | مالاكاس | ١٠٠٠ |
| | | الصين واليابان | ٣٠٠٠ |

وبعد الاخذ بعين الاعتبار اهمية اقليم كوجرات كاكبر مصدر للسلع الهندية خلال تلك الحقبة من الزمن، فالجدول يلقى الضوء على حجم صادرات الاقليم واتجاهاتها من ناحية، كما انه يظهر بوضوح ضآلة نصيب التحارة الاوروبية مع آسيا مع ناحية اخرى فهى لم تكن لتمثل سوى حوالى الثمن من مجمل صادرات الاقليم

هذا ومن الجدير بالذكر هنا ايضا أن البرتغاليين لم ينجحوا طيلة القرن السادس عشر فى زيادة حجم هذه التجارة بين آسيا واوروبا وعندما حدثت تلك الزيادة فى اواخر القرن المذكور، وازداد الاستهلاك الاوروبي للسلع الاسيوية، لم يتم دلك على ايدى البرتغاليين وليس عبر راس الرجاء الصالح، بل تم على يد التجار الاسيويين والايطاليين عبر الشرق الادنى وبطرق القوافل التقليدية

لقد اعتبرت تجارة اسيا الداخلية، كما ذكر، احتكارا ملكيا. ولكن البرتغاليين فشلوا فشلا ذريعا فى زحزحة التجار الاسيويين والسفن الاسيوية من الميدان، على الرغم من وسائل العنف والقسر التي استخدموها خاصة فى بداية عهدهم. والواقع ان التجارة الاسيوية كانت اكبر بكثير من طاقاتهم وامكانياتهم. فهذه التجارة قديمة العهد قدم التاريخ المكتوب نفسه، راسخة القدم شامخة البناء، ويعتقد فان لر ان عدد السفن البرتغالية العاملة فى سواحل الهند لم يتجاوز فى اية فترة من الفترات سدس السفن الاسيوية العاملة فى تلك السواحل [٥٤]

ودعنا نرى الان كيف نفذ الاحتكار الملكي لهذه التجارة كان، من الناحية النظرية، للسفن الملكية الافضلية فى شراء السلع الشرقية من الموانىء الاسيوية، ولا يقدم التجار الاخرون على شراء تلك السلع الا بعد ان تأخذ تلك السفن كفايتها. ومن الناحية العملية لم تسر العملية بهذه السهولة وبهذا اليسر فقد اصطدم الامر هنا مرة اخرى بتفسخ وفساد السلطات البرتغالية. فقد لجأ المسئولون البرتغاليون الى مختلف الوسائل للاستفادة من هذه التجارة على حساب المصلحة الملكية فبحجة عدم توفر السفن الملكية عمد اولئك المسئولون فى كوا وفى غيرها من الموانىء البرتغالية الى الاستحواذ على تلك السفن دون ان يظهروا انفسهم بشكل علنى ومباشر بمثل هذه العملية فقاموا بمنح رخص الشراء الى الاقرباء والاصدقاء، بل وبيعها الى التجار الاسيويين والواقع ان هذه الممارسات اجهضت الاحتكار الملكي للتجارة. وعلى سبيل المثال منح احد المسئولين البرتغاليين الكبار فى ١٥٤٢ اربعين رخصة لاقربائه مرة واحدة.

ولم يكتف الموظفون الملكيون البرتغاليون بالاستفادة من الاحتكار الملكي بالطرق الانفة الذكر، بل انهم استغلوا السفن الملكية العاملة فى التجارة الى أبعد حدود الاستغلال. وهناك امثلة لا حصر لها فى هذا المجال. ففى إحدى الرحلات التى كانت تقوم بها سفينتان ملكيتان بين الموانىء الاسيوية وكانتا

تحت قيادة مسئول برتغالي كبير شحنت احداهما بأكثر من طاقتها بسلع الموظفين البرتغاليين الامر الذى ادى الى غرقها ووصلت الاخرى سالمة ولكنها لم تكن تحمل سوى بصائع ذلك المسئول (٥٥) وفى رحلة من البنغال الى الملبار فى عام ١٥٣٠ حملت احدى السفن الملكية ما قيمته ١٢٠٠٠ ريال من البضائع العائدة لربان السفينة ولم تكن تحمل للحساب الملكي سوى ما قيمته ٤٠٠ ريال (٥٦) والحقيقة ان الفساد والاستغلال الذى مارسه المسئولون البرتغاليون فى التجارة الاسيوية فاق ذلك الذى مارسه اولئك المسئولون فى مجال التجارة الاوروبية - الاسيوية والنتيجة لكل تلك الممارسات واحدة وهى التدنى الكبير فى الدخل الملكي. واذا اخذنا بعين الاعتبار الضغوط المالية الهائلة التى كانت تعانيها الامبراطورية البرتغالية فى آسيا بسبب تفسخ وفساد الاجهزة الادارية فيها من ناحية والحاجة للحفاظ على الممتلكات والقلاع والمواقع والسفن فى الشرق من ناحية اخرى امكننا تصور الازمة المالية التى كانت تأخذ بخناق البرتغاليين

والى جانب تلك الضغوط الداخلية، فقد عانى البرتغاليون من ضغوط خارجية كبيرة طيلة القرن السادس عشر. فالصراع مع العثمانيين فى الخليج العربى والبحر الاحمر والمحيط الهندى استنفد كثيرا من طاقاتهم وصراعهم مع الايرانيين خاصة فى اواخر القرن المذكور وأوائل القرن الذى تلاه كان هو الاخر عنيفا ومكلفا. والشيء نفسه يقال عن نزاعاتهم مع القوى المحلية فى الهند وفى ارخبيل الملايو ولعل اشد الضربات التى تعرض لها البرتغاليون خاصة فى مجال التجارة جاءت من نمو واتساع دور التجار والسفن الاسيوية على حساب التجارة البرتغالية. بل ونجاح الاسيويين فى كسر وتحطيم الاحتكار البرتغالى واختراقهم الحصار الذى فرضه البرتغاليون على بعض مناطق الشرق وخاصة البحر الاحمر. ونجاح الاسيويين فى هذا المجال لم يؤثر فى وضع البرتغاليين فى ميدان التجارة الاسيوية الداخلية، بل اتسع ليشمل التجارة الاوروبية - الاسيوية نفسها وقد صاحب هذا التطور تطور اخر يفوقه فى الاهمية وهو انتعاش طرق القوافل التقليدية عبر الشرق الادنى على حساب طريق رأس الرجاء الصالح الذى بقى طيلة القرن السادس عشر محتكرا من قبل البرتغاليين

ولعل اكثر التحديات خطورة بالنسبة للتجارة البرتغالية والاحتكار البرتغالي، جاءت من نمو قوة كل من سلطنة «اجه Acheh» فى شمال سومطرة، وولاية كوجرات الهندية المهمة وبقى دور هاتين القوتين فى تحطيم الهيمنة البحرية البرتغالية على المياه الشرقية مجهولا تقريبا، الى ان قام بالكشف عنه بعض المؤرخين (٥٧)، وفى مقدمتهم س. أر. بوكسر. والى حد اقل السيدة ملنك رولوفز

ويعتقد بوكسر ان سلطنة آجه وولاية كوجرات بدأتا منذ الثلاثينات من القرن السادس عشر فى كسر طوق الحصار البرتغالي وحمل الفلفل والتوابل الى البحر

الاحمر بل انه يذهب الى حد القول انهما بدأتا قبل ذلك (٥٨) وفى عام ١٥٤٦ عبر ملك البرتغال عن قلقه الى نائبه فى كوا من الانباء المتواترة حول انتعاش تجارة آجه مع البحر الاحمر. وخلال الخمسينات والستينات اتخذت تجارة اجه وكوجرات شكلا اوسع مع البحر الاحمر مما دفع البرتغاليين الى ارسال اساطيل لاعتراض سفن آجه وكوجرات ودارت معارك شديدة قرب سواحل حضرموت ولكنها لم تكن حاسمة ولم يستطع البرتغاليون وضع حد لتدفق التوابل الى البحر الاحمر.

ومصادر التجار البنادقة المقيمين فى القاهرة اشارت فى عام ١٥٦٥ الى وصول ثلاث سفن من آجه وذكرت ان هناك اثنتين أخريين متوقع وصولهما قريبا ايضا بالاضافة الى ذلك فقد وصلت الى جدة خمس سفن من سومطرة وعشرون سفينة اخرى من مختلف موانىء الهند وفى العام التالى اى ١٥٦٦، وصلت سفن اخرى الى جدة من آجه وبلغ مقدار ما حملته كل تلك السفن ٢٤٠٠٠ «كانترا Cantera من الفلفل. (٥٩)

ونتيجة لفشل البرتغاليين المتكرر فى اعتراض السفن الاسيوية القادمة الى البحر الاحمر والى التكاليف الباهظة التى كانت تتكلفها الاساطيل التى يرسلونها لايقاف تلك التجارة الاسيوية فقد عدلوا منذ ١٥٦٩ عن ارسال مثل تلك الاساطيل وقبلوا على مضض بالامر الواقع.

وعندما دارت اشاعات فى كوا فى عام ١٥٨٦ حول عزم البرتغاليين على ارسال اسطول قوى للبحر الاحمر لوضع حد لتجارة التوابل هناك علق كثير من الناس ساخرين «ان الفشل سيكون مصير مثل هذا الاسطول المزمع ارساله الى البحر الاحمر تماما كما كان الفشل مصير جميع الاساطيل التى ارسلها العثمانيون الى المحيط الهندى» (٦٠)

وكتب فرنسيسكو دى سلفيرا، احد القادة البرتغاليين فى مذكراته فى عام ١٥٨٠ «مرت سنوات طويلة مدد ان كان هناك اى من اساطيلنا قد ابحر الى البحر الاحمر ولذا لم تعد لدينا معرفة بأحوال ذلك البحر فنحن نجهل الرياح السائدة فيه والموانىء المهمة، ولا نعرف أماكن الارساء ولا مواطن المياه الصالحة للشرب (٦١)

وصحب نجاح آجه في اختراق الحصار البرتغالى للبحر الاحمر زيادة ضغطها على ملقا، ذلك الميناء الحيوي الهام للامبراطورية البرتغالية والتجارة البرتغالية فى الشرق كله وازداد ضغط اجه على ملقا خاصة فى عهد سلطانها «رايات شاه القهار» الذى قيل عنه «لم يكن تنقلب على جانبيه في فراشه دون ان يفكر بالوسائل التى تمكنه من الاستيلاء على ملقا وتدميرها»

وفى فترة الثمانينات والتسعينات من القرن السادس عشر، وبعد ان عجز البرتغاليون تماما فى حصارهم للبحر الاحمر، تحولوا الى محاولة غزو آجه نفسها واحتلالها. وقد رأى المسئولون فى لزبن وكوا وملقا ان هذا هو السبيل الوحيد لحماية التجارة البرتغالية، بل

الامبراطورية البرتغالية. ولكن كل مشاريع غزو اجه لم يحمل محمل الجد والسبب فى ذلك هو عجز البرتغاليين فى توفير السفن والرجال والمال وقد اعترف احد البرتغاليين المعاصرين بهذه الحقيقة عند تعقيبه على نشاط التجار الاسيويين فى ارخبيل الملايو «لا نستطيع منعهم من ممارسة التجارة، طالما اننا لا نملك الاسطول القوى القادر على تحقيق ذلك.»(٦٢)

وفى عام ١٥٩٦ كتب الملك الى نائبه فى كوا قائلا انه اذا كان لابد من صلح مع آجه فيجب ان يعطينا ذلك الصلح فرصة لتوجيه الهجوم الحاسم. وبعد سنين غير الملك لهجته هذه ونصح بضرورة الاحتفاظ بصداقة حذرة مع آجه.(٦٣)

وكانت كميات الفلفل المصدرة من آجة فى اواخر القرن السادس عشر كبيرة جدا. وقد قدرت كمية تلك الصادرات فى احد التقارير البرتغالية بخمسة عشر ألف بار.(٦٤) ولا يذكر هذا التقرير الكمية التى ذهبت بشكل خاص الى البحر الاحمر وتلك التى ذهبت الى الاسواق الاخرى مثل الصين والهند. ومن حسن الحظ ان هناك تقريرا برتغاليا آخر قدر الكمية المرسلة من الفلفل والتوابل الاخرى والتى وصلت الى جدة من آجه وكوجرات ٤٠٠٠٠ ـ ٥٠٠٠٠ كونتال (٦٥)وبصرف النظر عن صحة هذه الارقام او عدم صحتها، فان هناك امرا مؤكدا وهو ان كميات التوابل والفلفل التى جاءت الى اوروبا عن طريق البحر الاحمر والتى نقلتها سفن آجة وكوجرات تفوق كثيرا جدا تلك التى نقلها البرتغاليون الى اوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

واذا استعرضنا السلع الرئيسية فى التجارة الاوروبية ـ الاسيوية خلال القرن السادس عشر نجد انها تتضمن التوابل النفيسة والحرير والفلفل والتوابل النفيسة هى اربعة القرنفل وجوز الطيب، وقشرة جوز الطيب، والقرفة او الدارسين وتنتج الثلاثة الاولى منها فى جزر صغيرة ومتناثرة فى ارخبيل الملايو اما الرابع فينتج فى سيلان وايران هى المصدر الرئيسي للحرير المصدر الى اوروبا، ان لم تكن المصدر الوحيد لذلك ولا توجد ادلة تشير الى وصول كميات من الحرير الى اوروبا من الصين او من البنغال، وهما البلدان الاخران الرئيسيان المنتجان للحرير فى آسيا وينتج الفلفل بكميات كبيرة فى جزر ارخبيل الملايو الكبرى جاوة وسومطرة وفى ساحل الملبار.

وتناقصت كميات التوابل النفيسة التى حملها البرتغاليون الى اوروبا خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر. وعلى سبيل المثال قدرت حصة البرتغاليين من تجارة القرنفل وهو اهم التوابل النفيسة ب ١٥٪ فقط فى اواخر القرن المذكور (٦٦)

اما بالنسبة الى الحرير، فلم تمثل هذه السلعة مطلقا طيلة القرن السادس عشر جزءا مهما بالنسبة للتجارة البرتغالية. اذ كان الحرير الايرانى يصل الى اوروبا عبر الطرق التقليدية المألوفة. فهو ينتقل من ايران عبر العراق والاناضول ليصل الى

سواحل البحر المتوسط ولينقل من هناك الى أوروبا

والفلفل هو السلعة الرئيسية بالنسبة لتجارة البرتغاليين الاوروبية - الاسيوية. وهو المصدر الاساسي للدخل الملكي من تجارته الاسيوية وتتبع مسيرة تجارة هذه السلعة تعطي فكرة جيدة وواضحة عن وضع التجارة البرتغالية ومن حسن الحظ ان هناك معلومات متوفرة بما فيه الكفاية في هذا المجال.

ويعتقد ف. لين [٦٧] ان التوابل خاصة الفلفل منها التى وصلت الى الاسكندرية في عام ١٥٦٠ لتأخذ طريقها من هناك الى اوروبا تفوق كثيرا تلك التى حملها البرتغاليون الى اوروبا عبر رأس الرجاء الصالح والى جانب هذا التعميم فان كلا من بوكسر وستينزكارد قد اعطى معلومات مفصلة ودقيقة الى حد كبير في هذا الشأن وقد سبقت الاشارة الى ما أورده الاول حول الكميات التى نقلتها سفن أجة وكوجرات الى البحر الاحمر اما ستينزكارد فمعلوماته تنحصر حول واردات البرتغاليين من الفلفل الى اوروبا.

ومع ان المعلومات التى اوردها ستينزكارد غير متصلة سنة بعد اخرى، الا ان السنين التى توفرت المعلومات عنها تكفي لتوضيح الصورة الى حد كبير. فقد كان المعدل السنوى للواردات البرتغالية من الفلفل بين عام ١٥٨٧ و١٥٩٩ هو ١٠,٧٣١ كونتال [٦٨] اى اكثر من مليون ليبرة ويمثل هذا انخفاضا كبيرا عما كان عليه الامر في منتصف القرن السادس عشر. ففى عام ١٥٤٧ و١٥٥٦ كانت الكمية ٣٦٠٠٠ و٢٤٠٠٠ كونتال على التوالى. وفى عام ١٥٥٨ كانت الواردات ٣٠٠٠٠ كونتال.

وتنقطع المعلومات بعد ذلك حتى عام ١٥٨٧، وخلال ثلاث سنوات ١٥٨٧ - ١٥٩٠، كان المعدل السنوى ٢٠,٠٠٠ كونتال وفى التسعينات انخفضت الكمية الى النصف فكان حوالى مليون ليبرة، في حين ارتفع الاستهلاك الاوروبي لهذه السلعة ليقترب من خمسة ملايين ليبرة ومن هذه الارقام يتبين ضآلة الكميات المستوردة من قبل البرتغاليين عبر رأس الرجاء الصالح كما يتبين منها ان هناك ما يقرب من اربعة ملايين ليبرة من الفلفل وصلت الى اوروبا عن طريق البحر الاحمر وعبر الطرق التقليدية وبواسطة التجار الاسيويين والايطاليين ولعل الجدول رقم (٢) يوضح هذا الامر.

وبعد وصول سفن شركتى الهند الشرقية الانجليزية والهند الشرقية الهولندية الى المياه الشرقية في اوائل القرن السابع عشر، زاد الامر سوءاً بالنسبة الى التجارة البرتغالية فخلال العقد الاول من القرن المذكور اختفت التوابل النفيسة من حمولة السفن البرتغالية المتجهة الى اوروبا وكان الحرير مفقودا من الاساس من تلك الحمولة وبقى الفلفل ولكنه كان في تناقص مستمر واخيرا في عام ١٦٢٨، لم يصل الى لزبن من الفلفل سوى ١٩٨١ كونتالا اي ما يقرب من مائتى الف ليبرة، في حين تجاوز الاستهلاك الاوروبي الخمسة الملايين ليبرة في هذا الوقت.

# جدول رقم (٢)[٦٩]

# تقدير للاستهلاك الاوروبي من السلع الآسيوية الرئيسية حوالى عام ١٦٠٠

| السلعة | راس الرجاء الصالح | طريق القوافل التقليدية | المجموع |
|---|---|---|---|
| الفلفل | ٢٠٠٠,٠٠٠ ـ ١ ليبرة | ٤٠٠٠,٠٠٠ ـ ٣ ليبرة | ٥٠٠٠,٠٠٠ ليبرة |
| القرنفل ـ النيلة<br>اعشاب طبية<br>قشرة جوزة الطيب<br>جوزة الطيب | ٦٥٠,٠٠٠ ـ ٣٥٠,٠٠٠ ليبرة | ١,٠٠٠,٠٠٠ ـ ٧٠٠,٠٠٠ ليبرة | ١,٣٥٠,٠٠٠ ليبرة |
| الانسجة<br>الحرير الخام | ؟<br>— | ؟<br>٥٠٠,٠٠٠ ليبرة | ؟<br>٥٠٠,٠٠٠ ليبرة |

والحديث عن تدهور التجارة البرتغالية مع الشرق يقود للحديث عن السفن فالتفوق الذى تمتع به البرتغاليون منذ بداية قدومهم للمياه الشرقية من حيث عدد السفن وقوتها وكفاءتها والخدمات فيها قد تضاءل خلال القرنين السابع عشر والسادس عشر (٧) وأظهرت السفن البرتغالية عجزا ملحوظا ليس امام السفن الاوروبية فحسب بل امام السفن الاسيوية ايضا ويعزى قصور السفن البرتغالية الى اسباب كثيرة

فربابنة السفن البرتغالية القادمة للشرق، لم يشترط فيهم الكفاءة الملاحية حيث كانت وظيفة الربان هبة ملكية تمنح لقاء خدمات معينة يقدمها الشخص او عائلته للملك والوظيفة محصورة فى أعلب الاحيان بالفئة الارستقراطية وهى تباع وتشترى وتؤجر بل وتورث وعلى هذا الاساس من الممكن ان تنتقل للنساء من زوجات وبنات وهن يستطعن بيعها ولكن بموافقة ملكية. وكان هناك عدد من الربابنة اكثر بكثير من عدد السفن الراحلة الى الشرق وكانت هناك دائما قائمة طويلة بأسماء الاشخاص الذين ينتظرون دورهم او يتوقعون ان يسعفهم الحظ بقيادة احدى السفن ومن الناحية النظرية، يختار الملك الاشخاص الملائمين من ذوى الخبرة الملاحية لقيادة سفنه الذاهبة الى آسيا ومن الناحية العملية كان الامر يختلف، فهناك عوامل كثيرة تتحكم بالاختيار الملكي وقد اختير فى

بعض الاحيان اشخاص لم يكونوا قد شاهدوا مياه البحر من قبل (٧١)

وكانت الظروف المحيطة باولئك الذين عملوا في تلك السفن من ملاحين وجنود وعاملين اخرين في غاية السوء فكانوا مكدسين مع السلع التى تحملها السفن وتفشت انواع الحمى بينهم والاصابة بالدوسنتاريا مألوفة وشائعة ولهذه الاسباب ارتفعت نسبة الوفيات خلال الرحلات ويفترض ان يكون هناك طبيب لكل سفينة راحلة الى الشرق او عائدة منه كما يفترض ان تكون هناك صيدلية تتوفر فيها الادوية الضرورية وفي الواقع لم يكن هناك شيء من هذا وذاك ففي كثير من الحالات كان يقوم حلاق جاهل بدور الطبيب ولعل احسن مثال على ذلك اسطول عام ١٦٣٣ والذى كان يضم اربع سفن وثلاثة الاف جندى ولم يكن الملك بخيلا بتجهيز الادوية الضرورية للسفن ولكن الادوية كانت عادة تؤخذ من قبل المسئولين وتباع او تعطى للاصدقاء (٧٢)

وفي الوقت الذى ازدادت فيه السفن البرتغالية ضخامة فان كفاءتها قد تدنت الى حد كبير وانعكس هذا التدنى في الخسائر الكبيرة التى عانت منها السفن البرتغالية والعدد المتناقص لها في التجارة الشرقية ونورد هنا معلومات ذكرها ثلاثة من ابرز المختصين

ونبدأ بما اورده البروفسور «هـ فوربر H Furber» في هذا الشأن وفي الجدول الذى وضعه لهذا الغرض

جدول رقم (٣)(٧٣)

## عدد السفن البرتغالية التى غادرت لزبن الى كوا خلال ثلاثة قرون (١٥٠٠ - ١٨٠٠)

| الفترة الزمنية | عدد السفن |
| --- | --- |
| ١٥٠٠ - ١٥٤٩ | ٤٥١ |
| ١٥٤٩ - ١٥٩٩ | ٢٥٤ |
| ١٦٠٠ - ١٦٥٠ | ٢٦٥ |
| ١٦٥١ - ١٧٠٠ | ١٠٦ |
| ١٧٠٠ - ١٧٥٠ | ١١٢ |
| ١٧٥١ - ١٨٠٠ | ٠٧٠ |

يعطي البروفسور ستينزكارد معلومات وارقاماً لا تقل اهمية فمن مجموع ثلاث وثلاثين سفينة ارسلت من لزبن ١٥٩٠ ـ ١٥٩٦، رجعت منها ثمان سفن بعد ان اكملت رحلة اعتيادية وخمس وصلت بعد ان تأخرت سنة وبقيت اربع سفن في آسيا ومصير واحدة غير معروف واخيرا ست عشرة سفينة تحطمت او تم الاستيلاء عليها من قبل خصوم البرتغاليين. انها خسارة تقارب ٥٠٪ بينما كان معدل الخسارة خلال القرن كله ٢٠٪ وفي الثمانينات من القرن السادس عشر كانت الخسائر تصل ١ الى ٤ وفي التسعينات كانت ٣ الى ٦ وخلال العقدين الاولين من القرن السابع عشر كانت الخسارة اكثر من ٩ وكانت الخسارة في السفن البرتغالية في عام ١٦٢٠ ثلاثة اضعاف الخسارة في الثمانينات من القرن السادس عشر واربعة اضعاف الخسارة في التسعينات من القرن المذكور [٧٤]

ونقتبس في هذا المجال ايضا ما يقوله البروفسور ح. بري

«لم تشهد السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر انخفاضا في عدد السفن البرتغالية التي اجتازت رأس الرجاء الصالح، بل شهدت تدهورا وانحطاطا في كفاءتها. فخلال الثمانين سنة ١٥٠٠ – ١٥٨٠ اجتازت ٦٢٠ سفينة رأس الرجاء الصالح عادت منها ٣٢٥ سالمة الى البرتغال وبقيت ٢٥٦ في الشرق وفقدت ٣٩ سفينة

وخلال الفترة ١٥٨٠ ـ ١٦١٢ ابحرت ١٨٦ سفينة من البرتغال عبر رأس الرجاء الصالح عادت ١٠٠ سفينة منها سالمة الى البرتغال وفقدت ٥٧ سفينة وبقيت ٢٩ سفينة في الشرق وعلى هذا فان ٩٣٪ من السفن البرتغالية بقيت سالمة خلال الفترة الاولى. اما خلال الفترة الثانية فلم يسلم سوى ٦٩٪ من تلك السفن»[٧٥]

ويقابل هذا التدني في السفن البرتغالية تفوق هائل في السفن الاوروبية الهولندية والانجليزية منها خاصة، من حيث العدد والكفاءة ولم يقتصر التقدم في مجال السفن على الاوروبيين المنافسين للبرتغاليين بل حدث بالنسبة الى السفن الاسيوية ايضا ويرى «و. هـ. مورلاند W H.Moreland» أنه منذ عام ١٥٠٧ بدأ العرب يبنون سفنا على غرار السفن البرتغالية والحقيقة ان البوكرك نفسه قد كتب مرة ان الهنود اخذوا يقلدون البرتغاليين في بناء السفن وانهم استفادوا من التقنيات البرتغالية ولاحظ احد السائحين في عام ١٦٣٨ ثماني سفن هندية في آجة وصفها قائلا «ان لم تكن للمرء فكرة مسبقة عنها فانه لا يستطيع الا ان يظنها سفنا اوروبية»[٧٦] ويعتقد بوكسر ان نجاح تجارة آجة وكوجرات مع البحر الاحمر يعود بالدرجة الاولى الى تفوق سفنهما وقوتها

واذا وضعنا السفن وربابنتها جانبا وألقينا نظرة على الجنود البرتغاليين العاملين في الشرق، فربما تكون الصورة هنا أكثر سوءاً فالى جانب المرتزقة الاسيويين واغلبهم من الهنود الذين استخدمهم البرتغاليون فقد عمدت السلطات البرتغالية الى ارسال اصناف من الناس من البرتغال الى الشرق لا يمكن ان يتصور المرء انهم قادرون على اداء اي

عمل نافع هناك. فخلال العقود الاخيرة من القرن السادس عشر وخلال القرن التالى لم يرسل الى الشرق فى أغلب الاحيان جنود مدربون ومؤهلون فقد فتح المجال للحياطين والاسكافيين والخدم وعمال الموانيء للانضمام الى صفوف الجنود الداهبين الى الشرق دون اعداد وتدريب بل كثيرا ما عمدت الحكومة البرتغالية الى جمع الرجال من الشوارع والحقول بل ومن السجون ايضا لارسالهم الى هناك تم انها حددت أحداثاً معتلّى الصحة ضعاف البنية لهذا العرض (٧٧) وكتيرا ما اشتكى نائب الملك فى كوا ورئيس الاساقفة فيها من هدا الامر بالدات وغالبا مادكرت السلطات فى البرتغال بان متل اولئك الجنود ينقصهم التدريب ويعوزهم الشعور بالمسئولية والحماس «وكتيرا ما يتركون صفوف قواتنا ويلتحقون بالاعداء من مسلمين وهندوس عندما تتاح لهم الفرصة لدلك» (٧٨)

لقد صار تدهور وضع البرتغاليين وانحطاط مكانتهم، فى النواحى العسكرية والسياسية والملاحية والتجارية واضحا وجليا خلال العقود الاخيرة من القرن السادس عشر وازداد الامر تفاقما فى القرن التالي وشمل التدهور والانحطاط كافة مناطق تواجدهم فى ارخبيل الملايو وسواحل الهند والخليج العربى والبحر الاحمر وشرق افريقيا والتفاؤل الذى عبر عنه بعض البرتغاليين فى اوائل القرن السادس بشأن مستقبل امبراطوريتهم وعاصمتها كوا لم يتحقق مطلقا فقد كتب توم برس عام ١٥١٥ معبرا عن توقعاته ما يلى (٧٩)

تتمتع الدكن بمنزلة تجارية كبيرة و «دابول Dabhol» ميناء كبيرة فيها، تؤمه كثير من السفن، ومعظم الخيول التى تصل الى هده المملكة تأتى عن طريقه والان وبفضل جهود نائب الملك البرتغالي سوف لا تستطيع مملكة الدكن الاحتفاظ بتلك المنزلة السامية، بل ستفقدها الى الابد وسوف تكون كوا مؤهلة لانتزاع تلك المنزلة لتصبح اعظم مدينة فى العالم

وعلى النقيض من تلك التوقعات المتفائلة كانت الامبراطورية البرتغالية فى حالة من الاحتضار فى اواخر القرن المذكور

والمصادر الاوروبية المعاصرة مليئة بالتقارير والتعقيبات والوصف لاوضاع البرتغاليين فى الشرق وفى عام ١٦٢١ ادعى «فان دربروك Van der Broecke» أحد الهولنديين العاملين فى الشرق «ان تجارة البرتغاليين الساحلية مع كوجرات قد اصابها الدمار الكامل» (٨٠)

واحتفظ البرتغاليون بسيطرتهم على الخليج العربى ولكنهم تلقوا ضربة مهلكة فى عام ١٦٢٢ بسقوط هرمز وهى اهم معاقلهم فى غرب المحيط الهندى ولكن مظاهر انحلالهم وضعفهم كانت واضحة وجلية حتى قبل ذلك السقوط ففى احد التقارير الانجليزية التى كتبت فى عام ١٦١٨ ذكر ان تجارة التوابل البرتغالية لا تكون الا ١/٦ ما كانت عليه قبل سنوات (٨١) ومع ان البرتغاليين قد وطدوا انفسهم على ساحل الكوروماندال، الساحل الجنوبي الشرقي للهند، وقاموا بحمل الانسجة القطنية منه الى ارخبيل الملايو الا انهم فقدوا هذه التجارة بسرعة بعد وصول الهولنديين والانجليز

الى هذه المناطق عند مفتتح القرن السابع عشر

وتعتبر ملقا من أبرز المواقع التجارية فى الشرق كله وهى احد اهم المعاقل البرتغالية ويصفها «زائف فيج» احد السياح الاوروبيين، فى اوائل القرن السابع عشر بأنها ميناء كبير يعجّ بالحركة والنشاط [٨٢] وذكر سائح هولندى آخر ان ثلاثمائة سفينة تأتى سنويا الى ملقا ولكن اغلب تلك السفن وحملة حمولتها تعود الى التجار الهنود وغيرهم من التجار الآسيويين وليس للبرتغاليين منها الا النصيب الضئيل [٨٣] وكتب السير توماس رو Sir Thomas Roe» سفير الملك جيمس الاول الى بلاط امبراطور المغول معقبا على وضع المستوطنات البرتغالية فى الشرق قائلا « على الرغم من امتلاك البرتغاليين لمستوطنات كثيرة وجميلة فى الشرق، الا ان النفقات على مؤسساتهم العسكرية قد افقرتهم الى حد كبير، على الرغم من ان حامياتهم ليست بهذه القوة والحصانة [٨٤] وهناك تقارير كثيرة جدا وصلت الى اوروبا خاصة الى هولندا كتبها الهولنديون الذين كانوا يعملون فى خدمة البرتغاليين، وكلها تصف وضع البرتغاليين المتدهور ولعل «جان فان لنجوتن «Jan Van Linchoten» الذى عمل مدة طويلة مع البرتغاليين فى كوا هو من ابرز اولئك الهولنديين الذين اعطوا معلومات قيمة ومفصلة عن الاوضاع التى كانت سائدة فى المستوطنات البرتغالية فى الشرق وتتلخص معلوماته بشىء واحد هو انحلال الادارة البرتغالية فى الشرق بسبب الفساد وسوء الادارة [٨٥]

والخلاصة لقد كان ذلك وضع البرتغاليين فى الشرق عند اوائل القرن السابع عشر كانوا ضعفاء عسكريا وسياسيا وتجاريا ومترددين نفسيا ومعنويا وكان الشرقيون من أرخبيل الملايو شرقا مرورا بالهند الى الخليج العربى والبحر الاحمر غربا يناصبونهم العداء ويضمرون لهم الحقد والكراهية وعندما جاء الى الشرق شعوب اوروبية اخرى اكثر حيوية ونشاطا وقوة لتنافس البرتغاليين ولتنتزع ما يمكنها ان تنتزعه منهم وجدت السبيل ممهدا امامها ولم يستطع البرتغاليون الصمود امام التحدى الجديد وهكذا خسروا اغلب معاقلهم المهمة فى ارخبيل الملايو على يد الهولنديين خلال العقد الاول من القرن السابع عشر وفقدوا هرمز فى الخليج العربى فى عام ١٦٢٢ وخسروا ملقا فى عام ١٦٤١ واضاعوا سيلان فى عام ١٦٥٦ وكوچين فى عام ١٦٦٣

وتصدى لهم اليعاربة فى الخليج العربى ووضعوا نهاية لوجودهم فى هذا الجزء من الوطن العربى فقد انتزعوا منهم الموانىء والمواقع الواحد تلو الاخر وما ان حل القرن الثامن عشر حتى لم يعد لهم وجود مطلقا ولم يكتف اليعاربة بهذه الانجازات الكبيرة بل تعقبوا البرتغاليين إلى سواحل الهند وشرق افريقيا وانزلوا بهم ضربات ماحقة زادت فى ضعفهم وانحلالهم [٨٦]

(١) التاريخ العام للوجود البرتغالي في آسيا انظر بشكل خاص
C.R.Boxer, From Lisbon to Goa 1500-1750, London: 1984, Fred; C.Danvers, The Portugeuse in India, 2 Vols. London: 1894; R.S. Whiteway, The Rise of Portuguese Power in India, Westminster:1899.

2. K.G.Jayne, Vasco Da Gama and His Successors 1460-1580, London: 1970.
3. G.Masselman, The Cradle of Colonialism, London: 1963, PP. 223-24.
4. Van Leur, Indonesian Trade and Society, The Hague, 1955, PP. 162-65.
5. C.G.F.Simkin, Traditional Trade of Asia, London: 1968.P.182.
6. Boxer, Op.cit.,P.50.
7. W.H.Moreland,A Short History of India, London: 1956.P.203.
8. J.H.Parry, Europe and A Wider World, 1415-1715; London: 1905,P.94.
9. Simkin, Op.cit., PP.189-191.
10. Ibid.
11. Sir W.W.Hunter, A Brief History of the Indian Peoples, Oxford: 1907,P. 165.

(١٢) ك.م بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد القاهرة ص ٢٥

(١٣) نفس المصدر

14. Jayne, Op.Cit., P.62.
15. Ibid. P. 65.
16. Ibib., 62.

والحقيقة انه يشير هنا الى الهندوس الذين ظنهم مسيحيين

17. Parry. Op. cit., 96.
18. Ibid.
19. Ibid.
20. Ibid.
21. Ibid.
22. Ibid.
23. Ibid.
24. A.Wilson, The Persian Gulf, London: 1959. PP. 110-128.
25. Ibid. 112-15.
26. Jayne, Op. Cit., P. 65.
لمزيد من المعلومات حول هذه القسوة والوحشية التي مارسها البرتغاليون انظر
Sir W.W. Hunter, History of British India, 2 Vols. London: 1912-19. Vol. 1, P. 109; B.Schrieke, Indonesian Socialogical Studies, 2 Vols. The Hague, 1955-57, Vol. 1, P. 47.
27. Masselman, Op. Cit., P. 218.
28. Parry, Op. Cit., P. 96.
29. Ibid.
30. Ibid.

(٣١) للاطلاع على الاوضاع السياسية في شبة القارة الهندية خلال القرن السادس عشر وعلاقة القوى المختلفة بعضها ببعض ومواقف البرتغاليين منها انظر
H.H. Dadwell (ed.) The Cambridge History of India, Cambridge: 1929; Hunter, A Brief History of The Indian Peoples, R.C. Majumdar and others, An Advanced History of India, London: 1956.

(٣٢) استعمل في ثنايا هذا البحث اصطلاحان هما التجارة الاوروبية ـ الاسيوية والمقصود به التجارة بين هاتين القارتين والاصطلاح الآخر التجارة الاسيوية او تجارة آسيا الداخلية والمقصود به التجارة بين الموانيء الاسيوية بعضها ببعض والتي أخذت تعرف خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر باصطلاح خاص هو «Country Trade»، وقد عمد الباحث في بحوثه الاخرى الى وضع تعبير عربي هو «تجارة الموانيء الاسيوية» للدلالة على الاصطلاح الانجليزي الآنف الذكر

33. Van Leur,Op.Cit. 118.
34. Ibid

35. Neils Steensgaard, The Asian Trade Revolution of The Seventeenth Century, London: 1974. P. 84.
36. Ibid.
37. Jayne, Op. Cit. 65.
38. Steensgaard, Op. Cit. 84.
39. F.C. Lane, Venice in History, Baltimore: 1966. PP. 376-77.
40. Masselman, Op. Cit, 220.
41. Ibid. 221.

(٤٢) للاطلاع على المزيد عن تفسخ وفساد البرتغاليين في الشرق انظر
Hunter, History of British India, Vol. 1, PP. 176-78: Meilink - Roelofez, Asian Trade and European Influence In The Indonesian Archipelago between 1500 and about 1630, Hague: 1962, PP. 125-28.

43. Steensgaard, Op. Cit., 82-83.
44. Ibid. 85.
45. J.N.da Fonseco, Historical and Archaeological sketch of the city of Goa, Bombay: 1878, P. 24.
والريال وحدة النقد البرتغالية الرئيسية وهو من الفضة وفي أوائل القرن السادس عشر كان الريال يعادل مارك فضي بزنة ٥ , ٢٢٩ غرام
46. W.H. Moreland, From Akbar to Aurangzeb, London: 1923, P.B.
47. Masselman, Op. Cit., P. 220
48. Ibid.
49. C.R. Boxer, From Lisbon to Goa 1500-1750, P. 53.
50. Ibid.
51. Ibid.

(٥٢) من هؤلاء، و هـ. مورلاند W.H. Moreland من كتابه القيم India at the Death of Akbar London: 1920.P. 218-22.

53. Tome Pires, Suma Oriental, London: 1944, P. 42.
54. Van Leur, Op.cit., P.
55. Masselman, Op.cit., 218-222
56. Ibid.
57. C.R.Boxer, Portuguese Conquest and Commerce in Sowthern Asia, London: 1985, PP. 415-428; Meilink-Roelofez, Op.Cit.,134-135.
58. Boxer, Portuguese Conquest and Commerce PP. 415-422.
59. Ibid.
الكانترا Cantra وحدة للوزن تستعمل للتوابل عادة في الاسكندرية

وهي تعادل الكونتال Quintal وهذه وحدة الوزن البرتغالية الرئيسية وتعادل ١١٢ ليبرة انجليزية.

60. Ibid.

61. Ibid.

قارن هذه المعلومات التي اوردها بوكسر والنتائج التي توصل اليها بتلك التي اوردها البروفسور سيتنزكارد والتي يقول فيها «اننا متاكدون من ان البرتغاليين قد احتفظوا بسيطرتهم الفعلية على البحر الاحمر حتى مفتتح القرن السابع عشر، ولكن الامر كان يقتصر على السيطرة لا الحصار، ويتضح مما ذكره بوكسر ان راى ستينز كارد ليس له اساس من الصحة.

Steensgaard, Op. Cit., P. 91.

62. Boxer, Portuguese Conquest and Commerce, PP. 415-422.

63. Ibid.

(٦٤) والبار وحدة للوزن تساوى ٣½ كونتال

65. Boxer, Portuguese Conquest and Commerce PP. 415-422.

66. Van Luer, Op.Cit., 162-165.

67. Lone, Op. Cit., P. 170.

68. Steensgaard, Op. Cit., 163-69.

69. Ibid.

70. Ibid.

71. C.R.Boxer, From Lisbon to Goa, 1500-1750, PP. 33-82.

72. Ibid.

73. H.Furber, Rival Empires of Trade, Oxford University Press: 1976. PP. 26-27.

74. J.H.Parry, Trade and Dominion, New Vork: 1971, P. 95.

75. Ibid

76. Boxer, Portuguese Conquest and Commerce, P. 428.

77. Boxer, From Lisbon to Goa, 1500-1750, PP. 49-50

78. Ibid. 50.

79. Tome Pires, Op. Cit., PP. 52-54.

80. Quoted in Simkin, Op. Cit., 189.

81. Meilink-Roelofez, Op. Cit., P. 190.

82. Ibid. 172.

83. Ibid. 172.

84. Quoted in D.G.F.Hall, History of South East Asia, London: 1964. P. 225.

85. Simkin, Op. Cit. PP. 190-91.
86. See:J.G.Lorimer, Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia Vol. 1, Part. 1. S.B.Miles, Countries and Tribes of the Persian Gulf. 2 Vols. London: 1919.

★★★★★

# المراجع العربية:


- بانيكار، ك م آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالعزيز جاويد، القاهرة


# المراجع الاجنبية:


— Boxer, C.R.Portuguese Society in the Tropics, Madisson and Milwoukee: 1965.

— The Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825, London: 1969.

— From Lisbon to Goa 1500-1750, London: 1984.

— Portuguese Conquest and Commerce in Southern Asia 1500-1750, London: 1985.

— Danvers, F.C. The Portuguese in India, 2 Vols. London: 1894.

— Report on the India Office Records Relating to Persia and the Persian Gulf, London: 1900.

— Dutt,R.C. The Economic History of India London: 1882.

— Furber, H.Rival Empires of Trade in The Orient 1600-1800,Oxford: 1976.

— Hunter, Sir W.W.A Brief History of Indian Peoples, Oxford: 1907.
— Hunter, H.H.History of British India, 2 Vols. London: 1912-1919.
— Jayne, K.G.Vasco Da Gama and His Successors 1460-1580, London: 1970.
— Lane, Frederick C., Venice and History, Baltimore: 1966.
— Lorimer, J.G.Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia, Calcutta: 1908.
— Masselman, George, The Cradle of Colonialism, London: 1963.
— Meilink, Roelofez, Asian Trade and European Influence in the Indonesian Archipelago, between 1500 and about 1630, Hague: 1962.
— Miles, S.B.Countries and Tribes of The Persian Gulf, 2 Vols. London: 1919.
— Moreland. W.H. India At the Death of Akbar, London: 1920.
— From Akbar to Aurangzib, London: 1923.
— A Short History of India, London: 1962.
— Parry, J.H. Europe and Wider World, 1415-1715, London: 1965.
— Trade and Dominion, New York: 1971.
— Schrieke, B. Indonesian Sociological Studies, 2 Vols. The Hague 1955-57.
— Simkin, C.G.F., The Traditional Trade of Asia, London: 1968.
— Steensgaard, Niels, The Asian Trade Revolution of The Seventeenth Century, London: 1974.
— Van Leur, J.C. Indonesian Trade and Society, Haag-Bandung: 1955.
— Whiteway, R.S. The Rise of Portuguese in India, Westminster: 1899.
— Wilson, A. The Persian Gulf, London: 1928.
— Wood, A. A History of the Levant Company, London: 1935.
— Woodruff, William. Impact of Western Man, London: 1966.

★★★★★

# الإسلام والصليبيون في ساحل

# الوحشية الصليبية ضد المسلمين

# أدت إلى نشر الإسلام داخل القارة

المقصود بساحل شرقي افريقيا تلك المنطقة التى تحتل مساحة كبيرة تمتد بين خط عرض ٥ شمالا و ١٠ جنوبا اى انه يشغل حوالى ١٥ من درجات العرض والمقصود بساحل شرقي افريقيا فى العصور الوسطى هو ارض الزنج الاسلامية الممتدة من مقديشيو شمالا حتى سوفالا ( روديسيا ) جنوبا [١] يضاف اليها الحبشة المسيحية ودول الطراز الاسلامى فى منطقة القرن الافريقى، وهى المنطقة التى دخلها الاسلام منذ ان هاجر اليها جعفر بن ابى طالب [٢] وظلت منطقة ساحل شرقى افريقية اسلامية خالصة حتى مجىء البرتغاليين عام ١٤٩٧ م بقيادة فاسكو داجاما .

ونضال المسلمين فى ساحل شرقى افريقيا والحبشة ضد تقدم البرتغاليين وأعمالهم الوحشية ضد المسلمين هو الذى نعنيه بالحروب الصليبية لان البرتغاليين نقلوا معهم الى هذه الجهات كل فظائع الصليبيين التى مارسوها ضد المسلمين فى الشرق الاوسط حول بيت المقدس وغيرها من الامارات الاسلامية فى تلك الجهات

حتى ليخيل الى الكثيرين ان مسرح الحروب الصليبية قد انتقل الى شرقى افريقية خاصة وقد دخلت هذا الميدان قوى اخرى جديدة تتمثل فى دولة المماليك فى مصر والشام ومن بعدها الدولة العثمانية التى بسطت سيطرتها على الشرق الادنى والاوسط واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع فى مدخل البحر الاحمر الجنوبي

بقلم : الدكتور
السر سيد. احمد العراقي

وانشأوا علاقات مع المسلمين في الحبشة وسواحل شرقي افريقية ونافسوا البرتغاليين في المحيط الهندي (٣) .

على هذا النحو اضحى النضال الاسلامي في سواحل افريقيا وداخلها صدى للنضال العثماني ـ البرتغالي او النضال الاوربي في حوض البحر الاحمر ثم البحر المتوسط بعد ذلك. وبعبارة اخرى فان نضال المسلمين في سواحل افريقيا الشرقية والحبشة صورة من صور النضال القديم بين الشرق والغرب وهو من جانب آخر امتداد لذلك النضال القديم بين فارس والروم وصداه داخل شبه الجزيرة العربية (٤) وهو ايضا امتداد للصراع بين الشرق والغرب في العصور الوسطى الذى اصطلح على تسميته بالحروب الصليبية. وهي تلك الحروب الاستعمارية التى شنتها اوروبا تحت

اسم الدين، ثم ذلك النضال الذى شمل المسلمين وجمع كلمتهم فى ذلك الوقت خلال القرن الحادى عشر الى نهاية القرن الثالث عشر وتاريخ الاستعمار الاوربى لافريقيا منذ حركة الكشوف البرتغالية فيها، ملىء بالمآسى، كما انه ملىء بالبطولات القومية الفذة، وهى التى خلدها التاريخ خلال مراحل الكفاح الوطنى

والحروب الصليبية مرحلة من مراحل الكفاح بين الشرق والغرب بل وهى اهم الفصول فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. والصراع بين الشرق والغرب قديم ولايزال قائما حتى اليوم وهو صراع بين مدنيتين مختلفتين وعقيدتين متباينتين وهو من ناحية اخرى دليل على رغبة بعض الناس فى التسلط على البعض الاخر ومن صور الصراع بين الشرق والغرب ذلك الذى وقع بين الفرس والاغريق قديما وامتد الى فجر العصور الوسطى، وهو اول مراحل هذا الكفاح وكما توغل الاغريق فى قلب أسيا زمن الاسكندر الاكبر كذلك توغل الفرس فى قلب بلاد الاعريق ثم كانت حركة الفتوح الاسلامية الكبرى فى العصور الوسطى ووصول المسلمين الى قلب اوروبا.

ثم جاءت حركة الصليبيين فى العصور الوسطى بهدف ظاهرى هو الاستيلاء على ارض الميعاد، لان خطر استيلاء المسلمين على اوروبا ظل ماثلا فى اذهان الاوروبيين ولذا فالحرب الصليبية من هذه الناحية رد فعل من قبل الغرب ضد ضغط الشرق وبهذا تكون الحروب الصليبية قد حمت اوروبا من توغل المسلمين فترة طويلة اتاحت الفرصة للغرب ان يقوى نفسه وان ينمى مدنيته الى ان نهض الاسلام مرة أخرى من جديد فى العصور الحديثة من ناحية الضغط على اوروبا على ايدى العثمانيين .

وتعتبر الحروب الصليبية ذروة الاحياء الدينى الذى بدأ فى اوروبا اثناء القرن العاشر، وارتفع شأنه خلال القرن الحادى عشر نتيجة لحركة البعث الدينى والاصلاح الذى نهضت به الحركات الديرية ونظر بعض الاوروبيين من رجال الدين الى الحروب الصليبية على انها حرب مقدسة ووسيلة للخلاص الروحى وغفران الخطايا وانها الطريق المؤدى لنيل السعادة الابدية واعتبر الحج الى الاراضى المقدسة من اهم الوسائل للتوبة وهو من اعمال التكفير عن الذنوب مثل الصيام والايذاء البدنى .

ومن صور الحروب الصليبية كذلك ما قام فى غرب اوروبا ضد مسلمى الاندلس سواء اكان من ناحية الفرنجة ام من ناحية مسيحيى اسبانيا وكذلك الكفاح الذى قام به النورمان وغيرهم ضد المسلمين فى صقلية وفى جنوب ايطاليا. وقد وعد البابا خلال هذا الصراع ان من يموت

دفاعا عن الصليب سوف يظفر بالخلاص الروحى. وقد بارك البابوات هذا العمل مما كان له أثره الكبير فى استعادة صقلية من ايدى المسلمين وشجع هذا التوفيق على ارتياد منطقة الشرق الاوسط وسواحل افريقية ، لأن البابا كان قد اصدر قرارا بابويا عام ١٤٥٦ يقضى بتقسيم الاملاك بين البرتغاليين والأسبان

ومن صور الحرب الصليبية فى اوائل العصر الحديث حروب الدول الاوروبية مع العثمانيين والتى اخذت صورة دينية ولا سيما حين تكون حلف مسيحى فى جنوب شرقى اوروبا لمقاومة الزحف العثمانى وفى اقصى المشرق بجزائر الفلبين كان للمسلمين سلطنة كبرى هى سلطنة بورنيو التى اشتد عليها الصراع بين المسلمين والاسبان فى اوائل القرن السادس عشر وربما كان المستعمرون الاسبان مدفوعين بالحقد على المسلمين الذين كانوا قد استولوا على بلادهم ( الاندلس ) من قبل ونظر المسلمون فى جزائر الفلبين الى الحرب ضد الاسبان على انها جهاد فى سبيل الله، وقد دوخوا الاسبان حتى اعترفوا باستقلالهم وذلك فى اوائل القرن التاسع عشر

والحروب الصليبية التى امتدت نحو قرنين كانت من بعض الاحداث الكبرى التى واجهت المجتمع الاسلامى وكانت أضخم الاحداث بما كان من وقائعها وحروبها وبما كان من اثارها ونتائجها وسميت هذه الحروب التى خاضتها اوروبا المسيحية ضد المسلمين فى الشرق الاوسط وافريقيا وغيرها من بلاد العالم الاسلامى حروبا صليبية لانها حروب شنتها اوروبا باسم الدين وفى كل حروب اوروبا ضد المسلمين فى كل مكان حمل الاوروبيون الصليب على صدورهم ونقشوه على اسلحتهم وعلى رؤوس أعلامهم

## اهداف الكشف البرتغالى :

كانت الفكرة الصليبية واضحة فى مشروع الكشف العام للبرتغاليين الذى وضعه هنرى الملاح ابن ملك البرتغال وبدأه بانشاء معهد بحرى فى مدينة ساجر بالبرتغال عام ١٤١٩ وكما ذكر طرخان فقد اوقف هنرى الملاح حياته وجهوده لتنفيذ المشروع العام لحركة الكشف الجغرافى وكان يرمى من وراء هذا المشروع الى هدفين (٥)

اولهما تعقب المسلمين فى شمال افريقيا ونقل الحروب الصليبية الى بلادهم والمعروف عن تاريخ البرتغال ومبدأ تكوينها ان اصول هذا التكوين لم تكن سوى فصل من فصول الحروب الصليبية الدائرة رحاها فى الشرق الاوسط وفى اسبانيا الاسلامية فى وقت معا خلال القرن الثانى عشر. فيذكر عن البرتغاليين انهم انتهزوا

فرصة مرور حملة صليبية متوجهة الى الشرق لتنضم الى جموع الحملة الصليبية الثانية التى اعدتها اوروبا على اثر سقوط امارة الرها الصليبية فى يد عماد الدين زنكى عام ١١٤٤ والمعروف ان امارة الرها هى اول امارة اسلامية يستولى عليها الصليبيون وهى اول امارة كذلك يستعيدها المسلمون عام ١١٤٤ وقد اغرى البرتغاليون هذا الفرع الصليبى المار ببلادهم بأن البرتغال ميدان خصب للحروب الصليبية ولا داعى للرحلة الطويلة الشاقة الى الشرق وكان هذا الفرع مكونا من جموع الفلمنكيين والفرزيين والفلاندرز والسكندنافيين والالمان والانجليز وقد وافق البعض وتردد البعض الاخر واخيرا تقدموا لمساعدة البرتغال فى حروبها ضد المسلمين فى بلادهم واستطاعوا انتزاع مدينة الاشبونة ( لشبونة ) الاسلامية بعد حصار دام أربعة أشهر عام ١١٤٧ وذبحوا حاميتها الاسلامية بعد ان امنوها وبعد الانتصار سافر بعض الصليبيين الى الشرق ولكن اغلبهم بقى فى البرتغال والى هذا الحادث يرجع التحالف الطويل الامد بين البرتغال والانجليز اذن الفكرة الصليبية واضحة فى مشروع هنرى الملاح للكشف والاستعمار

الهدف الثانى الوصول الى ذهب السودان عن طريق البحر وتحويل التجارة عن طريق القوافل الى الطريق البحرى والى موانىء المحيط الاطلسى بدلا من موانىء البحر المتوسط على ان هنرى اعلن بعد ذلك انه يريد فتح طريق بحرى الى الهند واماطة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا وتحويل الوثنيين الى المسيحية ومملكة القديس يوحنا هى احدى الممالك المسيحية التى تحدثت عنها اقاصيص الرحالة فى العصور الوسطى، ولكن لم تحدد هذه الاقاصيص موقع المملكة تحديدا واضحا، ولكن مهم أنها تقع فى مكان ما وسط القارة الافريقية ولما لم يعثر البرتغاليون على طول الساحل الغربي لافريقيا على اثر لتلك المملكة فقد رجحوا ان تكون فى الجانب الشرقى للقارة وربما كانوا يعنون بتلك المملكة دولة الحبشة المسيحية معنى ذلك ان منطقة افريقيا الشرقية المواجهة للمحيط الهندى كانت تحقق كذلك جميع الاهداف بالنسبة للبرتغاليين فالامارات التى تنتشر على ساحل افريقيا الشرقى امارات اسلامية، وتخضع لحكومة اسلامية مركزية فى كلوة عاصمة امبراطورية الزنج الاسلامية التى تمتد من مقديشيو شمالا الى سوفالا جنوبا يضاف اليها الممالك الاسلامية الموجودة فى منطقة القرن الافريقى وتناصب الحبشة المسيحية العداء وهى ممالك سبع اشتهرت باسم دول الطراز الاسلامى هذا بجانب ان مناجم الذهب الموجودة فى روديسيا خلف هذه الامارات وقد

ظهر ان العرب يستفيدون من هذه المناجم تم ان مملكة القديس يوحنا تقع قريبة مىها [٦]

ومن العوامل التى أدت الى نحاح هذا المتروع والاستمرار فيه الى نهايته صدور امر بابوى فى عام ١٤٥٦ يثبت حق البرتغاليين فى امتلاك الارض التى يكتشفونها ويقضى بتقسيم المكتشفات الحديدة بين اسبانيا والبرتغال ويجعل الملاحة ما بين عرب افريقيا حتى الهند احتكارا للبرتغاليين بيىما يحتفظ الاسبان بالجرء الغربى من الكرة الارصية

ويضاف الى تلك الاهداف ان اوروبا المسيحية لم تنس ما لحق بها من هزائم انتهت بطرد الصليبيين من العالم العربى. ومنذ ذلك الحين كانت تسعى حثيثاً لايجاد طريق يمكنها من تطويق العالم الاسلامى من الحنوب والسيطرة على التجارة الشرقية مصدر رخاء الشرق وقوته وكانت البرتغال بسبب قربها من مسرح الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى اسبانيا ووقوعها تحت تأثير تجارة جنوة اكثر الدول اهتماما بهذا الامر وحاولت استغلال فكرة الدوران حول القارة الافريقية التى روج لها الجنويون ومع ان التجارة الشرقية كانت سببا هاما فى القيام بهذه الرحلات الا ان المحرك الاساسى كان دينيا. بل ان بعض المؤرخين يصفون هذه الرحلات بانها موجة جديدة فى سلسلة الحروب الصليبية. وقد اجمل عمانويل الثانى ملك البرتغال ( ١٤٩٥ ـ ١٥٢١ ) هده الدوافع عند وصفه لاسباب رحلة فاسكودى حاما الاولى للهند بقوله ان الغرض من اكتشاف الطريق البحرى الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الهند

## احوال المسلمين عند دخول البرتغاليين السواحل الشرقية الافريقية :

منذ تأسيس سلطنة كلوة عام ٩٧٦ م على يد على بن حسن الشيرازى وحتى دخول البرتغاليين الساحل فى نهاية القرن الخامس عشر كانت لهده السلطنة السيادة والنفود على معظم الامارات الساحلية وخلال تلك الفترة ازدهرت تجارة العاج والرقيق والدهب، ونمت تروة المراكز التجارية واتسعت المدن وبلغت مستوى راقيا فى الحضارة. ولم تكن كلوة أقوى دول الساحل فقط بل انها كانت اوفرها حضارة وكانت حضارة ذات مظاهر عربية وفارسية وقد ادخل الشيرازيون اساليبهم فى البناء وفى النقش على الخشب ونسج القطن وشيدوا عدة مساجد ومبان جميلة ما زالت مخلفاتها باقية الى اليوم. وازدهرت الصناعة والزراعة واشتهرت كلوة بالنهضة الادبية والعلمية [٧]

إلا ان هناك عدة عوامل عجلت بسقوط هذه الامبراطورية العظيمة وقد بدأ الافول السياسي لها منذ نهاية القرن الخامس عشر ولم يكن هذا الافول نتيجة ظهور البرتغاليين في شرق افريقيا فحسب، بل كانت هناك عملية تدهور مستمر لهذه الامارات منذ مطلع القرن الخامس عشر تقريبا، ومن اهم العوامل التى اضعفت هذه الامارات تنازعها فيما بينها على السيادة والنفوذ وذلك بجانب الانقسام الداخلي في حكومة كلوة المركزية فقد اشتد بحيث اصبح سلاطين كلوة الاواخر مسلوبي السلطة والنفوذ وهذا بجانب ضعف الروح العسكرية وتفكك القوات لذلك كانت أحوال العرش في كلوة عند ظهور البرتغاليين في شرق افريقيا في حالة يرثى لها فالثابت ان عرش كلوة قد اصابه التصدع والانهيار عقب وفاة السلطان ابى المواهب ( ١٣٠٨ - ١٣٣٤ ) الذى يعتبر من اعظم سلاطين امبراطورية الزنج نفوذا وقوة وقد زار بلاطه الرحالة المعروف ابن بطوطة عام ١٣٣٣ م وشهد بأن عصره يمثل العصر الذهبى لسلطنة الزنج الاسلامية [٨] وبوفاة هذا السلطان العظيم بدأ يخيم الظلام ويعم التدهور والانحلال في جسم الامبراطورية اذ حكم في كلوة سلاطين ضعاف ساعدوا بضعفهم على انهيار هذه الامبراطورية العظيمة . وكانت السلطة الفعلية في البلاد تحت ايدى الوزراء والامراء الذين كانوا اكثر ثراء ونفوذا واستطاعوا بنفوذهم وقبضهم على ناصية الامور إقصاء السلاطين واستبدال آخرين بهم. ومحمد كيواب هو اشهر هؤلاء الوزراء نفوذا واستبدادا وهذا يشبه الى حد كبير حجاب القصور في اواخر الدولة الميروفنجية، ومن نوع صناع الملوك الذين ظهروا في القرن الخامس الميلادى في الشطر الغربى من الامبراطورية الرومانية لذلك عندما وصل البرتغاليون الى ساحل افريقيا الشرقى لم يجدوا سوى بلاط ممزق وقوة عسكرية ضعيفة فضلا عن عدم اتحاد الامارات ووقوفها قوة واحدة ولعل للعامل الجغرافى اثره في ان امبراطورية كلوة هذه لم تكن امبراطورية موحدة من نوع الامبراطوريات القديمة او الامبراطورية الاسلامية، وانما كانت امبراطورية من نوع امبراطوريات العصور الوسطى العربية وابرز هذه الامبراطوريات شبها بها الامبراطورية الانجوفية في القرن الثامن عشر، التى كانت املاكها موزعة بين القارة الاوربية في فرنسا وبين الجزر البريطانية المعزلة عن قارة اوروبا اى انها لم تكن امبراطورية بالمعنى الصحيح [٩]. وهذا ما يسر مهمة البرتغاليين في القضاء على عناصرها المتمثلة في الامارات كل امارة على حدة، دون ان تنهض الاخرى وتنضوى تحت لواء

السلطان الاكبر لمقابلة البرتغاليين قوة واحدة، حقيقة حدث ان تحالفت بعض الامارات معا ضد البرتغاليين، لكن بعد ان فات الاوان وبعد ان سيطر البرتغاليون على شرقى افريقيا، وشنوا حربا متصلة ضد مسلمى الساحل وقد بدأت فترة من الصراع العنيف بين البرتغاليين واهالى المدن الاسلامية الساحلية فقد هاجم هؤلاء كلوة وممبسة ورنجبار وبدأوا اعمال القرصنة ضد مقديشيو وبراوة. وهكذا نرى ان البرتغاليين يتسنون حروبا صليبية صد المسلمين فى شرقى امريقيا ومن المدهش حقا ان من نتائج الحملة الوحشية ان انتشر الاسلام لأن المسلمين تركوا الساحل امام نيران المعتدين ولجأوا الى الداخل حيث اختلطوا بالقبائل فارداد انتشار الاسلام (١)

بدأ البرتغاليون فى ارسال اساطيل ضخمة الى المحيط الهندى وفى الفترة ما بين ١٥٠٠ ـ ١٥٠٩ سيطروا على معظم ساحل شرقى افريقية وأسسوا عددا من المستعمرات وقد نجحوا ليس فقط فى اخضاع امبراطورية الزنج بل اخضعوا البلاد التى حول الخليج بما فيها مدن هرمز ومسقط بالاضافة الى اجزاء من سيلان كما ضموا ملقا ومجموعة جزر الملايو وكثيرا من المناطق والمراكز المنتشرة حولها .

## البرتغاليون وحركة الجهاد فى شرقى افريقيا :

وصل البرتغاليون الى مالندى ( في كينيا الان ) وكان على رأسهم فاسكودى جاما وقد وجدوا ثغرة خطيرة فى مالندى وهى خيانة حاكمها الذى اراد ان يتخلص من تبعيته لسلطان كلوة فارتمى فى احضان الغزاة وقدم لهم جميع انواع المساعدة التى يحتاجون اليها، وكان حاكم مالندى يتمنى ان يجد فى فاسكودى جاما الحليف والصديق ضد امارة ممبسه الاسلامية اد كانت مالندى فى صراع عنيف مع جارتها اللدود ممبسه منذ ان جعل علي بن حسن مؤسس امبراطورية الزنج مالندى امارة تابعة لممبسه وقد طلب داجاما من حاكم مالندى ان يساعده بمرشد ماهر فى الملاحة الى الهند فامده بالملاح العربى النجدى واسمه شهاب الدين احمد بن ماجد السعدى وكان ابن ماجد ينحدر من أسرة خبيرة بفنون الملاحة وامده حاكم مالندى كذلك ببعض الملاحين العرب والهنود. وفى خلال هذه الرحلة تأكد لداجاما اهمية ساحل شرقى افريقيا بالنسبة لامبراطورية البرتغال ، واحتكار تجارة التوابل بين الشرق الاقصى واوروبا واحتكار ذهب شرقي افريقيا لان التجار فى الهند كانوا لا يبيعون الا بالذهب

كانت ممبسه من اكثر الامارات الساحلية التى حاربت البرتغاليين لدرجة ان لقبوها باسم ( جزيرة الحرب ) لانها كانت شوكة فى ظهورهم وقاومتهم بكل بسالة وشجاعة من اجل المحافظة على تقاليدها وتراثها العربى الاسلامى وخلال المائتى سنة التى قضاها البرتغاليون على الساحل كانت ممبسه هى المصدر الرئيسى للثورات والعصيان على سيطرة البرتغاليين وسيادتهم على الساحل الا ان السلاح النارى كان العامل الحاسم فى المعارك وتغلب على الشجاعة والاسلحة البدائية وكان عامل قوة ممبسه وصمودها يكمن فى ازدهار تجارتها وامكانياتها المادية الهائلة وقد اثبتت كل التقارير انه كان لدى ممبسه عند ظهور البرتغاليين على الساحل مخازن وكميات ضخمة من الذهب والفضة والعاج والاحجار الكريمة والاقمشة الهندية والفارسية وكميات وفيرة من الارز والعسل والدواجن بالاضافة الى قطعان الماشية والضأن وكانت تجارتها مزدهرة مع سوفالا وكل امارات ساحل شرقى افريقيا الاخرى، بالاضافة الى دول البحر الاحمر والخليج العربى والهند. (١١)

نظم شيخ ممبسه المقاومة من العرب والافريقيين وانتظمت الجميع روح المقاومة التى امتدت الى زنجبار وبمبا وكلوة ومقديشيو التى اضطر البرتغاليون الى ضربها بالمدافع، وقاومت مقديشيو جميع المحاولات التى بذلها البرتغاليون لاخضاعها لانها تمتعت بمناعة أسوارها وحصونها، واشتهرت بثروتها الضخمة وكثرة عدد سكانها لذا كانت مركزا للمقاومة وظلت تناصب البرتغاليين العداء طوال مدة اقامتهم على الساحل (١٢)

تمكن البرتغاليون من كسر شوكة المقاومة بفضل السلاح النارى الذى يمتلكونه وعندما خلا الميدان لهم انتزعوا التجارة البحرية من العرب وتفرغوا لتنظيم شئونهم فى الساحل الشرقى الافريقى وقرروا منذ البداية الاكتفاء بالاستيلاء على المنافذ البحرية كشرط ضرورى لضمان التفوق البحرى وقسم البرتغاليون الامبراطورية الى أربع مجموعات من المحطات البحرية لكل منها حاكم يعينه نائب الملك فى الهند الذى اتخذ مقره فى جوا بالهند، وهذه المجموعات هى ساحل شرقى افريقيا . وهرمز وتوابعها على ساحل العرب وجزيرة سيلان . وملقا وفيما يختص بشرقى افريقيا، فقد ارتكز البرتغاليون على القسم الجنوبى من الممتلكات العربية الاسلامية بسبب اعتدال المناخ وقرب مناطق الجنوب من مناجم الذهب الداخلية . وفيما يتعلق بالمناطق الشمالية اكتفوا بالاعتماد على محالفة حكام مالندى الذين كانوا يتلقون من البرتغاليين معونة عسكرية (١٣) .

أبدت اليمن ومصر اهتماما شديدا بالغرو البرتغالى ولكن امكانياتهما البحرية كانت ضئيلة فالدولتان لا تملكان اسطولا حربيا يقوى على مواجهة الخطر البرتغالى وفى عام ١٥٠٧ غامر السلطان عامر بن عبدالوهاب الذى كان مشغولا ببعض الفتن الداخلية بحملة واحدة مكونة من اربع عشرة سفينة وستمائة مقاتل بعضهم من الطلاب المتطوعين ضد البرتغاليين فى الهند ولم يعرف شىء عن مصير تلك الحملة ومن قبلهم سعى المماليك لمواجهة البرتغاليين لفك الحصار الذى فرضوه على السفن والتجارة العربية فى المحيط الهندى وتلبية لاستنجاد ملك اليمن بهم (١٤) وكانت خطتهم تقوم على تقوية الحكم المملوكى فى البحر الاحمر وسواحله بما فى ذلك ميناء جده وبخاصة بعد ان اعلن البرتغاليون عزمهم على مهاجمة الحرمين الشريفين وتخريبهما وفى سنة ١٥٠٥ بعث السلطان قنصوه الغورى باسطول حربى بقيادة حسين الكردى فشيد تحصينات جيدة فى ميناء جدة لرفع كفاءتها القتالية ثم استولى على سواكن وزار بعض الموانىء اليمنية ثم عدن ثم خرج لمواجهة البرتغاليين حيث اصطدم بهم امام ديو وتمكن بمعاونة بعض الامارات الهندية من احراز نصر جزئى لم يدم طويلا اذ حلت الهزيمة به فى فبراير سنة ١٥٠٩ فانسحب الى البحر الاحمر تاركا المحيط الهندى تحت سيطرة البرتغاليين الذين زادت جرأتهم (١٥)

ولما تكررت الاعتداءات البرتغالية على البحر الاحمر استنجد قنصوه الغورى الذى كان يعد العدة لمواجهة اخرى مع البرتغاليين فى الهند بالسلطان العثمانى بايزيد الثانى ( ١٤٨١ ـ ١٥١٢ ) يطلب منه مده بالاخشاب والعتاد فامده با يزيد بما يحتاج اليه هدية مضافا اليه نحو الفين من البحارة بقيادة سلمان الريس للمساعدة فى تشييد السفن والمشاركة في حملة الهند (١٦).

وبدخول العثمانيين القاهرة فى ١٣ ابريل ١٥١٧ طويت صفحة عن عهد رائع من انبل العهود الاسلامية كللت فيها مساعى المماليك بالنصر على المغول والصليبيين ولكنها اخفقت فى رد عادية البرتغاليين وورث العثمانيون دولة المماليك وتبنوا سياستها فى مواجهة الخطر البرتغالي والدفاع عن البحر الاحمر وحماية الحرمين الشريفين (١٧)

تفرغ العثمانيون فى عهد السلطان سليمان القانونى الى بلاد الشرق الاوسط وافريقيا فتمكنوا من انتزاع العراق من الصفويين عام ١٥٣٤ وبذلك اصبح العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية فى القسطنطينية وقد سعى الصفويون كثيرا لاسترداد العراق من العثمانيين وتمكنوا بالفعل من الاستيلاء على

بغداد فيما بعد فى عام ١٦٠٢ الا ان حكمهم الجديد لم يستمر طويلا اذ تصدى لهم السلطان مراد الرابع، ودحرهم وافتتح العراق مرة ثانية عام ١٦٣٨. وتابع العثمانيون مجهوداتهم لبسط سيادتهم على سائر اجزاء شبه الجزيرة العربية كاليمن وسواحل البحرين وعدن ومسقط وكان هدفهم الاساسى هو حماية الاماكن المقدسة بالذات من عبث البرتغاليين وغاراتهم المتكررة. وبالرغم من مجهودات العثمانيين الكبيرة لمحاربة البرتغاليين واسقاط نفوذهم التجارى فى شرق افريقيا وتحطيم التطويق البحرى الذى احكموه على الطريق التجارى الى مصر والمنطقة العربية الا انهم عجزوا تماما عن طرد البرتغاليين من الخليج العربى، وضرب نشاطهم فى المحيط الهندى، كما فشلت جهود المماليك فى تحقيق ذلك من قبل واخيرا فقد لقى الاسطول العثمانى هزيمة ساحقة من الاسطول البرتغالى فى جزيرة ديو عام ١٥٣٨ (١٨)

ورغم فشل العثمانيين فى تحطيم الحصار الاقتصادي الذى فرضه البرتغاليون على المنطقة العربية، الا انهم استطاعوا ان يخففوا الضغط على التجار العرب والموانىء والامارات العربية الساحلية فى عمان ومسقط والخليج العربى كما انهم تمكنوا من احباط كل المحاولات لتكوين جبهة مسيحية من البرتغاليين والاحباش ضد القوى العربية الاسلامية فى البحر الاحمر وشرقى افريقيا (١٩)

بهذا الوضع بدأ البرتغاليون منذ ايام السلطان سليمان القانونى يواجهون قوة اسلامية كبرى، وهى قوة العثمانيين الذين بسطوا سيادتهم فى هذه الاثناء على سواحل البحر الاحمر واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع وانشأوا علاقات مع المسلمين فى مصوع التى يحتلها البرتغاليون واسسوا فى كل منها ديوانا للجمارك لتنظيم تجارتهم. وجاء استيلاء العثمانيين على هذه المناطق فى الساحل الافريقى مصدر قلق وخطورة على المسلمين والأحباش على السواء فقد عرفت القوتان المتناحرتان ان الغزاة الجدد يتسلحون باسلحة نارية ومدافع ولن تستطيع احداهما مقاومتهم غير أن المسلمين وجدوا عاملا هاما للارتباط مع الفاتحين الجدد وهو عامل الاتفاق فى الدين فضلا عن ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الدينى بجانب الاهداف التجارية ولدى المسلمين بالحبشة معلومات وافية عنها اما الحبشة فكان الامر مختلفا بالنسبة اليها فهى مسيحية متعصبة لمسيحيتها وليس هناك ادنى احتمال لامكان استعداء الاتراك على المسلمين الاعداء اذن لا بد من محاربة مسلمى الحبشة واحلافهم الجدد لكن اسلحة الاحباش لم تزل حتى ذلك الوقت هى

القوس والنشاب والسيف والاعتماد على الشجاعة والفروسية ونحو ذلك وهذه لا تجدى فتيلا امام الاسلحة الحديثة آنئذ اذن لا بد من عون خارجي متفوق فى التسلح والنظام على العدو الاقوى كما يتفق مع الاحباش فى العقيدة

حينئذ رأت الملكة هيلانه العجوز الوصية على لبناد ( ١٥٠٨ ـ ١٥٤٠ ) ان المخرج الوحيد هو الاستعانة بالدول الاوروبية استعانة جدية فعالة فحين سمعت بانتصارات البرتغال فى المحيط الهندى طلبت مساعدتهم ومن تم توالت البعثات الحبشية الى اوروبا منها ما كان للبرتغال ومنها ما كان للبابا فى روما (٢) .

كان دافع (هيلانه) الحقيقي لارسال هده البعوث الى اوروبا هو املها فى الحصول على مساعدات مسيحية لوقف نشاط مملكة اوفات الاسلامية اكبر دول الطراز الاسلامى فى القرن الافريقى ومن البديهى ان يرحب الاوروبيون باقامة علاقات مباشرة مع مملكة ( القديس يوحنا ) فقد يمكنهم هذا التحالف من ضرب الحركة الاسلامية فى شرقى افريقيا وتطويق العالم الاسلامى من الجنوب وايجاد مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الاحمر لمهاجمة الحجاز ومصر ومن جانب اخر فان هذا التحالف المسيحى قد اقض مضجع العثمانيين الذين كانوا فى غضون ذلك فى صراع من اجل السيطرة والهيمنة على الطريق التجارية البحرية فاقاموا اتصالهم مع مملكة اوفات الاسلامية وذلك لافساد الخطة الصليبية واقتضت مصلحة التحالف والتعاون مع المسلمين فى دول الطراز الاسلامى فى الحبشة تزويدهم بالمعدات الحربية والتأييد المعنوى وانقذهم ذلك من خطر ماحق (٢١)

توالت المساعدات العثمانية لمملكة اوفات وازدادت فى عهد المجاهد الكبير احمد بن ابراهيم الجران ( الأشول ) وذلك لاجهاض حركة التعاون الحبشى البرتغالى الذى ظهر انه يهدد النفود العثمانى فى البحر الاحمر ويهدد الحرمين الشريفين اللذين دخلا فى نطاق الدولة العثمانية. وبفضل المساعدات العثمانية المستمرة تمكن المسلمون من فتح معظم الاراضى الحبشية. وتمكنت مملكة أوفات من توسيع الرقعة الاسلامية ونشر الاسلام في داخل الهضبة الحبشية (٢٢)

على هذا النحو اضحى النضال الاسلامى داخل افريقيا صدى للنضال العثمانى البرتغالى او النضال الاوروبى فى المحيط الهندى والبحر الاحمر ثم البحر المتوسط بعد ذلك. او قل إن نضال الممالك الاسلامية فى شرق افريقية والقرن الافريقى ضد الحبشة أصبح صورة من صور النضال المزمن بين الشرق والغرب وهو

من جانب آخر امتداد لذلك آلنضال القديم بين العرب المسلمين وأوروبا وصداه داخل الجزيرة العربية .

استمرت سيادة البرتغال على معظم ساحل شرقى افريقية حتى القرن الثامن عشر وعند دلك تخلص العرب من الحكم البرتغالى وذلك على يد عرب عمان الذين تمكنوا من طرد البرتغاليين من هذا الساحل وتأسست سلطنة عمان فى زنجبار على يد السلطان السيد سعيد ( ١٨٠٦ ـ ١٨٥٦ ) وحكمت هده السلطنة الساحل الشرقي لافريقيا واصطبغت المنطقة بالصبغة العربية التى كانت لها من قبل وعادت جميعها للحكم العربى الاسلامى ما عدا موزمبيق التى ظلت مستعمرة برتغالية واستمرت السيادة لعرب عمان على معظم اجراء افريقيا الشرقية حتى زوالها ببداية التدخل الاوروبى فى القرن التاسع عشر واصبح شرقى افريقيا محط انظار الاوربيين لمناخه المعتدل ومما شجعهم كذلك نشاط البعثات التبشيرية الكنسية فاستطاعت فرنسا ان تمد نفوذها الى تنجانيقا واستأثرت المانيا بمناطق كثيرة الا ان املاكها صفيت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وتحولت شرقى افريقيا الالمانية الى تنجانيقا البريطانية وتأسست شركة جنوب افريقيا فاعلنت بياسا لاند محمية بريطانية بينما تركت روديسيا الجنوبية والشمالية فى يد الشركة البريطانية حتى تحولت الاولى الى مستعمرة عام ١٩٠٣م ومنحت حق الحكم الذاتى اما روديسيا الشمالية فقد اتحدت احزاؤها سنة ١٩٢٤ ثم اتحدت هذه الاقاليم الثلاثة سنة ١٩٥٣

واستمر الصوماليون يكافحون التدخل الاجنبى والمد المسيحى الصليبى ولكن ما أن انتصف هذا القرن حتى بدأت الحركات الوطنية تؤتى ثمارها وتم الاستقلال .

ولم تتوقف، الهجمات الصليبية الشرسة المتمثلة فى التدخل الاوربى الاستعمارى وابرز ما يتمثل ذلك فى هجمات اثيوبيا المتكررة على الصومال العربى والمساعدات الاثيوبية المتواصلة لاعداء الثقافة العربية والفكر الاسلامى فى جنوب السودان

*****

(١) انطونى سلوى ( ترجمة ) ، افريقيا الجغرافية الاجتماعية ص ١٥ الدناصورى ، جمال الدين ، جغرافية افريقية واستراليا ص ٧٠ القاهرة ١٩٦٨

(٢) ابن الأثير ، ابو الحسن على بن الكرم بن محمد الشيبانى ، ( ت ٦٣٠ هـ ١٢٣٣ م ) الكامل فى التاريخ جـ ٢ ، ص ٥١ ابو الفدا عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ( ت ٧٣٢، هـ/١٣٣٢ م ، المختصر فى تاريخ البشر . جـ ١ ، ص ١٨ ، القاهرة

(٣) طرخان ابراهيم على الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى ، ص ٦٦ وما يليها ، مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ، القاهرة ١٩٥٩

(٤) طرخان نفس المرجع ، ص ٦٨

(٥) طرخان البرتغاليون فى غرب افريقيا ص ٢٢ وما بعدها ، مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون ، الجزء الأول - مايو ١٩٦٣ ، القاهرة ١٩٦٧

(٦) طرخان البرتغاليون فى غرب أفريقيا ص ٢٣

(٧) الشيخ محي الدين ، كتاب السلوة فى أخبار كلوة .

(٨) ابن بطوطة ابو عبد الله على محمد بن عبد الله اللواتى الطنجي ( ت ٧٧٩ هـ/١٣٦٩ م ) تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار القاهرة ١٣٢٢ ص ١٩٤

(٩) الامبراطورية الانجوقية نواتها دوقية نورماندیا بشمالى فرنسا ويرجع قيام هذه الدوقية الى عام ٩١١ زمن شارل البسيط من أواخر الملوك الكارولنجيين ، فقد منح النورمان هذه المنطقة اتقاء لشر غزوهم . اتسعت هذه الدوقية تدريجا وفى القرن الحادى عشر فتح الدوق وليام الفاتح انجلترا عام ١٠٦٦ م ثم توسعت حتى شملت فى زمن هنرى الثانى فى القرن الثانى عشر الميلادى كونتيه انجو ومين وبلوا ودوقيه اكوتين وعرفت بهذا الاسم نسبة الى كونتيه انجو التى كان يحكمها ابوهنرى الثانى . وتضم الامبراطورية

الانجوفية كذلك انجلترا ـ بعض اجزاء من ايرلندا ـ السيادة على استكلندا ـ وفى فرنسا : نورماندیا واكوتين وانجو ومين وبلوا

(١٠) حمدى السيد ، الصومال ، ص ٤٨٩ ـ ٤٩١ ، مقديشو ١٩٦٥ .

(١١) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم ، زنجبار ، ص ٢٦ ، القاهرة ١٩٥٩

(١٢) ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن عمر الديبع ، الفضل المزيد على بغية المستفيد مخطوط ، دار الكتب المصرية ، رقم ١١ تاريخ ورقة ٣٨ ، ابو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله ( ٨٧٠ هـ ١٤٦٥/٩٤٧ ـ ١٥٤٠ م ) قلادةالنحر فى وفيات اعيان الدهر ، جـ ٣ تحقيق ودراسة محمد عبد العال احمد ، الاسكندرية ١٩٧٣ ، ص ٩٩ نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٤٤

(١٣) زنجبار ، ص ٢٢

(١٤) ابو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل ، الروضتين فى اخبار الدولتين ( بدون تاريخ ) ، جـ ٢ .

(١٥) محمد زغلول عبد ربه ، البرتغاليون فى البحر الأحمر ( ندوة البحر الاحمر ، عين شمس ، القاهرة ، عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى المجلة المصرية التاريخية ، المجلد ١٤ ز ١٩٦٨ ) ١ ـ ٤٣

(١٦) عبد الرحيم عبد الرحمن النشاط والتجارة فى البحر الأحمر فى العصر العثمانى ١٥١٧ ـ ١٧٩٨ ، ندوة البحر الأحمر ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٩ .

(١٧) محمد احمد انيس الدولة العثمانية فى الشرق العربى ، القاهرة ( بدون تاريخ ) محمد امين صالح ، تجارة البحر الأحمر فى عصر المماليك الشراكسة ، ندوة البحر الأحمر ، عين شمس ، ١٩٧٩

(١٨) ديو مرفا تجارى هام على الساحل الغربى للهند انظر السيد مصطفى سالم الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥ ) القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٦٠

(١٩) راشد البراوى ، الصومال ، ص ٢١ ، القاهرة ١٩٦١

(٢٠) السيد مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٦٨

(٢١) قلادة النحر ، جـ ٢ ، ص ١١١ ـ ١١٣ ، ١٢٣ ـ ١٢٥ . يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى تحقيق وتقديم سعيد عاشور ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٦٨ .

(٢٢) الامام احمد بن جرا ( الجران ) كلمة جرا او جر الصومالية اليد اليسرى ، وجرا معناها الأشول او الأعسر ، انظر عرب فقيه ، شهاب الدين احمد بن عبد القادر الجيزانى ، تحفة الزمان او فتوح الحبشة حققه فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢١٩ .

# احمد بن ماجد وجهوده في الملاحة

## رحلة سليمان السيرافي من الكتابات الرائدة في

## ابن ماجد قدم للبحرية العالمية ثروة هائلة من

احمد بن ماجد بن محمد السعدى، شهاب الدين، المعروف بأسد البحر كما لقب بالمعلم، يعتبر من اشهر ربابنة العرب وابرز علماء فن الملاحة، وأعرفهم بمسالك البحار، له التاليف النافعة في الملاحة وعلم البحار وهو الذى اخترع الإبرة المغناطيسية والتى كانت العامل المهم في تسهيل معارف طرق البحر واتجاهات المسالك. لم يتيسر لنا تاريخ مولده، الا اننا يمكننا تحديد تاريخ وفاته على الارجح بحدود سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨ م.

ان العرب منذ القديم وهم يركبون البحر ولهم فيه خبرة كبيرة ومعرفة جيدة، وقد وصفهم المقدسى بقوله: « ورايتهم من ابصر الناس به وبمراسيه وارياحه وجزائره، فسالتهم عنه وعن اسبابه وحدوده، ورايت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها ».

# البحرية

## الرحلات العالمية

## المعلومات القيمة

بقلم : الدكتور حسين أمين

ولعل أول رحالة عربى اسلامى قام برحلة سجلها بشكل وثائقى هو سليمان التاجر السيراف الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وقد سجل هذا الرحالة الاسلامى رحلته بشكل دقيق وما شاهده من العجائب فى الهند والصين واندونيسيا، وهو من كبار تجار المسلمين المغامرين سار من بلده سيراف الى سواحل الهند والصين واندونيسيا ونزل فى موانئها وابتاع من البضائع المختلفة واتصل باهلها ودرس أحوالهم، وبين لنا صورة واضحة لمسالك البحار والخلجان وما جابه من المصاعب والاهوال وما صادفه من العجائب والغرائب كما ذكر أهم البضائع التجارية التى يتاجر بها الرواد من البحارة العرب .

وأمدنا سليمان السيراف بملاحظات قيمة عن حياة الناس فى الاماكن التى ارتادها مثل سكان الهند والصين وبين

وضعهم السياسى وعقائدهم الدينية وحالتهم الاقتصادية وأهم منتجاتهم الزراعية والصناعية، ومن يطالع ما اورده سليمان السيرافى فى مذكرات رحلته يتلمس انه أمام شخصية على جانب كبير من الفهم الجغرافى والتاريخى والاجتماعى، وانى أرى ان رحلة السيرافى من الكتابات الرائدة فى مجال الرحلات العالمية

كما يعتبر المسعودى الرحالة البغدادى المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧ م من الرواد الكبار والذى جاب البحار وأفادنا بمعلومات قيمة عن مشاهداته العديدة، وهو من الذين ركبوا البحر من بلاد عمان مع جماعة من نواخده السيرافيين وهم أرباب المراكب، وزار الهند وسيلان وزنجبار وجزيرة مدغشقر كما زار مناطق اخرى فى العالم الاسلامى، واخيرا حل بمصر حيث توفى هناك، وهو الاخر إتسم وصفه لمشاهداته بأنه وصف خبير مجرب وله ملاحظات قيمة فى مجال الرحلات البحرية النادرة فى التاريخ

وتتابع الرحالة المسلمون فى مراحل التاريخ المختلفة مثل ناصرى خسرو المتوفى ٥٤٢هـ/١٠٦٠ م والشريف الادريسى ت/٥٦٠هـ/١١٦٤ م وابن جبير ت/٦١٤هـ/١٢١٧ م وابن بطوطة ت/٧٧٠هـ/١٣٦٩ م، وغيرهم كثيرون كانوا امثلة رائعة فى تقديم المعلومات القيمة والتى ساعدت على تسهيل الرحلات وركوب البحار وازدهار التجارة العالمية ووصف المدن والبلدان والبحار وأحوال الناس وحياتهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

ونلاحظ ان علم الجغرافية والرحلات الجغرافية والتجارة العربية الاسلامية ازدهرت بشكل مطرد مع قوة المسلمين ودرجة ثبات حكمهم والتعاون الوثيق مع حكوماتهم المختلفة، وتطورت وسائل البحرية العربية الاسلامية من بناء السفن بأنواعها المختلفة وإستخدامهم البوصلة للدلالة فى البحار والخرائط التى تبين طرق الملاحة الصالحة، ومواقع الموانىء الآمنة، وكذلك فان ضعف حكومات المسلمين بشكل عام وسيطرة الاجانب عليهم، سبب ضعفا فى عملية الملاحة واضطراب امورها كما فسدت التجارة وارتبكت الاحوال الاقتصادية فى عموم العالم الاسلامى، الا انه بالرغم من كل هذه المعوقات فقد حاول الكثير من البحارة والملاحين العرب وبخاصة اولئك الذين كانوا يقيمون فى منطقة عمان والخليج العربى بشكل عام جوب البحار والقيام برحلات بحرية لنقل البضائع التجارية بين مناطق الخليج العربى ومناطق الهند وجنوبى اسيا وغيرها من المناطق الاسيوية والافريقية .

ولعل ابرز من ظهر فى البحار العالمية فى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى هو الملاح العربى الذائع الصيت احمد بن ماجد الذى كان المثل الرائع للربان العالم والخبير ذى التجارب الكثيرة والذى قدم للجغرافية بعامة وللبحرية العالمية بخاصة فوائد نافعة ساعدت على اختصار طرق الملاحة وازدهار التجارة بين عموم البلدان، وأبعدت السفن عن مواقع الخطر والهلاك، كما قدمت للبحارة معلومات قيمة عن مسالك البحار وظروفها الجغرافية المختلفة .

ويبدو أن ابن ماجد ورث الخبرة العالمية في العلوم البحرية عمن سبقه من العرب الذين عاشوا في العصر العباسي المتأخر بخاصة، وقد ذكرهم في كتابه المعروف بالفوايد وهم محمد بن شاذان وسهل بن ابان والليث بن كهلان، وقد أشاد بعلمهم وخبراتهم كما ذكرهم في شعره، كقوله

يا ابن شادان ياسهل وتالتهم
السابقين بعلم معجب حسن
علم نفيس ولكن من تداوله
سواكم فهو منسوب الى العبس
حلفتموني وحيدا في الزمان وقد
كنتم تلاثة أحبار على الرمس

وقد نعتهم ابن ماجد بالليوث اى ليوث البحر لخبرتهم وتجاربهم الكثيرة وشجاعتهم ونجاحهم في ركوب البحر، ويبدو ان ابن ماجد استقى من خبراتهم ومعلوماتهم كما استفاد من تجاربهم، الا اننا لم يصلنا شيء من اثار اولئك التلاثة المشاهير، وأخذ ابن ماجد وبمرور أيام حياته في اسقاط كل المعلومات الخاطئة التي اتبعها الملاحون الذين سبقوه، وصار يتبع الاساليب العلمية الناجحة في تحقيق اهدافه في الملاحة ، وقد بدا ذلك بوضوح في كتاباته وتآليفه وأراجيزه المشهورة واشعاره المتوازنة، ومن يطالع كتاب الفوايد ، الذي هو باعتقادي من أثبت الكتب التي تعنى بالأسفار البحريه يجد نفسه امام شخصية علمية فذة ذات تجارب وخبرة عظيمة استمدها من تمريناته وتدريباته مع العديد من البحارة العرب ومن أصالة تربيته، لقد انحدر احمد بن ماجد من أسرة عمل معظم افرادها بالملاحة وكان أبوه وجده معلمين، والمعلم في مصطلح اهل البحار الشخص الذي لديه إلمام تام بالسفن او بغاطسها اذا كان كبيرا او صغيرا ولديه دراية بعلم الفلك وقدرة على تحمل المسئولية في قيادة السفينة وسلامتها وأمن من في معيته من العاملين معه في السفينة، كما يكون على معرفة بمواقع الموانيء والشواطيء المختلفة والجزر والشعب المرجانية والمياه الضحلة والهضاب والجبال، وعليه أن يكون آخر من يترك السفينة في اى طرف كان وبذلك يحفظ السفينة وأحوالها ويكون أهلا لقيادتها، ويعرف المعلم ايضا بالربّان، ويدعى والد احمد بن ماجد بربّان البرين اى ساحلي البحر الاحمر، هذا وكان والده ايضا قد دون ملاحظاته وتجاربه البحرية في أرجوزته المعروفة بالارجوزة الحجازية والتي ضمت اكثر من الف بيت في وصف الملاحة على سواحل البحر الاحمر، وكانت تجارب احمد بن ماجد مع والده ذات اثر في اجراء التصويب على المعلومات التي ورثها عن والده وجده معتمدا على ملاحظاته الخاصة والمعلومات التي استمدها من تجاربه وخبراته في هذا الباب، يقول ابن ماجد « كان جدي نادرة في معرفة احوال البحر، واستفاد منه والدي، وقد اخذت أنا علم الرجلين مع كثرة التجربة » وفي موضع آخر يذكر ابن ماجد « كان جدي محققا في علم البحر مدققا، وزاد عليه الوالد بالتجريب والتكرار، وفاق علمه علم أبيه، فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريبا من أربعين سنة حررنا وقدرنا علم الرجلين النادرين » .

ويقول ابن ماجد « ان والدي نظم الارجوزة الحجازية ومع ذلك كله قد

أصلحنا له منها ما رأينا فيه الخلل، وكانت ارجوزة الوالد خيرا لى من حميع ميراثه الذي تركه لى كله »

حقا ان ابن ماجد نادرة من نوادر النتاج الحضارى الانسانى فهذا العربى الذى ظهر فى رأس الحيمة وقد تحلى بالصبر والأناة والعلم العزير والثقافة الواسعة، وتمثلت فيه صفات الرجولة المثالية من شحاعة واقدام وتواضع وتسامح وإرادة قوية على احكام القيادة وإدارة السفن بشكل يستحق الانتباه والتقدير والاعحاب

ان ابن ماحد ترك ثروة طائلة من المعلومات الحعرافية التى استفاد منها الاحانب بشكل حاص، ولم يهتم بها الا القليل من ابناء العروبة، فاردهرت تجارة الاوروبين وتقدمت سفنهم وتخلفت تجارة العرب وضعفت حركتهم البحرية، ولعل من ابرر مؤلفاته كتاب الفوايد فى اصول علم البحر والقواعد، ويدكر ابن ماجد انه إختصر كتابه هذا من عشرة احزاء كان قد الفها فى موضوع علم البحر خشية الاطالة، وانه ألف هدا الكتاب بعد تحارب وحبر امتدت لخمسين عاما

إن كتاب الفوايد الدى صنفه ابن ماحد وضع له مقدمة أبان فيها الهدف من تصنيفه لهدا الكتاب، وذكر فى متن الكتاب اثنتى عشرة فائدة، تكاد تكون كل فائدة تحتص بموضوع ملاحى، ففى الفائدة الاولى بين اصل كل أساس من أسس علم البحر، واوضح فى الفائدة الثانية قواعد علم البحر وما ينبغى لقائد السفينة ان يعرفه من القضايا والمهمات الجغرافية والطبيعية المختلفة مثل المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والقياسات والإشارات وحلول الشمس والقمر فى البروج والمنازل، والارياح ومواسمها ومواسم الاسفار وآلات السفينة وما تحتاج اليه وما يضرها وما ينفعها ومطالع النجوم ومغاربها والبرود وعلاماتها

ومن المفيد ان نشرح هذه المصطلحات التى وردت فى الفايدة التانية، فالمنازل جمع منزلة، ذلك ان العرب قسموا الفلك لنزول القمر الى تمان وعشرين منزلة، منها اربع عشرة منزلة فى النصف الشمالى منها سبع منازل لبروج الصيف ومثلها لبروج الحريف ، واربع عشرة منزلة فى النصف الجنوبى، سبع منازل لفصل الشتاء ومثلها لفصل الربيع

والاحنان جمع خن، وعلماء البحر قسموا الدائرة الافقية المحيطة بسطح الكرة الارضية الى اتنين وتلاتين حرءا وكل حزء يعرف بالخن، ويعرف الخن ايضا ببيت النجم وبيت الريح، والحن فى اللغة العربية يعنى مدخل الطريق اما الدير جمع ديرة وهو جهار لقياس سير السفينة، ويعرف ايضا بالبوصلة

اما الباشيات فهى قياسات صعود ونزول نجم الجاه فى مداره حول القطب اما القياسات جمع قياس فهى عملية فلكية يستخدم فيها الاسطرلاب متلا لتحديد مكان او طريق السفينة او الآلة التي تحدد ارتفاع النجوم اما الاشارات جمع اشارة فهى مصطلح بحرى يعنى تحديد وجهة الطريق ومكان الميناء

والبروج وعددها اثنا عشر برجا واطلق الفلكيون على كل برج اسم لحلول الشمس فيه اما البرور جمع بر اى الارض او الجزيرة، والعلامات جمع

علامة وفى مصطلح اهل البحر الاشارة التى يستدل بها على الاقتراب من الارض مثل الطيور او الاسماك او طحالب الماء .

وفي الفائدة الثالثة وصف ابن ماجد المنازل ومنافعها للملاحة البحرية كما وصف نجومها وقياساتها وباشياتها ومواقعها فى البروج

واخذ ابن ماجد فى الفايدة الرابعة فى وصف كواكب الاخنان وقياساتها وبيت الابرة والتى تعنى البوصلة وخصص الفايدة الخامسة الى ما يحتاج الملاحون معرفته لفصول السنة والتقاويم وبين فى هذه الفايدة ما ابتكره فى فن الملاحة

وجعل ابن ماجد الفايدة السادسة لشرح الدير، وفى الفايدة السابعة اخذ فى شرح الباشيات والقياسات، اما الفايدة الثامنة فجعلها خاصة باشارات البرور وعلامات الاقتراب من اليابسة كما بين صفات المعلم الناجح وفى الفايدة التاسعة وصف دورة البحر فى جميع الدنيا، وفى هذه الفايدة اخذ ابن ماجد فى وصف جميع سواحل العالم المعروفة عند الملاحين العرب

وفى الفايدة العاشرة قدم ابن ماجد وصفا للجزر المشهورة والمعمورة، وفى الفايدة الحادية عشرة بين مواسم السفر من بر العرب وبر الهند والسند وجزيرة القمر الى بر الزنج ( الصومال ) اما الفايدة الاخيرة وهى الثانية عشرة فقد خصصها فى وصف السفر فى البحر الاحمر ومجاريه وجزره وشعابه والمناطق الخطرة والآمنة فيه مبتدئا من ميناء جدة الى باب المندب

ونظم ابن ماجد العديد من الاراجيز وتكاد تكون كل ارجوزة تخص موضوعا بحريا معينا او أنها تخص الكلام على طريق بحرى معين، ومن اراجيزه المشهورة قبل كتابته كتاب الفوايد ارجوزته الكبيرة المعروفة ( حاوية الاختصار فى اصول علم البحار ) والتى نظمها فى مدينة رأس الخيمة مسقط رأسه، وهى مكونة من احد عشر فصلا يكاد كل فصل يخص احد المواضيع البحرية، ويمكن اعتبار هذه الارجوزة مختصرا لعلم الملاحة البحرية، واوضح ابن ماجد فى الفصل الاول العلامات التى تشير الى قرب الساحل، مثل الطحالب والطيور والاسماك وغير ذلك وفى الفصل الثانى بحث فى منازل القمر وبيوت البوصلة وفى الاصابع، والاصابع وحدة قياس المسافة بين القطب والنجوم المجاورة والافق

وفى الفصل الثالث بحث فى مسائل التوقيت، وخصص الفصل الرابع لموضوع المواسم، وأجمل ابن ماجد فى الفصول الخامس والسادس والسابع والثامن الكلام على طرق الملاحة البحرية المختلفة فى البحر العربى والمحيط الهندى، وبحث فى الفصل التاسع فى موضوع الارصاد وبحث فى الفصلين العاشر والحادى عشر فى مسائل مختلفة تتعلق بالملاحة

ومن أراجيزه المشهورة، أرجوزة تحفة القصاة والتى تصف طريقة ايجاد القبلة اى موقع مكة المكرمة بواسطة خطوط الطول والعرض او بالبوصلة وأرجوزة بر العرب فى الخليج العربى وفيها وصف جذاب لجزيرة البحرين وخارج وداس وخيرى وطنب وهنجام

ومن الجدير بالذكر ان ابن ماجد قدم

للبحرية العالمية ثروة طائلة من المعلومات القيمة التى ساعدت على تطوير الملاحة واختصار طرقها وتحديد اماكن الامان لسيرها، وهدا فى اعتقادى اهم انجاز عالمى قدمه هذا العربى الخليجى فى عصر كانت فيه المنافسات والصراعات على اشدها بين الدول الاستعمارية

ان الثقافة البحرية الواسعة التى حصل عليها هذا الملاح العربى واعتماده الكبير على البحث العلمى والتجارب الميدانية التى قام بها مدة طويلة من الزمان جعلت من ابن ماجد الربان الاول فى عصره اضافة الى ما كان يتحلى به من الصبر والصدق والفراسة والشجاعة والحزم فى تثبيت حكمه وهو القائد والربان لسفينته

يعتبر ابن ماجد من ابرز الملاحين فى العالم فى ضبط القياس، والقياس عند الملاحين هو ارتفاع النجم عن الافق، والاصبع هو وحدة القياس عند ملاحى البحار والمحيطات وبخاصة بحر العرب والمحيط الهندى، وكان ابن ماجد يستعمل الاصبع العادية فى القياس، جاء فى قصيدته المعروفة خريدة الفرائد قوله

ومن قاس فى جاه اربع بسماكه
فخمسا يراه فى اناملـه العشر

ويعنى ابن ماجد ان من يريد قياس كوكب السماك فى الموضع الذى يكون قياس الجاه عنده اربعة اصابع فانه يرى قياسه خمسة اصابع من اصابع يديه، وذكر ابن ماجد ايضا فى قصيدته المعروفة بالملكية

اصابع سبعا قستهم بانامـلى
وينقص ربعا ليس فيه مكاثـر

ومن الجدير بالذكر ان وسيلة ابن ماجد فى القياس اثنا عشر عودا وقد صنفها حسب اطوالها العيدان الصغيرة والعيدان المتوسطة والعيدان الكبيرة، وبين شروط قياس كل مجموعة ويذكر ان ابن ماجد امضى خمسين سنة من عمره فى دراسة القياسات وضبطها

وقد ضبط ابن ماجد النجوم والكواكب واعطى لكل المهتمين فى شئون الملاحة قياسات دقيقة ومضبوطة عادت على حركة الملاحة العالمية بالفوائد الكبيرة

وقد ابدع ابن ماجد فى توضيح مواسم الرياح والاوقات الصالحة للاسفار، وقد عين اوقاتا محددة فى صلاحية السفر بها مما يدل على خبرته الواسعة، كما حدد عدم صلاحية البحر فى منتصف شهر أيار ( مايو الى الثلث الاخير من شهر آب ( اغسطس )

قال ابن ماجد فى الحاوية

مـن اول المـائتـين يـافطينـا
لأول المـائتـين والتسـعينـا
فهـذه التسعـون فيهـا الغلقـا
حقيق من حـاز بهـا ان يشقـا

وهذا اصدق دليل على اصالته فى معرفة البحر ومواسمه وبذلك يكون ابن ماجد قد قدم أجّل خدمة لزملائه البحارة فى الوطن العربى والعالم، لتدارك الاخطار والمهالك

وابن ماجد ونتيجة لهذه الخبرات الكبيرة فى الملاحة نراه يبرّز فى ناحية مهمة من اعمال البحر، ذلك انه على معرفة كبيرة بالعلامات البحرية والتى تعتبر من اهم اسس فن الملاحة، لأن معرفته بتلك العلامات ابعدته عن الكثير من المخاطر

وجعلته على معرفة تامة بمجارى البحر ومواقع الجزر ومقتربات البرور

وقدم ابن ماجد نصائح للبحارة عامة تعينهم على النجاح والوصول الى هدفهم بسلام، فمن نصائحه

( تأمل السفينة وهى فوق الارض، واكتب جميع خللها ) ثم يستدرك ويقول ( وقليل فى زماننا من يفعل ذلك من الناس ) ويقول ( ولا ترى خللا وتهمله الى وقت آخر، الا عند الضرورة اشد مما انت فيه ) ويقول ( وتأمل جميع آلات السفينة خصوصا فى السكان فى كل حين وساعة ) ويقول ايضا ( ينبغى اذا احد الانسان من شخص علما او من تصنيفه فعليه ان يشكره، ويدعو له فى حياته وبعد مماته ) .

وغيرها من الوصايا والنصائح الكثيرة والتى تجمعت لديه نتيجة خبراته العظيمة وتجاربه لسنوات طويلة من العمل الدائب المستمر، ويؤيد قولنا هذا ما يذكره ابن ماجد نفسه فيقول ( وما صنفت هذا الكتاب اى ( الفوايد ) الا بعد ان مضت لى خمسون سنة )

وابن ماجد الملاح العربى هذا كان يهتدى بآلات صنعت بايد عربية خالصة كما كان يستخدم الخرائط التفصيلية للبحار والمحيطات التى كان يجوبها، ويذكر المؤرخون ان فاسكودى جاما عرض على ابن ماجد عند مقابلته إياه، آلاته البحرية البرتغالية التى كان يستخدمها للدلالة، فعرض عليه ابن ماجد الآلات البحرية العربية المثلثية والمربعية الشكل لقياس ارتفاع الشمس والنجم القطبى على الخصوص، كما أراه خرائط تفصيلية للمحيط الهندى وشرقى افريقيا والجزيرة العربية وهى قائمة على حسابات دقيقة على خطوط طول وخطوط عرض متوازية ذلك الامر الذى كان الاوربيون يجهلونه، فاعجب فاسكو دى جاما بفطنة وذكاء الملاح العربى ونجح فى اقناعه بتقديم المساعدة له فى تحقيق رغبته للوصول الى الهند، ووافق ابن ماجد على تقديم مساعدته الانسانية والعلمية لذلك المغامر البرتغالى وحقق له ما اراد، وبذلك انفتح الطريق امام الاوروبيين ، ذلك الطريق الذى كان له الاثر الكبير فى تغيير معالم الحياة الإقتصادية والسياسية فى العالم

يشير الى هذه الحادثة المؤرخ النهروالى فى كتابه البرق اليمانى ويقول فلا زالوا ( اى الاوربيين ) يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى ان دلهم الى معرفته شخص ماهر يقال له احمد بن ماجد

ويعترف الاوربيون بفضل هذا الملاح العربى وتحدثوا عن مقابلة دى جاما لابن ماجد وذكروا أن دي جاما لما رأى قيمة هذا الكنز الذى ظفر به أحب الاحتفاظ بهذا المعلم المسلم واقلع متوجها الى الهند، فاجتاز البحر الكبير وطوله ٦٠٠ فرسخ فى ٢٢ يوما دون ان يلقى فى طريقه عقبة او مشقة بفضل ارشاد الملاح العربى ابن ماجد

وقد امتدحه المؤرخ التركى الاميرال سيد على بن حسين الذى عاش فى اواسط القرن السادس عشر، وعند زيارته للبصرة رأى ان ابن ماجد قد ذاع صيته وان كل الملاحين يشيدون بفضله، وذكر هذا المؤرخ ( وجمعت الكتب التى الفها الملاحون الماهرون مثل احمد بن ماجد من اهل جلفار، والحقيقة انه كان من الصعب

علينا السفر من المحيط الهدى بدون الاطلاع على هده المؤلفات ) .

ويعتبر غابرييل فيران من الباحثين الرواد الذين تتبعوا جهود احمد بن ماجد ونشر بعض مؤلفاته تحت عنوان ( المرشد البحرى العربى لفاسكو دى جاما ) وقد اشار فيران الى فضل ابن ماجد على الملاحة العربية، وبعد فيران قام المستشرق الروسى تيودور شوموفسكى بتحقيق ونشر مخطوطه لينتجراد المتضمنة ثلاث اراجيز لاحمد بن ماجد تحت عنوان ( ثلاث ازهار فى معرفة البحار )

هـذا ويعتبر المستشرق الـروسى كراتشوفسكى من ابرز الشخصيات العالمية التى اهتمت بدراسة الملاح العربى ابن ماجد واثنت الثناء العاطر على جهوده وانجازاته العلمية واثره فى تطوير حركة الملاحة البحرية العالمية

عاش ابن ماجد طوال عمره فى شغل شاغل وهو متعلق بالبحر وبالمراكب ومع زملائه الملاحين، ولكنه بناء على ما امتاز به من الفطنة والذكاء والصبر والشجاعة وما جمع من ثقافة واسعة، كان هو المؤهل ابدا لأن يكون بحق اسد البحر ورابع الليوث وشاعر القبلتين مكة والقدس، كما حظى باحترام وتقدير كل الذين عاصروه والدين جاءوا بعده

إننا اذ نقدر ونقيم جهود هذا الملاح العربى الفد انما نقدر فيه روحانيته الاسلامية السمحة، ونكبر له نفسيته الأبية المتواضعة، ونفخر بشموخه وكبريائه واخلاصه واعترافه بالفضل لكل الذين سبقوه وتعلم منهم

إن سيرة احمد بن ماجد صفحة مشرقة من صفحات تاريخنا العربي، هنيئا لامارة رأس الخيمة بابنها البار صاحب الفضل العظيم على العالم بما قدم من جهود ممتازة فى تطوير الملاحة واثر كبير فى اختصار الطرق البحرية التى ادت الى ازدهار التجارة العالمية وتنشيط حركة المواصلات البحرية وهنيئا للامة العربية التى انجبت هذا العلم الذى يمثل بصدق تراث الامة وحضارتها الخالدة

★★★★★

- ابن بطوطة   تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار
- ابن جبير   رحلة ابن جبير
- ابن ماجد

  ١ ـ ثلاث أزهار في معركة البحار

  تحقيق شوموفسكي

  ترجمة محمد منير علي

  ٢ ـ كتاب الفوايد في اصول علم البحر والقواعد

  تحقيق ابراهيم خوري

  وعزة حسن

- الاصطخري   المسالك والممالك
- الحموى   معجم البلدان
- سيدى علي رئيس   المحيط طبع في احمد آباد
- المسعودى   مروج الذهب ومعادن الجوهر
- المقدسي   احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم
- النهروالي   البرق اليماني في الفتح العثماني


## الدراسات الحديثة :


- اسماعيل سرهنك   حقائق الاخبار عن دول البحار
- انور عبدالعليم   ابن ماجد الملاح
- جورج حوراني   العرب والملاحة في المحيط الهندي .
- حسن صالح شهاب   علوم العرب البحرية من ابن ماجد الى القطامي
- زكي محمد حسن   الرحالة المسلمون في القرون الوسطى
- علي البصرى   رحلة السيرافي الى الهند والصين
- كراتشوفسكي   تاريخ الادب الجغرافي العربي
- لوريمر   دليل الخليج

# العلاقات التجارية بين

# ...كما يعكسها البلدانيون العرب

# الخليج العربي وشرق أفريقيا في العصر الوسيط

كان لسكان الخليج العربي صلة قديمة بشرق أفريقيا ، ويبدو من المعلومات المتوافرة بين أيدينا ان التجارة كانت الحافز الاول والأهم في هذه الصلة . فقد كانت مصالحهم في ساحل شرق افريقيا هي امتداد لتجارتهم في الخليج العربي والبحر الاحمر والمحيط الهندي بصورة عامة . فالتجارة التي دفعت العرب الى الابحار الى شرق افريقيا حاملين معهم المواد التي يرغب بها سكان تلك المنطقة ، ليأخذوا بدلها منتجات الشرق الافريقي ، جعلتهم اقدم من عرف افريقيا الشرقية وأول من اتصل بسكانها(١)

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي

ظل الاتصال بين الخليج العربي وشرق افريقيا ينمو ويتسع قبل الاسلام ، وساعد في ذلك جملة عوامل نذكر منها ، الطبيعة المناخية لشرق افريقيا والتي يسرت الملاحة في الخليج العربي ، ونقصد بذلك حركة الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي والتي مكنت السفن العربية الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود ففي شهر تشرين الثاني من كل سنة تبدأ هذه الرياح بالهبوب من الشمال والشمال الشرقي ولمدة اربعة أشهر فتنطلق السفن العربية معها من الخليج العربي الى ساحل افريقيا الشرقي ، أما في شهر نيسان من كل سنة فتنعكس العملية حيث تبدأ هذه الرياح بالهبوب من الجنوب والجنوب الغربي لمدة اربعة أشهر أخرى فيخرج العرب بسفنهم التجارية معها من شرق افريقيا للعودة الى اوطانهم[٢] . وقد ظلت الرياح الموسمية هذه سرا من الاسرار التي احتفظ بها التجار العرب (والهنود) لانفسهم ، والتي مكنتهم من السيطرة على التجارة مع شرق افريقيا ، الى ان تمكن ملاح اغريقي في القرن الأول الميلادي من كشف اتجاه هذه الرياح[٣] . كما كان لعرب الخليج من الامكانيات ما سهل لهم عملية الاتصال بشرق افريقيا عن طريق البحر ، مثل المهارة الملاحية الناجمة عن البيئة البحرية التي عاشها سكان الخليج ومعرفتهم الجيدة بالفلك والانواء . اما القرب المكاني بين سواحل الخليج والسواحل الشرقية لافريقيا فقد شجع سكان الخليج على الاتصال بشرق افريقيا ، وأخذ دور الوسيط التجاري في نقل منتجات شرق افريقيا وبضائعه الى الاسواق العالمية التي كانت تطلبها . ولم يكتف العرب بهذا الدور ، اذ بسبب التفاوت الزمني للرياح الموسمية صيفا وشتاء ، فقد اهتموا بايجاد مراكز ومحطات تجارية لهم في الساحل الافريقي الشرقي استخدمت كأسواق للتبادل التجاري ، وبصورة تدريجية تحولت هذه المراكز الى اماكن استقرار مؤقت او دائم للعرب وهي التي مكنتهم من متابعة أعمالهم التجارية[٤] ويبدو ان المستقرين العرب الاوائل في ساحل افريقيا الشرقية ، كانوا أول حلقة اتصال بين الخليج العربي وسواحل الجزيرة العربية وبين افريقيا الشرقية

واذا كانت الصفقات التجارية قد جذبت عرب الخليج الى شرق افريقيا قبل الاسلام ، فإن ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي قد رافقه تغير تام في علاقات الخليج العربي بالشرق الافريقي ، ونقصد بذلك ان أول خطوات الاستقرار الدائم واقامة كيانات عربية اسلامية في شرق افريقيا كانت على يد عرب الخليج فالصلة بين المنطقتين لم تقم على أساس التبادل التجاري فقط ، بل زادت

العلاقات وتنوعت في مختلف المجالات ، ولعل ما يؤكد ذلك الآثار التي ترتبت على الهجرات العربية الى شرق افريقيا في مجالات الدين ، واللغة والجنس ، والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها

ومما يجدر ذكره ان العوامل القديمة ظلت تلعب دورها في جذب عرب الخليج المسلمين على الهجرة الى الساحل الافريقي الشرقي والاستقرار فيه فأهل الخليج استمروا على ما كانوا عليه قبل الاسلام ملاحين يتمتعون بمهارة فائقة ، وتجارا بارزين مشهودا لهم بالخبرة ، كما ظلت موانيء الخليج بعد الاسلام مراكز تجارية مزدهرة تنطلق منها السفن الشراعية باتجاه الشرق الافريقي ، وظلت الرياح الموسمية تتحكم في مسير هذه السفن الى شرق افريقيا وفضلا عن ذلك فإن هناك عاملا جديدا هو بعد منطقة شرق افريقيا عن الصراعات السياسية والدينية التي شهدتها الدولة العربية الاسلامية في العصر الوسيط ، الامر الذي جعل افريقيا الشرقية محط أنظار الهاربين من الاضطهاد أو الاندحار السياسي .

والملاحظ ان الهجرات من الخليج العربي الى ساحل شرق افريقيا قد بدأت متقطعة منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي وزادت بصورة تدريجية ، وأولى هذه الهجرات هي هجرة عمانية من قبيلة الأزد بقيادة سليمان وسعيد من بني الجلندي . وكانت أسرة الجلندي قد سيطرت على عمان حتى نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي(٥) ، وفي أيام حكم الاخوين سليمان وسعيد اصبحت عمان ملجأ لبعض العناصر المناهضة للحكم الاموي ، ولذلك قررت الخلافة الاموية على ايام عبدالملك بن مروان ، ارسال جيش الى عمان لاعادتها الى طاعة الدولة المركزية وقد نجح هذا الجيش الذي جهزه الحجاج بن يوسف الثقفي الوالي الاموي على العراق في مهمته عام ٧٥هـ/ ٦٩٥م ، وانهزم آل الجلندي(٦) وقد لجأ الزعيمان سليمان وسعيد وجموع كبيرة من الأزد الى شرق افريقيا . وفي هذا يقول سرحان بن سعيد الازكوي لما شعر سليمان وسعيد بالعجز امام جيش الحجاج حملا ذراريهما وسوادهما ومن خرج معهما من قومهما ولحقا ببلد من بلدان الزنج حتى ماتا هناك(٧)» وليس معروفا بصفة أكيدة مكان استيطان بنى الجلندي في شرق افريقيا ويفترض انهم أقاموا في جزيرة باتا (احدى جزر ارخبيل لامو)(٨)

وتعاقبت الهجرات من الخليج العربي الى شرق افريقيا بعد ذلك ، ففي نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وصلت هجرة عربية من منطقة الاحساء ، وكانت هذه الهجرة بزعامة قبيلة الحارث العربية بقيادة سبعة أخوة

بعد اختلافهم مع حاكم الاحساء وقد هبط بنو الحارث بسفنهم الثلاث في ساحل بنادر في افريقيا الشرقية ، وعملوا على تدعيم سيطرتهم في المنطقة حيث أسسوا مدينة مقاديشو ، وكذلك مدينة براوه في الساحل الافريقي الشرقي(٩) وقد خضع الساحل الافريقي الشرقي ولمدة قرنين من الزمان لمشيحة مقاديشو التي أسسها بنو الحارث .(١٠)

في بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، وصلت الى ساحل افريقيا الشرقي هجرة كبيرة من عمان تزعمها سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني ، وكان النبهانيون حكام عمان قد رحلوا الى مدينة باتا في الساحل الشرقي لافريقيا بعد انهيار دولتهم على يد اليعاربة عام ٦٠١هـ/١٢٠٣م . وقد استقبل النبهانيون استقبالا طيبا في باتا من قبل سكانها ، الذين كان معظمهم من عرب الخليج ، وتزوج سليمان النبهاني من ابنة حاكم المدينة المدعو اسحق ، وبعد اتمام الزواج تنازل اسحق عن الحكم لصهره سليمان الذي اصبح اول حكام الاسرة النبهانية في شرق افريقيا (١١) وعندئذ اصبحت باتا مركزا للسلطة النبهانية في ساحل افريقيا الشرقي وغدت أقوى سلطة في الساحل في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، حيث استطاعت ان تمد سيطرتها على طول الساحل ، وعلى أيام النبهانيين انتعشت حركة التجارة بين الخليج العربي وشرق افريقيا استمرت سلطة النبهانيين العمانيين في الساحل الافريقي الشرقي الى ان انتهى بهم الامر ، وبعد مراحل طويلة من القوة والضعف ، بالخضوع الى السلطة العربية في زنجبار خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر الميلادي (١٢)

ومن الجدير بالاشارة ان هجرات عرب الخليج واستقرارهم في شرق افريقيا لم ينقطع ابدا ،(١٣) اذ شجعت الدوافع التي أشرنا اليها على توثيق الصلات بين الخليج وشرق افريقيا ومن المؤكد ان هذه الروابط والصلات العميقة بين الخليج والشرق الافريقي وتنوعها قد حفزت الكتاب العرب ، وفي طليعتهم البلدانيون ، على الكتابة عنها والكشف عن بعض جوانبها وستكون الصفحات التالية محاولة لدراسة أهم مدونات البلدانيين العرب لتبيان اهمية هذه المصادر وامكانية مساهمتها في التعرف على العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا

## البلدانيون العرب وشرق افريقيا

تعد كتب البلدانيين العرب من المصادر المهمة عن صلة الخليج العربي بشرق افريقيا ، ومازالت هذه المصادر بحاجة ماسة الى دراسة شاملة لتبيان أهميتها وامكانية

مساهمتها في هذا الموضوع

فبعد النجاح السياسي والحربي الذي ظفرت به الدولة العربية الاسلامية في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ، تحفز رجالاتها الى اقتحام ميادين المعرفة المتنوعة وكان في مقدمتها نشأة علم البلدان (وهو المعروف في المصطلح الحديث بالجغرافية الوصفية) ، وذلك لان الدولة العربية الاسلامية بعد ان أصبحت قوة عالمية وامتدت رقعتها الى مسافات واسعة كانت بحاجة الى هذا العلم كأداة للتعرف على أراضيها وحدودها وللحصول على معلومات دقيقة عن الاقطار المتاخمة لها . كما ان التجارة المزدهرة في الدولة العربية الاسلامية كانت تريد من هذا العلم ان يكون لها هاديا ومرشدا في دولة مترامية الاطراف واسعة الارجاء مختلفة الشعوب والاجناس والألسنة ، وكان التجار يريدون معرفة السبل والمسالك وماذا يعطون وماذا يأخذون ، ولقد وجدوا في هذا العلم بغيتهم ، فأقبل عليه رجال الدولة والتجار يطلبون أصحابه ، فظفر بتأييد أتاح له ان يتطور تطورا سريعا ، حتى أصبح في اوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي علما كامل المعالم والأسس ، ولا سيما ان هذا العلم قد تيسر له رجال علماء أفذاذ ، جاب الكثير منهم الاقطار وتحملوا المشاق ، فتعرفوا على المسالك والطرق والناس ، ووقفوا على طبيعة البلاد التي زاروها وعرفوا أحوالها ، ودونوا ما رأوا وما سمعوا ، حريصين على تبيان الحقيقة قدر الامكان فكانت كتاباتهم مصادر يهتدى بها كل باحث

لقد استهوى شرق افريقيا والخليج العربي البلدانيين العرب (كما استهوى التجار ، وقد وصل الينا اخبار الكثيرين من هؤلاء مدونة بشكل يتيح لنا تقصي اخبار صلات الخليج بشرق افريقيا ولا سيما التجارية منها ولا بد لنا من الاشارة الى ان المعلومات التي جاءتنا في هذه المدونات وبخاصة ما يتعلق منها بشرق افريقيا ، غير وافية بالحاجة . كما ان بعضها كانت تخالطه الاسطورة أو الخيال ، لكن هذا لا ينقص من قيمتها في كونها مصدرنا الوحيد في الكتابة في هذا المجال ، وامكانية استخلاص الكثير من الحقائق منها ولعل عذر اصحاب هذه المصنفات ، ولا سيما الاوائل منهم ، ان شرق افريقيا يعد مناطق متطرفة عن قلب العالم الاسلامي فلم يحظ بشيء كثير من اهتمامهم [(١٤)]

لا يقدم لنا البلدانيون الاوائل الا معلومات مقتضبة حدا عن شرق افريقيا ، وعلى الرغم من ان المنطقة الاخيرة تقع ضمن دائرة النشاط التجاري للدولة العربية الاسلامية في المحيط الهندي ، الا انها بالنسبة لهم كانت تقع خارج نطاق اهتمامهم وان مجال حصولهم على المعلومات

الخاصة بها كان أقل مما هو عليه بالنسبة لمناطق اخرى ، ويمكن ان يقرن ذلك بقلة النشاط التجاري بين الخليج وشرق افريقيا في القرون الاسلامية الاولى اذا قورن بالنشاط التجاري للعرب المسلمين مع الشرق الاقصى . وعلى أية حال ، فإن الاشارات الاولى التي وصلتنا عن شرق افريقيا تشير اليها اشارة عامة ببلاد الزنج [١٥]

ومن بين كتب البلدانيين الاولى التي وصلتنا ، رحلة قام بها تاجر يدعى سليمان في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي وقد قام سليمان برحلاته في الخليج العربي قاصدا الهند والصين في فترة بلغ فيها النشاط التجاري في الدولة العربية الاسلامية قمته ولا سيما مع الشرق الاقصى أما فيما يتعلق بطبيعة الاسفار التي قام بها سليمان واهدافها فلا نكاد نعرف عنها الا اليسير جدا وتتألف رحلة سليمان التاجر من قسمين الأول كتب حوالي عام ٢٧٣هـ/٨٥١م من قبل مؤلف مجهول أما القسم الثاني فقد حرره شخص من سيراف اسمه ابو زيد حسن تراءى له ان يتمم رحلة سليمان في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي والذي يهمنا في هذه الرحلة ، وعلى الرغم من طبيعتها القصصية ، انها تحوي معلومات عن الرياح والطقس والمخاطر البحرية ومناطق الوقوف وما شابه ذلك في المحيط الهندي والى جانب ذلك فإنها تحوي معلومات قيمة عن السواحل الشرقية لافريقيا ، اذ انها تصف بلاد الزنج وملوكها وبعض الخصائص الاجتماعية للزنج ، والأهم من ذلك كله الاشارة الى ان سكان هذه البلاد من الزنوج يعرفون العرب ولهم هيبة عظيمة في قلوبهم [١٦] ، ولعل هذه المعرفة نتيجة وصول التجار العرب الى مناطقهم .

أما المدونات الرئيسية التي تعيننا في فهم علاقات الخليج العربي بشرق افريقيا ـ وفي مقدمتها العلاقات التجارية ـ فقد جاءت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وأهمها مؤلفات المسعودي وقبل ان نتكلم عن أهمية معلومات المسعودي يجب ان نتساءل عن سبب غزارة المعلومات التي دونها البلدانيون العرب كما ونوعا في القرن المذكور ، وللاجابة على هذا التساؤل لابد من الاشارة الى ان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، شهد اضطرابات في بلاد الصين فكان ذلك بداية لضعف التجارة مع المشرق الاسلامي ، اذ لم تعد المواصلات البحرية تجرى بانتظام بين الخليج والشرق في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي [١٧] وقد مهد هذا الامر لانتعاش التجارة وانتظامها بين الخليج وافريقيا الشرقية ، ابتداء من القرن

٤هـ/١٠م[١٨] وفضلا عن ذلك فقد انتقل النشاط التجاري للدولة العربية وثقله في القرن التالي من الشرق الى البحر الاحمر كما سنتشير الى ذلك .

يحتل المسعودي المكانة الاولى بين البلدانيين العرب في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، ولا سيما انه جمع أكثر ما كتبه عن طريق المشاهدة والاختبار والاسفار [١٩] وعلى الرغم مما يؤخذ عليه ، من قلة معلوماته عن شرق افريقيا ، ولا سيما ان زمن وصول المسعودي الى تلك المناطق كان عند تأسيس المدن والامارات العربية الاسلامية ، فإنه يورد في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر) معلومات تعتبر مهمة وتشكل لنا البدايات الاولى والاصلية لدراسة العلاقات العربية الافريقية ، ولا سيما التجارية منها بين الخليج وشرق افريقيا وعلى هذا الاساس اعتبر بعض الباحثين المختصين بتاريخ شرق افريقيا كتاب المسعودي أحسن مصدر عن هذه المنطقة [٢٠] فقد رحل المسعودي مع البحارة من عمان وسيراف عدة مرات ، وأقام في ساحل افريقيا الشرقي رمنا ، وحاول ان يتخطى الساحل الى الداخل ولكنه لم يصل الى أبعاد كثيرة [٢١]

ويعد وصف المسعودي لبلاد الزنج من الاعمال الاصيلة بصورة عامة ، ولا سيما انه اعتمد في معلوماته على ملاحظاته الشخصية ، وعلى مصادر مختلفة مكتوبة وشفهية ، أخذها في الغالب من تقارير رحالة مختلفين لم يذكر اسماءهم ، ومن أصحاب السفن المبحرين بين الخليج وشرق افريقيا [٢٢]

ومعلومات المسعودي عن بلاد الزنج تشير الى أصل الزنج وأماكن استقرارهم ، فضلا عن وصفه لنظمهم الاجتماعية من طرز اللباس والمأكل كما يذكر منتجات الشرق الافريقي المتنوعة والتي جذبت السفن الخليجية الى شرق افريقيا كما اعطى المسعودي تقريرا مهما عن طبيعة الرحلة التجارية بين الخليج وشرق افريقيا ، ولا سيما فيما يتعلق بالطريق التجاري في مراحله ومخاطره والمدن التي تبدأ السفن بالانطلاق منها أو الارساء فيها كل هذه المعلومات ، على الرغم من قلتها وسطحيتها في أحيان كثيرة واختلاطها بالاساطير ، فإنها تحتل أهمية كبرى في قضية العلاقات التجارية بين الخليج وشرق افريقيا .

ظل القرن ٤هـ/١٠م يمدنا بمعلومات كثيرة عن موضوع التجارة بين العرب وشرق افريقيا . ويتضح لنا ذلك بصورة جلية في سلسلة المصنفات التي تعكس طراز «المسالك والممالك» التي ركزت على وصف العالم الاسلامي وتبدأ هذه السلسلة بالاصطخري الذي عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، والذي لا نجد في كتابه «المسالك والممالك» أية

معلومات عن شرق افريقيا أما أبن حوقل فقد اهتم بالكتابة عن افريقيا ، واذا تركنا قضايا التشابه العديدة بينه وبين الاصطخري ، فإننا نجد في كتابه «صورة الارض» الذي يمثل رحلته في القرن ٤هـ/١٠م ، الكثير من المعلومات عن القسم الشمالي من شرق افريقيا لا سيما مناطق الحبشة والنوبة ، أما القسم الجنوبي من المنطقة فلم يحظ منه الا بإشارات قليلة جدا ، منها غنى بلاد الزنج بمعدن التبر ، وتجارتها مع الشعوب الاخرى ، ولعل عذره في عدم اهتمامه بالكتابة عن بلاد الزنج ، هو كونها من المناطق الواقعة خارج حدود الدولة العربية الاسلامية التي كرس لها كتابه .(٢٣)

أما المقدسي الذي يعد آخر بلداني القرن ٤هـ/١٠م ، فإنه قد رسم خطة مؤلفه على الفكرة السابقة في التركيز على وصف بلاد الاسلام ، ولذا نجد ان معلوماته نادرة عن شرق افريقيا .

ازدادت المعلومات عن شرق افريقيا في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، وتشكل هذه المعلومات اضافة جديدة ومهمة ولا سيما في موضوع التجارة في شرق افريقيا ، والتي نشطت في الحقبة القريبة من ذلك القرن ، بعد ان تحولت حركة الملاحة من طريق الخليج العربي الى البحر الاحمر بسبب الاضطرابات السياسية في منطقة الخليج .(٢٤)

لقد خلف لنا ابوعبيد البكري الذي كان يعيش في الاندلس في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عددا من المؤلفات من بينها كتابه «المسالك والممالك» الذي يعد مصدرا هاما في تاريخ افريقيا . ونحن لا نعرف ان البكري قد زار شرق افريقيا ، ولكن الذي نعرفه انه جمع معلوماته عن طريق التجار والرحالة الذين التقى بهم في الاندلس ، فضلا عن المدونات والمؤلفات العربية الكثيرة التي كانت تحت تصرفه في مدينة قرطبة ، والتي أفناها دراسة وتحليلا أما معلوماته عن شرق افريقيا فهي قليلة ومقتضبة اذا قورنت بمعلوماته عن غرب افريقيا ، ولعل السبب يعود في قلة اهتمام التجار والرحالة الاندلسيين بمناطق شرق افريقيا لبعدهم عنها لقد انحصرت معلومات البكري عن افريقيا الشرقية في وصفه لحدود هذه البلاد وذكر سكانها الزنوج من حيث أصولهم وتواجدهم في بلاد الزنج واسماء ملوكهم ، وهو ينقل هذه المعلومات عن الذين سبقوه من الكتاب ولا سيما المسعودي(٢٥) كما يتطرق الى ذكر منتجات بلاد الزنج ولا سيما التجارية منها والتي تحمل الى الخليج العربي والشرق الاقصى(٢٦) وهي معلومات طريفة ومهمة لموضوع بحثنا

أما المجموعة التالية من المعلومات عن افريقيا الشرقية والنشاط التجاري

للعرب فيها ، فقد ارتبطت بالادريسي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي . ففي كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» نجد تأكيدا للعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين العرب وشرق افريقيا والتي أولاها كل اهتمامه وعلى الرغم من ان الادريسي لم يرحل الى شرق افريقيا الا انه من المؤكد قد سمع وقرأ كثيرا عنها ، ولا سيما انه كانت تحت يده مادة كثيرة ، ولذا فقد جاء وصفه لهذه المنطقة وعلاقاتها التجارية غاية في الاهمية فهو أول من تحدث عن مدن الساحل الافريقي الشرقي وجزره وعن النشاط التجاري الذي تتمير به وهذا ما لم يذكره من سبقه ، ولعل ذلك يعود لان الفترة التي ألف الادريسي فيها كتابه كانت فترة ازدهار كبيرة لتجارة العرب مع شرق افريقيا [٢٧] ويولي الادريسي اهتماما خاصا بتجارة الحديد السائدة في مدن شرق افريقيا [٢٨] ، في حين لا نجد لديه معلومات مهمة عن تجارة الذهب والعاج المشهورة ونحن لا نعرف من أين جاء اهتمامه بتجارة الحديد ، هل كان قد انتبه الى ان شهرة تجارة الذهب والعاج في شرق افريقيا ، تدعوه الى ان يثير انتباه التجار والرحالة الى تجارة معدن مهم ومتوافر في شرق افريقيا وهو الحديد ؟ ويبدو ان معرفته عن شرق افريقيا حتى مومباسا كانت واضحة جدا ، ولكن ابتداء من هناك فإن معلوماته عن أرض الزنج تصبح غامضة ، ومن الواضح أن هذا الأمر كان نتيجة للمعلومات المشوشة التي كانت لديه[٢٩] فمثلا يذكر ان مدينة براوة لاتزال وثنية[٣٠] ، لكن المعروف ان الاسلام قد دخلها منذ زمن سابق ، كما انه لم يتعرض لمدينة مقاديشو التي كانت تفرض سيطرتها على كثير من مدن الساحل على أيامه وكانت تشهد نهضة تجارية واسعة ، في حين انه ذكر مدنا كانت تابعة لها مثل براوة .

وفي اواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي عاش بلداني آخر وهو ياقوت الحموي ، الذي عرف باسفاره التجارية العديدة ، وقد اعتبر البعض مصنفه «معجم البلدان» من أفضل الكتب الجغرافية في العصر الوسيط ، فهو يبحث في هذا المعجم أصل الموقع الجغرافي ونشأته والظروف التي احاطت بذلك ومن سكنه من العلماء والفقهاء ، والدور التاريخي الذي لعبه ، وبذلك فإن مادة ياقوت متنوعة للغاية[٣١] وقد أفادته الأسفار التي قام بها في زيادة معرفته بالمسالك التجارية المطروقة في عهده ومنتجات البلاد التي زارها . وعلى الرغم من قيمة المعلومات التي دونها ياقوت في معجمه الا ان المادة التي احتواها عن شرق افريقيا مقتضبة وقليلة جدا ، وتكاد تكون نادرة في علاقات الخليج التجارية بالشرق الافريقي ، فهو يذكر مثلا نشاط مدينة مقاديشو التجاري

# اضطرابات الصين في أواخر القرن

# زادت من النشاط التجاري العربي مع

وارتحال التجار اليها لجلب المتاع منها ولا سيما الخشب والعاج متوقفا عند هذا الحد[٣٢] كما يهمل ذكر الكثير من مدن شرق افريقيا التي كان لها نشاط تجاري متميز في ايامه

في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي بلغ النشاط التجاري في الدولة العربية الاسلامية أوجه حيث كانت السفن التجارية في ذلك القرن تجوب البلاد في كل اتجاه وتصل الى كل الاسواق النائية ، وعلى رأسها اسواق شرق افريقيا الغنية بالذهب والعاج والحديد ، مسترشدة بخرائط مفصلة حوتها كتب الجغرافية العربية ، وفي هذه الحقبة بالذات يطالعنا ابن سعيد بكتابة «الجغرافية» وعلى الرغم من انه نقل الكثير من معلوماته عمن سبقه الا انه جاء بالشيء الجديد جدا فيما يخص سواحل افريقيا الشرقية ، التي لم يزرها بنفسه على حد اعترافه ، لكنه استقى مادتها من ملاح عربي لا نعرف عنه سوى ان اسمه «ابن فاطمة» كان يعيش على اغلب الظن في القرن ٧ هـ/١٣م وقد أبحر هذا الرجل في سواحل افريقيا الشرقية وبلغ سفالة وجزيرة مدغشقر .[٣٣]

أما معلومات ابن سعيد عن بلاد الزنج فتتصف بالحدية والاصالة وهي التي سمحت له ان يحدد بكثير من الدقة مواقع المدن والجبال ومجاري الانهار في المنطقة ، كما ان اعتماده على أسفار ابن فاطمة قد اتاح له مادة أصلية لم يعرفها من سبقه (ولا سيما عن جزيرة مدغشقر)[٣٤] وهذه المادة تعيننا كثيرا في رسم الطريق الذي كانت تسلكه السفن التجارية في شرق افريقيا

أما القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي فإنه حافل أيضا في مجال المعرفة العربية بشرق افريقيا ، ولعل كتاب ابن بطوطة «تحفة النظار وغرائب الامصار وعجائب الاسفار» ، هو اهم ما يسترعي الانتباه فقد كان ابن بطوطة آخر رحالة عربي كبير جاب العالم الاسلامي باجمعه .

# التاسع الميلادي

# الساحل الأفريقي

ويقول عنه كراتشكوفسكي(٣٥) انه «مهما اختلفت الآراء فيه فإنه من المستحيل انكار انه آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية ولعل ذلك يرجع الى كونه قد حصل على معلوماته عن طريق اسفاره الى مختلف البلاد وانه لم ينقلها عن غيره وكان ابن بطوطة قد عزم على السفر لتأدية فريضة الحج ، ولكن عصا الترحال أخذته الى مختلف الاقطار ولم يعد الى مدينة طنجة الا بعد أكثر من ربع قرن ، والذي يهمنا هو زيارته الى شرق افريقيا والتي تمت عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م ، حيث تحول من عدن الى زيلع (في الصومال) متجها الى مدن ساحل الزنج مثل مقاديشو (في الصومال) وممباسا (في كينيا) وكلوة (في تانزانيا) ثم عاد الى اليمن ومنها الى عمان ودخل الخليج العربي ووصل الى البحرين والقطيف (٣٦) هذه المراحل التي قطعها ابن بطوطة بين شرق افريقيا والخليج مهمة جدا لموضوع البحث ، ذلك لانها تدل على الطريق المعروف أنذاك عند التجار الذين يمارسون عبره نشاطاتهم بين منطقتي الخليج وشرق افريقيا كما احتوت الرحلة على معلومات مهمة عن النشاط التجاري في مدن الساحل الافريقي الشرقي ، بل ونتائج هذا الاتصال الطويل الذي أثمرت بصورة واضحة ايام ابن بطوطة ، حيث يسجل لنا استخدام اللغة العربية كلغة رسمية في مدينة مقاديشو ، واتباع نظم الحكم ذات المنحى العربي ووجود المدارس الفقهية في مجال الدين ، وكذلك يسجل لنا التأثير العربي ولا سيما لسكان الخليج في طرز البناء في شرق افريقيا(٣٧) ، وفي هذا كله تأكيد على صلات الخليج العربي بشرق افريقيا .

على ان مما يؤخذ على رحلة ابن بطوطة انها ليست من تصنيف ابن بطوطة نفسه بل تمثل صياغة أدبية لروايته كتبها الأديب الغرناطي محمد بن جزي الكلبي بأمر من الحاكم المريني ابن عنان (٧٤٩ ـ ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ ـ ١٣٥٨م) الذي شهد عهده وعهد سلفه ابي الحسن ازدهارا للثقافة وتشجيعاً للأدب في بلاد المغرب

وعلى أية حال ، فقد جعلنا من رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي خاتمة للمدونات التي استقينا منها مادة هذا البحث ، بإعتبار انه لم تجر رحلة عربية على غرارها فيما بعد

## حركة التجارة بين الخليج العربي وشرق افريقيا

### الطريق التجاري بين الخليج وشرق افريقيا

سوف يتم تحديد معالم حركة التجارة بين الخليج العربي وشرق افريقيا طبقا لما ورد من معلومات في مدونات البلدانيين العرب ، وتشمل اولى معلوماتهم وصفا لمناطق شرق افريقيا وسكانها وتعتبر هذه المعلومات بيانات مهمة للتجار وربابنة السفن التجارية فهي تعرفهم على تلك المنطقة وبالتالي تسهل عليهم الوصول اليها ، كما انها تقوم دليلا على معرفة التجار العرب بشرق افريقيا ولا سيما اذا اخذنا في الاعتبار ان التجار كانوا أهم الينابيع التي استقى منها البلدانيون العرب معلوماتهم

ومن المؤكد ان التعرف على الزنوج واماكن استقرارهم واقسام بلادهم مهم جدا في حركة التجارة بين العرب وسكان شرق افريقيا ، فقد اطلق البلدانيون العرب «بحر الزنج» على الجانب الغربي من المحيط الهندي الذي يطل عليه الشاطىء الشرقي الافريقي ، كما سمي الشاطىء المطل على هذا البحر باسم «بلاد الزنج»[٣٨] وحددوا الاقليم الجغرافي الذي تقع فيه بلاد الزنج ، وقسموه الى اربعة اقسام كل له صفات خاصة ونجد ان هذا التقسيم واضح حتى في اشارات المسعودي الغامضة عن الساحل ، والتي اصبحت أكثر وضوحا عند الادريسي ، ولذلك سيكون اعتمادنا عليهما بالدرجة الاولى في وصف اقسام شرق افريقيا ، مؤكدين على اهميتها بالنسبة لحركة التجارة

وهذه الاقسام هي

* **بربرا** وهي كما يقول المسعودي «وله «البحر الحبشي» خليج متصل بأرض الحبشة يمتد الى ناحية بربرى من بلاد الزنج والحبشة ويسمى الخليج البربري ، طوله خمسمائة ميل ، وعرض طرفيه مائة ميل وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج الى جزيرة قنبلو في بحر الزنج وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد»[٣٩] كما يضيف قائلا «ان أرباب المراكب العمانيين يعرفون هذا البحر ويعرفون أمواجه العظيمة»[٤٠]

ويبدو ان البلدانيين العرب بعد المسعودي حاولوا تحديد اخر حد بلاد بربرا ، فإبن سعيد يقول ان نيل مقديشو هو آخر بلاد بربرة ، وأول بلاد الزنج[٤١] ، لكنه لم يحدد امتداد منطقة بربرا شمالا . أما ياقوت فإن فكرته عن بربرا واضحة فهو يقول انها تقع بين الحبشة وارض الزنج .[٤٢] وبذلك يمكن القول ان بلاد بربرا تؤلف الآن السواحل الشمالية والشرقية من الصومال (وتعرف بساحل بنادر) وان التجار العرب في الخليج - ولا سيما

العمانيين - كانوا يمارسون التجارة مع هذه المنطقة .

* **بلاد الزنج** وتمتد من مقاديشو التي اعتبرت اول بلاد الزنج [٤٣] الى سفالة [٤٤] يقول المسعودي (ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب في اعلى النيل الى بلاد سفالة والواق واق ، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطعهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ أودية وجبال ورمال» [٤٥] كما يضيف المسعودي «ان الفيلة كثيرة في ارض الزنج ومنها يتجهز التجار بالعاج الذي يحمل الى مناطق الخليج والشرق الأقصى» [٤٦]

أما الادريسي فيفصل لنا في مدن بلاد الزنج ، فيذكر ملندة بأنها مدينة على الساحل ، «وهي مدينة كبيرة وأهلها يحترفون الصيد برا وبحرا فيصيدون في البر النمور والذئاب ويصيدون في البحر ضروبا من الحيتان وعندهم معدن حديد يحفرونه ويعملونه وهو جل مكسبهم وتجارتهم[٤٧] ان لهذا النص قيمته حيث يشير الى ان حركة التجارة في هذه المدينة كانت تقوم على تجارة الحديد كما يشير الى احتراف اهل مدينة مومباسا لاستخراج الحديد ويقول «انها مدينة على البحر وعلى ضفة خور كبير تدخله المراكب مسير يومين وليس عليه شيئا من العمارة وفي هذه المدينة سكنى ملك الزنج واجناده».[٤٨] أما آخر بلاد الزنج فيحددها الادريسي بما يلي «ومن منبسة الى قرية البايس ستة ايام في البر والبحر وقرية البايس قرية جامعة أهلة بالناس .. وهي آخر عمالة الزنج ويتصل بها ارض سفالة» [٤٩]

* **سفالة** ويشار الى بلاد سفالة باسم «سفالة الزنج» ايضا[٥٠] ، كما سميت بأرض الذهب أو التبر[٥١] وكانت مقصد اصحاب المراكب الخليجية[٥٢] من أجل الحصول على الذهب ويشير البلدانيون العرب الى بعض مدن سفالة مثل بتينة[٥٣] ، وحيونة التي كانت مقر ملك سفالة ، ويبدو انها كانت مركزا تجاريا حيث يتاجر أهلها بالذهب والفضة وهي آخر عمائر بلاد سفالة [٥٤]

* **الواق واق** تكمل هذه المنطقة صورة بلاد الزنج ، ومع هذا فقد وضعت بشكل غامض حيث قيل بان اراضيها تمتد الى جنوب منطقة سفالة وفي الوقت الذي نجد فيه المسعودي لا يذكر أي شيء عن الواق واق ، فإن الادريسي بعده بقرنين يشير الى وجود «مدينتين حقيرتين (في واق واق) وسكانهما قليل لضيق عيشهما وتكدر رزقهما وليس بأرض هؤلاء القوم شيء من الذهب ولا يخرج من عندهم تجارة ولا مراكب ولا دواب»[٥٥] ويدل هذا على ان هذه المنطقة لم تكن محط أنظار التجار العرب ولم تسهم في حركة النشاط التجاري في شرق افريقيا بسبب عدم توفر المنتجات التي ينشدها التجار

وعلى أية حال ، فإن منطقة الشرق

# اتجاه الرياح الموسمية.. سر احتكار عرب الخليج

## حتى القرن الأول الميلادي

الافريقي ، التي تشمل ما نسميه اليوم بالصومال وكينيا وتنزانيا وموزامبيق ، قد شهدت نشاطا تجاريا عربيا واسعا ، وكان هذا النشاط الركيزة الرئيسية في قيام العلاقات العربية - الافريقية في العصر الوسيط .

بعد هذه الصورة التفصيلية لاجزاء الشرق الافريقي كما عكستها كتب البلدانيين العرب ، نحاول رسم الطريق التجاري الذي يربط منطقة الخليج العربي بشرق افريقيا .

أما الطريق التجاري الذي تقطعه السفن ما بين الخليج العربي وشرق افريقيا ذهابا وايابا ، فنستطيع ان نتتبع مراحل السير فيه ومحطات توقف السفن فيه والمخاطر التي تتعرض لها ، في جميع مدونات البلدانيين العرب وعناية هؤلاء واهتمامهم بوصف الطريق بين الخليج وشرق افريقيا تقوم دليلا على وجود الصلة القوية بين المنطقتين ولا سيما الصلة التجارية .

ومن الجدير بالذكر ان كتب البلدانيين العرب الاوائل لا تحتوي على تفاصيل لجميع مراحل الطريق الذي يصل بين الخليج وشرق افريقيا ، فبينما تفصل هذه الكتب مراحل السفر في مياه الخليج العربي والبحر العربي ، فتصف موانئهما وظروف الملاحة فيهما ، نجدها لا تذكر أي معلومات عن مراحل السير في بحر الزنج ، وانما تكتفي بالاشارة الى وجود طريق بحري ما بين الخليج يمر بعمان وعدن الى بلاد الزنج(٥٦) ويمكن ان يعزى ذلك الى قلة النشاط التجاري بين الخليج وشرق افريقيا في القرون الاسلامية الاولى اذا ما قورن بحركة التجارة بين الخليج والشرق الاقصى حيث كان الاخير محط اهتمام الدولة العربية الاسلامية ايام العباسيين .

فقد سجلت تجارة الخليج ما بين

القرن الثاني الى القرن الخامس الهجري/ الثامن - الحادي عشر الميلاديين تطورا كبيرا مع الشرق الاقصى حيث جذبت منتجاته التجار العرب . ولكن في القرن ٥هـ/١١م بدأت القلاقل والاضطرابات السياسية في الخليج تؤثر على هذه التجارة فاضعفتها واخيرا تحولت نشاطات التجار العرب الى البحر الاحمر وشواطىء بلاد الزنج بعد انهيار الدولة العباسية.(٥٧) وبدأت تجارة الخليج مع الشرق الاقصى بالضعف ، كما أشار المسعودي الى ذلك بالتفصيل(٥٨)، منذ القرن ٤هـ/١٠م بعد الاضطرابات التي حلت بالصين وتأثرت هذه التجارة ايضا ، كما يشير ابن حوقل ، بالاضطراب السياسي والفوضى التي وقعت في البحرين (بسبب سيطرة القرامطة) ، مما شجع القبائل البدوية على ان تفرض سيطرتها على الطرق التجارية التي لم تعد آمنة (٥٩)

ومنذ القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى نجد تفاصيل دقيقة عن الطريق التجاري الذى يربط الخليج العربي بشرق افريقيا، اذ كانت الرحلة الى شرق افريقيا تبدأ من منطقة البصرة (فى الأبلة) ثم الى القطيف (في الاحساء)، ثم الى البحرين وقطر ثم الى بلاد عمان فبلاد المهرة ثم الى ارض الشحر (حضرموت) حتى تصل المراكب الى عدن ومن هناك اما ان تذهب السفن شمالا الى سواحل جزيرة العرب الغربية او شواطىء افريقيا المطلة على البحر الاحمر، أو ان تذهب جنوبا الى بحر الزنج حيث شواطىء افريقيا الشرقية(٦٠) ولعل ما يورده البلدانيون العرب ما يوضح ما ذهبنا اليه. فالمسعودي يقول «ان نهاية الخليج الشمالية هي أرض البصرة بعدها «بلاد البحرين وقطر وسط بنى جذيمة وبلاد عمان وارض مهرة الى رأس الجمجمة الى ارض الشحر والاحقاف وفيه جزائر كثيرة. ..» (٦١) أما البكري فبعد ان يصف مراحل السير التي تبدأ من منطقة البصرة الى «قطيف والبحرين وعمان ثم يمر متخذا الشمال على ساحل البحر حتى يأتى الى عدن وعدن منتهى العنق الذى يخرج من البحر، ثم ينعطف هذا العنق فى عدن فيمضى منعطفا على جزيرة العرب مستقبلا الشمال فمن يمين الذاهب منه جزيرة العرب والى يساره بلاد السودان» (٦٢) ويمكن ان نسمى هذه المرحلة الاولى من الطريق التجاري بين الخليج العربي وشرق أفريقيا، تتبعها المرحلة التانية والتى تبدأ من منطقة الشحر بين عمان وعدن (فى حضرموت)، وتنتهي بسفالة الزنج آخر منطقة تصلها السفن العربية (٦٣)

تبدأ الرحلة كما ذكرنا من الشحر باتجاه جنوبي غربي مارة (برأس جورد فوي) الى جزيرة سوقطرة ومن هذه الجزيرة تبحر السفن الى أول مرفأ افريقى هو رأس حافوني (يعرف

اليوم برأس حافون على الساحل الصومالي)، ومنه جنوبا الى مقديشيو اول بلاد الزنج[٦٤]، ثم الى المدن الساحلية الواحدة تلو الاخرى حيث تبحر السفن الى براوة ثم تدخل مدينتى باتا ولامو وبعدها تتجه المراكب جنوبا الى مالندي وممباسا وهي من المراكز التجارية المهمة في الساحل وحين تبحر المراكب من مومباسا تلتزم الطريق المحاذي للساحل الافريقي الى أن تتمكن من عبور قناة زنجبار، ثم تدخل جزيرة زنجبار، وقد تزور السفن قبل زنجبار جزيرة بمبا، والى الجنوب فى زنجبار تتجه المراكب الى مدينة كلوة المركز التجاري المهم.[٦٥] وقد تسير بعض المراكب من مومباسا مباشرة باتجاه الجنوب حتى تصل الى آخر قرية في بلاد الزنج وهي البايس، وبعدها تدخل الى أرض سفالة فتمر على أهم مدنها ومنها بتهنة، وحنطمة ودندمة التي هي آخر قواعد بلاد سفالة. وقد تبحر السفن من بلاد سفالة الى جزر القمر [٦٦] كما قد تزور بعض السفن جزيرة مدغشقر أيضا

ولعل من الضرورى هنا الاستشهاد ببعض ما كتبه البلدانيون العرب وهم يصفون لنا الطريق التجاري بين الخليج وشرق افريقيا توضيحا وتأكيدا للمراحل التى تقطعها السفن فى المرحلة الثانية من رحلتها فى الخليج الى شرق افريقيا. إذ يذكر ابن خرداذبة ان عدن هى مركز لتجميع البضائع القادمة من الخليج - ولا سيما البصرة - والقادمة من بلاد الزنج والحبشة وغيرها وبذلك تكون هذه اول اشارة - وان كانت مقتضبة وغير مباشرة - الى ابحار السفن بين عدن وشرق افريقيا عبر طريق معلوم[٦٧]

اما المسعودى فقد كان من المؤكد على علم بالطريق البحرى بين الخليج وشرق افريقيا وان لم يورد تفاصيله فقد تحدث عن رحلات تجار الخليج ولا سيما عرب عمان من الازد الي بلاد الزنج، وكان هو نفسه قد أبحر عدة مرات مع السفن الخليجية من عمان الى افريقيا الشرقية، حتى وصل الى جزيرة قنبلو، فهو يقول

«واهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (خليج بربرى) الى جزيرة قنبلو فى بحر الزنج، وفى هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري، وهم يعرفونه ببحر بربرى، وبلاد حفوني (حافون)، اكثر مساحة مما ذكرنا (قدرها المسعودي بطول خمسمائة ميل وعرض مائة ميل) موجه عظيم كالجبال الشواهق . وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الازد... وينتهى هؤلاء في بحر الزنج الى جزيرة قنبلو على ما ذكرنا، والى بلاد سفالة والواق واق فى اقاصي ارض الزنج والاسافل فى بحرهم . وقد ركبت انا

هذا البحر من مدينة سنجار فى بلاد عمان (وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخدة السيرافيين وهم ارباب المراكب . واخر مرة ركبت فيه سنة اربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو الى مدينة عمان . »(٦٨) ويضيف المسعودي في مكان آخر واصفا قنبلو بقوله

«أنها جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين الا أن لغتهم زنجية غلبوا على هذه الجزيرة وذلك في مبدأ الدولة العباسية، ومنها الى عمان في البحر نحو من خمسمائة فرسخ على ما يقول البحريون حزرا منهم لذلك، لا عن طريق التحصيل والمساحة».(٦٩)

ان اهتمام المسعودي بجريرة قنبلو يرجع الى بقائه فيها لمدة، وهي اخر محطة وصلها فى ترحاله فى الشرق الافريقى، اما بلاد سفالة فلم يزرها بل أخذ اوصافها من اصحاب المراكب من عرب الخليج الذين يصلون اليها. وقد كانت جزيرة قنبلو وما تزال مجال نقاش بين الباحثين من اجل معرفتها بالضبط ومع أن المسعودي أورد بعض التحديدات الجغرافية الخاصة بموقع هده الجزيرة، لكنها لا تعيننا على وضع تحديد نهائى لها ولا سيما ان هناك جزرا متعددة في الساحل الافريقي الشرقي تنطبق عليها أوصاف المسعودي كلا أو جزءا.

لقد حاول ترمنكهام(٧٠) عرض نصوص الجغرافيين العرب التي تصف جزيرة قنبلو وكل ما يتصل بها مبتدئا بالمسعودي تم ابن حوقل وبزرك بن شهريار والبيروني، وكذلك يورد معلومات الادريسى وياقوت وابن سعيد ، وبعد دراسته لهذه النصوص يتوصل الى الخلاصة التالية، حيث يقول «كما هو واضح من الخرائط الخاصة باوائل الجغرافيين وروايات الرحالة الى شرق افريقيا، فان قنبلو من الممكن ان تكون مستقرا للقادمين الاحاب على جريرة فى ذلك الساحل [ساحل افريقيا الشرقي] كأن تكون بمبا او زنجبار او مافيا، وليست مدغشقر» (٧١)

وهكذا نجد فيما دونه المسعودي تأكيدا واضحا على الصلة التجارية بين الخليج العربي وشرق أفريقيا ولكن مما يستدعى الاسف أن المسعودي لم يفصل في مراحل الطريق الذي سار فيه فلم يذكر المدن والمراكز التجارية الساحلية التي اسسها العرب او التى وصلوا اليها في الشرق الافريقى منذ زمن بعيد قبل بدء المسعودي برحلاته الى تلك المنطقة، والتى كانت على ايامه محطات تجارية للسفن العربية القادمة فى الخليج. ان هذه المعلومات المهمة الخاصة بالطريق التجاري الذي يربط بين الخليج وشرق افريقيا فى مرحلته الثانية (اي شواطىء الشرق الافريقي) نجدها بصورة تفصيلية فى مدونات البلدانيين العرب الذين كتبوا بعد المسعودى، حيث يقدمون لنا وصفا للمدن الساحلية في افريقيا

الشرقية ونشاطها التجاري -

فالادريسى يذكر مدن الساحل الافريقى الشرقي بصورة متتالية، فكأنما يسير على الساحل وينتقل من مدينة الى أخرى محددا المسافات بينها، ثم يشير الى الجزر المقابلة للساحل مؤكدا فى دلك على النشاط التجاري لهذه المدن والجزر فهو بعد أن يتكلم عن منطقة بربرة (بربرا) ينتقل الى ارض الزنج حيث يبدأ بوصف مدينة ملندة فيقول

«مدينة ملندة فى بلاد الزنج ثلاثة أيام فى البحر بلياليها وملندة على صفة البحر على حور ماء عدب وهى مدينة كبيرة . وعندهم معدن حديد يحتفرونه ويعملونه وهو حل مكسبهم وتجارتهم ومن هده المدينة الى ممبسه على الساحل مسافة يومين وهي مدينة صغيرة للزنج على البحر وعلى ضفة خور كبير تدخله المراكب مسير يومين ومن ممبسه الى قرية البايس سعة البر ومجر أو نصف في البحر وهي آخر عمالة الزنج وتتصل بها ارض سفالة» (٧٢)

ثم ينتقل بعد ذلك لوصف مناطق سفالة فيذكر مدنها بقوله «فمنها (قرية البايس) على الساحل الى مدينة تسمى تهنته ثمانية ايام في البر ومجر ونصف في البحر وبلاد تهنته ايضا فى سفالة (٧٣) كما يذكر من مدن سفالة مدينتين حيث يقول «حنطمة ودندمة وهي على ضفة البحر وهما صغيرتان وأهلهما فى ذاتهم قلة وفي أنفسهم أذلة وليس بايديهم شيء يتصرفون به ويعيشون منه الا الحديد، وذلك ان فى بلاد سفالة يوجد في جبالها معادن الحديد الكثير واهل جزاير الزايح وغيرهم من ساكني الجزائر المحيطة بهم يدخلون اليهم ويخرجون من عندهم الى سائر بلاد الهند وجزائره ويبيعونه بالثمن الجيد لان بلاد الهند اكثر تصرفهم وتجاراتهم بالحديد وبين جنطمة ودندمة مجريان في البحر، ودندمة هذه آخر قواعد سفالة ويتصل بارض سفالة ثلاثة مدن احداها تسمى ميونة لاخيل عندهم وهده المدينة على حور تدخله المراكب المسافرة اليها ومنها الى مدينة بوخة على الساحل ومن مدينة بوحة الى مدينة حنطمة في البحر، وبها معادن التبر وفى بلاد سفالة أجمع يوجد التبر» (٧٤)

ان المعلومات التى أوردها الادريسى عن مدن الساحل الافريقى يؤكدها ابن سعيد وابو الفدا اللدان ينقلان عنه في الغالب. فابن سعيد وابو الفدا يؤكدان لنا ان (خافوني) الجبل المشهور عند المسافرين في منطقة بربرا هو الذي تستقبله السفن بعد خروجها من جزيرة سوقطرة(٧٥) ثم يتكلم ابن سعيد عن مدينة مقاديشو اول بلاد الزنج مشيرا الى كونها «مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة الذكر على ألسن المسافرين)(٧٦) ثم يذكر ابن سعيد مدن الزنج المشهورة مثل ملندة

وممبسه (ممبصة) وكونهما مركزين لحط السفن، ثم ينتقل الى منطقة سفالة مشيرا الى مدينة بتينة «وهي على ذيل جوف عظيم يدخل في البحر»، ثم يتكلم عن عمائر السفاليين . واكثر معاشهم من الذهب والحديد ولباسهم حلود النمور» ثم ينتهى الى مدينة ليرانة التي يقول عنها «انها للمسلمين كمقدشو، واهلها مجتمعون فى الاقطار، وهى بلد حط واقلاع» أما مدينة دغواطة «فهي اخر مدن سفالة واخر العمارة في البر المتصل بهذا البحر»[٧٧]

وبذلك تكون مدينة دغواطة آخر المدن التي تصلها سفن العرب المسلمين حيث نجد بعدها بلاد الواق واق التي لم تسهم بأى نشاط تجاري عربي، حيث يقول الادريسى في ذلك «ويتصل بارض سفالة ارض الواق واق وبها مدينتان حقيرتان وسكانهما قليل لضيق عيشهما وتكدر رزقهما وليس بارض هؤلاء القوم شيء من الذهب ولا يخرج من عندهم تجارة ولا مراكب ولا دواب» [٧٨]

وهكذا تصل رحلة الخليج التجارية الى آخر بلاد سفالة لتعود بعدها محملة بمنتجات الشرق الافريقى الى الخليج العربي في الطريق الذى سلكته في ذهابها

## المنتجات الرئيسية المتبادلة بين الخليج وشرق افريقيا

تكتشف مدونات البلدانيين العرب أهمية شرق افريقيا كمصدر لا غنى عنه لمعادن وثروات عدة دخلت في التجارة العالمية المعروفة انذاك، ومن الممكن القول أن من العوامل التى تحكمت فى الاتصال بين الخليج العربي وافريقيا الشرقية، المنتجات الافريقية التى دفعت التجار العرب للوصول الى سواحل افريقيا الشرقية وممارسة نشاطاتهم التجارية فى تلك المنطقة ومبادلة بضائع افريقيا وسلعها مع البضائع التي يحملونها من الخليج والتي يرغب فيها سكان الشرق الافريقي

يزودنا البلدانيون بصورة عامة باسماء البضائع والسلع الداخلة في التجارة الغربية مع افريقيا الشرقية، حيث نجد من بينها الذهب والحديد والعاج والعنبر والاخشاب والجلود وما الى ذلك

ويعد الذهب المادة المهمة التي كانت وما زالت اساسا لتهافت الدول في الحصول عليها من اجل دعم مركزها الاقتصادي والسياسي معا وقد ادرك التجار العرب ـ ومن بينهم تجار الخليج ـ أهمية شرق افريقيا كموطن لتوفر هذا المعدن الحيوي، فعملوا كل جهدهم في الحصول عليه وحمله الى مراكز الخلافة العربية الاسلامية فالمسعودي يعطينا صورة مهمة عن هذه المادة واندفاع العمانيين للحصول عليها فيقول اثناء حديثه عن الزنوج وسكناهم في بلاد الزنج «وتمتد مساكنهم الى بلاد سفالة، وهي أقاصي بلاد الزنج واليها تقصد مراكب

العمانيين والسيرافيين، وهي غاية مقاصدهم في أسافل بحر الزنج، وكذلك أقاصي بحر الزنج هو بلاد سفالة، واقاصيه بلاد الواق واق، وهي أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب» (٧٩)

وبعد قرنين من الزمان يؤكد لنا الادريسى اهمية هذه المنطقة كمصدر لتجارة الذهب حيث يقول «ومدينة دغوطة آخر بلاد سفالة، وبهذه المدينة يوجد التبر مثلما يوجد في بلاد سفالة».(٨٠)

وعلى الرغم أن جميع نصوص البلدانيين العرب تؤكد وجود الذهب في منطقة سفالة لا غيرها، فان ابن بطوطة يشير الى ناحية مغايرة بقوله «أن الذهب يجلب الى سفالة في منطقة يوفي وان بين سفالة ويوفي في بلاد الليميين مسيرة شهر، ومن يوفي يؤتى بالتبر الى سفالة»(٨١) ولكننا للأسف الشديد لا نعرف شيئا عن يوفي ابن بطوطة ولم يوضح هو نفسه اين تقع فهل هي منطقة تابعة لسفالة، ام أنها منطقة في داخل افريقيا الشرقية، ومنها يتم جلب الذهب الى سفالة وبهذا تكون سفالة بموجب هذا الافتراض الاخير مركز تجميع الذهب الوارد اليها من الداخل. ويفترض ترمنكهام(٨٢) ان الذهب يأتي من منطقة الواق واق الى سفالة، بيد ان هذا الافتراض لا يتفق مع نص الادريسى الصريح، الذي اشرنا اليه انفا، والذي يذكر ان منطقة الواق واق منطقة فقيرة لعدم وجود الذهب في أراضيها وتبعا لذلك لا نجد فيها اي تجارة بحرية او برية.(٨٣).

تؤكد جميع النصوص التي بين أيدينا أن التجار العرب كانوا يحملون بضائعهم التي يرغب بها سكان منطقة الذهب (سفالة) ليأخذوا بدلها الذهب، ولنترك البلدانيين العرب يصفون لنا طريقة المتاجرة بالذهب بين التجار العرب والزنوج فياقوت يرى بانها كانت تتم كالآتي

«والحكاية عنهم (أهل سفالة) كما حكينا عن بلاد التبر بارض جنوب المغرب انهم يجلب اليهم الامتعة ويتركها التجار ويمضون ثم يجيئون وقد تركوا ثمن كل شيء عنده، والذهب السفالي معروف عند تجار الزنج »(٨٤)

ومعنى ذلك أن الحصول على ذهب سفالة يتم بطريقة «تجارة الذهب الصامتة» التى كانت متعارفة في غرب أفريقيا والتي وصفها ياقوت بصورة تفصيلية(٨٥)، ولكن من الملفت للنظر أنه لم يصف طريقة أدائها في شرق افريقيا واكتفى بالقول انها تجري بنفس الطريقة التي كانت قائمة في غرب أفريقيا

أما العاج فقد كان من منتجات الشرق الافريقي المهمة، التي جذبت تجار الخليج للاتجار مع تلك المناطق ويبدو أن العاج كان متوفرا بكثرة في افريقيا الشرقية التى اعتبرت المصدر الرئيسى لهذه المادة في العصر الوسيط.

وفي هذا يسجل لنا المسعودي الاتي

# عرب الخليج
# أول من عرف أفريقيا الشرقية
# وأول من اتصل بسكانها

«والفيلة في بلاد الزنج في عاية الكثرة، وحشية وكلها غير مستأنسة، والزنج لا تستعمل منها شيئا في حروب ولا غيرها، بل تقتلها لأخذ انيابها، فمن ارصهم تجهز انياب الفيلة» (٨٦) ومعظم عاج الشرق الافريقي كان يصدر الى الخليج العربي، وبالتحديد الى عمان ومن عمان يعاد تصديره الى المناطق التي تطلبه ولا سيما الهند والصين، حيث كان ملوك تلك البلدان يستخدمونه في صناعة ادوات الشطرنج والنرد وقد امتاز عاج افريقية بجودته وكبر حجمه على ما ذكر المسعودى (٨٧)

وتعد مقاديشو اهم مركز ى شرق افريقيا يتزود منه التجار العرب بالعاج، ومنها يحمل الى مختلف البلاد(٨٨) كما كانت معظم مدن الساحل الافريقى الشرقي - على ما يبدو - توفر العاج للتجار الذين يطلبونه حتى اعتبر في بعض المدن الزنجية أهم من الذهب(٨٩)

ويشكل الحديد مادة اساسية أخرى جذبت التجار العرب إلى افريقيا الشرقية، التى غدت اهم مصدر لهذه المادة ويبدو أن تجارة الحديد كانت قد شهدت ازدهارا كبيرا في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وليس أدل على ذلك مما ذكره الادريسى بقوله «وملندة على ضفة البحر وهي مدينة كبيرة وعندهم معدن حديد يحتفرونه ويعملونه وهو جلّ مكسبهم وتجارتهم ومن هذه المدينة الى مدينة منبسة على الساحل مسافة يومين وهي مدينة صغيرة للزنج واهلها محترفون باستخراج الحديد من معدنه» (٩٠)

ومن المناطق التي توفر فيها الحديد وامتاز بكثرته وجودته بلاد سفالة، حيث كانت بعض مدن هذه المنطقة (مثل جنطمة ودندمة) تعتمد عليه في معيشتها وتجارتها.(٩١) ويستدل مما ذكره الحميري في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي أن

صناعة الحديد اصبحت من الصناعات المهمة في شرق افريقيا [٩٢]

كما اشتهر شرق أفريقيا بوجود الانواع الجيدة من المواد العطرية التي نالت شهرة بين العرب ويعدّ العنبر من اهم انواع الطيب الذى وفرته بلاد الزنج، فهو ينبت في قعر بحر الزنج كما ينبت الفطر والكمأة[٩٣]

ويبدو ان سكان شرقي افريقيا كانت لهم طرق خاصة بجمعه، واول من وصف هذه الطرق المسعودي اذ يذكر ان لأهل السواحل التي يوجد فيها العنبر نجب يركبونها في الليل، ويسيرون بها على الساحل وفي الحزر القريبة منه حيث يتوفر فيها العنبر والذي يكون قد قذفه البحر بفعل الرياح ويظهر ان هذه النجب كانت مدربة فما ان تحس بوجود العنبر حتى تبرك فيأخذ اصحابها ما يجدونه من العنبر [٩٤] اما الطريقة الاخرى لجمع العنبر فتكون مع اشتداد البحر وقذفه للعنبر من قعره فتبتلعه الحوت المعروفة بالاوال فتموت لحالها وتطفو على الماء وكانت عادة الزنوج رصد هذه الحيتان، فما ان يروها حتى يرموا حبالهم وكلاليبهم لاصطيادها، ثم يستخرجون العنبر من بطونها.[٩٥]

وكان العنبر يصدر عادة الى مناطق الخليج ولا سيما العراق[٩٦] حيث ازداد طلب الخلفاء والامراء عليه كثيرا لجودة نوعه، ولهذا اصبح مادة مهمة في النشاط التجاري بين الساحل الافريقي الشرقي والخليج العربي.

واتجه التجار الى مناطق توفره فى شرق افريقيا مثل مالندي ومقاديشو وغيرهما [٩٧]

ويعدّ شرق افريقيا من المواطن الرئيسية لكثير من الحيوانات التى لها سوق رائجة في مناطق مختلفة من اجل استخدامها لشتى الاغراض فقد توفر في هذه المنطقة النمور والفيلة والزرافات وغيرها والفيلة ـ كما اسلفنا ـ كانت مرغوبة للحصول على عاجها، كما استخدمت وسيلة لركوب الخلفاء والامراء في الاعياد والمناسبات [٩٨] اما النمور الزنجية وجلودها فقد كانت معروفة لدى التجار، حيث وصفت جلودها على انها من أفضل الانواع، واستخدمت لصناعة السروج أما الزرافات فقد حملت من بلاد الزنج الى الملوك والامراء كهدايا لغرابتها [٩٩]

وأخيرا عرف عن الشرق الافريقي انه مركز مهم لكثير من انواع الاخشاب الثمينة والمرغوبة، كالابنوس والصندل والساج التي تنمو في غابات بلاد الزنج والذي يبدو ان مقاديشو كانت مركزا مهما لتزويد التجار بها ولا سيما الصندل والابنوس الذى تشكل مادة اساسية في تجارتها [١٠٠]كما صدرت زنجبار خشب الابنوس [١٠١] ويبدو ان السفن العربية كانت تحمل الاخشاب من شرق افريقيا الى الخليج العربي من اجل استخدامه في بناء مدن هذه المنطقة واعداد سقوف للبيوت[١٠٢]،

فضلا عن استخداماته المعـروفة الاخرى

اما عن المواد التي كان يحملها التجار العرب من الخليج العربي الى الشرق الافريقي ليبادلوها بالمنتجات التي دكرناها بأعتبارها الركن الثاني الذي كان يتحكم في النشاط التحاري بين الحانبين، فلا نحد لها اي ذكر في كتب البلدانيين العرب ولعل العدر في دلك انها كانت معروفة بالنسبة للتجار واصحاب المراكب في ذلك العصر

## النظم البحرية والتجارية .

ان النشاط التحاري بين الخليج والشرق الافريقي الذي قام على تبادل منتجات الطرفين المتنوعة، تطلب اتباع نظم وتقاليد بحرية وتجارية متطورة لتنظيم هذا النشاط فالرحلة التجارية الطويلة بين الخليج العربي وشرق أفريقيا اقتضت من التجار وربابنة السفن معرفة مراحل هدا الطريق اولا والعوامل التي تتحكم فيه والمخاطر التي تجابه السفن التجارية ثانيا

وسبق ان اشرنا بصورة تفصيلية الى مراحل هدا الطريق اما الحانب الثاني من الامر فيمثل العوامل والمخاطر التي تتحكم في الرحلة التجارية بين الخليج وشرق افريقيا، واهمها معرفة الرياح الموسمية التي تسير بموجبها السفن التجارية سواء في الخليج او بحر الزنج وفي هدا يقول المسعودي «ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفون في اوقات تكون منها مهابها، قد علم ذلك بالعادة وطول التجارب يتوارثون علم ذلك قولا وعملا، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها ابّان هيجانه واحوال ركوده وثورانه» (٣ ١) ثم يتحـدث عن الريـاح الموسمية واتجاهاتها وكيف ان اصحاب السفن من اهل الخليج يعرفون ان الرياح تهب في موسمين ففي الشتاء تندفع الرياح باتجاه الحنوب الغربي فتخرج السفن من الخليج الى شرق افريقيا وتستمر هكذا لمدة ستة أشهر، اما في الصيف فتندفع الرياح باتجاه شمالي شرقي بحيث تمكن السفن العربية من العودة من شرق افريقيا الى اوطانهم في الخليج(٤ ١) وهكذا استطاع تجار الخليج العربي بفضل هذه المعرفة والمعرفة الفلكية الوصول الى سواحل الشرق الافريقي بسلام

كان من الضرورات التي يعرفها التجار والملاحون الذين يـزاولون نشاطهم التحاري بين الخليج وشرق افريقيا وجود المخاطر عبر الطريق البحري. فالسفن التحارية الخارجة من منطقة البصرة والاتية عبر الخليج تلاقي في طريقها المنعطفات الضيقة والصعبة والهوارات الكثيرة وكثرة اللصوص. وقد تحـدث عدد من البلدانيين العرب عن هذه المحاطر وكيفية التغلب عليها فابن حوقل، الذي ينقل عن الاصطخري، يشير في حلال حديثه عن الخليج العربي قائلا وفي هذا البحر هيارات كثيرة

ومعاطف صعبة واجوان مختلفة واشدها ما بين جبابة والبصرة فانه مكان يسمى هور جنابه وهو مكان مخوف لا يكاد تسلم منه سفينة من هيجان البحر»(١٠٥)

وقد وضعت الحلول لمجابهة هذه المخاطر، فقد تم انشاء برج اومنار من الخشب اطلق عليه البلدانيون اسم «الخشبات» في منطقة البصرة، وهو عبارة عن «أربع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور يوقد بالليل يهتدى به، ويُعلم به المدخل الى الدجلة، واذا ضلت السفينة فيه حيف انكسارها لرقة الماء »(١٠٦) واذا انحدرت السفن التجارية في مياه الخليج فعليها ان تتجنب هجمات اللصوص والقراصنة، ولذلك فان السفن كانت، في اغلب الاحيان، تحمل المقاتلين والنفاطين ردّا لهذه الهجمات(١٠٧)

ولا تقل المخاطر التي تجابه حركة السفن التجارية في مرحلتها الثانية بين الخليج وشرق أفريقيا ونقصد بذلك رحلتها في بحر الزنج صعوبة عن المرحلة الاولى، حيث تظهر الامواج العالية والاهوال التى لا تحصى كثرة فيه ويصف المسعودي امواج هذا البحر بأنها عظيمة كالجبال الشواهق، وان ارباب المراكب من أهل الخليج العربي، ولا سيما العمانيين، يقولون عنه «أنه موج اعمى يريدون بذلك انه يرتفع كارتفاع الجبال، وينخفض كأخفض ما يكون في الاودية، لا ينكسر موجه، ولا يظهر في ذلك زبد، كتكسر سائر البحار، ويزعمون انه موج مجنون»(١٠٨) ويبدو ان هذه الاهوال قد اتت على الكثير من السفن الخليجية التي ركبت بحر الزنج، وقد اكد ابن سعيد في القرن ٧ هـ/١٣ م هذه الاهوال والمخاطر التي تجابه السفن في بحر الزنج(١٠٩) ولكن هذا الامر لم يثن التجار العرب عن المتاجرة مع شرق أفريقيا محاولين التغلب على صعابه بالمعرفة والتجربة الطويلة

ومن الجدير بالملاحظة، ان الحركة التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا تطلبت تأمين مناطق وقوف للسفن التجارية ومراكز لتجميع البضائع واماكن آمنة يمكن للتجار العرب اللجوء اليها في الفترة الواقعة بين موسمي الرياح الموسمية ، وهذا ما سنحاول التطرق اليه من خلال الاشارة الى محطات الوقوف في شرق افريقيا ومن ثم ما يقابلها في الخليج العربي

كانت جزيرة قنبلو اقدم محطة تجارية لجأ اليها تجار الخليج العربي باعتبارها مركز وقوف لهم للانطلاق الى سفالة الزنج وربما كانت مركزا لتجميع البضائع التى يراد حملها بعد ذلك الى الخليج العربي (١١٠) حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي اما بعد ذلك فقد حلت مقاديشو محلها مركزا لوقوف السفن التجارية يمكث فيها التجار العرب

فترة محددة ويمارسون نشاطهم التجاري لحين مغادرتهم للسواحل الافريقية وربما اكتسبت هذه المدينة اهميتها باعتبارها مدينة كبيرة لاستقبال التجار في ساحل بلاد الزنج، كما أشرنا انفا ومنذ القرن ٧ هـ/١٣م اصبحت مدينة مقاديشو مركزا ومحطة تجارية مهمة للتجار العرب، حيث يدكر ابن سعيد، نقلا عن الرحالة ابن فاطمة الذى زار هذه المدينة «انها مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع والمترددة الذكر على السن المسافرين وهي مقدشو»[١١١] ويضيف ايضا «واهلها مجمعّون فى الاقطار، وهي بلد حط واقلاع»[١١٢] وليس هناك أفضل من شهادة ابن فاطمة عن المكانة التي كانت تتمتع بها هذه المدينة في الساحل الافريقي الشرقي

احتفظت مدينة مقاديشو بمكانتها التجارية ـ كما يبدو ـ في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي فابن بطوطة الرحالة العربي المشهور الذي زار هذه المدينة واقام فيها مدة من الزمن يشير بعد أن يصفها بأنها مدينة متناهية الكبر، فان «اهلها تجار اقوياء»، وان المراكب تصل الى مرساها باستمرار وفى مختلف الاقطار، وان حكام هذه المدينة وسكانها كانوا دائما مستعدين لاستقبال السفن التجارية وما تحمله من بضائع وسلع، ولهم في ذلك تقاليد خاصة[١١٣]

ومن المراكز التجارية المهمة التى كانت تتوقف فيها السفن مدينة مومباسا، ويسميها الكتاب العرب (منسة)، ويبدو أن وقوعها على ضفة خور كبير قد سهّل دخول السفن التجارية اليها [١١٤] ومع اننا لا نريد أن نخوض هنا في جميع المحطات والمراكز التجارية التي تتوقف عندها السفن التجارية العربية لشراء بعض البضائع او للراحة او للتزود بما تحتاج اليه وما الى ذلك، وهي من المؤكد نفس المدن والمراكز التي وصفناها في مراحل الطريق التجاري بين الخليج وشرق افريقيا التي اشرنا اليها، فاننا في الوقت نفسه نشير الى آخر محطة تجارية يقصدها التجار العرب ويستقرون فيها ردحا من الزمن من اجل جمع البضائع المتوفرة فيها، ونقصد بذلك منطقة سفالة بمدنها المتعددة ولعل المسعودي كان اول من أشار الى وصول تجار الخليج، ولا سيما العمانيين، الى بلاد سفالة الواقعة فى اقاصى بلاد الزنج وكان غرض التجار من قيادة مراكبهم الى تلك المنطقة هو الحصول على الذهب الذى يعد اول منتجات المنطقة واهمها فضلا عن الحديد ويبدو ان التجار العرب كانوا يعرفون المدن السفالية التي تعد مراكز لتجميع الذهب الذى يحمل من مناجمه، واهم هذه المدن بتينه وجنطمة وبوخة وبسطة ودغواطة[١١٥]

أما أهم المحطات والمراكز التجارية

الواقعة على الطريق التجاري الذي يربط الخليج بشرق افريقيا في مرحلته الاولى، والتي كانت تتلقى الصائع. التجارية الواردة الى الخليج وتخزينها من اجل تصديرها الى بلدان العالم المختلفة فنذكر منها على سبيل المثال عمان والبصرة فقد عرفت عمان بخصوصيتها في النشاط التجاري بين الخليج وشرق افريقيا، باعتبارها قاعدة الخليج التى تستقبل السفن القادمة اليه والذاهبة منه الى مختلف الاقطار وقد تكلم معظم البلدانيين العرب عن نشاط عمان التجاري، باعتبارها تتمتع بموقع استراتيجي يجعلها محطة تجارية في التجارة الذاهبة والقادمة من شرق افريقيا[١١٦]

وكانت البصرة الواقعة في رأس الخليج العربي الشمالي من الموانىء الرئيسية المهمة في الخليج لمكانتها التجارية حيث اعتبرها اليعقوبي «مدينة الدنيا ومعدن تجارتها واموالها»[١١٧] وهي على حد قول المقدسي «فرضة البر ومطرح البحر» [١١٨] وهكذا فان موقع البصرة الاستراتيجي قد جعلها اشبه بمجمع تسويقي تخزن فيه البضائع الواردة التي تحملها السفن من الاقطار المختلفة وفي مقدمتها شرق افريقيا ليعاد توزيعها على المراكز التجارية التي تطلبها والى جانب ذلك فان البصرة تعد أول محطة تجارية تنطلق منها السفن الخليجية في رحلتها الى شرق افريقيا لتعود محملة بالذهب والعاج والعنبر والاخشاب الثمينة

ولا بد ونحن بصدد التنظيمات الخاصة بالنشاطات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا من الاشارة الى أن السفن التي تنقل البضائع من شرق افريقيا واليها كانت مراكب يمتلكها عرب الخليج وهذا ما أكدته لنا نصوص البلدانيين[١١٩] فالادريسي يشير الى ذلك بصورة صريحة بقوله «وليس للزنج مراكب يسافرون فيها وانما تدخل اليهم المراكب من عمان وغيرها فيبيعون هناك متاعهم ويشترون متاع الزنج»[١٢٠] وكان يقود هذه المراكب عادة ربابنة عرب متخصصون بالسفر الى شرق افريقيا نظرا لطبيعة بحر الزنج واهواله التى سبق الحديث عنها، أما ملكية هذه المراكب فاما انها كانت تعود الى تاجر هي وحمولتها[١٢١]، او انها تستأجر من مالكها ويكون عادة من ربابنة السفن المشهورين في السفر بين الخليج وبلاد الزنج [١٢٢]

ومن التنظيمات التجارية الجديرة بالذكر أن التجار العرب القادمين الى مدن الساحل الافريقي الشرقي يجدون فيها من المرشدين أو الوكلاء المحليين الذين يساعدونهم في اقامتهم وتصريف بضائعهم وشراء ما يريدون ولعل ما شاهده ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي في مدينة مقاديشو خير ما يوضح لنا

دلك، فهو يقول

«ما ان يعلم اهل مقديشو بوصول سفينة الى ميناء مقديشو، حتى يرسلوا الصنابيق وهي القوارب الصغار اليها، وفي كل واحد منها جماعة من أهل مقديشو، يصعدون الى المراكب ومع كل واحد منهم طبق فيه الطعام يقدمه الى احد تجار السفينة القادمة، ولا يكتفي بذلك، بل يدعوه الى النزول عنده، وهكذا يغادر كل تاجر في السفينة الى دار نزيله من سكان مقديشو، وتكون مهمة النزيل عادة مساعدة التاجر في بيع ما عنده اولا، ثم مساعدته في شراءما يريده ثانيا ويخبرنا ابن بطوطة ـ أن هذه العادة لا تتبع مع التاجر الكثير التردد على مقديشو، بسبب معرفته بها وبأهلها، حيث تترك له حرية النزول حيث يشاء»(١٢٣)

ويبدو أن حاكم مقاديشو كان هو الاخر يهتم بشأن السفن التجارية القادمة الى مدينته، فهو الاخر كان يرسل صبوقه لدى وصول اية سفينة للسؤال عن المكان الذي قدمت منه، ومن هو ربّان السفينة وصاحبها، وما هي نوع البضاعة التي تحملها، ومن هم التجار القادمون فيها فاذا تم له معرفة ذلك، فانه يدعو من يستحق النزول عنده الى ضيافته (١٢٤) ولم يشر ابن بطوطة الى اوصاف الشخص الذي ينال ضيافة السلطان، هل هو اغنى التجار، أم هل هو حامل البضائع التي يرغب فيها حاكم مقاديشو، او انه صاحب معرفة بالسلطان او غير ذلك من الاوصاف ؟ وهكذا نجد من اعراف اهل مقاديشو التجارية ما يدل على وجود تقاليد ورسوم معروفة لمن مارسوا النشاط التجاري مع شرق افريقيا

وهكذا تعكس لنا صفحات هذا البحث صورة عن اهم ما احتوته مدونات البلدانيين العرب من معلومات عن العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا وبالرغم من ان معلوماتهم في هذا المجال كانت في كثير من الاحيان قليلة وربما ناقصة، فان ذلك لم يمنعنا من رسم صورة مناسبة لطبيعة تلك العلاقات على ضوء ما ذكره البلدانيون العرب كما ان ما أورده هؤلاء من معلومات يدل على قدم وسعة العلاقات التجارية بين الجانبين وعمقها، تلك العلاقات التي كانت ذات أثر كبير ليس فقط في نشر العقيدة الاسلامية بين سكان الشرق الافريقي، وانما في الاستقرار المؤقت او الدائم للتجار العرب في المراكز التجارية في افريقيا الشرقية، وما تبعه من تغيرات واسعة في الاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المنطقة

# الهوامش

1 ـ سبنسر ترمنكهام، الاسلام في شرق أفريقيا، ترجمة احمد عاطف الدواوي (القاهرة، ١٩٧٣) ص ٣٥

2 ـ ابو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة ١٩٦٤)، ج١ ص ١١٥ ، انظر ايضا محمد عبد الغني سعودي، الاتصالات العربية الافريقية في العصور القديمة، في العلاقات العربية الافريقية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة، د ت) ص ص ٢٤ ـ ٢٦

3 ـ جمال زكريا قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد العاشر (١٩٦٧) ص ٢٨١

4 ـ خولة شاكر الدجيلي، العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجري، رسالة دكتوراة غير منشورة في جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٠، ص ١٤٠

5 ـ للتفاصيل انظر ج س ولكنس بنو الجلندي في عمان (عمان، ١٩٨٢) ص ٥

6 ـ عامر محمد الحجري، «تاريخ العلاقات العمانية الافريقية بداية التواجد العماني في شرق افريقيا»، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (الدوحة، قطر، ١٩٧٦) ص ص ٧٧٦ ـ ٧

7 ـ تاريخ عمان كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي (عمان، ١٩٨٠) ص ٤٢

8 ـ احمد حمود المعمري، عمان وشرقي أفريقيا، ترجمة محمد أمين عبدالله (عمان، ١٩٧٩) ص ٤٣

9 ـ قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا، ص ٢٨٧

10 ـ محمد محمد أمين، تطور العلاقات العربية الافريقية في العصور الوسطى في العلاقات العربية الافريقية، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة، د.ت) ص ٤٨

١١ ـ جمال زكريا قاسم، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية (القاهرة، ١٩٧٥) ص ٦١ ؛ انظر ايضا A. Warner, "A Sahili History of Pate", Journal of Afrıcan Society, Vol. X1V, (1913), P. 153.

١٢ ـ قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا، ص ص ٣١٢ ـ ١٤

١٣ ـ لقد توالت هجرات عدد من الاسر العمانية الى شرق افريقيا بحيث استطاعت السيطرة على هذا الساحل منها، اسرة اليعاربة، والاسرة المزروعية، واسرة البوسعيد. للتفاصيل انظر نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان (القاهرة، ١٣٤٧) ج٢ ص ٩٨، ٢٢٠ ؛ مبارك بن علي الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسا (عمان، ١٩٨٠) ص ص ١٥ ـ ١٦ قاسم، استقرار العرب، ص ص ٣١٤ ـ ٦

١٤ ـ ابو القاسم بن حوقل، كتاب صورة الارض (بيروت، د ت) ص ٦٣ ؛ قاسم الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، ص ٥ ؛ S. Trimingham, Notes on Arabic Sources of Information of East Afrıca in: East Africa and the Orient, ed. by H. Nevılle Chıttıck and Robert I. Rotberg. (Afrıcan Publishing Company, New York, 1975), (Appendıx I,) P. 273.

١٥ ـ أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن، ١٨٨٩) ص ٦

١٦ ـ أبو زيد السيرافي، أخبار الصين والهند ضمن كتاب (في رحلات العرب)، (بيروت، ١٩٧٤) ، ص ٧٤

١٧ ـ المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ٣١٨ ؛ سليمان التاجر، أخبار الصين والهند ضمن كتاب (في رحلات العرب) (بيروت، ١٩٧٤) ص ٢٢

١٨ ـ جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة واوائل العصور الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة، ١٩٥٨)، ص ص ٢٢٩ ـ ٣٠

١٩ ـ اغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان (القاهرة، ١٩٦٣) ج١ ص ص ١٨٣ ـ ٥

٢٠ ـ J.S. Trimingham, "The Arab Geographers and East African Coast ın: East Africa and the Orient, ed. by Chıttıck and Rotberg (New York, 1975), PP. 129-30; Chittick," The People of the East African Coast, in: East Africa and the Orient, P. 23.

٢١ ـ المسعودي، مروج الذهب ج١ ص ١٠٨

٢٢ ـ T. Lewicki, Arab external sources for the history of Africa to the South of Sahara (Waroclaw, 1969), PP. 38-9.

٢٣ ـ ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٦٣ · كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١ ص ٢٠٣

٢٤ ـ انظر ر ج لاندن، عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا، ترجمة محمد أمين عبدالله (عمان، ١٩٧٠) ص ص ١٩ ـ ٢٠

٢٥ ـ انظر ابو عبيدالله بن عبدالعزيز البكري، المسالك، والممالك، مخطوطة مصورة محفوظة في مكتبة الدراسات العليا في كلية الاداب / جامعة بغداد رقم ١٢٦٠، وهي نسخة مصورة عن نسخة مكتبة نور عثمانية في اسطنبول تحت رقم No. 3034 ج٢ ورقة ١٨٧ أ والحقيقة اننا اعتمدنا هذه المخطوطة لان فيها معلومات كثيرة عن شرق افريقيا لا توجد اطلاقا في كتاب البكري المنشور

٢٦ ـ البكري، المصدر نفسه، ورقة ١٨٧ أ

٢٧ ـ كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١ ص ٢٨٧

٢٨ ـ ابو عبدالله محمد بن محمد الشريف الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، نسخة مصورة بالفوتستات عن نسخة البودلاين ـ اكسفورد، محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي رقم (١٥ ـ جغرافية)، ورقة ٦٠ وتمتاز هذه النسخة المخطوطة لكتاب الادريسي ـ حسب علمنا ـ بان فيها من المعلومات عن شرق افريقيا مالم يتوافر في النسخ المنشورة الاخرى

٢٩ Lewicki, op. Cit, P.65.

٣٠ ـ الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢

٣١ ـ كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١ ص ص ٣٣٤ ـ ٥

٣٢ ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان (دار صادر ـ دار بيروت، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩) ج٥ ص ١٧٣

٣٣ ـ كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١ ص ص ٣٥٨ ـ ٩

٣٤ ـ ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافية، تحقيق اسماعيل العربي (بيروت، ١٩٧٠، ص ٦٣ (المقدمة)

٣٥ ـ تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج١ ص ٤٢١

٣٦ ـ محمد بن عبدالله اللواتى المعروف بابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني (بيروت، ١٩٧٩) ج١ ص ١٦
٣٧ ـ ابن بطوطة، المصدر نفسه، ج ١ ص ١٨٠ ـ ٨٢
٣٨ ـ المسعودي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٦، ١١٠، الاصطخري، المسالك والممالك، ص ١٩ ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٤٩ البكرى، المصدر السابق، ج ٢ ورقة ١٨٧ ب، ١٨٨ أ
٣٩ ـ مروج، ج ١ ص ١٠٧
٤٠ ـ المصدر نفسه
٤١ ـ ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨٢ انظر ايضا شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (لايبزك، ١٩٢٣) ص ١١١
٤٢ ـ معجم، ج ٢ ص ١٠٦
٤٣ ـ ياقوت الحموي، معجم، ج ٥ ص ١٧٣ زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٠، ص ٦٢
٤٤ ـ ياقوت، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٢٤ المسعودي، المصدر السابق ج ٢ ص ٦
٤٥ ـ مروج الذهب، ج ٢ ص ٦
٤٦ ـ المصدر نفسه
٤٧ ـ نزهة المشتاق، ورقة ٥٢
٤٨ ـ المصدر نفسه، الورقات ٥٢ ـ ٣
٤٩ ـ المصدر نفسه، ورقة ٥٣
٥٠ ـ شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ١١٤
٥١ ـ الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٧٠
٥٢ ـ المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٠٧
٥٣ ـ الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨٣
٥٤ ـ ابن سعيد، المصدر السابق،
٥٥ ـ نزهة المشتاق، ورقة ٧٠
٥٦ ـ أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، كتاب الاعلاق النفيسة (ليدن، ابريل، ١٨٩١) ص ٨٦، ابو بكر احمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان (ليدن، ١٣٠٢) ص ١١

٥٧ ـ لندن، المصدر السابق، ص ٢١، نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت، ١٩٦٢) ص ٢٢٤، عبدالجبار ناجي، العلاقات التجارية بين البحرين والعراق خلال العصر الوسيط، مجلة الوثيقة (البحرينية)، العدد السادس السنة الثالثة (يناير، ١٩٨٥) ص ١٠٨

٥٨ ـ مروج الذهب، ج ١ ص ٣٠٨

٥٩ ـ ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٤٧، ناجي، المصدر السابق ص ١١٧ ـ ٨

٦٠ ـ المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١١٠، ابن الفقيه ـ المصدر السابق، ص ١١، ابن حوقل، المصدر السابق ص ١٦، البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١٦٧، ١١١٥

٦١ ـ مروج الذهب، ج ١ ص ١١

٦٢ ـ المسالك والممالك، ج ١ ورقة ٦٧

٦٣ ـ ابو القاسم عبيد الله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن، ١٨٨٩) ص ٦٠ ـ ٦١ الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٣، عماد الدين بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء، تقويم البلدان، تحقيق البارون ماك كوكيبي ديسلان (باريس، ١٨٤٠) ص ١٥١ ـ ٥٢

٦٤ ـ المسعودي، المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨١، ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٣

٦٥ ـ سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان في امجادها البحرية، عدد ٨ (عمان، ط ٢، ١٩٨٠ ص ٦٨ ـ ٧٠

٦٦ ـ الادريسي، المصدر السابق، الاوراق ٥٢، ٦٠، ٧٠

٦٧ ـ المسالك والممالك، ص ٦٠ ـ ٦١

٦٨ ـ مروج الذهب، ج ١ ص ١٠٧ ـ ٨

٦٩ ـ مروج الذهب، ج ١ ص ٩٨

٧٠ ـ Trimingham, The Arab Geographers and the East African Coast, pp. 129-36.

٧١ ـ Ibid, P. 136

٧٢ ـ نزهة المشتاق، الورقات ٥٢ ـ ٥٣

٧٣ ـ المصدر نفسه، ورقة ٥٣

٧٤ ـ المصدر نفسه ورقة ٦٠

٧٥ ـ الجغرافية، ص ٨١، تقويم البلدان، ص ١٥١

٧٦ ـ الجغرافية، ص ٨٢

٧٧ ـ ابن سعيد، المصدر نفسه، ص ٨٣ ـ ٥، ابو الفداء المصدر السابق، ص ١٥٢
٧٨ ـ نزهة المشتاق، ورقة ٧٠
٧٩ ـ مروج، ج ٢ ص ٦
٨٠ ـ نزهة المشتاق، ورقة ٧٠
٨١ ـ رحلة ابن بطوطة، ج ١ ص ٢٨٣
٨٢ ـ Trimingham, The Arab Geographers, p. 20 ويبدو ان ترمكهام يبنى افتراضه هذا بوجود مناجم الذهب في شرق افريقيا على اشارة ابن الفقيه الى «ذهب واق واق»
٨٣ ـ نزهة المشتاق، ورقة ٧٠
٨٤ ـ معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٢٤
٨٥ ـ المصدر نفسه، ج ٢ ص ١٢ ـ ٣
٨٦ ـ مروج الذهب، ج ٢ ص ٦
٨٧ ـ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٦، انظر ايضا البكري، المصدر السابق، ورقة ١٨٨م
٨٨ ـ ياقوت، المصدر السابق، ج ٥ ص ١٧٣، القزويني، المصدر السابق، ص ٦٢
٨٩ ـ ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٨٤
٩٠ ـ نزهة المشتاق، ورقة ٥٢
٩١ ـ المصدر نفسه، ورقة ٦٠، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨٣
٩٢ ـ محمد عبدالمنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس (بيروت، ١٩٧٥) ص ٥٥٢ ـ ٥٥٤
٩٣ ـ المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٥١، ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص ٦١، البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١١٥م
٩٤ ـ مروج الذهب، ج ١ ص ١٥٠
٩٥ ـ المصدر نفسه، ج ١ ١٥٠ ـ ١، انظر ايضا البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١١٥م
٩٦ ـ المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٥١، البكري، المصدر السابق ج ١ ورقة ١١١٥
٩٧ ـ ياقوت، ج ٥ ص ١٧٣، القزويني المصدر السابق ص ٦٢.
٩٨ ـ المسعودي، المصدر السابق، ج ٢ ص ١٢
٩٩ ـ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٤، البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١١٨٨
١٠٠ـ ياقوت، المصدر السابق، ج ٥ ص ١٧٣، القزويني، المصدر السابق، ص ٤٤
١٠١ـ شيخ الربوة، المصدر السابق ص ١٦٢

١٠٢- ياقوت المصدر السابق، ج ٥ ص ١٩٣، ابو الفداء، المصدر السابق، ص ٣٢٧
١٠٣- مروج، ج ١ ص ١١٢
١٠٤- المصدر نفسه، ج ١ ص ١١٥ - ٦
١٠٥- صورة الارض، ص ٥٢
١٠٦- المصدر نفسه، ص ٥٢، المقدسي البشاري، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن، ١٩٠٦) ص ١٢، المسعودي، المصدر السابق ج ١ ص ١٤٩
١٠٧- المقدسي، المصدر السابق، ص ١٢، الادريسي، المصدر السابق ورقة ٥٥
١٠٨- مروج الذهب، ج ١ ص ١٠٧
١٠٩- الجغرافية، ص ٨١ - ٤
١١٠- المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ٩٨، ١٠٧ - ٨
١١١- الجغرافية، ص ٨١
١١٢- المصدر نفسه، ص ٨٤
١١٣- رحلة ابن بطوطة، ج ١ من ص ٢٧٩ - ٨٠، انظر ايضا شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ٢٦٩
١١٤- الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢، ابن بطوطة، الرحلة، ج ١ ص ٢٨٣
١١٥- المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٧، الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨٣، ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٣
١١٦- المسعودي، المصدر السابق، ج ٢ من ص ٦ - ٧، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٥٤ - ٥، المقدسي، المصدر السابق، ص ٩٢، البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١٨٧ أ ب، الادريسي المصدر السابق، ورقة ٥٥، ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٥
١١٧- البلدان، ص ٣٢٣
١١٨- احسن التقاسيم، ص ١٢٨
١١٩- المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٠٧، الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٣.
١٢٠- نزهة المشتاق، ورقة ٥٣
١٢١- ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٦٧
١٢٢- المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٠٨
١٢٣- الرحلة، ج ١ ص ٢٧٩
١٢٤- المصدر نفسه، ج ١ ص ٢٨٠
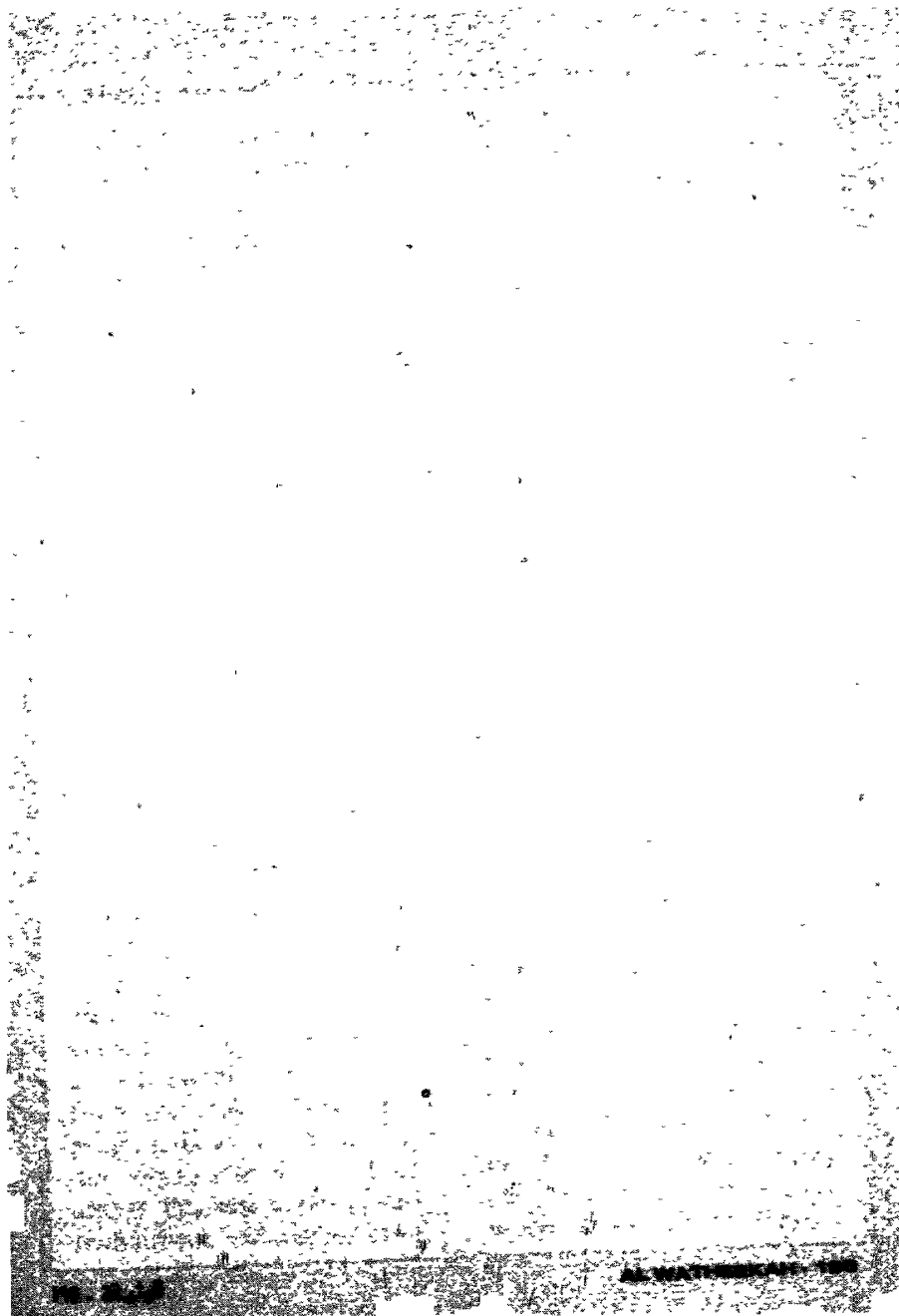
able through the generous patronage extended by members of the Al Khalifa family through their dedication to public welfare.

*****

extent been emulated in modernising Bahrain and her public institutions. In this he has been ably helped by his wise counsellor and adviser.

The pesent ruler His Highness Sir Sulman bin Hamed Al Khalifa succeeded his father in the year 1941. He too is a keep sportsman and likes hunting with falcons but he rarely finds leisure to indulge in these games from his other responsible interests of the State. Horse racing is a new feature in the field of sports but these meetings are held about twice in the year and I believe collections are solely devoted to the benefit of tuberculosis patients receiving treatment abroad. Sports meetings are held each year by educational authorities and police departments in the presence of the ruler and many distinguished guests Lucky winners received prizes and presents from the Ruler. Peace and progress is seen everywhere, not only in administration but also in business undertakings both private and public. Even though the elder statesmen show a conservative outlook in day-to-day life the younger generation is showing an awareness of national consciousness from what they see and hear outside their homeland, and intend to emulate the example of other isster Arab countries despite the moderation advised by their elders

## MY TRIBUTE AND EARNEST PRAYER

In conculding these memoirs, I think I should fail in my duty if I do not pay my tribute to Bahrain and her people — Bahrain which has been a foster mother to me for over three decades, and to her people for their hospitable cooperation and goodwill. My gratitude is also due to the Al Khalifa family who have always shown a considerate attitude and appreciation of my work. My life and work in Bahrain during all these years was mainly made possible and comfort-

sons and thousands of Bedouins The camp site near about Kuwait, called Gosooma looked like a city of beautiful tents with flags and buntings and of all the three Arab rulers, the late Shaikh Ahmed Al Jabar of Kuwait also having joined this hunting gala. All three rulers with their sons and relatives used to leave for the chase early before sunrise after prayers and a few cups of coffee and date. At noon all used to meet at one spot for the midday meal and prayers and leave immediately to continue their chase after habara. On return at sunset, the king entertained his guests to sumptuous feasts of roast sheep, fowls and heaps of rice and curries, custards, and fruits of all sorts in plenty. The rulers of Bahrain and Kuwait entertained the king of Arabia and his party in their turn. The vast cavalcade of cars, jeeps, petrol and fresh-water tanks and other heavy transport of the kings was an impressive and eye-catching sight when seen on the horizon, raising clouds of dust and sand for miles around. This year's chase brought in a bag of over 3,000 habara and about 100 heads of deer. The late ruler was over 75 years of age and was for some years on a strict regimen under advice from his doctors. I had joined the party as a medical attendant to his late Highness. I had occasion to see and attend many Bedouins in their nomadic surroundings in the desert. His late Highness died a month after his return from the hunt. He, too, was very generous and charitable towards his subjects and many of the reforms and achievements like the new government hospital and dispensaries, new schools for primary and secondary education for boys and girls, and the public works department and other departments of administration came into existence during his regime and are functioning now efficiently for the good of the people. He twice visited England as the guest of His Britannic Majesty and his appreciation of that country's greatness has to some

is well known, both towards his subjects as well as to foreigners who came to his state All shaikhs, both rulers and their children and dependants are keen sportsmen and like hunting and chase with falcons on the mainland of Arabia. Each year, just before the beginning of winter, a huge caravan consisting of cars, jeeps fuel and food supplies with parties of hunters leave these shores for the mainland of Arabia. In the early part of this century, Arabs used to hunt on camels but in these days of mechanical transport light cars and jeeps are used in the chase They start before sunrise and cover hundreds of miles racing after their quarry, habara, a bird belonging to species known as bustards, and return to their camp at about sunset with a full bag. A trained falcon is carried on the forearm by the hunters. When the mask is removed this intelligent hunting bird blinks and looks about on all sides and immediately it sights a stir in the bush at any distance, and flies away after the quarry. Habara too when roused takes to wing and a chase and fight in the air result in a crash of the two birds some distance away. Hunters rush in their cars to the spot and release the victim from the falcon who is immediately given a piece of heart or liver of his victim to keep him alert and longing to taste this reward again. These falcons are caught in northern Persia and fetch a price from Rs 200 to Rs 1,000 according to their breed and hunting ability which only experts seem to judge or guess for their masters.

The hunt usually lasts about a month and 10 days Their bag mainly consists of about a thousand or more habara and a few heads of desert deer. 1941 is a memorable year for me. I had the good fortune to go and see this hunt and take part in the chase daily. This year the late ruler, Shaikh Hamad bin Isa Al Khalifa, a keen sportsman, took part in the hunt. Here too joined the late king Ibn Saud of Saudi Arabia with his

is headed by an Arab of a well-known family of Bahrain. He is an able organiser, intelligent and indefatigable in all his endeavours concerning the education of the youth of Bahrain In this respect much of the credit is deservedly his.

The customs house and port health authorities are very vigilant and efficient in the discharge of their various functions and giving facilities to the public. Most of the employees of this department are Arab young men trained in Bahrain

Last but not the least important is law and order which exists in present-day Bahrain A highly trained and efficient police force of Arabs with a staff of young Arab officers gives one a sense of security. Police are seen at all important street crossings or junctions doing point-duty, regulating traffic and also in market places and bazaars where peace and order is maintained by these guardians of law. It is highly gratifying to observe that this highly efficient organisation is headed by a shaikh of the ruling family.

## RULERS OF BAHRAIN

When I first arrived at these hospitable shores, the grandfather of the present ruler, HH Shaikh Isa bin Ali Al Khalifa, must have ruled over these islands for over half a century and he was over 80 years of age at that time. All ruling powers were vested in his eldest son and successor, HH the late Shaikh Hamad bin Isa Al Khalifa, the father of our present ruler, HH Shaikh Sir Sulman bin Hamad Al Khalifa.

I had occasions to call on the late HH Shaikh Isa bin Ali Al Khalifa in my professional capacity. Once I attended to some injuries he received from a fall. The last time I was called in was when H.H. died suddenly from heart failure as a result of old age. He was very charitably disposed and his philanthropy

resulted in what we see today, a modern and beautiful Bahrain. Wherever you go you find good metalled roads and broadened streets in the bazaars, imposing structures housing various departments of the present Government of Bahrain; the beautiful Gateway of Bahrain, where the Ruler receives on week days, prayers and petitions from his subjects; the Law Courts where justice is sought and given as in every other civilised country. The expanding education department having elementary, primary and secondary schools under its control, has planned and constructed in recent years beautiful and modern buildings at huge expense to accommodate and carry forward their educational programme in higher subjects and technology for boys and girls of these islands who are on the march towards modernity which is seen today in the Arab world. In the early 1920s there were only two schools for boys only, one in Muharraq and the other in Manama, whith a total strength of about 600 students. Now there are schools for primary education in each main village and for higher education two secondary schools, one of each for boys and girls, in two separate buildings. The present strength of attendance at schools total over 8,000 who are looked after by a strong contingent of highly trained and able teachers from Egypt, Syria and Lebanon. Well trained carpenters and mechanics are coming out from the technical school yearly, and employed by Bapco, the oil company, and other firms doing construction works Intelligent boys are given scholarships for higher studies abroad, in Iraq, Lebanon and Egypt. Some of the well-to-do boys are sent to England by their rich parents who show a keen interest in the education of their boys these days All in all we see Bahrain and her people are on the onward march towards progress and modernisation.

The education department

The hospitals are staffed by highly trained British and Indian sisters and nurses. Arab boys and girls who show an aptitude are given all encouragement and apprenticed as nurses and dressers. The standard of surgery has been raised considerably by the appointment three years ago of a highly qualified surgeon, Mr Wilkins, FRCS.

Isolation hospitals are housed in two separate buildings to treat cases that are required to be isolated from the public. Here venereal, dysentery and tuberculosis wards accommodate these classes of cases These are discharged only when they are free from infection. Here I think it is proper to observe that venereal disease, once a problem, is a problem no more, thanks to the advent of the antibiotics and sulpha drugs. On the other hand tuberculosis is on the increase and here too, thanks to the birth of a chest clinic and public awareness of the benefits of early diagnosis and treatment of this disease either here or abroad, it is being brought under control.

A mental asylum has been in existence to detain mental cases for over 20 years. Here there were no nursing facilities in olden days but now a nursing staff is maintained by the Government Hospital and regular food and treatment is provided to the inmates.

## BAHRAIN THEN AND NOW

During the early years of these memoirs I recollect there were no good roads for motor traffic, even though a handful of such modern vehicles of conveyance were in existence. There was no efficient municipal administration to look after the construction and repair of such roads or streets in the bazaar. These amenities of public importance came into being when HH Shaikh Hamad bin Isa and HH Shaikh Salman bin Hamad decided to modernise Bahrain in over a period of 30 years. It has

ciation is ever on the increase and daily hundreds of patients queue up for treatment at this noble institution.

The Bahrain Government Hospital came into being early in 1938 and by careful planning by authorities has ever been on a progressive basis Each year a new unit or building has materialised to house yet another ambitious scheme for the welfare of the public. In the beginning, ward accommodation was very limited but this is increased each year as people have gradually come to realise that this hospital is their own hospital where every facility and treatment is given to them in full measure. But public confidence in government institutions and undertakings of this nature is ever on the increase as is evidenced by public zeal.

The Government is cooperating with the public while planning for the good of the people of these islands. Extensive government hospital buildings today cover an area of about four acres of grounds, situated in the north-western region of the sea-front of Manama, the capital of Bahrain. There are two separate blocks of two-storey buildings for both male and female indoor patients. Besides these a new large building houses private wards for those who seek this special amenity Medical, surgical and eye wards to accommodate these classes of patients are available in both male and female hospitals. The present capacity of these wards is quite inadequate and I believe a new and extensive building is near completion to meet the further demands of the public. A large and first class X-ray unit is working to full capacity daily. A modern laboratory for all kinds of tests is functioning with a full complement of technicians. Even though in the beginning, there was only one English doctor for each section with only a couple of Indian assistants, now there are two English doctors for each section and about a dozen Indian assistants with high academic qualifications and experience.

clerks and vaccinators under the able control of an English doctor with two Indian assistants, one to look after the quarantine medical establishment and the other in charge of school clinics at various schools of the ever expanding department of education of the Government of Bahrain.

## EARLY MEDICAL AND PUBLIC HEALTH INSTITUTIONS IN BAHRAIN AND THEIR PROGRESS

In 1925 there were only two medical establishments in Manama, the principal island of the group:

1 The Victoria Memorial Hospital in charge of the Agency surgeon mainly for the benefit of the employees of the Agency but predominantly attended by the general public.

2. The American Mission Hospital was established before the beginning of the present century. This had accommodation for indoor patients and surgical facilities for treatment under highly able and popular surgeons who worked for the mission. Many an outstanding surgeon has worked for the welfare and relief of those in distress in these parts and departed from these shores with full honours and appreciation; but one name stands out preeminently, that of Dr Paul Harrison, who, I believe, spent more than half a century among the Arabs of Arabia and peoples of various shaikhdoms extending from Muscat to Kuwait on the Arabian coast of the Gulf Many a brilliant surgical feat has been carried out successfully even in adverse situations. The memory of his name and his deeds will ever remain green with the masses here. The American Mission Hospital is now fully extended and housed in separate blocks for male and female patients with all modern and uptodate medical and surgical equipment, X-ray unit and a laboratory. Their popularity and public appre-

formed at this time and His Britannic Majesty's Political Agent took a keen and active interest in getting both anti-malarial experts and in formulating co-ordinated plans to eradicate malaria in a systematic way. Now we hardly get a case of malaria among the local population and only a few come from the neighbouring countries like Persia, Dubai and the mainland of Arabia. Ever since the formation of a full-fledged medical department in Bahrain, regular vaccinations of the population have been carried out each year to curb the ravages of another at one time practically endemic disease, small-pox. Now the newly-formed health department sends batches of vaccinators to each village, hamlet and school in their campaign against small-pox. All incoming passengers or visitors to these islands are required to furnish vaccination certificates as is usual in all civilized countries. The public health department takes a keen interest in sanitation and public health specially in school-going children. A full-time medical officer with staff calls at each school to check the physical well-being of children attending public schools and institutions, among whom trachoma is a common complaint Besides these activities, the public health department is in sole charge of the anti-malaria work, employing hundreds of Arabs, spraying DDT in markets, warehouses in the bazaars and other localities infected with mosquitoes and flies and also spraying crude oil in cesspools and waterways, the main breeding grounds of larvae. This laudable and highly humanitarian objective is efficiently carried out by this department resulting in appreciation from all sections of the public.

Qualified sanitary inspectors keep a strict watch over markets, hotels and restaurants and other public utility concerns in modern Bahrian. A happy augury towards public weal! The public health department is housed in a new and impressive structure with a staff of Arab

many on that fateful night. Early next morning hundreds of crying women and children rushed to the sea-front for news about their menfolk and the fate of their crafts. I received instructions to go out in the Agency's steam launch to render whatever aid I could and pick up survivors on our way We found hundreds of capsized boats floating with the tide and hardly any survivors. We picked up two who were clinging to wreckage and one of these died from exhaustion before we reached port. A very conservative estimate puts the number of dead at 5,000 For a week or so, the cable office was busy receiving and sending messages to and from anxious relatives and dependants of foreigners working here. The Shaikh's dispensary had to be shifted twice from shop to shop but no light or ventilation facilities could be had in any one of these shops. A few benches were the only additional equipment made available for the benefit of the patients, until 1938 when the newly arrived first State Medical Officer of the newly formed medical department considered accommodating this dispensary in a more spacious building with good light, ventilation and water supply.

From 1928 to 1935 malaria was one of the chief scourges which took a great toll of life in these islands. Every year, two quarterly periods, such as May, June and July and again November, December and January, invariably brought in large numbers of cases of malaria of all types A large quantity of quinine used to be expended each year to combat the ravages of this practically endemic disease. Prices of quinine in the local market went up to Rs.40 per pound, pre-war rates and at one time the market was nearly empty of this precious drug Strict and stringent measures were later on initiated by the government, by getting anti-malaria experts and staff from India An anti-malaria committee of government and municipal officers and leading members of the public was

banks and the present catch does not exceed more than five million rupees a year, whereas it used to be 50 to 60 million rupees in the 1920s and early 1930s.

## MEDICAL FACILITIES AND PUBLIC HEALTH IN GENERAL

As mentioned earlier in these memoirs, I was recruited for work specially at the pearl fisheries. When the season for 1925 was over in September of that year, I was asked to take charge of the Shaikh's dispensary in Muharraq, the second largest in the group called the Bahrain Islands. During this early period, most of the families of the ruling Shaikh had their residences on this island. Some of the prominent merchant princes transacted their business from their warehouses on this island. So this place had some importance as an administrative centre at that time. Foreign diplomats and dignitaries used to call on the Shaikh, the late Shaikh Isa bin Ali Al Khalifa, the grandfather of the present ruler of Bahrain. The dispensary was a small affair, situated in a small shop 20'x12' with a wide door in front and a small window on one side with poor light and ventilation. This was in charge of an old Borah doctor, practising Unani medicine I took charge on an eventful day when a car accident occurred resulting in the death of one person and injuries to several others There were hardly any dressing material or surgical needles and thread to suture up wounds A car could not be taken near the dispensary as the roads were not passable After attending the injuries of my first batch of patients here, I returned to my hurriedly got-up quarters at about 10 pm when the eventful cyclone burst over these islands and the surrounding seas where hundreds of pearling boats were resting for the night from their labours without any foreboding of the catastrophe that awaited

Eighty to ninety per cent of divers come for ear complaints, chronic as well as acute, some even with bleeding. These are mostly due to under-sea pressure effects on the tympanic membrane or preceding a spell of ottorrnoea, off season. The general health of a diver is very poor. This is probably due to their taking only one substantial meal in 24 hours, when they work hard during a season or for want of a well-balanced diet. Some of the boats which remain at sea for over 40 to 50 days usually present a complement of cases of scurvy. The rest of the crew who pull the divers or handle the oars are usually strong and hardy with excellent physique.

## PEARLING TRADE

Pearl merchants go out in their own boats and launches to purchase pearls from the diving boats At one time hundreds of merchants used to visit the pearl banks and pull off deals bringing huge profits to the lucky ones. French and British financiers of the pearling trade used to visit these islands creating a rise or fall in the market according to their arrival or absence during a season. Experts from India used to come and cater for the clientele of the vast sub-continent, yearly, in millions of rupees. Best quality pearls have a good market both in London and Paris, where American tourist millionaires created a boom in the pearl market of those cities. Trade has been in steady decline since the early 1930s owing to general depression in trade all over the world. The other factor which has brought this industry to its present poor plight is that the younger generation is not inclined to take up pearling as a profession which involves hard work and life out at sea. Most of them having received some sort of education prefer to work in oil companies both here and on the mainland of Arabia, which brings them a steady monthly income to meet their daily needs and comforts. Hence there is a great shortage of labour for work at the pearl

more dates. They sprinkle a liberal quota of ghee over sweet rice before they start their meal.

A diver wears a horn slip over his nostrils and the tips of his fingers and thumbs are protected by finger gloves made of rough cow-hide. He wears only a loin cloth or shorts and nothing else. He dives with the help of a weight which is attached to a thin rope and carries with him a light string bag which is also attached to a thin rope. As he reaches the bottom, the weight is pulled up and kept ready for the next dive. The diver remains under the sea and collects the oysters from the sea-bed, putting them in the string bag, the rope of which when jerked by the diver is a signal to the puller to haul him up. A diver takes a minute and a half under water each time and he rests after a spell of 10 dives, when a new batch of divers relieve the first one for a badly needed rest and some coffee and dates.

A fairly large group of crafts working at one of the pearl banks and their bustle and activities and the call of the Muazzin to prayer during day or night gives one the panoramic impression of a busy market place or a village in the Orient. During fine weather they remain at work at the fishing grounds, but when a storm is in the offing, you see a great beautiful armada of sails racing for safety towards an anchorage called Fasht al-Yarum. They enjoy a rest here until the weather becomes fair again.

## THE MAIN COMPLAINTS NOTICED AMONG THE PEARL DIVERS

During the early part of the season and at the end of it, the diver usually gets a congestion of the lungs, probably due to a cold current felt at the bed of the sea. When they get this most of them spit blood for a day or two but do not run any temperature. Cases of pneumonia or broncho-pneumonia were rare.

vessel his body is brought to Bahrain, the Government notified and a medical examination made before the body is buried. No bodies are buried at sea.

Three distinctive classes of crafts used to obtain government licences for the season before they went out for pearlings, (big, medium and small crafts). A big craft used to have a complement of 30 to 35 divers and the same number of pullers with a captain called the nakhoda, a total of 60 in all or a little more. Medium size crafts used to carry about 40 to 50 and the smallest crew of about 10 to 15. Over 600 to 700 pearling crafts of Bahrain alone used to work at the various pearl banks. This meant on an average over 20 to 25 thousand people used to work at the pearl fisheries from Bahrain. Of these a large number used to come from other places such as the Persian coast and the mainland of Arabia to work in Bahrain pearling crafts, whose owners were liberal enough to attract labour from outside Bahrain. Many of the fisheries both inside Bahrain territorial waters and outside are named after well-known Arab families of Bahrain who first discovered those fishing grounds.

The general world depression of 1929 hit the pearling trade as well, and since then there has been a steady decline in the industry which was at one time the main source of financial stability of the Bahrain people. Today only half a dozen crafts of any importance work at the pearl banks during the season, which usually lasts about four months and ten days.

## PEARLING CREW AND THEIR WORK

Divers are supposed to begin their work from sunrise after a light breakfast of a few dates and a cup or two of coffee until they lay off the day at sunset, when they take a substantial dinner consisting of rice boiled with date juice, plenty of roasted fish, and

total number of pearling vessels diminished but most of the vessels continued to be Bahraini, the proportion remaining substantially the same as in earlier years.

On these trips I visited all the Bahrain pearling vessels seen at the banks and treated all patients on these vessels regardless of nationality. Although I made no point of visiting vessels other than those from Bahrain, such vessels frequently asked my assistance and I gave it whenever requested.

All pearling vessels were required to be licensed. The Bahrain Government inspector who accompanied me checked the licences of all of the vessels visited and his clerk recorded the names of the nakhudas and the numbers of divers on each vessel.

I heard the pearlers tell many stories about being attacked by small light vessels from the mainland carrying armed Bedouins. These attacks were usually made at night under cover of darkness when the divers were asleep and were usually directed against the pearl merchants who had money and good pearls aboard their vessels. Rice and other provisions were also taken during these robberies. To the best of my knowledge these attacks never occurred near my hospital vessel which was painted white and was clearly a government vessel. I believe that the presence of this government vessel was probably the reason why attacks were not made in my area.

The pearlers frequently told me that before my time nakhudas were practically despots aboard their vessels and would starve men who did not strictly obey their instructions. This situation did not exist during my time, however, because the Bahrain Government was then active and any man could complain to the Government and secure redress for wrongs done to him while he was on a pearling expedition. If a man should die aboard a pearling

remain at sea visiting the various pearling banks for periods of three to six weeks. Usually the vessel would make four or five such trips during the pearling season. From 1932 through 1940 I had a motor launch as a hospital vessel and was thereby enabled to make repeated short trips of three or four days each rather than going out to the pearling banks for long periods. This made it more possible readily to replenish my medical and other supplies and to secure medicines required by special cases and to bring in to the hospital ashore cases of serious illness, especially pneumonia

Among the pearling banks I visited were practically all the islands situated around the main Bahrain islands including in the north as well as east right upto and including Hawar. The island being under the jurisdiction of Bahrain constituted its integral part and played an important role in Bahrain's economy and way of life. Normally we left Manama and covered as far east as Bu Suwar and often sheltered in Hawar, Fasht Al Diebel, Jeradah etc, and drew water from springs located at a place known as Khor Fasht.

During the early years in which I regularly attended the pearling fleets there were usually about 700 Bahrain pearling vessels working over the banks north of Bahrain island. Occasionally I would see a vessel from Saudi Arabia, Kuwait or Qatar, but the total of these vessels would never exceed 50 throughout the area. Most of the vessels from Qatar operated north and east of the Qatar peninsula and we never saw any west of Bu Suwar. The occasional Kuwait boat seen would be a boat coming to Bahrain for trading purposes and doing little pearl fishing on the way. Most of the Saudi Arab vessels seen were fishing very near the shore of the Saudi Arab mainland, although a few of the larger boats came further east. During the later years of my service on the Bahrain hospital vessel the

spot it from afar and come to seek first-aid and mixtures for coughs and colds, the usual complaint of divers, besides gastro-intestinal upsets of those who overheat their staple diet of dates and fish. Divers also used to complain of ear-aches and bleeding from ears due to under-water pressure. During any pearling season, hundreds of dental extractions are carried out at sea. On the whole, I found people extremely cooperative and grateful for the treatment, initiated on the advice of HH Shaikh Isa bin Ali. My main duties were to go out in the medical boat cruising the pearl fisheries for a period of 3-4 weeks at a time before returning to port for fresh supplies of medicine, dressings and other requirements such as food, fuel and fresh water for the next trip. I used to maintain a sort of marine log about the weather conditions encountered at sea and a list of patients and their complaints. A summary of these was invariably submitted to the authorities at the end of every pearling season.

In 1925 there were no administrative offices of the government except the newly renovated customs office but not the present extensive one. There was a small administrative office run by two clerks, an old Arab now dead, and a young Punjabi who has since retired. The present Adviserate came into existence early in 1926.

## PEARL FISHERIES AND PEARLING TRADE

From 1925 through 1938 I made regular trips on the Bahrain Government hospital boats to all of the principal pearl fishing banks used by pearling fleets from Bahrain. From 1925 through 1932 these trips were made on a sailing vessel. On this vessel, besides myself, there was regularly a Bahrain Government pearling licensing inspector and his clerk, together with my hospital dresser and the crew. The vesel would leave Manama near the beginning of the pearling season and would

# PERSONAL BACKGROUND AND EARLY YEARS

I arrived in Bahrain in the second week of May 1925, in response to a call for medical service which required the incumbent to work from a country-craft providing medical relief to the people working at the pearl banks. As a matter of fact the call came to a friend of mine who had also applied for this job in reply to an advertisement in the classified columns of a Bombay newspaper. Destiny drives people in different ways: my friend who received this call from Bahrain having meanwhile secured a place in India, sent me an urgent call to come over to Bombay and handle the situation on my own. I immediately cabled to the agency surgeon who was in charge of this appointment, informing him that the person he required was already engaged, and I being also an applicant wished to offer my services in his place. I received a reply cable confirming my appointment. As mentioned earlier, I arrived in Bahrain in May 1925.

Travelling by a B.I. boat, we arrived in Bahrain after two weeks at sea. We were met and received by a cluster of Arab dhows called jolly boats. There were no launches at that time to ferry passengers to port. I boarded a boat belonging to the Quarantine Medical Officer who also happened to be the agency surgeon and my immediate superior officer. My work was aboard a country craft. I signed my first engagement contract before His Britannic Majesty's Political Agent.

The boat housing the hospital was a craft of about 50-60 tons called a Boom and painted white so that the pearling fleet could easily

# MY 30 YEARS' EXPERIENCE IN BAHRAIN

by
Dr A S Bhandarkar

***On the eve of my retirement from 'Bahrain Government service I have been called upon by our State Medical Officer to give a short summary of my experiences and about the progress of civilised life in Bahrain, with particular reference to advances in medical institutions and facilities for public health available to the people of Bahrain. I fear I am not competent to give these memoirs a highly literary flavour but will endeavour my best to give a true picture of my experiences during the last 30 years in Bahrain.***

19. Al Batreekh, ibid, p. 615
20. Sobhi, ibid Vol 1 p. 70
21. Shihab op cit p. 46
22. Abdo Rabbiah ibid p. 206
23. Sonia Howe "In Search of Spices" Translated by Mohammed Aziz Rafat Cairo 1957 pp 102 103
24. ibid
25. Al Ghoul, ibid p. 100
26. Qutubuddin Al Nahrwali "Al Barq al Yamani Fil Fat'h al Osmani Cairo 1967 pp 18, 19
27. Ahmed Ibn Majid, Three Flowers In Knowing The Seas. Theodore Shaermovsky. Translated by Mohammed Munir Morsi. Cairo 1969 pp 18-52
28. Mohammed Yaseen al Hamawi: "The Arab Sailor Ibn Majid" p. 52
29. Sonia Howe, op cit pp 193 194
30. ibid p. 169
31. Al Ghoul, op cit p. 203
32. Sonia Howe, Op cit p. 203
33. Sonia Howe has stated that relations between the Portuguese Commander and the King of Malindi were strong and they exchanged gifts. Among the gifts presented by the King was a block of ambergris more than a metre long and waist-length in width. Da Gama presented to the King ten boxes of gifts which he had arranged before his journey round the Cape.
34. Abdul Aleem op cit p. 52
35. Al Hamawi op cit p. 12
36. ibid
37. It is a borrowed phrase from "Kanakan" meaning a mathematician, astronomer, writer etc. Teacher Kanakan means a teacher of astro-navigation. Some Malabari sailors used to seek his guidance for their voyages. Kanaka indicated his profession alongwith the Indian title of Sea-Lion, Ibn Majid. This is contained in the French orientalist Ferran's book as quoted by Al Hamawi in his work "The Arab Sailor Ibn Majid" p. 12
38. Al Hamawi ibid p. 9
39. Mohammed Safwat Bey. "Ottoman Documents About the East" The Ottoman Magazine Al Majma' al I'lmi Istanbul Vol 4 p. 1521
40. Anwar Abdul Aleem: "Navigation & Maritime Sciences of the Arabs" From the Series "Alam al Ma'arifa" No 13 1969 p. 132

# NOTES

1. Abdul Hameed al Batreekh: "Modern European History" (Dar al Nahdat al Arabiyya-Beirut-1977) p. 41
2. W.H. Morelan: Op cit, p. 3
3. Syed Mustafa Salim: "The First Ottoman Conquest of Yemen" Cairo 1969 p. 46
4. ibid p. 47
5. Al Bitreekh. Op cit p. 47
6. By St. John's Kingdom is meant the Abyssinian Kingdom which was much talked about among the Europeans in regard to the power of its ruler. They wanted its alliance because it could serve as a base in the heart of Africa. (ibid p. 46)
7. Salim. Op cit. p. 46
8. Abdul Aziz al Shinnawi: "The Early Phases of Portuguese Presence." The Committee for Recording the History of Qatar. Vol 2, op cit p. 618
9. Hasan Sobhi: "The European History" Vol 1 Alexandria 1975 p. 68
10. Al Shinnawi: ibid p. 615
11. Henry the Sailor: He was the third son of the King of Portugal John 'I' and was a bigoted Christian. Studied geography and astronomy since young age, collected maps and studied them thoroghly. He studied heavenly bodies, wind movements and set about spreading Christianity with a crusading zeal in Africa. (Al Batreekh) ibid p. 48
12. Hasan Ahmed *Mahmood: "Portuguese Threat to the Coasts of the* Arabian Island", Magazine "Arab Historian" Baghdad No/12 1980 p. 218
13. *Mahmood, ibid p. 218*
14. Ali al Tajir. The Sailor Ahmed Bin Majid, Magazine Al Arab Cairo 1982 Third Year, p. 288
15. Abdul Aleem, "Ibn Majid the Sailor" Arab Personalities Series No. 63 1967 p. 75
16. Hasan Saleh Shihab, "The Arâb Art of Navigation" Dar al Ouda Beirut 1982 p. 46
17. Serjeant, R.B. "The Portuguese off the South African Coast Oxford University Press 1963 p. 40
18. Mahmood al Ghoul: "The Conflict between The Arabs & Portugal in East Africa" Magazine Al Arabi No. 44 1962 p. 100

them there was an Arab Muslim called (Teacher Kanaka).[37] It was an Indian name for the sealion Ibn Majid. This man agreed to accompany us with the consent of the King Malindi. His company was enjoyed by our comrades. The King of Malindi was searching for a guide who could brief the Portuguese about the route to India. During the dialogue that ensued between him (Ibn Majid) and Vasco da Gama the latter was surprised about the extent of knowledge of (Ibn Majid) who briefed him about all the towns of the Indian coast as known to Muslims alongwith their latitudes and longitudes..."[38]

The Turkish sources have emphasised that it was the Arab sailor Ibn Majid (known as a teacher in seafaring) who was the captain of the Portuguese fleet to India and that he was present in Malindi at that time [39]

Some Arab historians deny that the famous Arab sailor Ibn Majid helped the Portuguese crusaders in reaching the shores of India.[40]

In any case any help extended by Ibn Majid to the Portuguese in reaching India was perhaps due to his not knowing their real intentions i.e liquidating the eastern trade.

★★★★★

weakness.[30] He may have wanted Portuguese support against the Ruler of Mombasa[31] in view of the standing enmity between the two. That is why the King of Malindi asked Vasco da Gama to pass through Malindi on his return voyage from India so that he could send a formal delegation with him to the King of Portugal to conclude an alliance.[32] For this reason it was necessary for Ibn Majid to show courtesy to the king of Malindi and respond to his request for acting as a guide to the Portuguese commander in his voyage to India since the latter had asked the King of Malindi for this favour.[33]

3. There is a third interpretation the purport of which is that Ibn Majid met Vasco da Gama at the instance of the King of Malindi whose relations with Vasco da Gama had frozen. The latter had asked the king to provide him with a few sailors who knew the routes of the Indian Ocean so that they could guide him. The King, however, ignored this demand leading to a rupture in their relations. When one of the courtiers of the King visited the Portuguese fleet Vasco da Gama detained him as a hostage until his demand was met by the King. The King hastened to send Ibn Majid to him with expressions of regret and their relations returned to normal.[34]

4. There is one more explanation provided by some European historians specially the orientalist Ferrand who thinks that Ibn Majid visited the Portuguese fleet, met Vasco da Gama and passed on information about the route to India for which he received a considerable amount of money.[35] The French orientalist has relied on the text quoted by Al Nahrwali about the name of the person who led the fleet of Vasco da Gama to the land of spices, Calicut.[36]

The famous Portuguese historian, of the 16th century A.D. Java de Bruce has written somewhat in detail about Ibn Majid who had accompanied Vasco da Gama in his expedition. He says: "When Vasco da Gama was in Malindi some of the heathen traders came to him. They were from Gujarat and were in Malindi at that time. They came on board the ship and alongwith

remained like that for a while and they continued to face death in that position. None of the group ever could enter the Indian Ocean except in a ship known 'as Ghurab. They were still exploring this sea when an expert provided them with guidance. He was called Ahmed Ibn Majid. He was known as Malindi as he kept company of a big European and had drinking bouts with him. Majid taught him the route in a state of intoxication. He told the Portuguese: Do not get close to the coastline at that point. Go deep into the sea and then return and you will be saved from the waves They followed this advice and saved their ships from destruction. Their seafaring in the Indian Ocean increased very much thereafter.[26] Nahrwali was the only Arab historian to mention the name of Ibn Majid as being a guide to the Portuguese in reaching India Although Nahrwali was a historian of the 16th century A.D , there is considerable doubt about his accounts of drinking bouts and liquor. It may have been foisted on Ibn Majid who was known to be a very religious person, very moral and pious.[27] It is said that the Muslims at that time never accepted any Christian invitation unless they were sure of the nature of food and drinks served.[28] A few historians and writers have explained the relationship between Ibn Majid and Vasco da Gama which developed in the port of Malindi, in different ways Some of these interpretations are as follows:

1 Some opine that this contact came about as a result of an invitation extended by Vasco da Gama to him in pursuance of his policy of befriending the people of the ports which he visited. He used to invite the rulers of those ports alongwith the sailors of all the ships which were anchored in those ports.[29] This was the policy followed by the Portuguese during that period for reassuring the people and winning their confidence so that they were not exposed to their opposition and their task was rendered easier.

2. The other opinion is that Ibn Majid visited Vasco da Gama as a courtesy because of his friendship with the king of Malindi. The King had welcomed the Portuguese out of fear or out of

Mozambique entertained him and returned his visit in the ship but soon the Arabs changed their attitude towards him once they learnt of his intentions and of his being a Portuguese crusader.

Vasco da Gama sensed the change and departed hastily for the north but for the fact that his news reached Kwale and Mombasa earlier than him and there too he was met with a cold reception. However he was welcomed in Malindi because of the friction that existed between Malindi and Mombasa[25]

Some writers and historians consider the end of the 15th Century A.D. as the end of the Middle-Ages and the beginning of the modern age when the Portuguese, towards its close went round the Cape of Good Hope and reached the land of spices. Hence the Portuguese ships were the first European ships to enter the Indian shores. Most of the writings about geographical explorations emphasise the fact that the Portuguese fleet reached India with the help of the Arab sailor Ahmed Bin Majid but contemporary writers are less sure about the reasons which impelled Ibn Majid to provide navigational aid to the Portuguese to reach India.

The researcher may therefore, count the date of the Portuguese arrival at the Cape of Good Hope and their entry into the Indian waters as signifying the end of the Middle Ages and the commencement of the modern age

The first one to refer to the sailor who guided Vasco da Gama to reach India is the famous Arab historian Qutub al Din al Nahr-wali, who, in his work "Al Barq al Yamani" says. "The beginning of the 10th century witnessed several compulsive and rare developments. The cursed Portuguese from the foreign confederation entered India. A group of them used to go by the sealane of Sabta and persist in the dark seas passing by a place close to Moon Mountain and reach the east. Then they passed by a position close to the Coast in the strait with mountains on one side and dark seas on the other amidst tumultuous waves. Their ships were not safe nor anyone could be saved there. Matters

before. This sailor succeeded in penetrating the African coast despite the difficulties which beset the expedition after it reached the Aloga Bay[19] in stormy conditions. It was named the Cape of Storms. It is said that he reached the extreme south of the continent without knowing it. He continued to go round the Cape of Storms which the King of Portugal renamed "The Cape of Good Hope" because it brought hope to the Portuguese of reaching India. However, the Dias expedition returned to Lisbon in 893 A.H./1488 A.D. because of the mutiny and disobedience of the crew, bad weather, high winds and storms, all of which forced him to return by the same route[20]

Portugal readied another expedition under the leadership of Vasco da Gama which sailed in 903 A.H./1497 A.D. with three ships for an exploratory voyage to the west coast of Africa to resume the previous attempt of Dias to gather information.[21] In this, Vasco da Gama reached the Isle of St. George close to Mozambique on the first of March 904AH/1498AD.[22] Thereafter he reached Mozambique initially Vasco da Gama followed the policy of showing friendship to the people through whose territories he passed. He struck temporary friendship with the Arab Shaikhs of East Africa so as to firm in before he could implement the proselytisation plans knowing full well that the Portuguese government had issued instructions to the sailors during their earlier expeditions to India asking them to treat the local populations well, avoid using coercion and cruelty, hide their weapons under their clothes and win the goodwill and friendship of the people until they secured a foothold in the region. They could then carry out their intended plan of proselytisation.[23]

Soniahowe has emphasised that policy. Vasco da Gama adopted the same soft line towards the Ruler of Calicut who sold to the Portuguese very poor quality spices for high prices. This was done to impress the people that the Portuguese treated the merchants well.[24]

Initially Vasco da Gama received a hearty welcome; the ruler of

Arabs knew the southern coastline of Africa and reached India long before Henry started his explorations. He has stated that an Arabic document attributed to an Arab geographer of Granada, Ibn Saeed by name (D. 1500 A.D.) who authored a book entitled GEOGRAPHY OF THE SEVEN REGIONS mentions that an Arab sailor named Ibn Fatima sailed round Africa from the West to East and described the coasts of Senegal and Madagascar.(15)

In its attempts to reach the east, Portugal depended on spies to secure adequate information on central and east Asia. For this purpose they also used the ship-crew and Jews who could speak Arabic whom they sent to the eastern countries for collecting information such as their harbours, trade activity, searoutes in their waters, the possibility of reaching the Kingdom of St. John directly, whether the Kingdom was connected to the sea, the places which produced pepper, canella and other spices and which reached Venice through Arab lands. Accordingly the Portuguese developed their warship industry and gunpowder weapons.(16) They undertook the task of sending spies to the east on behalf of the Europeans. Portugal sent two spies to the east in 892 A.H./1487 A.D. Alfonso de Pava and Pedro de Govilham. These two sailed from Portugal fully equipped with all the information, maps etc., available with the King of Portugal to simplify their task. They sailed to Rhodes, Alexandria, Cairo, and Aden. On their way they gathered information about Calicut. The two parted company at Aden whence Govilham proceeded to India and Pava to Abyssinia.(17) In this spymission the two sent reports to the King of Portugal which contained adequate information about Indian trade, searoutes, maps, and commercial information about the monsoon.(18)

The King of Portugal (John II) continued the geographical and exploratory exploits which had been started by Henry the Sailor before him for reaching India. At the end of August 892 A.H./1487 A.D. he sent an expedition under the famous Portuguese sailor Bartholomew Dias to sail in a southerly direction and go round Africa for achieving the aims as described

Portuguese government to increase the zone of influence of their colonial trade.

## THE PORTUGUESE ADVANCE TOWARDS THE EAST

At the beginning of the 15th Century A.D. information about central and east Asia was scanty and vague among the Europeans. Since then they strained every nerve to reach the said areas. Prince Henry the Sailor(11) was the first one (1394-1460 A.D.) to conduct geographical explorations by sending missions to the West African coast thus discovering Ghana and snatching its trade from Arab hands.

The Portuguese availed of the knowledge of the Genoans in conducting their geographical explorations as the latter had preceded them in going round the African coast eversince the end of the 13th century with the aim of monopolising the eastern trade and competing with Venice which had become rich through sea-trade. Venice traded with the Mediterranean countries, Egypt and Neareast as it had good relations with the Mamelukes. When the Genoans continued their effort they came across some parts of the West African coast opposite the Canary Islands.(12) Thereafter the Portuguese undertook to complete the exploratory sea-faring taking advantage of Arab sciences and Arab knowledge by using the guides for sailors, navigational maps, compasses and astrolabes which they had captured when they took Sabta in 818 A.H./1415 A.D.(13) They also made use of the writings of Arab geographers such as Al Idrisi, Ibn Batuta etc. which contained a description of the cities and of the eastern seas. Some historians think that the Genoans were the first pioneers of the west from the Atlantic to go ground the Cape in an attempt to reach India. Similarly it was the Portuguese fleet which discovered America while trying to reach India by sailing west from the shores of west Europe and once again they were manned by Genoans.(14)

Dr. Anwar Abdul Aleem has pointed out, however, that the

wanted to enter into an alliance with him for enveloping the Muslim countries. They imagined that if they sailed south parallel to the Moroccan coast they would reach Senegal River which would link up with the Nile. Thereafter, they thought they could carry their boats to the Abyssinian Kingdom which could in turn enable them to trap the Muslims from the East.[7]

The efforts of the Portuguese received encouragement and support from the Roman Pope who described the Muslims as plague. This came in a decree which he sent to Prince Henry the Sailor in 858 A.H./1454 A.D. wherein he said: "We are greatly pleased to learn that our dear son Henry, the Prince of Portugal is marching in the footsteps of his father King Jan as a dedicated soldier of Christ to liquidate the enemies of God and Christ viz., the infidel Muslims .."[8]

Emphasising the crusading spirit of the Portuguese geographical expeditions the Pope ordered that the ships' sails, the clothes of the sailors and other participants in this expedition should sport a cross. The front of the ship was also to sport a large cross.[9]

The use of religious emblems and the use of power to crush the Muslim traders led some Arab historians to describe the Portuguese explorations in the east as a new form of Crusades, a reaction to the Muslims reaching the Iberian peninsula and a followup of the Crusades of the Middle-Ages. It was not, as some western sources have said that the Portuguese explorations were *scientific and humanitarian in their content* [10]

In addition to the two above-quoted factors there is one more factor next in importance which is that the Portuguese desired to establish an expansionist empire in Africa and Asia. This is revealed clearly in the Portuguese military effort to occupy important centres in the wake of their arrival in India. They instituted the post of a viceroy in India in the year 911 A.H./1505 A.D. as a prelude to the establishment of a Portuguese government in the East. This ambition naturally drove the

economic base of Egypt, the Islamic countries of the Gulf and of Venice by finding a route which did not pass through the Islamic countries so that they could avail of the eastern products on the one hand and on the other, deal a deadly blow to the economies of the Islamic countries. The Portuguese succeeded in their aggressive designs once they discovered the Cape of Good Hope Route. They monopolised eastern trade in various commodities such as spices, incense, scents, medicines and silk fabrics after they reached the venues of the factories thereof and started sending these items to their capital Lisbon. Their redistribution was done by European traders all over Europe as required. On this basis they strengthened their trade centres spread out in the India Ocean and prevented Muslim ships from plying their trade therein. The postures they adopted revealed their inhuman economic goals and their aggressive acts against the people of the region to which they gained access The Muslim traders bore the brunt of their depredations and coercive tactics.[3] The Portuguese monarch Emmanuel I (1495-1521 A.D.), during whose reign the first sea expedition was mounted to the East said in his speech while launching the expedition: "The purpose of launching the expedition for discovering a sea-route to India is to spread Christianity and to grab the wealth of the East".[4]

## SECONDLY: THERE WAS THE RELIGIOUS FACTOR:

The religious factor was considered as having a large bearing on the Portuguese exploratory movements as they wanted to liquidate the Muslim presence in the East and in the Indian Ocean and this had the blessings of the Roman Pope.[5] This hostility dated back to the historical conflict which raged between the Christians and the Muslims in the Iberian peninsula in the Middle-Ages.

The bigoted and revengeful Portuguese aimed at the Muslims as their target while they tried to reach the Kingdom of St. John [6] where dwelt the Christian ruler of Abyssinia of legendary fame whose renown had spread to all of Europe at that time. They

and Italian towns and cities. The merchandise was expensive for them since it passed through several monopolistic agencies which led to shortages in the European markets sometimes.[1] Hence Portugal tried to find a sea-route which could link Europe and India etc., with the eastern territories and replace the ancient trade routes which passed through Asia and East Africa to Europe.[2]

In consequence the Portuguese and their Genoan friends tried to achieve two important aims.

Firstly, they wanted to be rid of the Egyptian and Venetian monopolies over the eastern trade and knock the bottom off the

# PORTUGUESE EXPLORATIONS AND THEIR AIMS

by

**Basheer Ahmood Kazim**

In the course of a study of the factors which promoted Portuguese geographical explorations we have come to know two main factors which may be considered as the basis for this enterprise. These are:

## FIRSTLY, THE ECONOMIC FACTOR:

This is considered one of the important factors which inspired the Portuguese to expend their energies time and again and seek formidable adventures for making their way to the east. They were anxious to enrich themselves through eastern trade which had become such a source of prosperity to the Islamic countries

**Fourthly:**

The studies presented and those that will be presented are well-balanced in that the scholars have not confined themselves merely to the political aspect. They have covered the political, military, economic, social and even the linguistic aspects in some of them. Thus we present to the scholars a select bunch from a select pick of writers. This represents a sound basis for future studies of the subject. It is a sound plan which we hope will come to fruition in due course and similar effort will be made covering the periods of Dutch and British colonialism and conditions prevailing in the region during the Ottoman period, etc.

We wish to draw attention to these facts with the hope that the magazine ALWATHEEKA measures upto your expectations and that its efforts will bear fruit as we are all working towards the same goal.

MAY GOD BLESS OUR INTENT

(Abdullah Bin Khalid Al Khalifa)

strengthening the bonds of cooperation, support and brotherhood.

Thirdly:

The Portuguese thrusts came in the wake of the Crusades, rather as their extension. It crystallised the historical conflict between the east and the west whose initial wave was halted near Syria. However, this wave was even more rapacious and beastly than the earlier one. The Portuguese did not confine themselves to destroying towns and killing innocent people or making an example of them. They went a step further and robbed and ravished the sons of the soil depriving them of their means of livelihood by dominating the trade-route to India. They plundered the resources of the land and pillaged its riches. They spread their tentacles by building a chain of their infamous fortresses or captured the ones already existing on the coastlines where the people had lived peacefully all along. Moreover the Portuguese colonialism opened the flood-gates of other forms of imperialism such as of Dutch and British varieties with the fore-runners of French and German designs and the ambitions of other global powers. The neo-colonialists benefited from the errors and mistakes of the Portuguese colonialists and resorted to more diabolical and subtle methods. Portuguese colonialim, however, did not last long and was thrown out but this intervening period was without a doubt an important period of time reflecting the various forms of a bitter conflict which raged between the sons of the soil and the intruding naval fleets. It yields useful lessons on how it was rendered possible for the sons of the soil to rid their land of this despicable colonialism and wipe out its traces.

strengthening the bonds of brotherhood, deepening mutual collaboration and coordination of effort within the region. They share common objectives and are marching towards the realisation of same goals within an overall framework. Any effort put in is their common heritage. Although the magazine AL WATHEEKA is issued from Bahrain, like its sister publications originating from other centres, its pages are open to any studies conducted by any centre to serve the cause of common purpose. Any good work done gets published for wider benefit at the regional level and this is what the historians believe in at various centres. We firmly believe that howsoever accurate, objective and valuable a study may be, it would be utterly worthless if not published on a wide scale for the benefit of the students and scholars concerned with the subject. A valuable study or a distinguished paper loses its utility and value if it is left on the shelves. This is one thing and from another angle a healthy spirit of cooperative endeavour pervades the various centres of the region as we have said before in an intimate camaraderie. They have a deep sense of brotherhood and maintain close coordination of effort through their direct and enduring liaison. Coordination of endeavour also takes place through the General Secretariat. Every effort made by any of the centres contributes to the overall gain of all the centres bound together by fraternal links. This acts as a spur to achieve palpable sequels. Thus we achieve in a great measure the goals and aspirations for which these centres were founded in the region in which we live today. It is this fraternal spirit which stimulated the AL WATHEEKA to open out its heart and soul and its pages to accommodate the labours of a sister centre for the purpose of conveying its harvest to every state in the region. It functioned as a bridge

been prepared by these scholars and historians woven round a specific pre-determined topic, namely, the period of Portuguese colonialism.

By circumscribing the scope of the seminar strictly, the organisers aimed at marshalling a large number of studies bearing on a definite period of time. A single topic was dealt with from different angles and aspects so that all that happened within the specified period was made available for study. Hereafter the scholars would have access to a large volume of historical information pertaining to a delimited period saving them much labour and toil involved in running after several different sources. Moreover, they would have at their fingertips a broad spectrum of various opinions and points of view. It would be a ready record easy of assimilation for anyone wanting to refer to them.

This was the praise-worthy direction in which the General Secretariat of the Centres of Studies & Documents in the Arab Gulf & the Arabian Peninsula bent its energies in the course of its 10th Session which was held in the sisterly state of Kuwait between 21 and 23 November 1987. It recommended the trend of holding seminars on a single subject of study. It proved advantageous in that it provided for the adequate coverage of the various events witnessed by the region during the various phases of historical periods particularly in view of the paucity of reference material and because other sources were based largely on European origins. Even though these were available previously, nevertheless, their authenticity was suspect, never free from interpolations or particular motivation.

**Secondly:**

The various centres are permeated by the spirit of

*IN THE NAME OF GOD THE BENEFICENT, THE MERCIFUL*

# A WORD ABOUT THIS ISSUE

By

**H.E. SHAIKH ABDULLAH BIN KHALID AL KHALIFA**

You will notice, dear reader, that in this as well as the next issue, God willing, the accent is on publishing papers with special reference to the period of Portuguese colonialism. Among the reasons which goaded us to embark on this venture are as follows:

**Firstly :**

The Centre of Studies & Documents of the Amiri Court of Ras al Khaima had organised a seminar on 29 August 1987 in cooperation with the Arab UNESCO to which a large number of scholars and Arab historians were invited. The seminar was devoted to a discussion of the papers which had

# English Section

# CONTENTS

**Subject** **Page**

## Arabic Section

# AL-WATHEEKAH





*A Half-Yearly Journal Published by*

**The Historical Documents Centre**

**The State of Bahrain**


Devoted to The Heritage, Thought and History of

Bahrain And The Gulf

Editor-in-Chief

**Shaikh Abdullah Bin Khalid Al-Khalifa**


**Issue No. 13 – 7th Year**

**Dhulqi'da 1408 A.H. – July 1988 A.D.**



Bahrain P.B. 28882

Telephone — Historical Documents Centre — 664854

*All Correspondence to be Addressed to The Editor-in-Chief*

# AL WATHEEKAH

THE DOCUMENT

of BAHRAIN